



N. MAKHOUL
BINDERY

14 OCT 1972

Tel. 260458

892.709
S163aA
v. 1
pt. 1
c. 1

عصر لا طين لهما ليك

ونشأه
العلمي والأدبي

تأليف

محمود زو سليم

المدرس بكلية اللغة العربية

القسم الأول

من

الجزء الأول

وهو الجزء التاريخي ، ويحتوي على خلاصات في سير ملوك هذا العصر ،
وأحوال الدولة ونظمها وعاداتها وما يتصل بذلك من شئون ،
مع ترجمة كثير من رجالها .

69536

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

الناشر مكتبة الآداب بالجاميز ت : ٤٢٧٧٧



Sept. 1950

مراجع القسم الأول من الجزء الأول

عنينا باثبات مراجع موضوعات هذا الكتاب عقب التراجع وعند المناسبات،
ذاكرين في أغلب الأحيان أرقام الصفحات مع أسماء السكتب. وفيما يلي تثبت
بعض هذه المراجع وطبعتها التي اعتمدنا عليها :

- ١ - بدائع الزهور لابن إياس المصري : طبع مطبعة بولاق ، ج ١ ، ٢ طبع
سنة ١٣١١ هـ ، وج ٣ طبع سنة ١٣١٢ هـ ، وج ٤ طبع مطبعة الجوائب بالقسطنطينية
- ٢ - الخطط المقرينية : طبع مطبعة النيل بمصر . ج ١ طبع سنة ١٣٢٤ هـ ، ج
٢ طبع سنة ١٣٢٤ هـ ، ج ٣ طبع سنة ١٣٢٥ هـ ، ج ٤ سنة ١٣٢٦ هـ .
- ٣ - حسن المحاضرة للسيوطي : طبع مطبعة الموسوعات بشـارع باب الخلق
بمصر في شوال عام ١٣٢١ هـ .
- ٤ - التعريف بالمصطلح الشريف لشهاب الدين بن فضل الله العمري : طبع
مطبعة العاصمة بحوش الشرقاوى بمصر عام ١٣١٢ هـ .
- ٥ - تاريخ ابن خلدون : الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية .
- ٦ - صبح الأعشى للقلقشندي : طبع دار السكتب بالمطبعة الاميرية عام ١٣٣٢ هـ .
- ٧ - طبقات الشافعية الكبرى لتـاج الدين السبكي : الطبعة الأولى بالمطبعة
الحسينية المصرية بكفر الطماعين ، تمت في شعبان سنة ١٣٢٤ هـ .
- ٨ - الانتصار لابن دقماق : ج ٤ طبع مطبعة بولاق عام ١٣٠٩ هـ .
- ٩ - ديوان ابن مطروح : طبع الجوائب عام ١٢٩٨ هـ .
- ١٠ - سلوك المقريني طبع دار السكتب المصرية ولجنة التأليف والترجمة
والنشر . لناشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، منذ عام ١٩٣٤ م .

تأليفه

١١ - الدرر النكامة لابن حجر العسقلاني طبع حيدر آباد بالهند .

١٢ - فوات الوفيات لابن شاكر المكتبي طبع مطبعة بولاق عام ١٢٨٣ هـ .

١٣ - الضوء اللامع للسرخاوي لناشره مكتبة القدسي بباب الخلق ، منذ

عام ١٣٥٣ هـ

١٤ - تاريخ حماة للصابوني . طبع حماة سنة ١٣٣٢ هـ

١٥ - النهج السديد لابن أبي الفضائل . طبع باريس سنة ١٩٢٠ م

١٦ - السكواكب السائرة لنجم الدين الغزي ج ١ طبع المطبعة الأمريكية

ببيروت سنة ١٩٤٥



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

أحمد الله سبحانه وتعالى لأن وجه قلبي وجهة صالحة ارتضاها ، ويسر لي سبيل عمل أحببته ، ووفقني إلى أن أجد في هذا العمل النافع لذة نفسية ومتاغاروحيا بريئا ، وهداني إلى أن أبرزه للناس في ثوب قشيب ، راجيا منه جل وعلا ، أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، لارياء فيه ولا سمعة ، وأن يهب لي من لدنه توفيقا وقوة وجلدا ، إنه سميع مجيب .

وأصلي وأسلم على نبيه سيدنا محمد أكمل الناس خلقا ، وأعزهم علما ، وأسماهم مثالا ، وأعلامهم همة وأمضاهم عزما ، وأنبلهم مقصدا ، وأبعدهم أثرا ، وعلى آله وصحبه الكرام ،

وبعد ، فهذا كتاب سميت به عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، يتكون من أربعة أجزاء ، يصدر كل جزء منها في أكثر من مجلد - يحتوي الجزء الأول منه - وهو هذا الجزء - على خلاصات تاريخية واجتماعية ونحوها ، للعصر المذكور . ويحتوي الثاني على وصف الحركة العلمية فيه وما يتصل بها ، مع ذكر المؤلفات العلمية وترجمة عدد من العلماء بين التفصيل والإيجاز . ويتكلم الثالث عن شعر العصر وشعرائه وتراجهم كذلك . وخصص الرابع للحديث عن الكتابة والكتاب وتراجهم وما يتصل بذلك أيضا .

(وأعني بعصر المماليك ذلك العصر الذي ولي عصر الأيوبيين في مصر ، فتحكمها

(ب)

× فيه سلاطين من المماليك ، حتى احتلها الأتراك العثمانيون ، وهي الفترة الواقعة بين
× سنتي ٦٤٨ هـ و ٩٢٣ هـ .

ويرجع تفكيري في وضع هذا المؤلف إلى نحو عام ١٩٣٨ هـ ، وكنت أدرس لطلابي العصور الأدبية العربية المختلفة . فلاحظت أن تاريخ الأدب العربي لم يدرس حتى اليوم الدراسة الكافية الشافية ، ولم توضع فيه مؤلفات واسعة منظمة مبهوبة تكون معيناً فياضاً سائفاً سهلاً ، قريباً للناهلين ، من طلاب الأدب في هذا الجيل . ولحظت أننا لا نزال ندرس الأدب العربي المصري تابعا لأداب الدول العربية ومضافاً - في الغالب - إلى أدب دمشق أو بغداد في عصورهما الأولى . وفي ذلك ما فيه من اهتمام الأدب المصري الخالص ، وضياح معالمه ، خفاء سماته واتجاهاته . ولحظت أن عصر المماليك بصفة خاصة من أكثر العصور الأدبية المصرية ، اهتمام حق وضياح معالمه . فهالني ما رأيت .

ولا أريد في هذا المقام أن أغمط أهل الفضل فضلهم ، ولا أنقصهم حقهم .
وليس بالفاضل في نفسه من ينكر الفضل على ربه

فإن لكثير من أدباء العصر الحديث ، محاولات مشكورة ، وضروبا من الإقدام مذكورة ، اقتحموا بها على الأدب باباً ، وولجوا أعتابه ، وداعبوا أكوابه ، فهمدوا الطريق وأناروه ، فكان لنا من عملهم خير نبراس ، وأثبت أساس .

غير أننا نشعر أن الوقت قد حان لوضع موسوعات جامعة في تاريخ الأدب العربي عامة ، خروجاً به عن هذا الحيز الضيق ، الذي لا يزال يمشى فيه وتبدأ . ونشعر أن الوقت قد حان لوضع موسوعات جامعة في تاريخ الأدب العربي في مصر خاصة ، وأن نبذل من عنايتنا بالأدب نصيباً محموداً لدراسة الأدب المصري وحده ، ولربط

عصوره أحدها بالآخر. فإن في دراسته تلك تنبيها للعقلية المصرية، والعاطفة المصرية، وتركيزا لهما، وسموا بهما وإصلاحا لاتجاههما.

آن الأوان إذاً للانتقال بحركة التأليف في آداب العربية وتاريخها انتقالا جديدا يراعى فيه الإسهاب وعرض النماذج عرضا مشوقا مع النقد والتحليل والربط والتعليل، وتوضيح الملابسات وقوة الاستنباط، مع حسن التوجيه وتيسير الفهم والكشف عن المراجع، حتى لا تظل ضربا من الغيبات. بذلك نميط اللثام عن نواحي الجمال في أدبنا ونهيه للباحث الجديد سبيل البحث، ونعينه علىولوج إربته بأيسر طريق وأقل مشقة.

وأحق بالعناية مصر وآدابها. فلو وضع في كل عصر من عصورها الأدبية، مؤلف جامع على هذا النمط الذي رسمناه، وأحسن الربط والصلة بين كل مؤلف وآخر، لبلغنا من وراء ذلك أملا موموقا، وحققنا أمنية طالما جاشت بها النفوس، وأنصفنا تلك العصور من ظلم النسيان.

ومن أبرز العصور المصرية المظلومة المهتزمة، عصر المماليك، الذي نحن بصدد الحديث عنه، فقد راعى أصحابه من جفاء، وهاتى ما ناله من صد، وما رمى به حينما من أنه عصر ظلمة وتأخر، وانحطاط وتقليد، مع أنه جليل الخطر عظيم الأثر... ولم تقدم لنا منه الكتب الحديثة إلا صباغة لا تنقع غلة، وإثالة لا تروى طالب نشوة. فاكتنفته غموضة في أذهان كثيرين من طلاب الأدب الناشئين، أكثر مما اكتشفت عصرها غيره. لذلك أحببت أن أدرسه، وأن أطيل الوقوف بمعاله، حتى أصل إلى قرار الحق فيه. وعولت على الرجوع إلى ما كتبه بنوه أنفسهم

الذين عاشوا ، فيه . آتيا البيوت من أبوابها فإنهم - بلا شك - أصدق عنه حديثا ، وأقرب رجعا ، وأجمل نجوى . وأغراني البحث والقراءة ، حتى وجدتني غارقا في محيط من مؤلفات لا عدد لها ، فيها الغنية لكل أديب ، والمنهج لكل ناهج ، وهي كالبحر لا ينضب معينه ، وكالسييل لا تغيض عيونه . ينهل المرء منه ، ويتمجد دظمؤه إليه . حينئذ انبهرت عيني ، وماجت الآمال في نفسي موجا ، ووددت لو استطعت أن أضع موسوعة جامعة في أدب هذا العصر ، تكون منه للقارئ بمثابة المائدة الشهية التي عليها ألف طعام وطعام . يتناول منها ما لذ وطاب . ولكنني شعرت أن محاولة ذلك تحتاج إلى رفاهة عيش وبلهنية بال ، وفسحة أجل وطول صبر ، حتى تتم الموسوعة كما لاحت في الخيال . غير أني أجمعت العزم وتقدمت إلى العمل قائلا للنفس :
حسبي أن أضع لبنة في البناء .

ومن الإنصاف أن أذكر أن عوامل عدة حبت إلى الإقدام على دراسة هذا العصر ، والكتابة في آدابه ، وعلومه بعد قراءة الكثير من مؤلفات أهله . ومن هذه العوامل ، كتاب « تأهيل الغريب » لابن حجة الحموي أحد أدبائه . عثرت على هذا الكتاب عرضا . وهو من المخطوطات الثمينة المحفوظة ، وفيه جمهرة كبرى من شعر شعراء هذا العصر في فنون شتى ، فزادني بهم معرفة وحباً ، وأثار في نفسي كفا بدراساتهم ، والوقوف على حياتهم ، فقرأت « خزنة الأدب » لابن حجة أيضا ، وهو سجل قيم لكثير من رجال العصر كذلك . فوسع أمامي الأفق وأفسح المجال . وهكذا وهكذا ، تناولت كتب القدامى في التاريخ والتراجم والأدب ، كبداية ابن عباس وطبقات السبكي ، وطالع الأدهوي ودرر ابن حجر ، وخطط المقرئ وسلوكة ، ونجوم أبي المحاسن ، وضوء السخاوي وحسن المحاضرة للسيوطي ، وغير ذلك

من دواوين ومؤلفات علمية . فقبست من كل قبسا ، وجمعت من كل أثاره ، وأعملت الفكر في كل أولئك ، حتى استقام لى هذا الكتاب واتسقت موضوعاته .

وقد أعجبت إعجابا لا حد له بكتاب تاريخ مصر لابن إياس ، وهو المعروف « ببدائع الزهور في وقائع الدهور » . وشعرت حين قرأته ، أن رجلا مصريا صميما معاصرا شديد الصلة بى ، يحدثنى . وهو إلى قصه الأحداث السياسية والتقلبات الإدارية ، له نقداً عارضة ، وأوصاف اجتماعية قد يستطرد إليها في هواة ورفق بمناسبة ، أو يفجأ القارىء بها . وكأنها غير مقصودة لذاتها ، ولكنها تنبه الذهن على كثير من خفيات الأحوال العامة ، فتأملها ، وإذا بك تشعر بجلالها وخطرها ، وإذا بك بتتبع جزئياتها ، تستطيع أن تكون فكرة ، أو رسم صورة ، تجلى فيها حالا من تلك الأحوال .

وكان بحثى أولاً متجها إلى دراسة أدب عصر الماليك ، فاضطرت إلى دراسة تاريخه دراسة ما ، تمهيدا لدراسة أدبه . فأكبت على كتب تاريخه ، وهى فياضة بفنون أدبية لا حد لها . وأعجبت - كما ذكرت - ببدائع ابن إياس ، فاتخذته أساسا ومحورا ، وتجلى لى فيه ما تجلى من أفكار وصور ، هذبها ، وغذيتها ، ونميتها ، بما وجدت من أمثالها فى كتب تاريخ العصر المذكور الأخرى . وحبب إلى أن أجمع من جزئيات كل موضوع على حدة ، جملة ، الأثر بينها ، وأحسن الصلة بين متفرقاتها . حتى يكون ذلك عوناً على دراسة أدبية نافعة . فرأيتنى مسوقا - دون عمد - إلى أن أكتب فصولا تاريخية فى عدة نواحي للحياة المصرية إذ ذاك ، وجملة من تراجم رجالها . فتألف منها الجزء الأول ، من هذه الموسوعة . وهو هذا الجزء الذى أدفعه بين يدى القراء . وأقل ما يقال فيه ، إنه ضرب من العرض جديد لبعض ما فى بدائع ابن إياس وأنداده .

الجزء الأول إذاً ، جملة خلاصات في نواحي شتى إدارية واجتماعية ونحوها .
وفي إثر كثير منها تراجع لرجال من العصر ، بينهم وبين موضوعها صلة ، وبينهم من
لم يجمع ترجمته حتى اليوم . هذا إلى أن حوادثهم الفردية ، تعين على فهم الأحوال العامة
ووجهت من الضروري ، أن أقدم هذه الخلاصات بموجزات يسيرة في
التاريخ السياسي لمملوك العصر ، ووقائع حروبهم ، وأن أقدم هذه الموجزات ،
بملخص سريع في تاريخ مصر القديم ، أسير به حيثما ، حتى أربط بينه وبين العصر
المملوكي ، على نمط من المؤلفات التاريخية القديمة ، حتى يكون الحديث أتم وأوفى
وأكثر صلة . وبذلك يتم الجزء الأول .

وقد قسمته قسمين تسهيلا للاقتناء والحمل . وهذا هو قسمه الأول ، وأتبعه
بالقسم الثاني .

ثم أتبعه بالأجزاء الأخرى ، على النمط الذي سيراه القارئ الكريم ، مزودة
بموضوعاتها المدروسة ، وتراجيحها المفصلة أو الموجزة ، وعرض كثير من الكتب
والآثار العلمية والأدبية النافعة ، ما بين مطبوعة مجفوة ، أو مخطوطة مخبوءة ، بما يغني
القارئ عن عشرات المؤلفات .

وأرجو ألا يتخيل القارئ أن لا صلة بين هذا الجزء - الأول - والأجزاء
الثلاثة الأخرى . نظرا لاختصاصه بمسائل تاريخية بحتة ، واختصاصها بوصف
الثمرات الفكرية والأدب من شعر ونثر ، فإن فهم هذه المسائل ، يعين على معرفة
روح العصر وانجاهه ويمهد تمهيدا حسنا لدراسة آدابه واقتطاف ثمراته .

وفي الحق أنني أحببت أن أرسم للعصر المذكور صورا كثيرة متعددة ، لكل

ناحية فيه، صورة . وأن أضع هذه الصور جميعها في إطار واحد . فإذا جال فيها الناظر بنظره جولة ، أمكنه أن يعي العصر من كثير من نواحيه ، في سهولة ويسر . وقد أشير على ، بأن أفصل هذا الجزء - الأول - عن أجزاء الكتاب الأخرى ، لاختلاف موضوعه ، عن موضوعها ، وأن أصدره وحده مستقلا بعنوان آخر . ثم أصدر الأجزاء الأخرى وحدها ، كأنها كتاب جديد مستقل . والمسألة كما يرى القارىء لا تعدو أن تكون شكلية ، فضلا عن أنها لا تحقق الغاية التي أرمى إليها من جمع صور العصر في إطار واحد - كما ذكرت - وهي غاية تركزت في نفسى ، واستقرت في ضميرى . ففصل هذا الجزء عن إخوته ، يشوه - كما أشعر - جمال هذه الغاية ، ويبعد القارىء عن فهم ما أرمى إليه .

وتوخيت في كل فصول الكتاب ، سهولة العبارة ، والبعد عن الغموض وتبسيط الحديث بما يلائم ذوق عصرنا ، دون أن يبعد بنا عن جو العصر الذى نؤرخه . مع الاقتباس ، وإيراد النص القديم عند الحاجة ، ومع الإشارة إلى المرجع عند كل مناسبة ، حتى أعين القارىء على الاستيعاب السريع . وأعين الباحث على متابعة بحثه واستكمال . ولم يكن همى الاستقصاء في كل خطوة . فهذا - وإن لم يكن أحدا أغراضى - ضرب من العسر لا يستطيع تذليله رجل واحد ، وفي عمر محدود . وإنما أشرت إلى ذلك لكي أطمع الباحثين في البحث ، وأثير فيهم عوامله ودافعه ، وحسبى أن أضع بذور اتصال ، إذا سقيت للنماء . وفي نمائها من بعد ، سعادة لا تحصى للمختصين للعلم .

على أنى وعدت العزم ، بعد الفراغ من طبع الكتاب كله ، أن أعود إليه - إذا كان من الله عون ، وفي الأجل فسحة ، وفي العيش رفاة وفي الصحة بقية -

فأهذب فيه ما استطعت ، وأضيف إليه ، وأصحح منه ، وأعلق عليه .

ولا يخلو كل مؤلف صغير من هفوات ونقائص . فما بالك إذا كان بضع مجلدات مليئة بالحوادث المقيمة بتواريخها ؟ وفي الحق أننى أنفقت جهدا كبيرا ، ووقتا طويلا ، في سبيل الدقة وحسن الضبط ، ويشعر بذلك كل مزاول لمثل هذا العمل . فإن يكن من خطأ ، فغير مقصود . وأرجو أن يقيض الله لى من يرشدنى إلى صوابه في رفق ولين .

ولا بد من الإشارة هنا إلى حاجة الباحث الماسة إلى دور الكتب المصرية على اختلافها . وهو - بلاريب - يحد من رجالها كل عون . غير أن فهرسها جديدة بالعناية . فيا حبذا لو وضعت بها فهرس لأعلام المؤلفين الذين لهم كتب بالدار ، وترتب إلى جانب الترتيب الأبجدي ، ترتيبا حسب سنوات وفاتهم ، أو حسب عصورهم التاريخية التي عاشوا فيها . ويا حبذا لو قسمت فهرس المؤلفات هذا التقسيم أيضا ، ووضعت مؤلفات كل عصر على حدة . ويا حبذا أيضا لو عني بوضع فهرس للموضوعات حتى يرجع إليها الباحث في يسر وسرعة .

هنا وإنى في النهاية لأرجو من الله سبحانه وتعالى ، أن يجعل هذا الكتاب نافعا للناس ، وأن يهيئ لى أو لغيرى ، وضع مؤلفات على نمطه ، في العصور الأخرى . حتى تكمل من الجميع سلسلة وثيقة الحلقات في تاريخ الآداب المصرية . لنقدم بذلك بعض ما يجب علينا نحو وطننا العزيز . في ظل مليكتنا المفدى ناصر العلم وأهله ، فاروق الأول حفظه الله . والسلام ؟

المؤلف

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نظرة سريعة في تاريخ مصر

من الفراغة إلى الممالك

تمهيد :

مصر بنت النيل . الطيبة تربتها ، الصافية سماؤها ، المعتدلة جواؤها ، الرضية حياتها ، السمع أهلها ، الرحب جنبها ، مرت بها العصور تتوالى دونها ، وهى خود كعاب . صاحبت الشمس منذ مطلعها ، ورافقت الزمن منذ نشأتها . وعبرت بها الأحداث حيرى دونها ، مع كثرة غيرها وصرورها ، ولكن مصر كانت هادئة بإيمانها ، مطمئنة بيقينها . لذلك لم تكن تألو أن تخلع على هذه الأحداث والغير والصروف أثوابا من الهزء ، وأردية من السخرية ، أن آمنت أن العاقبة لها ، وأن الخلود فى جانبها ، وأن البقاء من نصيبها . أما ما دونها من عوادي الزمن ومحن الأيام ، فإنها أمامها أشبه ببساط ممشور ، يستعين به الهرّاجون ، والمتبدلون فيفسكهمون الناس حيناً ببعض ألعابهم وقصصهم . فإذا ما انقضت آوتهم ، وانتهت فترتهم ، طروا بساط اللهو ، ورجعوا إلى عقر دارهم قافلين ، فينشر غيرهم بساطاً آخر جديداً ، وهكذا دواليك . .

بين هذه الأمواج الصاخبة فى بحر الزمان ، وبين هذه العواصف المتلاحقة فى جو الليالى ، شهدت مصر ألواناً شتى من قصص الحياة ومثلها . أنا تسمو إلى ماهى له أهل من السمو ، فتقبض بيدها على صولجانها ، فيأتمر الناس بأمرها ،

وينتهون بنهيها ، وأنا تهدها الأحداث ، وتتعاورها الخطوب ، فتثنى باسمه أمام العاصفة ، فتهم شديتها بما وهب لها من لين ، وتقهر قسوتها بما منحته من لطف ، وهي هي مصر الباقية الوداعة .

مصر الفرعونية :

ومنذ فجر التاريخ ، ومنذ نحو أربعين قرنا ، ومنذ عهد مينا ، حين وُحِّدَ وجَّها مصر بزعامته ، أشرقت هذه البلاد شمسا في سماء الحضارة والعرفان ، وطلعت على الدنيا بألوان من المدنية والرقى ، وضروب من العلم والفن ، تشهد بذلك نقوشها الخالدة وأهرامها الضخمة إحدى عجائب الدنيا ، وتمثيلها الدقيقة ، ومدوناتها البردية ، وجثث موتاها المحنطة ، وغير ذلك ، مما خلد عظمتها وسموها في فنون النقش والنحت والبناء ، وعلوم الهندسة والطب والتشريح ، وضروب الصياغة والصباغة ، مع آيات من الأدب الرفيع ، وصنوف من مظاهر الأبهة والترف ، مما لا تزال الأيام تضرب به الأمثال ، ومما لا يزال علم القرن العشرين عاجزاً عن استنباط سره ، واكتناه أمره .

وقد بسطت سلطانها في حقب كثيرة إذ ذاك ، على بلاد النوبة والسودان ، وفينيقية وسوريا ، وشواطئ الفرات ، وارتبطت أنا بجملة معاهدات سياسية واقتصادية . وازدهى ملكها وامتد نفوذها في عهد بناء الأهرام ، وكذلك في عهد سينوستريس وامينمحت الثالث . وهي وإن سادها من بعد ذلك عهد ظلمة وفوضى ، أدى إلى أول احتلال أجنبي عرفه لها التاريخ ، فتحكم فيها ملوك أجنبية هم «الهكسوس» أو «ملوك الرعاة» - كما يسميهم بعض المؤرخين - وذلك قبل الميلاد بأقل من ألف وسبعمائة ، عام فإن هؤلاء الأجانب - وكانوا قد بادروا إلى ظلم المصريين - لم يلبثوا أن اندمجوا في غمار أبنائها ، وتطبعوا بطباعهم ، وتدينوا بأديانهم ثم كونوا من أنفسهم أسرتين من الأسر المصرية الحاكمة هما الأسرة

السادسة عشرة والسابعة عشرة . غير أنه قامت لإجلاتهم عن البلاد ثورة وطنية
جاجة ترأسها الأمير المصري « أحس » من أمراء طيبة بالوجه القبلي ، فطردهم من
البلاد المصرية في أوائل القرن السادس عشر (ق.م) ثم أسس الأسرة الثامنة عشرة .
فدخلت مصر بذلك في دور حديث ، هو طور رقي ونهوض ، وعزة ومنفعة ، وبسط
سلطان ، وامتداد رقعة ، ورخاء . وكان بين ملوكها البارزين في هذا الدور :
« تحتمس الأول » و « تحتمس الثالث » ، و « أمينحتب الثالث » . ثم من ملوك الأسرة
التاسعة عشرة : « سبتي الأول » و « رمسيس الثاني » ، وألأ كبير ، و « منفتاح » . ولكل
من هؤلاء الملوك غزوات موفقة رفع بها رأس مصر ، وإصلاحات عمرانية عدة .
ثم ما عتمت مصر بعد أن دالت الأسرة العشرون ، أن دخلت في دور
اضمحلال وتأخر ، لتضخم نفوذ كهنة آمون ، ثم استيلائهم على الملك ، مع ملوك
الأسرة الحادية والعشرين ، وذلك بزعامة أحدهم وهو « حرحور » .

وقد كان هذا الضعف تمهيدا للاحتلال اللوبي ، وهو ثاني احتلال ابتليت به
هذه البلاد ، إذ أسس بها قائد اللوبيين بمصر وهو « شيشق » أو « شيشاق » الأسرة
الثانية والعشرين (٩٤٥ ق م) التي حكمت مصر زمنا . وبينما وقعت مصر في
أيدي هؤلاء اللوبيين إذ فر أمراء الكهنة إلى إثيوبيا ، فكان لهم بها شأن عظيم .

وكما حالت حال الهكسوس من قبل ، حالت حال اللوبيين ، فقد أخذوا في
تقليد المصريين ، وتدينوا بأديانهم ، وعبدوا إلههم « آمون » ، واتخذوا مصر موطننا
ومستقرا ، ودستأ لحكمهم ، ومهبطا لأسلابهم وغنائمهم . إلا أنهم ما لبثوا أن
ضعفوا ، فمكنوا بذلك الضعف لمملوك إثيوبي من احتلال البلاد المصرية ، فدخلوها
بزعامة مملوكهم « يَعْشَنخي » ، (٧٢١ ق . م) وحكموها منذ أيام الأسرة الثالثة
والعشرين ، وحافظوا على تقاليد البلاد وأديانها ، وأقاموا شعائرها ،
فازهرت في عهدهم ازدهارا يذكر .

غير أن الحروب التي قام بها المصريون بعدُ ضد الآشوريين قد انتهت
بهزيمتهم ، وباستيلاء الآشوريين على مصر سنة ٦٧٢ ق . م ، فعانت مصر على يد
الآشوريين مصاعب جمّة وشدائد كثيرة ، جعلت أمراءها الوطنيين يتربصون
الدوائر بالآشوريين . وما هي إلا أن حانت الفرصة حتى هب من بينهم الأمير
المصرى « إيسماتيك » وطرّد الآشوريين من بلاده ، كما طرد « أحس » ملوك
الهكسوس من قبله .

ثم أسس « إيسماتيك » الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٠ - ٥٢٥ ق . م)
وبذلك خلصت مصر من الاحتلال الأجنبي ، وبدأت تدخل في دور نهوض
جديد . إلا أنه كان يشوبه تضخم نفوذ الإغريق ، لأن « إيسماتيك » وغيره من
ملوك أسرته ، استعانوا بهم على توطيد سلطانهم ونشر نفوذهم .

غير أن ذلك لم يدم إلا ريثما ظهرت دولة الفرس ظهوراً قوياً . آخذة في غزو
البلاد المجاورة ، وضمها إلى ملكها . فغزوا مصر في عهد « إيسماتيك » الثالث
بقيادة ملكهم « قمبيز » وأسسوا بها أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة السابعة
والعشرين فجاروا على المصريين وعيشوا بأرضهم ، ولبثوا حتى عام ٤٠٥ ق . م
فطردهم المصريون ، وأسسوا بها أسرا منها الأسرة الثلاثون التي ظلت تحكم البلاد ، حتى
استولى عليها « الإسكندر المقدوني » عام ٣٣٢ ق . م بعد أن دخلها الفرس مرة أخرى .
مصر من عهد الإسكندر إلى فتح العرب :

نشطت دولة مقدونيا الصغيرة ، وأخذت توسع نفوذها ، وتستولى على
جاراتها ، حتى غدا ملكها ملكاً على بلاد الإغريق . وكان ذلك في نحو عام ٣٣٨
ق . م . ثم ظهر ملكها « الإسكندر » الأكبر ، فقام بحروب عدة ، وفتح بلاداً كثيرة ،
ووصل في فتوحه إلى بلاد الهند . وكانت مصر في جملة البلاد التي رحبت بقدومه
وفتح له بابها على مصر أعينه . ويعتبر فتح الإسكندر لمصر فاتحة عهد احتلال

أجنبي طويل . وقد كان من أهم ما خلفه هذا الملك العظيم بمصر إنشاء مدينة « الإسكندرية » ، وبث نفوذ الإغريق في أرجاء البلاد ، كما أنه خلف فيها دولة « البطالسة » . فإنه بعد موته انقسم قواده ممتلكاته ، فكانت مصر من نصيب قائده الشجاع « بطليموس الأول » الذي ما لبث أن استقر بمصر ، واتخذها موطناً له ولذويه ، وأسس فيها دولة « البطالسة » الشهيرة وهى الدولة التى زهت فى عهدها مصر وازدهرت بضروب من الإصلاح العلمى والعمرانى ، فى مقدمتها إنشاء مكتبة الإسكندرية وجامعتها المسماة « دار المتحف » .

ودولة البطالسة - وإن كانت إغريقية الأصل - لاشك فى أنها أصبحت مصرية صميمه لأنها توطنت مصر ، ووهبت جهودها لمصر ، وحكمت باسم مصر ، وغزت البلاد المجاورة وفتحتها ونشرت فيها راية مصر . متخذة من شعب مصر شعباً ، ومن جنودها جنوداً ، على الرغم من أنها عاشت بها معيشة الإغريق ، وجلبت إليها علم الإغريق . وإن زمناً طويلاً كالذى قضته فى حكمها (٣٢٣ - ٣١ ق . م) وعاشت فيه لمصر دون سواها ، لجدير بأن يخلع عليها ثوب المصرية الكريمة . ولا نشك فى أن عهد البطالسة ، لو امتد فى مصر ، لكان لها خيراً من الاحتلال الرومانى ، الذى مهد له ملوك البطالسة الضعفاء فى أخريات دولتهم .

فبينما كانت الدولة الرومانية تظهر فى الوجود ، ويشهد ساعدها ؛ وينتشر سلطانها ، إذ أهلك الترف والنزاع أمراء البطالسة ، وغلبهم على أمرهم ، حتى تراموا فى أحضان الرومان ، يستمدون منهم العون والحماية ، ويستجدونهم الفصل فى منازعاتهم . وما زالوا حتى انتهى أمرهم بانتحار آخر ملوكهم ، وأعنى « كليوبترا » واستيلاء « أوكتافيوس » الرومانى نهائياً على مصر .

بدأ عهد الاحتلال الرومانى حوالى عام ٣٠ ق . م ، وفيه كانت مصر مزرعة لسادة روما وشعب روما ، يسعدون ويشقى سكان مصر فى سبيل سعادتهم .

كان عهداً مليء ظلماً وعسفاً وإرهاقاً ، ولم يخفف من أعبائه تلك الإصلاحات الضئيلة التي كان أباطرة الرومان يجودون بها على مصر بين الفينة والفينة . ولهذا ظلت مصر وليس لها كيان سياسي نحو ٦٧٠ سنة (٣٠ ق م - ٦٤١ م) . ولهذا كان تمام فتح العرب لها في هذا العام الأخير ، وانتزاعها من يد الرومان ، ظفراً لها عادلاً ، ونجدة مفاجئة ، أخذت من بعدها ثوب إلى رشدتها ، وتفيق من سباتها الطويل ، وإن يكن هذا الفتح ضرباً من الاحتلال ، ونحن نمقت الاحتلال أياً كان نوعه .

مصر من فتح العرب حتى قيام دولة المماليك :

شغل العرب بفتح البلاد المصرية بين سنتي ١٨ هـ و ٢٠ هـ (٦٣٩ م - ٦٤١ م) وتم فتحها في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وبيد القائد العربي الكبير عمرو بن العاص قاهر الرومان . فأصبحت من ذلك الحين جزءاً من الدولة العربية الفتية العظيمة . فوفدت إليها وفود عدة وجلت إليها جوال كثيرة من بطون العرب وأفخاذها ، وتوالى عليها أمراء من العرب ، يحكمونها من قبل الخلفاء الراشدين ، ثم من قبل ملوك بني أمية . وحينما زالت من الوجود دولة الأمويين ، لم تجد خليفتها الدولة العباسية ، صعوبة تذكر في الاستيلاء على مصر . ومن ثم تتابع ولادة العباسيين أيضاً على هذه البلاد . غير أن كثيراً من ولادة العباسيين حينئذ ، كانوا من الترك ومنهم من يفضل الإقامة في بغداد قريباً من دار الملك ، عن النزوح إلى مصر . فكان منهم من يرسل نائباً عنه يحكمها باسمه ، وفي ذلك ما فيه من هوان لمصر ؛ وإغفال لمراقبتها ، ومضاعفة الظلم لأهلها . ولهذا كان طبيعياً أن يتخلل حكم العرب لها ثورات متعددة ، آناً ضعيفة ، وآناً قوية ، قوامها العنصر العربي حيناً ، والقبلي حيناً آخر ، وقد يتحد العنصران معاً ، بدافع من المصلحة المشتركة .

ومهما يكن من شيء ، فإن الفتح العربي أرحى ذيل النسيان على الفرعونية

القديمة ، وأنشأ مصر لإنشاء آخر، وكان الحكم الروماني من م مهدات هذا النسيان .
ويذكر التاريخ أنه منذ فتح العرب مصر ، أخذ أهلها من مسيحيين ويهود وغيرهم ،
يدخلون في دين الله أفواجا ، وبخاصة في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي
إذ خف ضغط الضرائب ، واتخذت العربية أداة لضبط الدواوين ، حالة محل
اللغات الوطنية فيها ، فساد الإسلام واشتد أزر اللغة ، وغلبت على المصريين
مقومات عربية كثيرة من عادات وتقاليد ونحوها .

ونحن وإن نعمنا من الفتح العربي بنعمة الإسلام ، وحسببت إلينا لغته العربية
لا ننسى أنه أزال استقلال البلاد مرة أخرى ، فظلت تابعة لا متبوعة . وظلت
كذلك حتى تقلد ولايتها من قبل العباسيين الأمير التركي « بكباك » أو « بقبق » ،
وذلك في عام ٢٥٤ هـ . فأناوب عنه في حكمها « أحمد بن طولون » ، وكان تركيا أيضا
وعندما مات « بكباك » عهد الخليفة بولايتها إلى أمير آخر هو « ماجور » وكان
حما ابن طولون . فاستبقاه في نيابته ، فجمع ابن طولون حزمه وعزمه لكي يستقل
بالبلاد ، فأصلح مرافقها وقوى جيشها ووفر مالها ، ثم منع إرسال خراجها إلى
بغداد ، وحذف اسم الخليفة من خطبة الجمعة عام ٢٦٩ هـ فكان ذلك إعلانا
باستقلاله . وبني مدينة القطائع وجامعه المشهور بها ، فكان ذلك منه إيذانا بعودة
الروح الاستقلالية إلى البلاد . غير أن خلفاء ابن طولون لم يحافظوا محافظة تامة
على هذه الروح ، وإن كان ملك ابنه خمارويه قد امتد إلى البلاد الشامية والموصل
والجزيرة . ولقد عرف عن خمارويه ولوعه بالإنفاق والسرف ، والإغراق في
الترف ، حتى أصبحت خزائن أبيه خاوية على عروشها ، وبخاصة من جراء زواج
ابنته « قطر الندى » بالخليفة المعتضد العباسي . لذلك سرعان ما آلت مصر إلى
حكم العباسيين بعد ولديه : « أبي العساكر » و « أبي موسى » . وذلك عام ٢٩٣ هـ .
أخذ العباسيون يرسلون عليها ولانهم من جديد ، فظلت نحو ثلاثين عاما

كذلك، وهى تموج بالفتن والاضطرابات، حتى ولى عليها الأمير محمد بن طنج، الإخشيد، من قبل الخليفة العباسى عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) فنهض بالبلاد نهضة محمود، وأبدى كفاءة ونشاطا فى حكمها وصد الخارجين عليها، ودفع الطامعين فيها. وامتد سلطانه حتى حكم دمشق، وقلده الخليفة حكم مكة والمدينة، وجعل الحكم من بعده وراثيا فى عقبه. غير أن ابنه «أبا القاسم أونوجور»، كان حدثا صغيراً، فأقيم «أبو المسك كافور الإخشيدى» وصيا على عرشه. وكان كافور خصيا حبشيا يملوكا من قبل للإخشيد، علت عنده مكائنه لرجاجة عقله وثقوب بصره، فحكم البلاد زمنا باسم سيده «أبى القاسم»، ثم استأثر بالحكم نهائيا بعد موته. ثم مات كافور، فلم تقم لدولة الإخشيديين من بعده قائمة.

هنا وجد الفاطميون مصر مراحا مباحا، وملكا شاغرا لا يحميه أحد، فاستولوا عليها زاحفين من الغرب بقيادة قائدهم المظفر «جواهر الصقلى»، مولى المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ. والفاطيون ينسبون إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمؤرخون مختلفون فى صحة هذا النسب. ويروى أن المعز الفاطمى بعد أن وفد إلى مصر، جمع النسابة وأقنعهم بصحة نسبه إلى جعفر الصادق من نسل سيدنا على كرم الله وجهه. ويروى أنه نثر بينهم الذهب وبسط أمامهم السيف وقال: «هذا حسبي وهذا نسبي».

وقد كانت للفاطميين ببلاد المغرب دعوة فدولة، فلما فتحوا مصر جلوا إليها واتخذوها دار مقام ووطنا، وبنوا بها قاهرتهم المعزية وجامعها الأزهر، وتشبهوا بخلفاء بنى العباس الأوائل، قسموا بالخلفاء. ونظموا دولتهم وعنوا بمظاهر الأبهة والفخامة، وأكثروا من الحفلات والموائد العامة والخاصة وأشاعوا الكثير من الموالد الدينية والأعياد والمواسم، متخذين منها فرصة للبر والإحسان لكي يشغلوا الشعب عنهم بكل أولئك. وقرّبوا إلى مجالسهم العلماء والأدباء

والشعراء ، فوجدت اللغة العربية لها منهم أكبر عون ونصير ، فازدهرت بأدائها ورجالها . وعنوا بالبناء والزخرفة حتى أصبحوا ولهم طراز خاص . وكانوا في جملتهم محبوبين من أهل البلاد ، لما تحلوا به من تسامح وعقل وعلم . هذا على الرغم من غلوهم في مذهبهم الشيعي ، ورغبتهم في نشره بالبلاد ، وعلى الرغم من قساوة بعض ملوكهم كالحاكم بأمر الله ، وعلى الرغم مما أصيبت به البلاد في بعض أيامهم من قحط وجذب وغلاء ، كما وقع في عهد المستنصر بالله .

ويهمنا أن ننوه هنا بأن البلاد كانت مستقلة عزيزة الجانب في عهدهم . وانتشرت كلمتهم إلى نواحي عدة من الشام والحجاز والعراق ، حتى قيل إنه « خطب للخليفة المستنصر بالله على منابر بغداد نحو أربعين خطبة دُعي له فيها .

ثم دب فيهم ديب الضعف ، وكان مذهبهم الشيعي الذي يخالف مذاهب الجمهور المصري ، في مقدمة الأسباب التي نفّرت عنهم . هنا ظهرت طائفة من الزعماء سعى كل منهم إلى الوزارة . واستبد بها دون الخليفة ، فتنازعوا بينهم أمرهم ، واستفحل النزاع وتشبهوا بالخلفاء في الرواح والغدو والحفلات والمجالس ، وما إلى ذلك ، وعرفوا « بالوزراء العظام » ، واجتزموا على أن يتلقبوا بألقاب الملوك ، ومنهم الملك الصالح « طلائع بن رزيق » ، أو رزيق ، وزير الفائز الفاطمي ، وكان أديباً شاعراً وعالماً مصلحاً . فكان ضعف الخلفاء وتشاحن الوزراء ، واستنجادهم بأمراء الشام ، ليعينوا بعضهم على بعض ، وازدياد نفوذ العناصر التركية ، والحقود الكامنة بين الترك والمغاربة ، بسبب الحكم والسعي إليه ، ثم عدم الوحدة بين الجنود المصريين - إذ كان فيهم ترك وعرب ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد سود - ثم قيام الحروب الصليبية ، كان كل أولئك من أسباب زوال دولة الفاطميين سنة ٥٦٧هـ ، إذ قضى على زمام الأمر في البلاد دونهم ، البطل الكردي المعروف « صلاح الدين الأيوبي » .

وفد « صلاح الدين بن أيوب بن شاذي » مع عمه « أسد الدين شيركوه » إلى

مصر لإصلاح الحال فيها . وكان « أسد الدين » أحد قواد أمير الشام « نور الدين ابن زنكي » ، استعان العاضد الفاطمي ، هو وبعض الوزراء ، بنور الدين ، ليعينهم ويقضى على منازعهم ، فبعث إليهم بأسد الدين وابن أخيه صلاح الدين . فما زال صلاح الدين ، حتى دفعت الأيام بين يديه بمنصب الوزارة المصرية ، في خلافة العاضد المذكور ، فاستبد بالأمر دونه ، وأقصى عنه المتنافسين من الوزراء . وساعده على ذلك حنكته ودهاؤه وبعد همته وشجاعته . فجمع السلطة في يده ، وحكم مصر نائباً « عن نور الدين » ثم قطع اسم العاضد من الخطبة ، ودعا للمستضيء العباسي خليفة بغداد ، وكان العاضد مريضاً فمات . ثم مات من بعده « نور الدين » وبذلك خلا وجه مصر لصلاح الدين الأيوبي وحده . فأعلن بنفسه سلطاناً عليها ، ومن هنا ابتدأت الدولة الأيوبية .

أخذ صلاح الدين يسوس البلاد بمهارة وقدرة ، ويصلح من أمرها ويعالج مريض الشئون فيها ، ويقر مضطربها . فأبطل المذهب الشيعي ، وعمل على نشر المذاهب السنية وبخاصة مذهب الإمام الشافعي ، وعفى كثيراً من آثار الفاطميين ، ووجد عناصر جيشه ، فاتخذ جنوده من الأكراد خاصة ، فكانت عدتهم نحو اثني عشر ألفاً . ونظم الضرائب وأقام المباني ، وعدل بين الرعية فأحبته وتعلقت به . ثم خاض غمار الحروب الصليبية ، وانتزع بيت المقدس ، وأرعب المسيحيين ، فسجل اسمه بين أبطال الإسلام الحادين .

ويعتبر العصر الأيوبي في جملته امتداداً للعصر الفاطمي من ناحية استقلال البلاد في إدارة شئونها ، وغزو أمرائها باسمها . زد على ذلك أن الأيوبيين - وعلى رأسهم مؤسس دولتهم صلاح الدين - نصبوا أنفسهم حماة عن الدين وذادة عن أهله ، ضد متعصبى المسيحية ، الراغبين في الاستحواذ على بلاد المسلمين باسم البلاد المقدسة . فوقفوا دونهم سداً منيعاً ، ومنعوا توغلهم في بلاد المسلمين خاصة وبلاد الشرق عامة .

فلم يستطيعوا أن ينالوا في تلك العصور الوسطى ، ما نالوه في العصور الحديثة . وكم للأيوبيين من بعد صلاح الدين من موقعة أذلوا فيها أنوف الفرنجة ، ونههوا من كبريائهم ، وتلك موقعة « المنصورة » في عهد المعظم « توران شاه » . وفيها أسر جنود مصر « روادى فرانس » أى ملك فرنسا لويس التاسع وغيره . وسجنوه في دار ابن لقمان وهو القاضى نحر الدين بن لقمان الذى كان كاتباً للسر ، وداره بالمنصورة . ثم اقتدى نفسه وعاد إلى بلاده على ألا يفكر في غزو مصر مرة أخرى . وفي هذه الغزوة بالذات ظهر تضام طبقات الشعب ظهوراً محموداً وعاونوا أولى الأدر حتى تم لهم النصر . وقد قال ابن إياس في الجزء الأول من تاريخه بصدد الموقعة المذكورة ما نصه :

« فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة ، ركب الأمير بيبرس البندقدارى ، والأمير لاجين ، وغيرهما من الأمراء ، وخرج معهم السواد الأعظم من العوام والفلّاحين وغير ذلك ، وفي أيديهم السيوف والدبابيس والرماح ، ومنهم طائفة يرمون بالنشاب ، فحمّلوا على الإفرنج حملة واحدة ، فكانت ساعة تشيب منها النواصى . فانكسر الإفرنج أبخس كسرة ، وولوا مدبرين والله تعالى ناصر الناصرين . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فبلغ عدة من استشهد في هذه الواقعة من أمراء السلطان سبعة وستين أميراً غير المماليك . وقتل من العوام ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الإفرنج على فارسكور ما يزيد على اثني عشر ألف إنسان . »

وكان سبب هذه الموقعة غزو الفرنجة للديار المصرية عن طريق دمياط . أقول : ولم يقتصر نصيب الشعب على ما قام به عوامه ، بل قام الخطباء يثيرون الحماسة في النفوس ، ويوغرون الصدور على هؤلاء المعتدين . وفي كتاب (الخريدة) للعماد

الأصبهاني ، وكتاب « الروضتين » في أخبار الدولتين المقدسي ؛ ذكر لهذه الحروب وما لابسها من خطب وأشعار .

ولم يقصر ملوك بني أيوب في تقريب العلماء والناخبين والاستئناس برأيهم ومشورتهم . وهذا هو القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي أديب مصر الذائع الصيت ؛ كان وزير الإصلاح الدين وعضدا له قويا . وابتنى كثير منهم العمار والمساجد ، ورتبوا الدروس ، وشجعوا أدباء العربية ، وأسعدوا ضروبا من البر والإحسان كثيرة ، حتى بهروا الناس . غير أن دولتهم لم تسليخ من عمرها إلا نحو ثمانين سنة (٥٦٧ هـ - ٦٤٨ هـ) حتى كان الهرم قد أصابها لضعف ملوكها حينذاك ، ووقوع الخلف في صفوفهم . وطغيان نفوذ مماليكهم - مما انفصله بعد - فكان آخر ملوكهم زوجة الصالح الأيوبي « شجرة الدر » أم خليل ، التي تزوجت أحد كبار مماليك زوجها « عز الدين بن أيك » وخلعت نفسها من الملك ، فتسلم « عز الدين » مقاليد مملكتها بنفسه سلطانا على البلاد عام ٦٤٨ هـ وبذلك دالت دولة الأيوبيين . وبدأت دولة المماليك . وهي التي تفصل عنها الكلام تفصيلا فيما يلي :

مصر في عهد المماليك

٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ . (١٢٥٠ م - ١٥١٧ م)

نقصد بهذا العصر ، الفترة التي حكم فيها سلاطين المماليك في مصر ، منذ انقضاء عهد الأيوبيين عام ٦٤٨ هـ إلى أن فتحها الأتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ . ولا نقصد هنا استيعابا تاريخيا للعصر المذكور ، وتفصيلا وافيا لحوادثه السياسية وحروب ملوكه ووقائع ، فإن ذلك مما يضيق به صدر كتاب كهذا . زد على ذلك أن بين أيدينا موسوعات تاريخية ، كفلت إيضاح تلك الحوادث والحروب والوقائع ، وفيها إسهاب ينفع الغلة ويروى الظمأ . وإن كانت هذه الموسوعات تروى روايتها وتقص قصتها بعبارة تحتاج إلى التجديد والتحيص والمقارنة ، مع جمال العرض وحسن التحليل ودقة التعليل ، كما يقتضيه فن كتابة التاريخ في عصرنا الحديث . ذلك لأن الموسوعات المشار إليها قد كتبها مؤرخون عاشوا في العصور الوسطى ، كان أكبر مهمهم سرد الحوادث غالبا ، دون الربط بينها أو تعليلها أو تحليلها ، وعرضوها غالبا عرضا لا أناقة فيه ، ممزوجة بصنوف أخرى من الحوادث والوقائع المختلفة . وهي بذلك تحتاج إلى إعادة النظر فيها لإخراجها في صورة جديدة شائقة تلذ للقارئ من طلاب التاريخ في العصر الحديث . وليس ههنا أن نقص قصتها ولا أن نعيد النظر فيها إلا بمقدار ما نخرج منها خلاصات سريعة وصوراً عاجلة لحالات شتى من حالات عصر المماليك تعين على رسمه في الأذهان رسماً واضحاً مقبولا ، وإن يكن موجزا . ههنا هنا أن نعرض النظم المرعية في الدولة والأمة ، ونصف ضروباً من عاداتهما وتقاليدهما ، حتى نعين القارئ على تصور الأمة المصرية في ذلك العصر ، ونفهم اتجاهاتها ومعرفة روحها وأسس معيشتها ومدار حياتها ، ونشفع ذلك بتراجم

كثير من رجالها . فترجمتهم تعين على حسن التصور ، وتساعد على تفهم الاتجاهات . وإن نترك الحوادث السياسية وسير الملوك جانباً ، بل سنعرض لها بمقدار يسير ، حتى لا يخلو هذا المؤلف من إحدى الدعائم الهامة التي يرتكز عليها تصوير العصر . وإننا بذلك كله - أو بالأحرى بهذا الجزء التاريخي - نعين على فهم الحركات الأدبية والعلمية فهما أدق وأوفى . وبذلك كله نغنى القراء عن عشرات من المصنفات التي لا غنية عنها لمن يريد فهم العصر على أكمل وجه .

أصل المماليك

كان الرق منتشرًا في العصور الوسطى ، وكانت تجلب الغلمان المرد والفتيان الحسان من بلادهم البعيدة إلى أسواق الرقيق ، حيث توجد الرغبة في اقتنائهم ، وحيث يتنافس في ذلك المتنافسون للخدمة أو اللهو . وكان هناك تجار أخصاء ، هم النحاسون ، يعرضون هذه الأجسام البشرية بضاعة في الأسواق العامة وغير العامة ، ويصفون محاسنها للنظرين .

أمّا طريقة جلبهم لهذه البضاعة فالسرقة والختطف ، يسرقون الغلمان ، ويختطفون العذارى من أهلهم ، ثم يستحلون بيعهم للناس ، ويستحل الناس شراءهم . وقد ينتشر قحط أو غلاء ، أو يعم وباء ، فتهدون حينذاك فلذ الأكباد على أهلها . فيفرون فيها بالبيع ، تخفيفاً للبلوى ، وحفظاً للرمق ، بما يدفعه لهم الشاري السكرم ، وبما كان يساعد على رواج تجارة الرقيق الغارات الحربية التي يشنها غاز فاتح فاس غليظ القلب ، على أهل بلد وادعين آمين ، فيفرق شملهم ويبدد جمعهم ويديم الولدان ، ويسبي الجوارى الحسان . فينشط النحاسون حينذاك ، ويغالون في شراء هؤلاء . ولم لا يغالون ؟ وفي انتظارهم خلفاء وملوك وأمراء ووزراء وعظماء ، على أهبة لقايتهم بصبر

الدنانير الذهبية والأعطيات الثمينة أجرا لبضاعتهم الجيدة. فقد كان منهم من يدفع
الآلاف والآلاف بل والآلاف، ثمنا لجارية جميلة أو غلام وسيم. ومما ساعد على رواج
هذه التجارة أيضا ما يتوقع من الحظ الحسن للأرقاء في مستقبل حياتهم. فقد تدفع
بهم الأقدار إلى أن يصلوا إلى ما يصل إليه أحرار الرجال وعقيلات النساء، من
عز ورفاهية ومجد وطيب أحدثة.

لهذا انتشر الرق في العصور الوسطى. وكان الأرقاء فيها أحيانا ضربا من المنح
والهدايا، يتبادلها العضاء والمترفون. وتذوق الناس وجود الرقيق بلا غرامة ولا استعكراه،
وكثر النسرى، وتعددت جيوش الجوارى في القصور، وامتلأت أروقتها بالغلمان،
وأصبحوا أحيانا أولى قوة وأولى بأس شديد.

ولم يُبَلَّ بالرق شعب دون آخر، أو جنس دون غيره. فقد كان من الأرقاء:
التركي والجر كسى والرومى والزنجى والحبشى والفارسى وغيرهم. وأروج ما كانت
تجارتهم في الأجناس التركية والجر كسية، لما تنصف به من جمال وطيب مجاس، ولما
ابتليت به بلادهم من غارات وخروب طاحنة.

واستكثر منهم خلفاء بنى العباسى والفاطميون والأيوبيون وغيرهم. ولقد كان
لمصر نصيب من هؤلاء كبير.

وقد ذكر بعض مؤرخى عصرنا الحاضر، أن أول من استخدم المماليك الأتراك
في مصر، وجلبهم إليها، واستعان بهم على تثبيت سلطانه، خلفاء الفاطميين، تشبها
منهم ببنى العباس ببغداد، ثم اقتفى أثرهم في ذلك ملوك الدولة الأيوبية.

ولكن الحق أن أول من استخدمهم وجلبهم إلى مصر، وجعلهم عمدة جيشه
هو «أحمد بن طولون». وهو أول الولاة الذين استقلوا بمصر بعد الفتح العربى كما
بيناه فقد قال القلقشندى فى صبح الأعشى بالجزء الثالث عند الكلام عن ولى مصر
ملكاً قبل دولة الفاطميين ما يلى: «وأولهم أحمد بن طولون... وفى أيامه عظمت

نيابة مصر ، وشمخت إلى الملك ، وهو أول من جلب الماليك الأتراك إلى الديار المصرية ، واستخدمهم في عسكرها .

وقال ابن إياس في الجزء الأول من تاريخه عند ذكر دولة الأمير أحمد بن طولون ما يلي : « قال ابن وصيف شاه : فلما تم أمر الأمير أحمد بن طولون في ولايته على مصر ، واستقامت أحواله بها ، استكثر من مشترى الماليك الديالمة ، حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك . »

فأنت ترى أن ما اشتراه ابن طولون من هؤلاء الماليك - على فرض المبالغة في عددهم - كان خير نواة لوجود الماليك في مصر . وقد اتبع هذه السنة ملوك الفاطميين وخطاوا في جندهم بين أجناس مختلفة . ولما آل الملك إلى صلاح الدين الأيوبي اتخذ جنوده من الأكراد ومجلبوبى المرتزقة ، وحذا خلفاؤه حذوه .

ثم جاء الملك الصالح نجم الدين بن أيوب في سنة ٦٣٦ هـ ، فرأى أن يثبت ملكه بجنود جدد ، فاستكثر من مشترى الماليك الأتراك ، ونشأهم تنشئة عسكرية . غير أنهم كانوا كثيرى العيب والشر ، يجوسون خلال الأسواق ، وينهبون البضائع من التجار ، حتى علا الضجيج بسببهم . فبنى لهم سيدهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة ليقيموا بها ولا يبرحون . وسامهم البحرية واتخذ منهم أمراء دولته وخاصته وبطانته وحراسه . وكانوا أقل من ألف مملوك (١) .

وقد كان هؤلاء البحرية عضدا قويا للملك الصالح حرسوا ملكه و زادوا عنه ، وثبتوا دعائمه ، وأبلوا بلاء عظيما في موقعة « المنصورة » التي هزموا فيها الفرنجة ، والتي نوهنا بها . وعلى يد هؤلاء البحرية انتقل الملك من بنى أيوب إلى أمراء الماليك ، فلما حكموا مصر وأصبح منهم سلاطينها وكونوا فيها طبقة حاكمة جديدة ودولة من

(١) راجع خطط القرطبي ج ٣ ص ٣٨٤ تحت عنوان « ذكر دولة الماليك البحرية »

طراز جديد هي « دولة الماليك » .

وإذا ما أطلقنا هنا لفظ « الماليك » أو « دولة الماليك » فإنما نقصد الدولة التي كونها هؤلاء ، دون من تقدمهم في عصر الأيوبيين أو الفاطميين ، أو تأخر عليهم في العصر العثماني .

وقد تتابع سلاطينهم على عرش مصر زهاء ثلاثة قرون ، واتبعوا في الحكم نظاما سنينيه فيما بعد . وقد جدّ السلاطين والأمراء في مشترى الماليك الجدد باستمرار . فكان من هؤلاء الجدد المدد التقليدي لهذه الطبقة الحاكمة . وقد ساعدهم على مشرتاهم تعدد هجمات التتار إذ ذاك على أواسط آسيا الخوارزمية وبلاد التركان وشرق آسيا الصغرى ، وغير ذلك من نواحي آسيا . فكثرت سبي الصغار وفرار السكبار أمام هذا الخطر الداهم . وأقبل سلاطين مصر وأمرأؤها على شراء هؤلاء الماليك ، وغالى بعضهم في ذلك ، ورفع أثمانهم حتى كانت الآباء تعطى أبناءها للنخاسين القادمين إلى مصر وتوصيهم ببيعهم فيها (١) ، لما كان يدفع فيهم من ثمن كبير ، ولما كان ينتظرهم من مجد خطير .

ولو أنك رجعت إلى سيرة كثيرين من سلاطين دولة الماليك ، وأمرائها ، لوجدتهم من هذه الماليك المشتراة . وإليك أخبارا عن بعضهم ، نقلا عن ابن إياس : الملك الظاهر بيبرس : أصله تركي الجنس ، أخذ من بلاده وهو صغير ، فبيع لشخص يسمى العباد الضائع ، ثم اشتراه منه الأدير علاء الدين البندقدارى ، ثم آل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي . ثم أعتقه وجعله من جملة الماليك البحرية . ثم دفعت به الأقدار فصار أتابك العسكر في دولة المظفر قطز . فلما قتل قطز صار بيبرس سلطانا .

(١) راجع خطط المقرئى ج ٣ ص ٣٤٨ تحت عنوان « الطباق بساحة الايواز »

والملك المؤيد شيخ المحمودى : أصله من ممالك الظاهر برقوق ، اشتراه من الخوaja محمود شاه ، وأعتقه وأخرج له خيلا ، ثم أخذ يترقى فصار أميراً ونائباً ، وعاونته الأيام حتى أصبح سلطاناً على مصر ، بعد خلع الخليفة المستعين بالله العباسى .
والملك الأشرف قايتباى : أصله من الجركس ، جلبه إلى مصر الخوaja محمود ، فاشتراه الملك الأشرف برسبى هو وعدة ممالك صغار ، كل ملوك بخمسين ديناراً ، ثم أعتقه وترقى فى سلك الأمانة ، حتى بلغ الأتابكية فالسلطنة بعد خلع تبرغا .
وعلى مثال مما تقدم تجد الأمراء . حقا قد ولى سلطنة مصر فى ذلك العصر أحياناً ملوك لم يكونوا من قبل أرقاء مثل : الناصر محمد بن قلاوون ، والناصر محمد بن قايتباى ، والمنصور عثمان بن جقمق . وهؤلاء وهؤلاء أبناء ملوك ، حكم آباؤهم من قبل ، فورثوا عنهم الملك ، ولكن بعد أن جرى الرق على آباؤهم ، وربما جرى على أمهاتهم أيضاً .
ومن غريب الأمر أن بعض الأمراء كانوا يتنادرون بعضهم على بعض بالبيع والرق ! فقد روى ابن إياس فى ترجمة الناصر بن قلاوون قال : (١)

« وقع يوماً بين الأتابكى « بكتمر » وبين الأمير « قوصون » تشاجر . فقال قوصون للأتابكى : « أنا ما نقلت من الأطباق إلى الاسطبلات ، بل أخذنى السلطان من شخص تاجر كنت فى خدمته . فلما أخذنى السلطان اتفق أن فى ذلك اليوم توفى واحد من الخاصكية الثقال ، فأنعم على السلطان بإقطاعه وبركة وبيته . وصرت خاصكياً فى ذلك اليوم . وسبب ذلك أن التاجر الذى كنت عنده ، لما قال له السلطان : « يعنى هذا المملوك » قال التاجر : « هو حروجه الله تعالى » فأخذنى السلطان برضاى ولم أقعد فى طبقة ، ولم أكن تحت حكم أغا . ولم أبع مثل بقية الممالك . فلما سمع الأمير « بكتمر » ذلك ، سكنت عنه ولم يجبه بشئ » .

ويلاحظ أن قوصون وبكتمر المذكورين كانا من أمراء عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وكان بيدهما الحل والربط في البلاد المصرية يوما ما .

ومن النوادر الطريفة المناسبة ما رواه ابن إياس قال : (١)

« غضب السلطان قايتباي على «شاد بك أبا» الإينالى الأشرفى ، أحد الأمراء فألبسه زنطا عتيقا ، وأمر بحمله إلى خان الخليلى ليعاقبه ! وقد ثبت أنه باق على ملك المنصور عثمان ، فأمر السلطان بأن يباع ويحمل ثمنه إلى الملك المنصور . فشفع فيه الأتابكي «أزبك» فما قبل منه . وآل الأمر إلى أن حمل إلى الملك المنصور (٢) ، فأشهد على نفسه بعتقه . »

ويروى عن شيخ الإسلام «عز الدين بن عبد السلام» أنه صمم يوما على بيع عدد من أمراء الدولة الأتراك ، لأنه لم يثبت لديه أنهم أحرار . وكان هو إذ ذاك قاضى القضاة . فاعتقد أنهم من جملة مال المسلمين ، وأنهم ملك لبیت المال . فعجب الأمراء ! وكان بينهم نائب السلطنة ! فأرسلوا إلى الشيخ يطلبون عدوله عن ذلك ، ولاطفوه ولاينوه ، فلم يزد إلا إصرارا على رأيه ، ولبث لا يجيز لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا ولا أى نوع من أنواع المعاملة ، حتى لحقهم من ذلك أذى كثير ، مع أنهم سادة الناس وحكام الأرض . فغضبوا وهم أحدهم بضرب هامة الشيخ بالسيف تأديبا له ، فبست يده ! فأسقط فى يده ، وانتهى الأمر بعرضهم للبيع ، وغالى الشيخ فى بيعهم ، وضم ثمنهم إلى بيت المال ، لينفق فى شئون المسلمين » (٣)

هذا . ونظرا إلى أن هؤلاء المالك ، وفيهم السلاطين والأمراء ، أرقاء ، والأرقاء

(١) بدائم ج ٢ ص ١٥٣ (٢) الملك المنصور عثمان هو ابن السلطان جقمق .

ولى الملك ثم خلع وأقام . كرماء فى عهد قايتباي . ومات بدمياط ثم نقل رفاته إلى القاهرة .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٠ ، طبقات السبكي ج ٥ ص ٨٠

لا ينسبون عادة إلى آبائهم ، تجد أغلبيتهم العظمى قد نسبت إلى غير الآباء والأجداد جريا على العادة المذكورة . وينسب أحدهم إلى من اشتراه من السلاطين والأمراء فيقال مثلا : شيخو الناصرى (١) نسبة إلى الناصر حسن حفيد قلاوون ، لأن شيخو من مشترياته ومعتوقيه . أو ينسب إلى من باعه من التجار فيقال مثلا : « برقوق العثماني » (٢) ، نسبة إلى الخواجا عثمان بائع الرقيق الذي جلبه إلى مصر . أو ينسب إلى مبلغ المال الذي اشترى به . فيقال مثلا : « قلاوون الألفى (٣) » لأن الأمير علاء الدين آق سنقر اشتراه بألف دينار . هذه طريقة نسبتهم . ومن الحق أن نقول : إن النسب إلى الشارى أكثر من النسب إلى غيره ، وأن المملوك قد ينسب إلى أكثر من واحد ، ممن تداولوا ملكه . وقد ينسب إلى البائع والشارى معا ، وهكذا .

ويظن المرء لأول وهلة أن ممالك مصر هؤلاء ، كلهم من الجنس التركى أو الجرکسى ، والواقع أن فيهم من أجناس أخرى عددا فمنهم التركى كالظاهر بيبرس (٤) ، والجرکسى كالأشرف قايتباى (٥) ، والتترى كالعادل كتيبغا (٦) والقبجاقى كالمنصور قلاوون (٧) ، والهندي كالأمير جوهر التركمانى الشيبكى (٨) ، والرومى كالظاهر تمبرغا (٩) ، ولكن الجنس التركى والجرکسى كانا غالبيتين . وكانت للجنس التركى السيادة فى الدولة الأولى « الدولة البحرية » ، وللجنس الجرکسى السيادة فى الدولة الثانية « الدولة البرجية أو الجرکسية » . وكان من الأجناس الأخرى جماعات من

(١) انظر ترجمته فى باب « أفذاذ الرجال » فى هذا الجزء من كتابنا .

(٢) انظر ترجمته فى بدائع ابن إياس ج ١ ص ٢٥٨

(٣) انظر ترجمته فى صبح الاعشى جزء ٣ ص ٤٣٥ . (٤) و(٥) و(٦) راجع

تراجهم فى بدائع ابن إياس . (٧) خطط المقرئى ج ٣ ص ٣٨٧ .

(٨) بدائع ج ٢ ص ١٠٤ . (٩) بدائع ج ٢ ص ٨٧ .

الأويراتية ، وهم طائفة من المغول ، استقدمها إلى مصر العادل كتبغا المنصوري ،
وهياً لهم مساكن مناسبة . وقد كانت مساكنهم الأولى على مقربة من جبال الأكراد (١)
وكان منها أيضاً طوائف من التتركان واللاظ والكرد والقراصة والأرمن
والخطا (٢) . وكثرت أنواعهم وتعددت في الجزء الأخير من الدولة الجركسية .
ويلاحظ أن المملوك كان يشتري صغيراً ، ثم يربي - كما سنبينه - غير أنه في
أخريات الدولة الجركسية ، جلبت الممالك كباراً ، ومنهم من كان عاملاً أو صانعاً محترفاً
قبل جلبه . فكان ذلك في جملة أسباب فسادهم .

(١) كتاب التعريف باب « المحرقات »

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٦٩ تحت عنوان « الخبر عن دولة الترك »

انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك

أخذ عدد المماليك يتكاثر في مصر زمن الأيوبيين وأخذ نفوذهم يزداد ويعظم . وكلما أصاب الضعف ملوك الأيوبيين ، ونهكهم الترف والانغماس في الملهيات ، ودب بين أمرائهم الشقاق ، وقادتهم الأطماع غير المشروعة ، أتاح ذلك للمماليك أن يكونوا ذوى شأن وسلطان . لأنهم اليد العاملة ، والقوة الفعالة في ملافاة هذا الضعف ، وفي فض هذا النزاع . فأكسبهم ذلك بأسا على بأس ، وسلطانا فوق سلطان .

وقد قوى بأسهم في عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي . فإنه بعد أن استعان بفريق منهم على نزع الملك من أخيه العادل سيف الدين عام ٦٣٦ هـ ، اشترى عددا كبيرا من المماليك ومرنهم مرانة عسكرية ، واتخذ منهم حراسا وجندا . ولكن كان فيهم شر ، وضج الناس من شرهم - كما بينا - فبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالقرب من المقياس ، وأسكنهم بها وسماهم « البحرية » (١) وأنشأ حول تلك القلعة مستودعات حربية مملوءة بالسلاح والذخيرة . وأمرهم ألا يخالطوا الناس بالمدينة ، وأجرى عليهم الرواتب والطعام والشراب والكسب . وكانوا دائما على قدم الاستعداد لتلقى أوامره للخروج إلى القتال .

وأخذ نجمهم في الصعود ، منذ أن هيئت لهم الفرصة ، لقتال الفرنجة والتغلب عليهم ، وأسر ملكهم لويس التاسع ملك فرنسا عام ٦٤٧ هـ في موقعة فارسكور والمنصورة كما بينا . وكان ملكهم الصالح قد أهاب بهم ودعاهم إلى القتال ، وكان مريضا ، فحملوه في محفة ، وساروا به نحو مدينة المنصورة ، وكانت الأخبار قد تواردت بأن

(١) اقرأ فصلا عن الروضة في كتاب الانتصار لابن دقاق ج ٤ ص ١٠٩ طبع

« روا دى فرانس » أى ملك فرنسا ، أتى فى جموع من الفرنجة زاخرة ، وفى ألوف من المقاتلين ، تحملهم السفن إلى « دمياط » حيث ظلوا يحاصرونها زمنا . ثم ضيقوا عليها الخناق ، وخاف أهلها من القتل والسبي ، فهجروا مدينتهم فارين تحت جنح الليل ، فدخلها الفرنجة فى الصباح . ومن ثم شرعوا يزحفون على بقية البلاد متجهين نحو مدينة المنصورة ، مقيمين فى طريقهم الاستحكامات . وكان الملك الصالح قد أهاب بماليكه البواسل فأحاطوا به وحملوه فى محفة لمرضه ، وساروا به نحو مدينة المنصورة ، ونودى أن يجتمع إليهم عربان الجهات ، ليتعاون الجميع على دفع العدو عن البلاد .

هنا فتك الملك الصالح بنائب دمياط ، وطائفة أخرى من أمراء المماليك ، كانوا معه فى إخلاء المدينة ، وفراره منها ، وتركها غنيمة باردة فى يد الفرنجة . فأنف بماليك السلطان من غدره ، وحاولوا الفتك به جزاء لما قدمت يداه . ولكنهم تريشوا حتى يوقعوا بالفرنجة ، وبعد ذلك يحاسبونه عما فعل . ولكن الموت سبقهم إليه ، وكفاه شرمهم . . . فـكـتمـ مـوته حتى لا تكون إذاعته سببا فى تخادل جنده ، وتقوية الروح المعنوية عند الفرنجة ، فتكون العاقبة وخيمة . وحملت جثة الملك فى زورق ، وسير به تحت ستر الليل إلى القاهرة ، ودفن بالقلعة مؤقتا . وأرسلوا إلى ابنه « المعظم توران شاه » - وكان مقيما فى حصن « كيفا » ببلاد الشام - وقام أمراء المماليك بتدبير الأمور حتى يعود . وكان على رأسهم الأمراء : حسام الدين لاجين ، وفارس الدين أقطاي ، وعز الدين أيك ، وبيبرس البندقدارى . وأقاموا عليهم زوجة الملك الراحل - وهى « شجرة الدر » أم خليل - زعيمة ، يأتمرون بأمرها ، ويصدرون عن رأيها . فكان ذلك منهم أول خطوة فى سبيل التآمر على ملك الأيوبيين ، وقلب نظام الحكم فيه ، وكان فيه تثبيت لنفوذهم وإعلان مبدئى بأطماعهم .

عاد « توران شاه » بعد نحو ثلاثة شهور من دعوته لتسلم مقاليد الحكم . فدخل القاهرة ، وأذيع موت أبيه الصالح ، ونودى له بالسلطنة وتلقب بالمعظم . ثم اجتمع

المماليك تحت إمرته صفاء، وتحفزوا للقاء عدوهم بحماسة للجهاد وحب الاستشهاد . وكانت الأخبار قد توالى بزحف الفرنجة نحو « فارسكور » . خفف إليهم جيش المماليك سائرا إلى شمال « المنصورة » ، يعاضده جمع عظيم من فلاحى البلاد ومعهم المقاليع والحجارة . وعاونتهم أمـداد من الشمال ، ضغطت على العدو فأصبح بين قوتين . وكانوا قد أرسلوا هذه الأمـداد من قبل ، ومعها سفائن محمولة على جمال لينزلوها فى البحر تجاه دمياط ، ومن ثم تسير فى النيل نحو الجنوب . ثم هجم رجال القوتين هجمة صادقة على العدو فأبادوا جمعه ، وشتموا شمله ، وأسروا منه عددا كبيرا ، ومنهم لويس التاسع (١) نفسه - وقد أشرنا إليه - فسجنوه فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان بالمنصورة ، ووكلوا حراسته إلى الطواشى صبيح الفاطمى (٢) . فظل فى سجنه حتى اقتدى نفسه بالمال . وقتل فى هذه المعركة من الفرنجة نحو ثلاثين ألفا عدا من أخذ أسيرا ، وعدا الغنائم والأسلاب .

وبهذه المناسبة نذكر ما رمى عن لويس هذا من أنه بداله أن يعود إلى غزو مصر . فى عهد سلطنة المنصور بن عز الدين بن أيك ، فبعث إليه المنصور رقعة يهدده فيها وفيها أبيات ساخرة للشاعر ابن مطروح . وهى .

قل للفرنسيس إذا جئتـه مقال صدق من قـول فصيح
أجرك الله على ما مضى من قـتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصر تبغى أخذها تحسب أن الزمر ياطبل ريح

-
- (١) هذا الملك سماه المقرئى « روادى فرنس » . وابن إياس « ريدا فرنسيس » . وابن خلدون « رى فرانس » . وابن الوردى « برنس افرنسيس » . وكتب عنه ابن شاکر السكتى فى وفاته ج ١ ص ١٠٦ فصلا ، وسماه « البرنس الفرنسيس » . وهذا تحريف . وما أخذ عن Roi de France أى ملك فرنسا . تبهم الادباء فى ذلك كما فى شعر ابن مطروح .
- (٢) هكذا سمي « صبيح » هذا بالفاطمى . وسماه ابن خلدون « المعظمى » وهو أقرب لنسبته إلى المعظم توران شاه .

فسأفك الحين إلى أدهم
رحمت وأصحابك أودعتهم
خمسون ألفا لا يرى منهم
فردك الله إلى مثلها
إن كان « باباكم » بذا راضيا
فاتخذنه كاهنا إنه
وقل لهم إن أضمرؤا عودة
دار ابن لقمان على عهدھا
فرجع لويس عن عزمه .

وفي هذه الموقعة التي شرحناها ، ظهر تضامن طبقات الشعب ظهورا محمودا .
وقد أسهبننا في شرحها ، لأنها السبب المباشر لتوطيد سلطة المماليك وظهور قوتهم ،
وبروز أطاعهم ، وظلوا من بعدها يتلمسون الفرصة للوثوب العملى إلى عرش البلاد .
وقد أتاحت لهم هذه الفرصة عندما أساء إليهم « توران شاه » وإلى شجرة الدر
معا . إذ كيف عنهم الخير . وتوعدهم بالأذى ، وفضل عليهم أخصاءه الوافدين معه
من الشام . وكان أولى له أن يتخذ من ممالك أبيه هؤلاء قوة وسندا ، وعونا وعضدا ،
لتدبير مملكته وحفظ عرشه ، وبخاصة بعد ما ظهر منهم من قوة ونشاط وشجاعة
وإقدام ، وكانوا سببا في انتصاره ودحر عدوه . لذلك كان انصرافه عنهم وتهديد
لهم طيشا منه وحمقا ، دفعهم إلى الائتمار عليه . وما زالوا به يأترون حتى قتلوه أشنع
قتلة وأبشعها . وملسكوا عليهم من بعده زوجة أبيه « شجرة الدر » ، وأطاعوها تبعا

(١) شق : كاهن كان في زمن كسرى . وسطيح كاهن آخر من بني ذئب كان في الجاهلية .

(٢) هذه الايات من حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٣٩ ، ومن ديوان ابن مطروح

طبع الجواثب سنة ١٢٩٨ م ص ١٨١ ، ومن سلوك المقرئى حوادث سنة ٦٤٨ هـ

لذلك ، ولما بدا منها لهم من عدل وكياسة ، ولما فرقتهم من وظائف وأعطيات . أو بالأحرى ، لإطاعتها لهم واثمارها معهم ، وانطوائها تحت كلمة أحد زعمائهم وهو الأمير « عز الدين أيبك » . فعينه « أتابك العساكر » ، أى قائد الجند ، وهى أرفع مرتبة فى الجيش . فكان عز الدين المدير لمملكته ، وصاحب الرأى فى دولتها ، على الرغم مما يقال من إنه كان لا يتصرف فى الأمور إلا بعد مشورتها .

ضربت « شجرة الدر » الحجاب على نفسها ، فكان لذلك أثره فى ضعف مشورتها ، وصعوبة اتصالها بأمرائها ، وحسن اطلاعها على مهام دولتها . زد على ذلك أنها كانت أول امرأة مملكة فى الإسلام ، فكان تمليكها غريباً ، حتى قيل إن الخليفة العباسى - على ضعفه - أرسل إلى المماليك يعنى عليهم أن يملكوا امرأة . . . كان ذلك كله حافزاً لهم على إعادة النظر فى أمر الملك من جديد ، وكثر بينهم الأخذ والرد . حتى رأت شجرة الدر بثاقب نظرها ، وبعميد رأيها ، أن تخلع نفسها من الملك ، بعد أن مكثت فيه نحو ثمانين يوماً . ثم استشير الأمراء والقضاة لاختيار سلطان جديد ، فتمت المشورة بسلطنة الأمير « عز الدين أيبك » . ثم تزوج هذا الأمير من « شجرة الدر » ، ليكون ذا صلة بالبيت المالك القديم ، مع أنها زوجة سيدة .

كان ذلك فى ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ . فركب « عز الدين » فى حفل جامع زاخر ، وبأبهة وجلال ، وأجلس على سرير الملك . وقبل الأمراء الأرض بين يديه ، ولقبوه « بالملك المعز » . فكان أول سلاطين المماليك بالديار المصرية ، وعلى يده انتقل الملك من الأيوبيين إلى طائفة المماليك ، فمن بعده توالى سلاطينهم على عرش البلاد سلطاناً بعد سلطان .

دولتنا الماليك

٥٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ

بدأ عصر سلاطين الماليك عام ٦٤٨ هـ على يد الملك المعز « عز الدين أيك » وظلوا يحكمون البلاد المصرية حتى عام ٩٢٣ هـ أى نحو ٢٧٥ سنة ، وانتهى عهدهم بالاحتلال العثماني . وانقسموا خلال هذه الحقبة إلى دولتين هما : « الدولة البحرية » و « الدولة البرجية أو الجر كسية » . ولتتكلم عن كل منهما بإيجاز ، فنقول :

الدولة البحرية ٦٤٨ هـ - ٧٨٤ هـ

مؤسسها « عز الدين أيك » . وحكمت نحو مائة وثلاثين سنة بين سنتي ٦٤٨ هـ - ٧٨٤ هـ ١٢٥٠ م - ١٣٨٢ م » ، وكلمة « البحرية » أطلقت على طائفة من الماليك قبل تأسيس دولتهم . وهذه الطائفة هي التي أسكنها سيدها الملك الصالح « نجم الدين الأيوبي » بقلعة الروضة . فعرفوا بالبحرية . وصاحبهم هذا الاسم . وليس معنى ذلك أن كل سلاطين هذه الدولة أو ممالكها من نفس الماليك الصالحية ، بل منهم سلاطين وممالك من غير البحرية الصالحية . وذلك لأن هؤلاء تشبثوا من بعد ، وأصبحوا في حالة مردولة مزرية يرثي لها ، بعد قتل رئيسهم « فارس الدين أقطاي » في عهد السلطان الملك « المعز أيك » . لأن هذا السلطان شعر بتآمر الصالحية عليه . فأخذ يقوى نفوذه ، ويحصن عرشه ، وجند لنفسه ممالك جددا سموا بالمعزية ، ثم بطش بالبحرية فقتل زعيمهم « فارس الدين » ، وشتت جمعهم ففسار كثير منهم إلى الشام . ومع ذلك ظلت هذه التسمية « البحرية » أيضا الصيقة بممالك هذه الدولة فعرفوا بها . وسمّاها

المقریزی فی خططه . وسماهم غیره « دولة الأتراك » (١) . وقد جمع الملك المنصور قلاوون ، بعد ذلك شتات الصالحية وسماهم « البحرية » أيضا ، لأنه أحدهم . فبقی هذا الاسم فیهم وفي بقایاهم ، وأطلق على إحدى طوائف أجناد الدولة .

وقد غزت الدولة البحرية جملة غزوات موفقة ، وكبحت جماح التتار فی عدة وقائع . فدفعت خطرهم عن مصر دفعا تاما ، وكف كفت من عدوانهم على بلاد الشام . وكان ملوكها بمصر مستقلين ، وملوكوا باسمها . فی أغاب أيامهم . بلاد الشام وجزيرة العرب ، ووصل نفوذهم حينئذ إلى شواطئ الفرات والجزيرة ، وما وراء ذلك ، كما وصل حينئذ آخر إلى بلاد المغرب . وسيتضح ذلك فيما يلي من هذا الجزء .

والآن نورد ثبوتا موجزا بأسماء ملوك هذه الدولة مع الإشارة إلى أهم الحوادث فی أيامهم (٢) . ذاكرين أنه تعاقب على العرش منهم أربعة وعشرون ، من بينهم أربعة عشر ملوكا من أسرة قلاوون وحدها .

١ - الملك المعز « عز الدين أيبك »

٦٤٨ هـ - ٦٥٥ هـ (٣)

هو عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحی التركمانی . كان من ممالیک الملك الصالح نجم الدين بن أيوب ، فأعتقه ، وما زال به حتى رقاہ أميرا . ولما توفي الملك الصالح

(١) ذكر الدكتور الفاضل ناشر سلوك المقریزی فی ص ٤٣٧ من السلوك ، أن تسمية دولتهم « بالبحرية » تسمية حديثة . ولكن يفهم من الفصل الذي كتبه المقریزی فی خططه تحت عنوان « ذكر دولة الممالیک البحرية » أنها تسمية قديمة .

(٢) لم نسهب في ذكر هؤلاء الملوك وحوادثهم ، ففي سلوك المقریزی وبدائع ابن إياس والنجوم لابی المحاسن منسج لمحی الاسهاب

(٣) ذكر ابن إياس والمقریزی فی خططه أنه عام ٦٥٥ هـ . وقال القلقشندي فی صبح الاعشى أنه عام ٦٥٤ هـ .

اشترك عز الدين في تدبير أمور الدولة ، مع بعض أمراء المماليك البحرية ، ريثما يعود « توران شاه » بن الملك الطالح ويتولى عرشه . فلما عاد « توران شاه » ، وانهمز الفرنجة ، فسد ما بينه وبين أمراء أبيه ، فأدى ذلك إلى قتله ، وصار الملك إلى « شجرة الدر » ، فدبرت ملكها بوساطة « عز الدين » . ثم خلعت نفسها ، واختير « عز الدين » سلطانا على البلاد ، وتزوج « شجرة الدر » ليحظى بعلاقة ببنت الملك . وكانت سلطنته في ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ .

بدأ الملك يصفو لعز الدين ، ويضبط أموره ، غير أن بلاد الشام اعتلت عليه ، وكان قد ملكها الملك الناصر الأيوبي . ويبدو أن الأمراء انفسوا على « عز الدين » أن يصفو له وجه الملك . فانهزوا الفرصة وأرغموه على إقامة أحد الأيوبيين معه في الملك ، لكي يستطيعوا به لقاء الخارجين على ملك مصر . فتم لهم ما أرادوا ، واستقدموا إلى البلاد شخصا من الأيوبيين ، اسمه « مظفر الدين يوسف (١) » بن الملك « مسعود الأيوبي » وسنه عشرون ، أقاموه ملكا أيضا ، ولقبوه بالآشرف . فصار للبلاد ملكان هما : المعز والآشرف ! فصر المعز ريثما قوى عضده بمماليك جدد سماهم المعزية ، وأمّر منهم عددا ، ثم انفرد بالملك ، وسجن الآشرف ، ثم نفاه بعد قليل . وكانت قد وقعت بينه وبين الناصر وقائع ، انهزم فيها الناصر ، ثم تم الصلح بين الاثنين عام ٦٥١ هـ على أن يكون المصريين إلى الأردن ، وللناصر ما وراء ذلك . وأن يكون للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله ، وأن تطلق أسرى الشام ، إلى غير ذلك . وقد أخذ المعز نائرة عرب الصعيد والبحيرة وغيرهما ، وشنق زعيمهم الشريف حصن الدين ثعلباً . ثم رأى أن خطر البحرية قد استشرى ، وأنهم استطالوا عليه حتى هموا بقتله ، وثقل عليه زعيمهم « فارس الدين أقطاي » - بالرغم من أنه عاونه

(١) هذه رواية ابن إلياس ، وروى المقريزي في السلوك أنه « مظفر الدين موسى بن الملك المسعود الناصر صلاح الدين يوسف » وأن سنه كانت نحو ست سنين .

في غزواته - فاحتال حتى قتله ، وأدخل اليأس إلى قلوب أعوانه ، فنفروا ، ومنهم من رحل إلى الشام . وبذلك استراح المعز من الشاغبين عليه ، ولم بعد إزائه غير زوجته المملكة « شجرة الدر » . فقد حاول أن يتزوج سواها فوقع الخلاف بينهما ، وأساء في التصرف معها قيل وعزم على قتلها ، فأحنقها وأثار غضبها . ولكنها تلطفت به حتى أمكنتها الفرصة فيه ، ودست إليه من خدمها من قتله وهو يستحم . وهكذا بدأ العصر بالمؤامرات والدسائس التي لازمتها ، وكانت وفاة المعز في سنة ٦٥٥ هـ بعد أن حكم نحو سبع سنوات . وكان حازما شجاعا سفاكا للدماء . وقد حملت « شجرة الدر » بعد قتله إلى أم ولده على فقيلها جواريا ودفنت بعد أيام .

٢ - المنصور « نور الدين بن المعز » ٦٥٥ هـ - ٦٥٧ هـ

هو نور الدين علي بن المعز أيك . ولى الملك بعد قتل أبيه عام ٦٥٥ هـ ، وكان صغير السن . فدبر له المملكة الأتابكي « قطز » . وفي عهده زاد خطر التتار ، وخربوا بغداد ، وأزلوا الخلافة العباسية منها ، وهموا بالزحف على الشام ومصر . فشعروا بمصر بالخطر الداهم القريب ، ورأوا أن يملكوا عليهم أحد كبارهم ، ليعتمدوا عليه في صد العدو . لذلك خلعوا المنصور ، بعد أن لبث في الحكم قرابة سنتين وثمانية أشهر وملكوا عليهم أتابكيه « قطز » عام ٦٥٧ هـ .

٣ - المظفر « سيف الدين قطز » ٦٥٧ هـ - ٦٥٨ هـ

أصله من مهاليك المعز أيك وليس من البحرية . ولى الملك بعد المنصور بن المعز ، وهو الذي خلعه وقبض عليه وعلى أخيه وأمه وسجنهم ، وذلك عام ٦٥٧ هـ . واعتذر إلى من خالفه ونازعه من الأمراء ، بضرورة التأهب لمحاربة التتار وصددهم عن الديار ، ولا يكون ذلك على يد ملك صغير حدث . وأبدى استعدادا للتنازل

عن العرش متى تم لهم هزيمة العدو ، ثم ليقيموا في الملك من يشاءون . وهكذا أخذ يترضاهم ، ومن ثم استعد للقاء التتار . وبعد قليل دهم هولاكو التتار مدينة حلب وخربها وقتل أهلها وهدم قلعتها ، ولوى جيده إلى دمشق - وكان عليها الملك الناصر - ففر الناصر ، واستسلمت دمشق للفتح . وبعث هولاكو خطابا إلى قطز يطلب إليه الطاعة والتسليم . فما كان من قطز إلا أن قتل رسل هولاكو ، ولم شعث أمرائه ، وأعد العدة معهم للقتال ، وخرج للقاء التتار بجيوشهم الجرارة الزاحفة . وهناك بفلسطين التقى بهم بموضعين أولهما « عين جالوت » وثانيهما « بيسان » ، فحرمهم شر دخرة ، وشنت عليهم ، واستولى على الكثيرين أسلابهم . وكانت موقعة « عين جالوت » أول موقعة هزم فيها التتار ، منذ قدومهم من ديارهم . وكان لهذه الهزيمة أثرها المعنوي في نفوس المسلمين ، إذ فهموا - على الأقل - أن التتار قوة يستطاع التغلب عليها . وبهذه النصره وقى الله مصر شر التتار ، وفتح أمامها بلاد الشام ، فأصبحت تابعة لها إذ استولى قطز عليها من الفرات إلى حدود مصر .

عاد قطز من القتال مظفرا ، فدبر له الأمير بيبرس البندقداري مؤامرة لاغتياله . وكان بيبرس في مقدمة أمرائه الذين أبلوا معه بلاء حسنًا في حروبه . فتمت قتلته على يده ويد المؤتمرين معه ، وذلك في أخريات عام ٦٥٨ هـ . ولم يكن قد أتم سنة في حكمه . وقفز إلى العرش بعده الأمير بيبرس .

٤ - الظاهر « ركن الدين بيبرس » ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ (١)

هو ركن الدين بيبرس البندقداري . وقد لقب بالظاهر . ولى الملك عام ٦٥٨ هـ . وهو أهم ملوك الدولة البحرية . وأصله من أرض القبحاق ، أسر ويبيع ، واشتره

(١) ترجمة بيبرس موجودة بتفصيل واسع في سلوك المقرئى ، كذلك في بدائع ابن إياس ونحوها . وفي القوات لابن شاكر فصل عنه ج ١ ص ١٠٩ .

صغير السن رجل يدعى «العماد الضائع» ، فباعه للأمير « علاء الدين أيدكين البندقدارى » . ثم انتقل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ، فنسب لذلك إليهما وقد اعتقه الصالح وضمه إلى ممالكه البحرية ورباه معهم ، فشب شجاعا بأسلا لا يهاب الموت . وقد عرفته الحروب - وهو أمير - مقداما صنديدا . عرفته في موقعة « المنصورة » التي هزم فيها الفرنجة في عهد توران شاه وموقعي « عين جالوت » و « بيسان » اللتين هزم فيهما التتار في عهد قطز .

اشترك بيبرس ، قبل سلطنته ، في عدة مؤامرات ، منها مؤامراته مع المماليك البحرية بزعامه « فارس الدين أقطاي » ، ضد الملك المعز . فلما قتل « فارس الدين » وشئت شمل زملائه ، فر « بيبرس » مع بعضهم إلى بلاد الشام ، واتصل بملكها الناصر . ثم عاد إلى مصر في عهد قطز ، وعين « أتابك العسكر » ، فقاتل معه في الطليعة . ثم دبر مؤامرة اغتيال « قطز » بعد انتصارهم على التتار ، إذ تقدم بيبرس إلى سلطانه ليقبل يده لأنه منحه جارية حسناء من سبابا التتار - كإفيل - وكانت هذه علامة بيبرس لأعوانه ، فانقضوا على سلطانهم بالسيوف فقتلوه . وأقاموا بيبرس مكانه سلطانا . وقيل إن « قطز » كان قد وعد بيبرس بولاية حلب ، ثم أخلف ، فكان ذلك سببا للوحشة بينهما (١) ، وسببلا للاتهام بالقضاء عليه .

ويعتبر المؤرخون « بيبرس » المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية ، لما تم على يده وفي عهده من جليل الأعمال . فلقد اعتلت عليه بلاد الشام في أول عهده بالسلطنة إذ أعلن الأمير « سنجر الحلبي » بنفسه سلطانا عليها ، وتلقب بالملك المجاهد ، وجمع من حوله عدة من الأمراء . وزاد الطين بلة معاودة التتار الزحف على بلاد الشام ، فنهبوا وقتلوا وسبوا . هذا إلى تضخم نفوذ الفرنجة في إماراتهم الشامية ، وإلى قيام ممالك المعز بمؤامرة واسعة النطاق للقضاء على سلطنة بيبرس .

هذه أمور جبهت مصر ، فلم يكثر لها ، وقابلها ثابت الجأش قوى النفس صلب الإرادة ماضى العزيمة . ففتك بممالك المعز وقضى على مؤامراتهم . ووجد جيشا قوى

(١) هذه رواية السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » عند الكلام عن شرح حال التتار .

الشكيمة على بلاد الشام فأخضع أمراءها ، وأوقع بالقتار وردهم عنها داحرين . وأذل
الفرنجة ونهته من نفوذهم . وهزم الأتراك السلاجقة ، وفتح جملة من البلاد منها : البيرة
والكرك ، وحمص ، وبيسارية ، وأرسوف ، وصفد ، ويافا ، والشقيف ، وأنطاكية ،
وحصن الأكراد ، وعكا ، وصافيتا ، وبلاد سيس .

وقد غزا بيبرس بلاد السودان واحتاز منها جزءا ، إلى جانب ما احتازه . فهابه
الناس ، ودان له الملوك والأمراء ، وامتد في عهده ملك مصر ، وانتشر سلطانها
شرقا وغربا ، وهيببت منزلتها . وظل بيبرس سلطانا عليها يملأ الدنيا مهابة ، زهاء سبعة
عشر عاما . ثم مرض وتوفي بدمشق ودفن بها عام ٦٧٦ هـ .

وأهم ما يتصف به بيبرس : الشجاعة والإقدام على الحروب وحسن ترتيبها ،
مع الدهاء والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء . وكان يكرم العلماء وينطوى
تحت مشورتهم ، ويقربهم . وكان بعضهم يحاشونه في الحديث والنصيحة فلا يبطش به
لخاشته ، وكان يهاب سلطان العلماء في زمانه وهو « عز الدين بن عبد السلام » .
ووقعت بينه وبين عبد الله يحيى النووى أحد علماء الشام مكاتبات أغلظ له فيها
النووى النصيحة ، فما زاد على أن نفاه من دمشق (١) . وبعث إليه ابن مالك النحوى
صاحب الألفية المشهور رسالة من الشام يستعينه فيها على صلاح حاله ، فأعانه .

ومن أجل أعماله : أن أمر بإبطال شرب الخمر ومقارفة الزنا ، وأشباه ذلك من
المفاسد . وشدد النكير على مقترفي هذه الآثام ، حتى شدا بذكره بعض شعراء
عصره ، وتفكك بذلك بعض منهم آخر (٢) كما أنه نظم البريد وخصص له الخيل ، وبنى
كثيرا من العمارات ، ومن بينها مسجده الشهير . وجدد المسجد النبوى الشريف ، وشاد

(١) انظر الأغراض السكتائية في الجزء الرابع من هذا الكتاب

(٢) انظر باب « الزجل » في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

القناطر والأسوار ، وحفر الترع والخلاجان ، إلى غير ذلك من ضروب الإصلاح والإنشاء .

وقد انتاب البلاد في عهده قحط وغلاء ، وكان به ميل إلى ظلم الرعية والقسوة عليها بفرض الضرائب المرهقة ، بدعوى الحاجة إلى المال للجهاد وإعداد الجند ، مع امتلاء بيت المال بالمال غير أنه لم يكن به ضئيلة على جنده . واتهمت طائفة من نصارى القاهرة بإحداث الحرائق في بعض أحيائها ، فكاد يحرق أفرادها عقابا لهم ، لو لا شفاعة بعض أمرائه ، فعفا عنهم بعد أن دفعوا له غرما ماليا .

ومن أهم الحوادث في عهده ، أولا : أنه أقام خلافة عباسية ثانية مركزها مدينة القاهرة ، وذلك بعد أن زالت الخلافة العباسية الأولى من بغداد على يد التتار . فكان في عمله هذا كسب أدبي لمصر ، وتأهيل لزعامة العالم الإسلامى وجعل القاهرة مركزا للعلوم الإسلامية . ثانياً : أنه أعاد خطبة الجمعة والدراسة إلى الجامع الأزهر وجامع وعمره هو وجامع الحاكم بعد أن هجرا زمنا طويلا . ثالثاً : نصب أربعة قضاة شرعيين ، واحدا من كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة ، بعد أن لم يكن بالبلاد إلا قاضى قضاة شافعى واحد يقضى بمذهب الإمام الشافعى . رابعا : أمر بأن يطاف بالمحمل حين خروجه من مصر إلى الأراضى المقدسة . - وولى الملك بعده ابنه الملك السعيد .

٥ - السعيد « أبو المعالى محمد » ٦٧٦ هـ - ٦٧٨ هـ

هو أبو المعالى محمد بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس ، ولى الملك بعد أبيه سنة ٦٧٦ هـ ، وهو فى الثامنة عشرة من عمره تقريبا . فبطش ببعض الأمراء ، فأضمرُوا له الحقد والضغينة ، وحاكوا له المؤامرات ، وأعلنوه بالحرب حتى اضطر إلى أن يخلع نفسه من السلطنة ، وينزح إلى السكرك ، حيث مات بعد قليل ، ونقل إلى دمشق

ودفن مع والده . وكان خلعه بعد نحو سنتين من حكمه عام ٦٧٨ هـ . وما يذكر أنه كان زوجا لابنة قلاوون الذى ملك فيما بعد . وولى الملك بعده أخوه الملك العادل .

٦ - العادل « سيف الدين سلامش » ٦٧٨ هـ

هو سيف الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس . ولى الملك بعد خلع أخيه . وكان عمره سبع سنوات . فاستبد بتدبير دولته الأمير « قلاوون » أتابك العسكر . فكان يخطب له مع السلطان يوم الجمعة ، وضربت النقود باسميهما . ثم صفوا وجه الأمور لقلاوون ، فخلع العادل ونفاه إلى السرك ، بعد مائة يوم من سلطنته ، وفى نفس السنة التى ملك فيها . ثم ولى قلاوون السلطنة .

٧ - المنصور « سيف الدين قلاوون » (١) ٦٧٨ هـ - ٦٨٩

هو سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى النجمى ، ولقب بالمنصور . ولى الملك سنة ٦٧٨ هـ . وكان من قبل مملوكا يبيع للأمير علاء الدين آق سنقر ، ثم ملكه الصالح نجم الدين الأيوبي ، فضمه إلى ممالكه البحرية . ثم أعتق . ولبث يترقى فى سلك الإمارة حتى صار أتابكيا فى عهد العادل بن بيبرس . وقد اشترك من قبل فى حوادث البحرية .

ويعتبر « قلاوون » من أعظم سلاطين هذه الدولة ، لما قام به من فتوح وأعمال جليلة ، ولأنه رأس أسرة قلاوون التى تتابع على عرش مصر منها أربعة عشر ملكا . وحكموها وحدهم قرابة مائة عام . وكان « قلاوون » مغرما بشراء الممالك الجديدة ، قيل : بلغت عدة ما اشتراه اثنى عشر ألف مملوك . وقيل : أقل .

وبعد توليته بقليل خرج عليه نائبه بدمشق الأمير « شمس الدين سنقر الأشقر »

(١) فى السلوك والبدائع ونحوهما تراجم لقلاوون . وكذلك فى فوات ابن شاکر ج ٢ ص ١٦٦

وأعلن بنفسه ملكا عليها وتلقب بالملك الكامل ، فأرسل إليه مملوكه « طرنطاي » وكان نائب سلطنته بمصر ، فما زال به « طرنطاي » حتى استسلم . ودانت بلاد الشام ثانية للمنصور . وكان التتار قد شرعوا في الهجوم على بلاد الشام ، وخربوا مدينة حلب . فوثب عليهم « قلاوون » بجند كثيف ، وشتت شملهم في مدينة « حمص » ، وأخذ يعاود حربهم ، حتى قل من عزيمتهم ، وثبط من همتهم ، وارتدوا عن الشام خائبين . وحاصر مدينة « طرابلس » أربعة وثلاثين يوما ، حتى انتزعها هي و « حصن المرقب » من يد الفرنجة . وخرب « طرابلس » وبني على مقربة منها مدينة « طرابلس » الحالية وغزا بلاد النوبة مرتين ، واستولى منها على غنائم وأسلاب كثيرة .

ثم مات المنصور بعد مرض ، وبعد أن حكم نحو إحدى عشرة سنة ، وبعد أن أذل التتار والفرنجة وأخضع الشام . وكانت وفاته عام ٦٨٩ هـ

ومن أجل آثاره « البيمارستان » المنصوري الذي أنشأه بالقاهرة ، وهو مستشفى عام لكثير من الأمراض ، ومدرسة طبية . وكانت الفقراء تعالج فيه بالمجان . وفيه قبة عظيمة دفن فيها . وله كذلك مسجد مشهور . وقيل : إن سبب بناء « البيمارستان » أن المنصور توهم أن العوام خالفوا أمره وخرجوا عليه ، فأمر جنوده فأعملوا السيف في رقابهم جزافا ثلاثة أيام ، حتى قتلوا منهم عددا لا يحصى ، وأخذ المسيء والبريء . ثم بدا له سوء عمله ، فكف عنهم ثم ندم . ثم بنى هذا المسجد تكفيرا لذنبيه ، وأوقف عليه أوقافا لا تحصى . كما أوقف غيرها على أعمال البر والإحسان .

ومن حسناته كذلك ، أن ألغى بعض الضرائب المرهقة ، ومنها ما كان يتقاضاه ناظر المال زكاة خاصة للمال ، من صاحبه أو من ورثته بعد موته ، ولو بعدوا ، أو ضاع منهم المال . ومنها ما كان يجبيها المبشرون بفتح من الفتوح التي تتم على يد السلطان . ومنها رسم السماط الذي يجبي من الناس للاحتفال بوفاء النيل - وولى الملك من بعده ابنه الأشرف خليل .

٨ - الملك الأشرف « صلاح الدين خليل » (١) ٦٨٩ هـ - ٦٩٣ هـ

تولى الملك بعد وفاة أبيه ، بعهد منه ، وذلك فى سنة ٦٨٩ هـ - وكان بينه وبين نائب السلطنة « طرنتاى » فى عهد أبيه بغية ، فقتله فى بدء ولايته ، مع أنه هو الذى حفظ له العرش من عبث الأمراء ، وهو الذى عفا عن الملك وتركه لابن سيده هذا ، مع إغراء بعض الأمراء له بالاستيلاء عليه . ثم أناب السلطان مكانه الأمير « علم الدين الشجاعى » . ولما كان هناك وزير ذو صلة وثقى بالسلطان ، وهو ابن السعلوس ، فكان هو المتصرف الحقيقى فى شئون دولته .

وقد حارب الأشرف فى بلاد الشام ففتح مدينة « عكا » بعد أن رماها بالمنجنق وهدم سورها وقلعتها ، وكانت بيد الفرنجة . وفتح « بيروت » وغيرها ، ثم دخل مصر عائدا دخول الفاتحين .

غير أن الأشرف اشتط فى القبض على أمرائه والتسكيل بهم بالسجن أو الخنق ، وسمع وشاية وزيره ابن السعلوس فى الأمير « بيدرا » وهو من كبار الأمراء ، فأثخنه بهجر القول . فما كان من « بيدرا » إلا أن تأمر هو وبعض الأمراء على اغتياله . فتم لهم ما أرادوا ، عند ما كان الأشرف فى بعض نزهه . فوثبوا عليه وقتلوه قتيلا شنيعة مزقوا فيها جسده شرمزق فى عام ٦٩٣ هـ فمات وهو فى نحو الثلاثين . بعد أن حكم نحو ثلاث سنوات . وملك بعده « بيدرا » .

استقر رأى قاتلى الأشرف على تملك هذا الأمير ، فهو رأس المؤامرة ، ولقبوه

(١) بدار الكتب المصرية كتاب عن الأشرف اسمه « اللطاف الخفية » مؤلفه عبد الله

ابن عبد الظاهر . طبع بباريس ، و برقم ١٨٥٨ تاريخ منه جزء - وفى الفوات ج ١ ص ١٩٣ فصل طويل عن الأشرف أيضا .

« بالملك الأجد » غير أن أتباع الأشرف لم يتركوا « بيدرا » في ليلته تلك إلا مقتولا فلم ينعم بسلطنة ، ولم يعترف به أحد . ولذلك يسقطه كثير من المؤرخين من عداد ملوك هذه الدولة .

٩ - الناصر « محمد بن قلاوون » ٦٩٣ هـ - ٦٩٤ هـ

بويع بالسلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف ، ومقتل « بيدرا » وذلك عام ٦٩٣ هـ وكان في سن التاسعة . وهذه أول تولية له لأنه خلع من السلطنة وعاد إليها مرتين . وفي هذه المرة قام بتدبير الملك له نائب السلطنة الأمير « كتبغا » وكان صغر سن السلطان ، سببا في طمع الأمراء في المملكة ، واضطراب أحوالها . فقامت فتنة شعواء بين الأمير « كتبغا » والأمير « سنجر الشجاعى » جرت بسببها حروب داخلية ، انهزم فيها « الشجاعى » وقتل . فاستبد « كتبغا » بالملك ، ووافقه الأمراء على خلع الناصر ، فخلعه بعد أن حكم أحد عشر شهرا . وتولى السلطنة مكانه . وتم ذلك عام ٦٩٤ هـ .

١٠ - العادل « كتبغا المنصورى » ٦٩٤ هـ - ٦٩٦ هـ

تولى الملك بعد أن خلع الناصر عام ٦٩٤ هـ . وأصله من سببايا التتار الذين أسرهم المنصور قلاوون في موقعة « حمص » ثم أعثقه ، ومازال يرقى حتى أصبح نائب السلطنة ، ثم وثب إلى سرير الملك . ومن أعماله أنه رحل إلى بلاد الشام في السنة الثانية من حكمه ومهد أمورها . وبينما هو في الشام إذ أعلن أمراء مصر خلعه سنة ٦٩٦ هـ بتدبير الأمير « لاجين » نائب سلطنته ، ووثب « لاجين » مكانه إلى السلطنة ، فظل العادل إزاء ذلك ، مقبيا في « صرخد » مخلوعا وإن كان مرعى الجانب مكرما ، وكانت مدة سلطنته في مصر نحو سنتين ، وفيها وقع الغلاء وانتشر الوباء وقصر ماء النيل ، وتوطنت بمصر طوائف من المغول تعرف « بالأويراتية » جلست إليها بأمر العادل . وما يذكر أن العادل هذا لبث ، حتى عاد الناصر بن قلاوون إلى السلطنة ، فولاه

ملكاً على نيابة « حماة » عام ٦٩٩ هـ فظل بها نائبا عن سلطان مصر حتى أدرسته
الوفاة عام ٧٠٢ هـ

١١ - المنصور « حسام الدين لاجين » ٦٩٦ هـ - ٦٩٨ هـ

أصله من معتوقى قلاوون . وكان نائب سلطنة في عهد « كيتغا » فانتهم مقام سلطانه
بالشام ودبر أمر خلعه ، ووثب على سلطنته عام ٦٩٦ هـ . ومن أعماله : أنه جدد بناء
جامع ابن طولون وأوقف عليه أوقافاً طائلة . وأنه أعاد تقسيم البلاد المصرية
إقطاعات جديدة ، وفرقها بينه وبين الأمراء والجنود ، وخص نفسه منها بنصيب
كبير . وهذا التقسيم هو المعروف « بالروك الحسامي » . فكان سبباً في النفرة بينه
وبين الأمراء . ومما زاد النفور ، أنه عين مملوكه « منكوتر » نائبا عنه فزاد نفوذه ،
وكان غاشماً ، أساء إلى كثير من الأمراء . فدبروا مؤامرة لقتلها ، فقتلوا في ليلة
واحدة من عام ٦٩٨ هـ .

العودة الأولى للناصر محمد بن قلاوون ٦٩٨ هـ - ٧٠٨ هـ

بعد أن قتل المنصور لاجين ، استشار الأمراء بعضهم بعضاً فيمن يولونه السلطنة ،
فاتفقوا على إعادة الناصر محمد بن قلاوون . فعاد إلى عرشه بعد أن ظل نحو أربع
سنوات مقصياً عنه . وذلك عام ٦٩٨ هـ . وعاوناه في تدبير شئون الدولة الأميران
« سار » نائب السلطنة و « بيس » الجاشنكير أتابك العسكر (١) وبعد سلطنته بقليل أراد
التتار أن يغزوا بلاد الشام ومصر . فاستعد الناصر برجاله وزحف إلى الشام . وهناك
في « سليمة » قرب بعلبك ، وقعت بين الفريقين معركة حامية ، دارت فيها الدائرة على
الناصر وجيشه ، ففر من وجه التتار . وأمعن التتار في فلول المصريين سلباً ونهباً ،
وفي بلاد الشام قتلاً وتخريباً . فتشاور أهل دمشق فيما بينهم ، فاستقر رأي
علمائهم على طلب الأمان من « غازان » ملك التتار ، فأمنهم ، وكان الأمير

(١) ذكر في السلوك أن بيس هذا كان أستاذاراً .

« قفجق » نائب الشام - كان - هو الذى حسن لغازان غزو الشام ، ولذلك عينه نائبا عنه فيها . - ومع ذلك ظل التتار يعيشون فى بلاد الشام فسادا . وأخذ الناصر بعد فراره يحشد جيشا جديدا لملاقاة أعدائه . ثم زحف إلى بلاد الشام ثانية عام ٧٠٢ هـ ومعه الخليفة وقضاة مصر الأربعة ونحو مائتى ألف جندى . فلاقى جنود « غازان » فى موقعة « مرج راهط » (١) ، فانتصر الناصر عليهم انتصارا حاسما . وأفنى التتار فناء تاما حتى أنه لم ينج منهم إلا القليل ، وغنم منهم غنائم عدة ولكن بعد أن قُتل من أمراء مصر وجنودها وعربانها عدد كبير . - فدانت بلاد الشام بذلك لمصر ثانية ، وخضعت لمشيئة سلطانها . ثم عاد الناصر إلى مصر ، وقد صفا له وجه الملك . وما زال صافيا حتى فسد ما بينه وبين « بيبرس » . فرحل الناصر من القاهرة معلنا بأنه يرحل للحج - ولكنه عند ما وصل إلى السكرك ، خلع نفسه من السلطنة ليولى الأمراء من يشاءون . وذلك عام ٧٠٨ هـ بعد أن حكم فى هذه المرة نحو تسعة سنوات ونصف .

١٢ - المظفر « ركن الدين بيبرس » ٧٠٨ هـ - ٧٠٩ هـ

هو بيبرس الجاشنكير من مماليك المنصور قلاوون . وكان قد ترقى فى عهد الناصر محمد ، فصار أتابكيا . فلما خلع الناصر نفسه عن الملك وقع اختيار الأمراء عليه فرلى السلطنة عام ٧٠٨ هـ . فقبض على الأمراء الموالين للناصر ، فكان ذلك سببا فى هروب بعضهم إلى الناصر والاجتماع به بالسكرك . فأرسل المظفر إليه يهدده بسبب من يجتمع إليه من الأمراء . فثار غضب الناصر وكاتب نواب بلاد الشام فى

(١) ذكر فى السلوك أنهم تلاقوا فى « شقج » ، وروى فى البدائع « فى مرج راهط » وذكر كل موضعه أنه « تحت جبل غباغب » قريبا من دمشق . وقيل إن « مرج راهط » هو « شقج » أو « مرج الصفر » راجع العبر لابن خلدون ج ٥ ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

أن يكفوا عنه أذى المظفر بيبرس . فأظهروا خضوعهم للناصر وطاعتهم . فلما رأى ذلك ، سار إلى بلاد الشام ودخلها ملكا وسلطانا ، وخطب باسمه على منابرها . فكان ذلك خير تمهيد لعودته ثانيا إلى عرشه بمصر . ولما رأى المظفر بيبرس أن الأمراء ينحازون إلى جانب الناصر ، كاتبة بخضوعه له ونزوله عن الملك . وعرض عليه أن يعيش في إحدى مدن الشام ثم إنه فر في بعض خواصه إلى صعيد مصر . وزحف الناصر إلى البلاد المصرية منتصرا . فلما دخلها سنة ٧٠٩ هـ ، أرسل أمانا إلى المظفر بيبرس وأمره بأن يسير من صعيد مصر إلى الكرك مباشرة . على شرط أن يرد جميع الأموال والتحف والماليك الذين غصبهم من بيت المال والخزائن . ففعل وامثل الأمر ، وسار متوجها إلى الكرك . وبينما هو في طريقه إليها إذ قبض عليه وأُتي به إلى القاهرة ، ثم خنق أمام الناصر . - وكانت مدة حكمه عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

العودة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩ هـ - ٧٤١ هـ

عاد إلى سلطنة سنة ٧٠٩ هـ بعد أقل من عام مضى على مفارقتها . ولما دخل القاهرة وصعد إلى القلعة ، بايعه الخليفة المستكفي بالله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . ثم قبض على الملك السابق وأعدمه كما بينا . ثم أخذ في القضاء قضاء حاسما على أعدائه والمؤتمرين به . ويظهر أنه رأى أن نواب السلطنة خطر عليه ، فكان يفتك بالواحد منهم تلوا الآخر ، ثم ألغى نيابة السلطنة . ورحل في عسكر كثير العدد إلى بلاد الشام ، ومنها إلى البلاد الحلبية ، على أمل أن يلتقي بالنتار . ولكنهم لم يجسروا على لقائه . فامتد نفوذه في أرجاء تلك البلاد حتى هابه الناس . وخطب باسمه على منابر بلاد المغرب ، وسعت إلى وده الملوك ، وأرسلت إليه الهدايا النفيسة . وذخرت خزائنه بالمال . وبلغ ما كان لديه من الممالك والأمراء نحو أربعة وعشرين ألفا

وقيل: بلغ عدد ما اشتراه اثني عشر ألفاً، وألبسهم الأقمشة الثمينة، وقلدهم السيوف المحلاة. وامتألاً عصره بكثير من مشهورى العلماء والأدباء والشعراء.

ومن أعماله: أنه قسم البلاد الشامية و البلاد المصرية إلى إقطاعات جديدة بينه وبين الأمراء والجنود. وهو يخالف التقسيم الذى تم فى عهد الملك المنصور حسام الدين لاجين. ويعرف التقسيم الجديد باسم «الروك الناصرى». وقد قام الناصر ببناء جملة قصور وعمارات ومساجد وقناطر. وهو الذى حفر الخليج الناصرى عام ٧٢٤ هـ، ومن ذلك الحين أصبح لكسر سده كل عام يوم حافل. وهو الذى أنشأ حوش القلعة، وجملته ببستان بديع. وحج مرتين (١) وبصحبة الملك المؤيد صاحب حماة وجمع من كبار الأمراء. وأهدى إلى السكعبة الشريفة فى حجته الثانية سنة ٧٣٢ هـ باباً من خشب السنت الأجر، مغطى بالفضة. وقد ضيق الناصر الخناق على البغايا وأهل الفساد، وأبطل بعض المكوس الظالمة. وولد أحد عشر ولداً ذكراً، اعتلى عرش البلاد منهم ثمانية، وقد مات الناصر عام ٧٤١ هـ، بعد أن اتسع ملك مصر فى عصره شرقاً وغرباً، وهابتها جيرانها وثبتت دعائم دولتها. وهو بلاريب من أعظم سلاطين الدولة، ولا يدانيه منهم سوى أبيه المنصور قلاوون، والظاهر بيبرس. وكان مجموع السنين التى حكم فيها فى المرات الثلاث، نحو ثلاث وأربعين سنة وثمانية أشهر. وقد تولى من بعده ابنه أبو بكر، وكان قد عهد إليه قبل وفاته.

١٣ - المنصور «سيف الدين أبر بكر» ٧٤١ هـ - ٧٤٢ هـ

هو ابن الناصر محمد بن قلاوون. بويع بالسلطنة بعد موت أبيه عام ٧٤١ هـ. وكان أبوه قد جعله ولياً لعهد، مع أنه ليس أكبر أبنائه. وجلس على سرير الملك

(١) خرج الناصر للحج ثلاث مرات. ولكن فى المرة الاولى عدل عن الحج وأقام فى

وعمره نحو العشرين . ولكنه لم يدم فيه سوى تسع وخمسين ليلة ، ثم دبرت ضده المؤامرات ، فقبض عليه الأتابكي « قوصون » ، وأرسله إلى السجن بمدينة قوص ، وهناك قتل . وتولى من بعده أخوه .

١٤ - الأشرف « علاء الدين كجك » ٧٤٢ هـ

وهو ابن الناصر محمد ، ولي السلطنة بعد خلع أخيه وذلك في أوائل سنة ٧٤٢ هـ وكانت سنه حينئذ أقل من ثمانى سنوات . فاستبد الأتابكي « قوصون » بالأمر وكان قد جمع بين الأتابكية ونيابة السلطنة . وقد اضطربت أحوال الدولة ، ووقع الخلف بين الأمراء . فتجمع عدد من أمراء الشام حول « أحمد بن الناصر محمد » وكان مقبلا بالسكر - وهو أكبر إخوته - فرغبوا إليه في أن يلى السلطنة عوضا عن أخيه « كجك » ، وتوجهوا جميعا إلى مصر فوقعن فتن إذ ذاك كثيرة ، أدت إلى القبض على « قوصون » وخلع السلطان الأشرف « كجك » . وتولى مكانه أحمد . فزال ملك كجك في عام توليته بعد أن حكم خمسة أشهر تقريبا .

١٥ - الناصر « شهاب الدين أحمد » ٧٤٢ هـ - ٧٤٣ هـ

هو أكبر أبناء الناصر بن قلاوون . ولي الملك بعد خلع أخيه سنة ٧٤٢ هـ ، وأول عمل قام به ، أمره بقتل سبعة من الأمراء ، وسجن آخرين ممن توهم فيهم العداوة له . فكان هذا سببا في نفور قلوب الجند منه . ثم إنه أقام بالسكر زمنا طويلا ، ولم يلتفت إلى شئون الرعية . فنظر الأمراء في الأمر ، وقرر قرارهم على أن يطلبوا إليه الحضور . فلم يلب لهم طلبا . فقرروا خلعه وتولية أخيه اسماعيل . وهكذا انتهت سلطنته بعد شهرين واثني عشر يوما ، في أوائل عام ٧٤٣ هـ . وظل مقبلا بالسكر زمنا ، ثم قتل بأمر أخيه .

١٦ - الصالح « علاء الدين اسماعيل » ٧٤٣ - ٧٤٦ هـ

هو أبو الفداء اسماعيل بن الناصر بن قلاوون . ولى السلطنة عام ٧٤٣ هـ ، بعد عزل أخيه الناصر أحمد . وشغل بقتال أخيه زمنا حتى استسلم له في النهاية ، وقبض عليه وقتل . وكان الملك الصالح محبا للعدل معروف بالبر والإحسان . وقد توفي سنة ٧٤٦ هـ .

١٧ - الكامل « شعبان بن الناصر محمد » ٧٤٦ هـ - ٧٤٧ هـ

بويح بالسلطنة عام ٧٤٦ هـ بعد موت شقيقه إسماعيل بعهد منه . ثم قبض على بعض الأمراء وسجنهم ، وأخذ يصادر أموال المباشرين ، وعادى كثيرا من الأمراء وهم يقتل أخوين من إخوته منهما أخوه « حاجي » ، فكان ذلك سببا في تحزب بعض الأمراء عليه . فدارت بين الفريقين موقعة في جهة قبة الهواء ، انهزم فيها السلطان وولى هاربا . فاتفقت كلمة الأمراء على خلعه وتولية أخيه « حاجي » . وكان ذلك عام ٧٤٧ هـ بعد توليته بنحو سنة وشهرين ونصف . وقد قبض على الكامل فيما بعد ، وخنق في سجنه بأمر أخيه .

١٨ - المظفر « حاجي بن الناصر محمد » ٧٤٧ هـ - ٧٤٨ هـ

جلس على سرير الملك بعد خلعه أخيه الكامل شعبان ، عام ٧٤٧ هـ . وكانت سنة دون العشرين . وفي أول عهده قبض على عدد من الأمراء ، وسجنوا بشهر الإسكندرية ، وأمر بخنق بعض الأمراء الآخرين . ثم إنه اشتغل بتربية الطيور والحمام واللعب بها ، ولها عن النظر الصادق في شئون الدولة ، واستخف بالأمراء . فتغيرت قلوبهم عليه وانفقوا جميعا على خلعه . ف وقعت بين الفريقين موقعة رائعة أسرى الملك « حاجي »

على إثرها ، فسيجن ثم خنق فمات ، بعد سلطنة دامت سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما ، وكان ذلك عام ٧٤٨ هـ . ثم ولى الملك من بعده أخوه .

١٩ - الناصر « أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد » ٧٤٨ هـ - ٧٥٢ هـ

ولى الملك بعد أخيه « حاجى » عام ٧٤٨ هـ ، إذ اجتمع رأى الأمراء بعد لآى - على توليته . وكان عمره حينئذ ثلاث عشرة سنة . فعاون به بعض الأمراء فى تدبير ملكه . ووقع فى زمنه طاعون جارف وهو وباء عام ٧٤٩ هـ الذى أهلك كثيرا من الناس واشتد بسببه الغلاء . وقامت فتنة شديدة فى بلاد الشام ، إذ اعتدى نائب طرابلس « جبغا » على دمشق واعتال نائبها « أرغون شاه » ، فوثب جندها على نائب طرابلس ، وقبضوا عليه ثم شنقوه . ثم إن بعض الأمراء تأمر على خلع الملك فقبضوا عليه وسجنوه بالقلعة داخل منزل الحرم سنة ٧٥٢ هـ ، بعد أن لبث فى الحكم نحو ثلاث سنين وتسعة أشهر . واختاروا من بعده أخاه صالحا .

٢٠ - الصالح « صلاح الدين بن الناصر محمد » ٧٥٢ هـ - ٧٥٥ هـ

بويع بالسلطنة عام ٧٥٢ هـ بعد خلع أخيه حسن . وكان الساعى إلى تملكه الأمير « طاز » ولذلك أصبح هذا الأمير صاحب التصرف المطلق فى شئون الدولة . فدبت عقارب الحسد والبغض له فى قلوب كثير من الأمراء ، وأجمعوا أمرهم على قتاله هو والسلطان . فوقعت حرب أهلية بين الفريقين قرب المطرية عند خليج الزعفران ، قتل فيها عدد كبير من الأمراء . ثم انتصر السلطان عليهم وقبض على بعضهم وألقاهم فى السجن . ثم خرج عن طاعته نائب حلب « بيبغا أروس » ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد وغيرهم ، فوقعت البلاد الشامية فى فتنة قاسية بسبب ذلك . فسار إليهم السلطان بعسكر كبير ، وطاردهم « بيبغا » حتى هرب إلى بلاد

التركان . وقبض السلطان على كثير من جنوده ، وأعدم بعض الأمراء المنضمين إليه ، وسجن بعضا آخر . ثم عاد إلى القاهرة في حفل عظيم .

وقد مات في زمنه الخليفة المستنكى بالله العباسى فتولى الخلافة ابنه أبو بكر المعتضد بالله . وثار عربان الصعيد فأخذ ثورتهم ، وغنم منهم أسلابا عدة ، وأسر نحو سبعمائة نفس منهم ، وأعدمهم في القاهرة .

وبعد أن حكم نحو ثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصف ، دبرت مؤامرة لخلعه بزعامة الأمير « شيخو العمرى » ، مع أن هذا الأمير كان مسجوناً من قبل ، فأطلقه هذا الملك وقد نجحت مؤامراته ، فقبض على السلطان ، وسجن بمنزل الحرم بالقلعة أيضا . واتفق الأمراء على إعادة الناصر حسن إلى العرش ثانياً . وكان خلع الملك الصالح عام ٧٥٥ هـ .

عودة الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ٧٥٥ هـ - ٧٦٢ هـ

عاد إلى العرش في سنة ٧٥٥ هـ بعد خلع أخيه الصالح . وكان طبعياً أن يطلق يد الأمير « شيخو العمرى » ، ألا تباكي في الملك . وقد شاركه في ذلك الأمير « صرغتمش » . وقد بنى الأمير « شيخو » مدرسة جليلة الشأن ، ودورا ، وخانقاه ، وغير ذلك من العمارات النافعة ، ثم أوقف عليها أوقافاً واسعة . وكذلك فعل السلطان حسن ، إذ أنشأ مدرسته المشهورة عام ٧٥٧ هـ .

وكان أحد المماليك يحقد على الأمير « شيخو » ، فغافله مرة وعاجله بضربة ، كانت القاضية . وبموته خلا الجو للأمير « صرغتمش » . وسرعان ما فطن السلطان إلى تضخم نفوذه ، فخشى عاقبته ، فعجل بالقبض عليه . فثار ثائرة أتباعه فأخذها السلطان ، وسجن كثيراً منهم ، ثم أنه خنق « صرغتمش » وهو في سجنه . إلا أن الفساد كان قد امتد ، حتى لحق « بيلغا » الناصرى بملوك السلطان ، فثار على سيده وهزمه وقبض عليه ،

ثم سجنه . وقيل : إنه خنقه ورماه في البحر ، لأن جشته لم يعثر لها على أثر . وذلك عام ٧٦٢ هـ . وكانت مدة حكمه زهاء عشر سنوات ونصف . ومن أعمال هذا السلطان : أنه نزع بعض الأراضى المحبوسة على منافع السكائن والأديرة ، وأنعم بها على الأمراء ، وأنه أبطل كثيرا من العادات التقليدية الخرافية ، وكثيرا من أنواع الفساد .

٢١ - المنصور (محمد بن المظفر حاجي) ٧٦٢ هـ - ٧٦٤ هـ

هو حفيد الناصر بن قلاوون . بويع بالسلطنة بعد مقتل عمه الناصر حسن عام ٧٦٢ هـ . وكان عمره حينئذ أربعة وعشرين عاما . وقد قام بتدبير ملكه الأمير « يلبغا » العمرى الناصرى الذى أصبح أتابكيا . وفى أول عهده بالحكم ، أفرج عن كثير من الأمراء المسجونين . ثم اضطربت عليه أحوال البلاد الشامية ، فخرج إليها فى عدد من أمرائه ، وجمع من جنده ، وأحمد فتنتها ، وقبض على زعمائها ، ثم عاد إلى القاهرة . فلما لبث إلّا ريثما قبض عليه الأمير « يلبغا » وخلعه وسجنه بالقلعة ، وولى بدله ابن عمه . وذلك فى عام ٧٦٤ هـ بعد أن حكم نحو سنتين وأربعة أشهر .

٢٢ - الأشرف « شعبان بن حسين » ٧٦٤ هـ - ٧٧٨ هـ

هو أبو المعالى زين الدين شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون . ولى الملك بعد خلع ابن عمه المنصور عام ٧٦٤ هـ ، وكانت سنه العاشرة . فدبر له الملك الأمير « يلبغا » العمرى ، وفى عهده غزا صاحب قبرص مدينة الإسكندرية وخرّبها . فسار إليه السلطان فى جمع كثيف ، ولكنه وجده قد غادرها إلى بلاده . ثم ثارت جماعة من أمراء المماليك على السلطان والأتابكى « يلبغا » ، وخالفوا أوامرهما ، ف وقعت بين الفريقين معركة هائلة ، كادت تدور دائرتها على السلطان وجنوده . ولكنهم انتصروا فى النهاية ، وتمكنوا من القبض على أعدائهم ، فسجنوهم بالإسكندرية

ثم إن الأتابكي «يلبغا» قام بتشديد عمارة بحرية كبيرة ، لاستخدامها في الذود عن الشواطئ المصرية ، وحمايتها من عبث الفرنجة . وفي يوم إنزال هذه السفن إلى النيل أقيم احتفال رائع ، شهده السلطان . فلما انتهى من شهود الاحتفال عبر إلى جهة الجزيرة ومعه أتابكية «يلبغا» ، وكان «يلبغا» قد عذب طائفة من مماليكه . فانتهزوا هذه الفرصة ، واقتحموا عليهما مخيمهما . ففر «يلبغا» إلى القاهرة ، أما السلطان فقد وقع في قبضة يدهم وانقاد لهم . وبينما كان هذا يحدث في ناحية الجزيرة ، إذ اجتمع عدد من الأمراء والمماليك بزعامه «يلبغا» وملكوها عليهم أخا السلطان الأشرف ، وهو «أنوك بن حسين» ، واجتمع الجمعان متقابلين على شاطئ النيل وتراشقا بالنشاب ، وتراميا بقذائف النفط . ثم تمكن الملك الأشرف من العبور إلى القاهرة خفية وصعد إلى مقره بالقلعة ، فالتفت به طوائف عدة من الأمراء والجند المواليين له ، فقتل ذلك في عضد الفريق الآخر فتخاذل . ثم قبض على «يلبغا» وقتل شر قتله .

هذا وقد شبت في عهد ذلك السلطان فتن متعددة منها ما دبر لحملعه من السلطنة وفي عهده أيضا اشتدت فتن الأمراء ، وزاد خطر المماليك الجند ، وضعف السلطان عن كبح جماحهم ، كما اشتد خطر الفرنجة على ممتلكات الدولة ببلاد الأرمن والشام ، ونهبوا المدن وقتلوا المسلمين . وفي عهده تفشى وباء جارف في القاهرة ، وانتشر الجراد في دمشق وضواحيها ، وثارَت العامة على بعض الأمراء .

وخرج السلطان إلى الحج عام ٧٧٨ هـ وبصحبته الخليفة والقضاة الأربعة وكبار الأمراء ، فانتهز بعض الأمراء الباقيين في القاهرة ، فرصة غيابه وثاروا ضده ، وملكوها عليهم ابنه عليا . وكانت المماليك المصاحبة للسلطان شعبان في ركبه ، قد ثاروا به أيضا ناحية العقبة ، وكادوا يفتكون به ، لولا أنه فر ودخل إلى القاهرة محتفيا ، فدلّت على مكانه إحدى النساء ، فقبض عليه الجند ، ثم سجن

وُخْنِقَ فِي ذَلِكَ الْعَامِ . بَعْدَ أَنْ قَضَى فِي السُّلْطَنَةِ نَحْوَ أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةً . وَمِنْ عَجِيبِ الْأَمْرِ أَنْ يَقُولَ بَنُ إِيَّاسَ : « إِنَّ أَيَّامَ هَذَا السُّلْطَانِ كَانَتْ هَادِئَةً مِنَ الْفِتَنِ ، مَعَ أَنْتَاهَا عَلِمْنَا أَنَّهَا كَانَتْ مَلَأَى بِهَا .

٢٣ - الْمَنْصُورُ « عَلِيُّ بْنُ شُعْبَانَ » ٧٧٨ هـ - ٧٨٣ هـ

هُوَ ابْنُ الْمَلِكِ السَّابِقِ . وَلَى الْمُلْكَ فِي غَيْبَةِ أَبِيهِ عَامَ ٧٧٨ هـ . وَكَانَتْ سَنَتُهُ نَحْوَ سَبْعِ سِنَوَاتٍ . وَقَدْ أَصْبَحَ الْأَتَابِكِيُّ « أَيْنَبُكَ الْبَدْرِيُّ » صَاحِبَ الْحَوْلِ وَالطَّوْلِ فِي دَوْلَتِهِ . وَامْتَلَأَتْ أَيَّامُ هَذَا السُّلْطَانِ بِالْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ الدَّاخِلِيَّةِ بَيْنَ الْأَمْرَاءِ . وَهِيَ حُرُوبُ أَطَاعٍ وَأَهْوَاءٍ . وَكَانَتْ إِحْدَى نَتَائِجِهَا أَنْ قَبِضَ عَلَى الْأَتَابِكِيِّ « أَيْنَبُكَ » ثُمَّ سَجَنَ . وَمَا زَالَتْ الْفِتَنُ تَتَرَى ، وَالْوَقَائِعُ يَنْدَلِعُ لَهَا بِهَا ، إِلَى أَنْ تَوَفَّى السُّلْطَانُ بَعْدَ أَنْ مَرَضَ زَمَانًا . وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٧٨٣ هـ بَعْدَ أَنْ حَكَّمَ نَحْوَ خَمْسِ سِنَوَاتٍ . وَمِمَّا يَذْكَرُ أَنَّ الْأَمِيرَ « بَرْقُوقَ » الْعُثْمَانِيَّ - الَّذِي أَسَّسَ الدَّوْلَةَ الْجُرْكَسِيَّةَ فِيمَا بَعْدَ - قَدْ ظَهَرَ فِي عَهْدِ هَذَا السُّلْطَانِ ظُهُورًا قَوِيًّا وَسَطَ هَذِهِ الْفِتَنِ . وَأَخَذَ يَسْتَعْبِدُ بِأُمُورِ الدَّوْلَةِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْأَتَابِكِيَّةِ . وَبِذَلِكَ صَارَ صَاحِبَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِيهَا .

٢٤ - الصَّالِحُ « أَمِيرُ حَاجِ بْنِ شُعْبَانَ » ٧٨٣ هـ - ٧٨٤ هـ

هُوَ ابْنُ الْأَشْرَفِ شُعْبَانَ ، وَأَخُو السُّلْطَانِ السَّابِقِ . بُويعَ بِالسُّلْطَنَةِ عَامَ ٧٨٣ هـ بَعْدَ وَفَاةِ أَخِيهِ . وَكَانَ فِي نَحْوَ الْحَادِيَةِ عَشْرَةِ . فَقَامَ بِتَدْيِيرِ مَلِكَةِ الْأَتَابِكِيِّ « بَرْقُوقَ » الْعُثْمَانِيَّ الْجُرْكَسِيَّ . وَقَدْ قَامَ هَذَا الْأَمِيرُ بِأَعْمَالٍ جَلِيلَةٍ مِنْهَا أَنَّهُ أَرْسَلَ حَمَلَةً تَأْدِيبِيَّةً إِلَى التَّرْكَانِ الْمُغِيرِينَ عَلَى الْبِلَادِ الْحَلَبِيَّةِ ، وَطَرَدَهُمْ مِنْهَا . وَأَدَبَ عَرَبَ الْبَحِيرَةِ الشَّائِرِينَ . وَأَقَامَ جَسْرًا عَظِيمًا عَلَى أَحَدِ خِلَاجَانِ النِّيلِ جِهَةَ الرُّوَضَةِ . إِلَّا أَنَّ نَفْسَهُ حَدَثَتْهُ

بالتوثب إلى السلطنة . فأخذ يعد العدة لذلك . ففرض على جماعة من منازعيه من الأمراء ، ثم عمل على خلع الملك الصالح ، فجمع لذلك مجلسا من الخليفة والقضاة وكثير من الأمراء وتشاوروا في الأمر ، فوافقوا على خلع السلطان الملك الصالح ، وتولية الأتابكي برقوق العثماني . بحجة أن الرعية فسدت وساءت أحوالها . وكثر خروج العربان عليها ، وذلك لصغر السلطان . فهي في حاجة إلى سلطان كبير . . ! وقد تم ذلك عام ٧٨٤ هـ . وبذلك انتهت الدولة البحرية . وبدأ عهد الدولة الجركية . وبرقوق العثماني الجركي هو مؤسسها . وقد حكم « أمير حاج » في هذه السلطنة نحو سنة وسبعة أشهر .

دولة الممالك الجر كسية

٥٧٨٤ - ٥٩٢٣

تلك هي الدولة الثانية من دولى الممالك . وأصل ملوكها من الجنس الجر كسى . ولعل هذا الاختلاف اليسير فى الجنسية بينهما ، هو السبب فى أن يعتبرها المؤرخون دولة أخرى جديدة مغيرة للماضية . مع أن الحق فى أنهما لا يفترقان فى مظهر جوهرى ، لأن ملوكهما من معتوقى الممالك المشتراة أو من أبنائهم ، ولأنهما لم يتبعيا فى الحكم إلا نظاما واحدا فى أصل حقيقته . على الرغم من أن النظام الوراثى للسلطنة . كان أكثر مراعاة فى الدولة البحرية . وعلى الرغم من أن الثورات والفتن والمؤامرات الداخلية . قد نشطت فى الدولة الجر كسية ، وعلى الرغم من فساد الجند ، ومن اختلاط أجناسهم ، وعدم العناية التامة بتربيتهم ، فى الدولة الثانية ، بالنسبة لما كان من ذلك فى الدولة الأولى .

أما ماعدا ذلك فهما فيه متشابهتان . فقد امتد نفوذ مصر المستقلة فى عهديهما ، فملككت بلاد الشام والحجاز فى أكثر الأيام . وبسطت نفوذها أحيانا على بلاد السودان والمغرب ، وما وراء بلاد الشام نحو الشرق . وشغلت بمحاربة التتار والفرنجة والسلاجقة . ويتشابه ملوك هاتين الدولتين فى حب الظهور بمظهر المحافظة على الدين والغيرة على الشريعة ، فهابوا العلماء وقرّبوا أهل الدين والصالحين . واندفعوا إلى وقف بعض ممتلكاتهم على وجوه البر ، وبنوا المساجد والمدارس والمستشفيات والسبل . كما يتشابهون فى النشأة العسكرية والصبر على الكفاح ، كما أن نظام العمل وترتيب الدواوين وما إلى ذلك ، كان يسير فى الدولتين على وتيرة واحدة تقريبا . ولهذا لا أفهم كبير معنى لجعلهما دولتين لا واحدة ، إلا ما ذكرنا من اختلافهما فى التركيبة

والجركسية . وإلا ماراعاه البعض من أن « البحرية » كانوا يسكنون أول أمرهم قلعة الروضة ، وأن الجركسية كانوا يسكنون قلعة الجبل . وأصلهم من رعايا مملكة خوارزám ، أكثر المنصور قلاوون من شراهم ، حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف وسبعائة ، وأسكنهم في أبراجها . ولذلك يسمون أيضا « البرجية » (١) . غير أنه من الحق أيضا أن بعض السلاطين البحرية لم يكونوا من سكان قلعة الروضة ، وأن بعض السلاطين الجركسية أو البرجية لم يكونوا من سكان أبراج قلعة الجبل . ومهما يكن من شيء فأول ملوك الجراكسة هو « برقوق » بن آنص العثماني ، وعددهم جميعا واحد وعشرون ، عدا سلطنة أحد آل قلاوون ، وأحد الخلفاء العباسيين كما نبينه فيما يلي :

١ - الظاهر « برقوق العثماني » سيف الدين ٧٨٤ هـ - ٧٩٠ هـ

هو برقوق بن آنص الجركسي ، وينسب إلى الخواجا « عثمان » تاجر الرقيق الذي جلبه إلى مصر . وقد أسعده الحظ حتى وصل إلى الأتابكية في عهد الملك المنصور علي بن الأشرف شعبان ، فدبر له أمور الدولة ، ثم دبرها لأخيه من بعده ، ثم خلعه ووثب إلى سرير الملك في عام ٨٧٤ هـ . وعلى يده انقضى ملك آل قلاوون تقريبا . وانتقلت الدولة إلى الجركسية .

وقد كان السبب في سلطنته أن الملك آل إلى الصغار من آل قلاوون . فسرحت الفتن في البلاد ومرحت . فرأى الخليفة والقضاة والأمراء ، أن يولوا في الملك رجلا قويا ينقذ الرعية من الفساد . واختاروا أن يكون الأتابكي « برقوق » ، هو ذلك الرجل .

(١) في خطط المقرئى جزء ٣ ص ٣٩١ تحت عنوان « ذكر دولة الممالك الجراكسة » ما يفهم منه أن الذى سماهم البرجية هو المنصور قلاوون . وفى ص ٣٤٨ تحت عنوان « الطباق بساحة الايوان » ما يفهم منه أن الذى سماهم البرجية هو ابنه خليل .

وكان أول ما قام به، أن أهدي الخلع الثمينة والمناصب الرفيعة إلى أتباعه وخلصانه. وقبض على كثير من أعدائه، وأودعهم في السجن دون رحمة. وكان فاتكا قاسيا فهابه الناس، وأبطل كثيرا من العادات الذميمة، وخاصة ما كان يعمل في عيد النيروز، وذلك أن يقف كثير من العوام يقهرون عظماء الدولة على أن يعطوهم مالا. وفي ذلك اليوم، يسكثر تراشقهم بالبيض والتصافع بالأنطاع، إلى غير ذلك. فشدد «برقوق» النكير على القائمين بذلك وضرب على يدهم وهددهم بالشنق، حتى كفوا وارتدعوا عن غيبيهم. ثم بنى مدرسته الشهيرة عام ٧٨٨ هـ ونظم فيها أمر الدراسة. وساق لمقاتلة «تيمورلنك» التنزى جملة من الجنود، فهزمت في ناحية «سيواس» ومنعته العبث بالبلاد الحلبية. ثم شق عصا طاعته بعض أمراء الشام بزعامة الأمير «يلبغا» الناصري نائب حلب، فسير إليهم جنودا كشيفا. ولكن كانت عاقبته الخذلان. وزحف «يلبغا» إلى القاهرة فدخلها بعد قتال يسير. ثم نهبتها جنوده. فنظر الأمراء والخليفة فيمن يولونه سلطانا، ولا سيما أن «برقوق» قد اختفى، فاجتمع رأيهم على إعادة الملك الصالح «أمير حاج» إلى الملك ثانيا. فتم في ذلك عام ٧٩٠ هـ. بعد أن حكم برقوق نحو ست سنين وتسعة أشهر.

عودة الصالح «أمير حاج بن شعبان» ٧٩٠ - ٧٩٢ هـ

وهو من بني قلاوون. وآخر ملوك الدولة البحرية. اتفقت كلمة الأمراء على دعوته للسلطنة ثانيا بعد اختفاء برقوق عام ٧٩٠ هـ. ولقبوه «بالمصور» بدل «الصالح». ودبر له الملك الأمير «يلبغا الناصري» الأتابكي. فجد في البحث عن «برقوق» حتى قبض عليه وسجنه في قلعة الكرك مكرما. ثم شبت فتنة ضد «يلبغا» تزعمها الأمير «تمربغا منطاش». فوقع بين الفريقين معركة حامية الوطيس في جهة الرملة، فانهزم «يلبغا» وقبض عليه، وأصبح «تمربغا» أتابكيا مكانه ويده مقاليد

الأمور . ثم إن «برقوقا» انتهن فرصة الفتن الداخلية والحروب الأهلية الواقعة بين الفريقين ، وبث دعايته في السكر ، حيث كان مسجوناً ، وتحيل حتى ملكها وقوى بها أمره ، ففر إليه عدد كبير من ممالكه ، فاشتد بهم أزره . وعاونته طوائف من العربان . فاستطاع الزحف بكل أولئك إلى البلاد الشامية ، فملكها بعد جملة وقائع وبعد معاناة شديدة ، بينه وبين أهلها ونوابها . هنا خرج الملك الصالح ومعه الأمير « منطاش » والخليفة والقضاة والأمراء والجنود لمحاربة «برقوق» وانتزاع الشام منه . ف وقعت بين الفريقين معركة حامية في «شقحب» ، انهزم فيه «برقوق» . غير أنه ما لبث أن كرّ على أعدائه كرة صادقة فغلبهم ، بعد أن أفنى منهم عدداً كبيراً . فاضطر أمير «برقوق» إلى خلع نفسه من السلطنة وأشهد الخليفة والقضاة على ذلك . فبايعوا «برقوقا» في مكان المعركة ، وعادوا جميعاً وعلى رأسهم سلطانهم «برقوق» ، فدخل القاهرة في حفاوة زائدة ولقاء كريم . وبذلك انتهى ملك آل قلاوون نهائياً من مصر عام ٧٩٢ هـ .

عودة الظاهر «برقوق العثماني» ٧٩٢ هـ - ٨٠١ هـ

عاد إلى عرشه عام ٧٩٢ هـ . وفي أوائل عهده وقعت اضطرابات متعددة في بلاد الشام اشترك فيها « منطاش » . فلما طال عليها الأمد ، أعد السلطان العدة ، وخرج إلى بلاد الشام في عسكر كثيف ، فتمكن من القبض على كثير من أعدائه هناك وأعدمهم عن آخرهم ، وفيهم «يلبغا» الذي كان سبباً في خلعه من السلطنة في المرة السالفة . غير أنه لم يستطع القبض على « منطاش » . ولذلك لما عاد إلى مصر ، لبث « منطاش » وأعوانه يعيثون في بلاد الشام فساداً ، حتى أقلق بال السلطان . فشدد في طلبه حتى قبض عليه وقتل .

وما فرغ برقوق من القضاء على الفتن الداخلية والفتن بمنائيه ، حتى أخذ

« تيمورلنك » التتري يزحف على بلاد الشام ، بعد أن اجتاحت ملك فارس والعراق .
 نجف السلطان للقاءه ومعه أمراؤه وجنوده ، ومعه الخليفة والقضاة . وحينما بلغ
 مدينة حلب ، وافته رُسُل من ملوك عدة يخطبون وده . من بينهم رسول ملك العثمانيين
 « بايزيد » ، يعاهده على أن يتعاونوا لصد التتري . فرحب برقوق بكل هذه الوفادات .
 وسمع التتار باستعداد الجنود المصرية للقاءهم ، ففضلوا العودة إلى مُلُكهم ، وكفوا
 عن الزحف على أملاك الدولة المصرية .

ثم مرض « برقوق » وعهد بالسلطنة من بعده لابنه فرج . ومن أهم آثاره مسجده
 المشهور ، كما أنه أقام كثيرا من الجسور والأسوار والعمائر . وأرصد أوقافا طائلة على
 وجوه البر والإحسان . ثم توفي في عام ٨٠١ هـ . بعد أن حكم في هذه المرة نحو تسع
 سنين وثمانية أشهر . ومات وعمره ثلاث وستون سنة . وهو ولا شك من أعظم
 سلاطين المماليك . وعصره شبيه بعصر الناصر محمد بن قلاوون في كثرة من عاشوا
 فيه من العلماء والأدباء وأفذاذ الرجال . وقد ولي السلطنة اثنان من أبنائه .

٢ — الناصر « فرج بن برقوق » ٨٠١ هـ - ٨٠٨ هـ

هو زين الدين أبو السعادات بن برقوق . ولي الملك سنة ٨٠١ هـ . بعد وفاة
 أبيه بعهد منه فبايعه الخليفة والقضاة وشيخ الإسلام عمر البلقيني والأمراء . وكانت
 سنة حينئذ اثنى عشرة سنة . فدبر له الملك الأتابكي « إيتمش البجاسي » . غير أن
 « إيتمش » المذكور انقلب ضد السلطان بعد قليل . فوقع الفتن بين أنصار الاثنين .
 وتلاقوا في معركة حامية ، فانهزم جند « إيتمش » ففروا إلى الشام ، بعد أن عاثوا في
 القاهرة فسادا . وكان نائب الشام « تنم » قد حدثته نفسه بالخروج عن طاعة السلطان ،
 فتلقى الجنود المهزومة بصدر رحب ، وانضم إليه في عصيانه نواب حلب وحماة
 وصفد وطرابلس ، وقويت شوكرته . فجرد السلطان عليهم جيشا قويا ، وسار هو في

طليعته . فبرز منهم هزيمة منكرة ، ففروا من وجهه . وتمكن أعوانه من القبض على كثير من هؤلاء العصاة وبينهم « إيتمش » فسيجنوا ثم قتلوا . وعين السلطان نوابا جددا عنه في تلك البلاد .

وفي عهده زحف « تيمورلنك » على مدينة حلب ، واستولى عليها وفتك بأهلها ، ومثل بهم أقبح مثلة . فجمع له السلطان فرج عسكريا كشيئا وخرج للقائه . فتلاقى العسكران لقاء جزئيا ثم تصالحا . إلا أن « تيمورلنك » انتهز عودة السلطان إلى مصر ، لتلافي الفتن التي أثارها أمراؤه ، وطرق دمشق ، وأجبر سكانها على دفع أموال طائلة له ، ثم عاث جنده فيها فسادا ، فعذبوا أهلها ، وأثخنوا فيهم قتلا ، وهتكوا أعراض نساءها ، وأسروا عددا ضخما من علماءها وقضاةها وأعيانها وأمراءها وجنودها ، وصنعوا بها أشنع مما صنعوا بمدينة حلب . ثم أشعلوا النار في دورها وتركوها خربة مقفرة ... فهم السلطان فرج بالخروج لملاقاته ، ولكن « تيمورلنك » كان قد تلافي هذا التلاقي ، ورحل عن المدينة ، ونشطت السفارة بين الملوك ، فتصالحا على أن يطلق كل منهما ما لديه من الأسرى .

ومن أهم ما شغل بال السلطان فرج ، الفتن والثورات الداخلية التي أضرم نارها الأمراء فيما بينهم ، بسبب أطماعهم وحقوقهم ونزوعهم إلى العصيان ، واشتداد معاساتهم له . فسم السلطان تلك الحال ، ورأى أن يهجر القلعة - وهي مقر حكمه - ويختفي ... بعد أن حكم نحو ست سنوات ونصف . فاتفقت كلمة الأمراء على تولية أخيه « عبد العزيز بن برقوق » ، وذلك عام ٨٠٨ هـ .

٣ - المنصور « عز الدين عبد العزيز بن برقوق » عام ٨٠٨ هـ

اختاره الأمراء ملكا على البلاد بعد أخيه عام ٨٠٨ هـ . وله من العمر نحو عشر سنوات . فدبر له الأمر الأتابكي « بيبرس » فأثار ذلك حنق منافسيه ولا سيما

الأمير « يشبك الشعباني » . فتجمع أعداء الأتابكي « بيبرس » وجدّوا في إعادة السلطان فرج إلى العرش - وكان محتفيا في منزل أحد أتباعه . فوقعت بين الفريقين المتنازعين معركة هائلة ، انتصر فيها أنباغ فرج . فلما علم بذلك ، أسرع من مخبئه بالصعود إلى القلعة ، وسجن أخاه الصغير ، ولما يمض على سلطنته سوى شهرين وعشرة أيام .

عودة الناصر « فرج بن برقوق » ٨٠٨ هـ - ٨١٥ هـ

عاد إلى عرشه بعد قليل . وفي أوائل عودته خرج عن طاعته بعض أمراء البلاد الشامية ، وكاد يفلت من يده زمام تلك البلاد . وكان من الثائرين بها الأميران : « شيخ الحمودي » و « نوروز الحافظي » . فزحفا على البلاد المصرية بكتائب عدة فلا فاهم الناصر ، فهزموه . فأغرتهم هزيمته على أن يتبعوه إلى القاهرة . فكان هذا سببا في أن يكرّ عليهم ، فهزمهم هزيمة نكراء ، فروا من بعدها إلى الشام . بعد فناء كثير من العسكرين . وقد كانت هذه الفتن المتوالية والعصيان المستمر ، سببا في أن حُلب إلى السلطان استخدام العنف والشذوذ في معاملة المماليك ، حتى كان كثيرا ما يذبح بعض مماليكه بيده . ! فنفرت منه القلوب ، وهجره كثير من الجنود ، وانحازوا إلى أعدائه بالشام . فقويت شوكتهم ، وتجمعوا تحت قيادة الأميرين « شيخ » و « نوروز » . فخفف السلطان فرج إلى لقاءهم بجهة تدعى « اللجون » بالشام ، فهزم وأفل نجمه . فخلع من السلطنة وقبض عليه ، ثم أعدم عام ٨١٥ هـ . بعد أن حكم في هذه المدة نحو سبع سنوات .

ويعتبر الناصر فرج من أعظم سلاطين الدولة الجركسية لشجاعته وبطولته في القتال ، وما جرده من المبانى ، ولا متلاء عصره بكثير من العلماء والأدباء . غير أنه - فيما قيل - كان محبا لشرب الخمر ، ميالا إلى سفك الدماء ، قليل الحرص على الدين ،

ولهذا حكم عليه أعداؤه بالكفر ! . وعانى الناس فى عهده كثيرا من آلام
الظلم والطغيان .

سلطنة الخليفة « المستعين بالله العباس » ٨١٥ هـ - ٨١٦ هـ

هو أبو الفضل العباسى بن الإمام محمد المتركلى على الله . وكان هو خليفة ذلك
العصر من بنى العباس بمصر . ولى السلطنة المصرية فى عام ٨١٥ هـ وحسبما للنزاع القائم
بين الأميرين المتزعمين : « شيخ » و « نوروز » ، على أثر خلع السلطان فرج ، واختلاف
الأمراء فىمن يولونه السلطنة من الأميرين . فاتفق الرأى على تولية خليفة العصر
أبى الفضل العباسى ، لدره أسباب النزاع . وأعطيت بلاد الشام للأمير « نوروز »
ابتداء من غزة إلى بلاد الفرات . أما الأمير « شيخ » فاختار أن يكون أتابكيا بمصر .

وهذا الخليفة هو الوحيد من بنى العباسى الذى ملك مصر زمنا ، دفعته إلى ذلك
أسباب قاهرة خارجة عن اختياره . ونظرا إلى حرج موقفه أمام الأتراك أصحاب
السلطان ، ومعرفته مقدما ما سيثول إليه أمره ، احتاط واستبقى لنفسه منصب
الخلافة ، يعود إليه مستقلا به إذا لم تغلح سلطنته . والواقع أنه لم يكن له من أمره شىء ،
بل كان المستبد دونه بكل شىء هو الأتابكى « شيخ » الحمودى . وكان وجود هذا
الخليفة فى السلطنة ، من باب التمهيد لسلطنة « شيخ » . ولذلك سرعان ما خلعه بعد ستة
أشهر تقريبا ، ووثب بنفسه إلى السلطنة بحجة أن البلاد فى حاجة إلى سلطان تركى ،
يتولى بحسبته قيادها . وذلك فى عام ٨١٦ هـ .

٤ - المؤيد « أبو النصر شيخ الحمودى » ٨١٦ هـ - ٨٢٤ هـ

كان من ممالك السلطان « برقوق » ، فأعتقه . وأخذ يدرج فى مدارج الرقى والإمارة

حتى صار نائب الشام . ثم تعاون هو وصديقه نوروز الحافظي على خلع السلطان فرج . ثم لما تولى الخليفة العباسي سلطنة البلاد من بعد فرج ، استبد به الأمير «شيخ» ، ثم خلعه وجلس مكانه على سرير الملك عام ٨١٦ هـ . وكان «نوروز» ، صديقه نائباً بالشام ، فشق عليه ملك «شيخ» . وخرج عن طاعته ولم يعترف بسلطانه . فما كان من المؤيد إلا أن عبأ الجند وحملهم إلى دمشق وكر بهم على عدوه «نوروز» ، فهزمه وقبض عليه وجز رأسه . وأخذ في تهديد البلاد الشامية والخلبية . ثم عاد إلى مصر . ولكن تكررت ثورة أمراء الشام عليه . فشدد المنكير عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً ، فدانت له هذه البلاد . وقد مرض المؤيد ثم توفي في أوائل سنة ٨٢٤ هـ . ومن أهم آثاره جامعته المشهور بالقاهرة بجوار باب زويلة . وكان المؤيد شجاعاً كريماً محباً للعلم والموسيقى . وقيل كان يفهم العربية وينظم الشعر بها . وتولى بعده ابنه .

٥ - المظفر «أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ» ، ٨٢٤ هـ

اختير للسلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ هـ . وكان رضيعاً لما يفطم . فدبر له الأمر الأمير «ططر» وكان أمير مجلس وليس نائب سلطنة ولا أتابكياً . وكان أتابكي العصر هو الأمير «الطنبغا القرشي» ، وكان قد أرسل على رأس تجريدة لتأديب العصاة من نواب الشام . فلما سمع بسلطنة المظفر . امتنع عن طاعته واستقر ببلاد الشام . فترقى حينئذ الأمير «ططر» إلى منصب الأتابكية بمصر . فلما تم له ذلك ، قوى نفوذه واشتد ساعده ، وتزوج أم السلطان الرضيع ، وعوّل على تأديب «الطنبغا» . فرحل إليه في جند كثير ، وحمل معه في ركبه سلطانه ومرضعته وأمه ، فقبضوا على العصاة وأعدموهم .

ولما شهد «ططر» ما آل إليه أمره من بسطة ملك وصفاء زمان ، خلع السلطان وهو بدمشق ، وأعلن بنفسه سلطاناً على البلاد المصرية وما يتبعها . وبايعه

الخليفة والقضاة والأمراء وذلك في نفس عام ٨٢٤ هـ . وعاد إلى القاهرة فدخلها سلطاناً، فلقبته في أبيهى حلة . . وبذلك انتهت سلطنة المظفر الذي لم يدم في الملك سوى ثمانية أشهر إلا قليلاً . . ثم إنه سُجن وظل مسجوناً حتى توفي مطعوناً وسنه العاشرة تقريباً .

٦ - الظاهر « ططر » ٨٢٤ هـ

هو سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهري الجركسي . كان في عداد ممالك « برقوق »، ثم دفع به حظه إلى عرش السلطنة المصرية ، إذ بويع بها وهو في دمشق عام ٨٢٤ هـ . ولكنه لم يدم في سلطانه ، إذ مرض بعد عودته من الشام ، ثم توفي في عام توليته . وقيل إن مطلقة - وهي أم السلطان السابق - قد دست له سماً ، كان السبب في مرضه وموته . وبويع ابنه من بعده .

٧ - الصالح « ناصر الدين محمد بن ططر » ٨٢٤ هـ - ٨٢٥ هـ

بويع بالسلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ هـ ، وعمره حينئذ إحدى عشرة سنة . فدبر له الأمر الأتابكي « جاني بك الصوفي » . وكان لهذا الأتابكي أعداء من الأمراء ، حاقدون عليه ، وعلى ما صار إليه من عز وجاه . وتزعهم في ذلك المقر السيفي « برسبای الدقاق » الدوادر . فما زالوا به ، حتى قبضوا عليه وسجنوه . وانفرد بشئون الدولة الأمير « برسبای » المذكور . فلما رأى أن شوكتة قد أصبحت قوية ، خلع السلطان الطفل ، وتبوأ مقعده عام ٨٢٥ هـ .

٨ - الملك الأشرف « برسبای » ٨٢٥ هـ - ٨٤١ هـ

هو أبو النصر برسبای الدقاق الظاهري . بويع بالملك عام ٨٢٥ هـ . فأخذ في

غزو قبرص، فهزم ملكها وأسره مع عدد من جنوده، وسيقوا إلى القاهرة مصنفين في الأغلال. ولم يهدأ له بال، حتى قبض ثانية على الأمير «جاني بك الصوفي» - لأنه كان قد فر من سجنه - فأعدم. ثم جمع الأشرف جندا كشيفا، ورحل بهما إلى بلاد الأرمن لتأديب الخارجين عليه فيها، وعلى رأسهم «قرا ملك». ولكنه عاد من غير طائل.

مرض الأشرف بعد ذلك، واختلط عقله. فاضطربت أحكامه، وشدت أوامره. قيل: إنه رسم مرة بنفى الكلاب إلى الجزيرة، وعدم خروج النسوة، وقتل بعض الأطباء! وما زال حتى توفي عام ٨٤١ هـ، ودفن بمقبرته التي أنشأها بالصحراء.

ومن أعماله: مدرسته بسوق الوراقين، ومدرسته بخانقاه برياقوس. - وفي عهده وقع طاعونان جارفان بالديار المصرية أحدهما عام ٨٣٣ هـ، والآخر عام ٨٤١ هـ. واشتهر بدنانيره الأشرفية أجود أنواع الدنانير. ومما يذكر أنه عهد إلى ولده بالسلطنة بعده، وجعل الأتابكي «جقمق» وصيا عليه.

٩ - الملك العزيز «يوسف بن برسباي» ٨٤١ هـ - ٨٤٢ هـ

وهو أبو المحاسن جمال الدين بويق بالسلطنة في أواخر عام ٨٤١ هـ، بعد موت أبيه وبعده منه. وعمره حينئذ أربع عشرة سنة. فدبر له أمر المملكة، وصيه الأتابكي «جقمق». فحيكت مؤامرة لخلعه، نجحت بعد ثلاثة أشهر، في أوائل عام ٨٤٢ هـ. وتولى السلطنة الأتابكي «جقمق».

١٠ - الظاهر « جقمق العلاني (١) » ٨٤٢ هـ - ٨٥٧ هـ

هو سيف الدين أبو سعيد جقمق العلاني . بويغ بالسلطنة عام ٨٤٢ هـ . بعد الملك العزيز . وقد همّ الأتابكي « قرقماس الشعباني » ، بأن ينقض على السلطان ، وبنزع منه السلطنة . فوقعت بين الفريقين معركة شديدة في جهة الرميّة ، انهزم « قرقماس » على أثرها وفر هارباً . ثم تمكن السلطان من القبض عليه ، وسجنه ثم قتله ، وخرج عن طاعته نائب الشام ، فأدبه وقتله أيضاً . وفي عهده كذلك تجمع عدد من العبيد السود ، في ناحية الجزيرة ، وسلطنوا منهم واحداً ، وعاثوا في تلك الناحية فساداً . فبطش بهم السلطان جقمق بطشاً شديداً ، وجمعهم وساقهم إلى أسواق بلاد الروم حيث بيعوا .

بعد أن انتهى السلطان من إطفاء نار الفتن المتواليّة المذكورة ، عاشت البلاد في كنفه زماً ، عيشاً هادئاً بعض الهدوء بالنسبة لعصور سابقه . ثم مرض عام ٨٥٧ هـ ، وأحس دنو الموت . فنزل عن العرش لابنه في ذلك العام . وما لبث غير قليل حتى قبض ، بعد أن حكم أكثر من أربعة عشر عاماً . وكان جقمق كريماً براً محباً للعلماء معظماً للأمرأ .

١١ - المنصور « عثمان بن جقمق » ٨٥٧ هـ

بويغ بالسلطنة قبل وفاة أبيه بنحو شهر ، وذلك في أوائل سنة ٨٥٧ هـ . وهو أبو السعادات فخر الدين . وكانت سنه تسعة عشر عاماً . وعاوناه في تدبير ملكه ، الأمير « إينال العلاني » . إلا أن فريقاً كبيراً من المماليك ، رغب في تملك الأتابكي

(١) ترجم له السخاوي في الضوء ببعض التفصيل ج ٣ رقم ٢٧٨ ، وقال في السياق إن الرضى محمد بن الشهاب أحمد بن الغزى أفرد سيرة جقمق في حياته بالتأليف .

« إينال » المذكور . فخلعوا المنصور بعد سلطنته بثلاثة وأربعين يوما لا غير .
وتولى السلطنة مكانه « إينال » . فقبض على المنصور وسجنه بالإسكندرية .

١٢ - الأشرف « إينال العلاني » ٨٥٧ هـ - ٨٦٥ هـ

هو أبو النصر سيف الدين إينال العلاني الظاهري . ولي الملك بعد خلع المنصور
عثمان عام ٨٥٧ هـ . وقد ساد في عهده الهدوء وقلت خلاله الثورات الداخلية زمنا .
ثم ثارت عليه المماليك « الجلبان » مرارا . ومن هذه المرات ثورة عام ٨٥٩ هـ ، التي
اشترك فيها خليفة عصره ، القائم بأمر الله حمزه بن المتوكل . فانخذلوا جميعا ، وخلع
الخليفة من منصبه ، وتولى مكانه أخوه المتوكل على الله . غير أن هؤلاء المماليك
اجتروا على السلطان ، واضطر إلى إسكاتهم ببذل المال لهم .

ومن أعماله : أن أرسل حملة لتأديب المغيرين على أملاكه الشمالية ، فنجحت في
تأديبهم ، وأنشأ عمارة بحرية لتأديب الفرنجة المغيرين على قبرص وسواها ، ولكنها
لم تفد كثيرا . وعرف هذا السلطان بالكرم وهدوء النفس . ويقال إنه كان أميا
لا يعرف القراءة ولا الكتابة . وهو من مماليك برقوق .

وقد مرض الأشرف عام ٨٦٥ هـ . ولما أحس دنو أجله ، تنازل عن ملكه
لابنه أحمد في هذا العام أيضا . وما لبث حتى مات بعد قليل ، وبعد أن حكم حوالي
ثمانى سنوات وشهرين .

١٣ - المؤيد « أحمد بن إينال » ٨٦٥ هـ

هو أبو الفتح شهاب الدين أحمد بن الأشرف إينال . بوبع بالسلطنة قبيل وفاة
أبيه . وكانت سنه نحو ثمانى وثلاثين سنة . وقد جعل الآتابكي « خشقدم » معينا له
في تدبير الملك . ثم ثار عليه مماليك أبيه لأنه لم يحاسبهم بالمال والوظائف . فنارت

بين الفريقين واقعة نكراء في جهة الرملة ، استمرت ثلاثة أيام . فانهزم السلطان وفر واختفى . فطلب الثائرون الأتابكي « خشقدم » وبايعوه بالسلطنة . وهكذا انتهى حكم المؤيد ولم يمض على يوم توليته سوى أربعة أشهر تقريبا .

١٤ - الظاهر « خشقدم الناصري » ، (١) ٨٦٥ هـ ٨٧٢ هـ

هو أبو سعيد سيف الدين خشقدم . بويع بالسلطنة عام ٨٦٥ هـ ، بعد الاعتداء على الملك المؤيد واختفائه . وكانت رغبة كثير من المماليك ، متجهة إلى تسليم نائب الشام الأمير « جانم » ، فكانت به بذلك ، وملكوا عليهم « خشقدم » مؤقتا ريثما يعود الأمير « جانم » ويتسلم زمام السلطنة . إلا أن « خشقدم » ثبت في السلطنة ، وعاون على ذلك « إبطاء جانم » في عودته .

وقد بدأ خشقدم حكمه ، بالقبض على الملك المؤيد ، أحمد بن إينال وسجنه مع أخيه وأمه في ثغر الإسكندرية . ثم أرضى الأمراء والجند ، وفرق عليهم أموالا طائلة . واسترضى كذلك الأمير « جانم » ليأمن جانبه مؤقتا . فاستبقاه في الشام . ثم رتب أمر البطش به سرا وأغرى به ، فكانت العاقبة قتل « جانم » . وبذلك تخلص من منافس قوى . وهبت بعد ذلك ثورة بين المماليك عاصفة ، بقصد الاعتداء على حياة السلطان ، واسكنها بامت بالخيبة ، بعد محاولات عدة . ونظر السلطان من حوله فرأى هناك منافسا جديدا يعظم أمره ، ويشهد ساعده ، ويكثر تابعوه ، وهو الأمير « جاني بك » فلم يتردد في أن دبر له كيما ، قتله في صباح باكر .

ومن أعماله : أن أرسل تجريدة لتأديب الفرنجة في رودس ، كما أنه أدب العربان الشائرين عليه . وقد مرض في عام ٨٧٢ هـ واستمر مريضا نحو أربعين يوما ،

(١) الظاهر خشقدم أصله رومي الجنس وليس جركسيا ، ولذلك لا يعمده بعض المؤرخين من ملوك الدولة الجركسية . فهو مثل الظاهر تمرغا

كانت البلاد فيها مسرحا لفوضى الجنود والأمراء معا . ثم توفي في العام المذكور ،
بعد أن حكم نحو ست سنوات ونصف .

١٥ - الظاهر « أبو النصر بلباى » ٨٧٢ هـ

هو أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى من معتوقى الملك المؤيد شيخ . كان
أتابكيا فى عهد سلفه « خشقدم » . وقد دبر له أمر الدولة الأمير الدوادار « خير بك » .
ولكنه اضطرب فى حكمه واعتال بعض الأمراء . فاضطربت أحوال المملكة ،
وكثر فيها الفساد ، وتفاقت الفتن . فنقم الأمراء الباقون عليه ، وخلعوه من السلطنة
فى نفس عام توليته ، وبايعوا الأتابكى « تمرغا » بالسلطنة . فانتهى حكم « بلباى »
بعد نحو شهرين فقط .

١٦ - الظاهر « أبو سعيد تمرغا الناصرى » (١) ٨٧٢ هـ

اختاره الأمراء للسلطنة ، بعد عزل الظاهر « بلباى » . فبويع بها عام ٨٧٢ هـ .
ولكنه لم يلبث فى السلطنة سوى ثمانية وخمسين يوما . ثم غدر به جماعة من المماليك
الخشقدمية ، بزعامة « خير بك » الدوادار ، وقبضوا عليه ثم أعلن « خير بك » نفسه
سلطانا على البلاد . إلا أن أتابكى هذا العصر وهو الأمير « قايتباى » . كان متغيبا .
فلما سمع بهذه الحركة ، عاد بسرعة ، ومعه عدد كثيف من الجند ، دهم به السلطانين
القديم والجديد ، على حد سواء ، وقذف بهما فى السجن ، ووثب إلى عرش البلاد . -
أما « تمرغا » فقد سجنه فى مدينة دمياط . فظل هناك معززا مكرما إلى أن توفي
عام ٨٧٩ هـ .

(١) ترجم له السخاوى فى الضوء بشيء من التفصيل ج ٣ رقم ١٦٧ ، والظاهر تمرغا
من الجنس الرومى وليس جركسيا . وبذلك لا يعده بمض المؤرخين من ملوك الجراكسة . فهو
كالظاهر خشقدم .

١٧ - الأشرف « أبو النصر قايتباي » ٨٧٢ هـ - ٩٠١ هـ

هو أبو النصر سيف الدين ، الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري . جلبه إلى مصر الخوارجا « محمود » ، فاشتراه الأشرف « برسباي » ، ثم انتقل ملكه إلى الظاهر « جقمق » . ولذلك ينسب إلى « محمود » وإلى « جقمق » فيقال : المحمودي الظاهري . ثم أعتقه الظاهر « جقمق » فأخذ سيبله في معراج الترقى والإمارة ، حتى وثب إلى العرش في عام ٨٧٢ هـ .

وقد واجه في بدء حكمه « جملة عقبات : منها فرار السلطان السابق ، « تبرغا » من سجنه بدمياط ، إلى بلاد الشام ، ومنها إلى حلب . فعمل السلطان على القبض عليه ، وإعادته إلى سجنه . ومنها خلو الخزائن من الأموال ، مع شعوره بالحاجة إليها لإعداد الجنود ، حتى يرد الأخطار الخارجية عن المملكة . فعمل على جمع ما يستطيع منها ، على الرغم من معارضة رجال الدين له في ذلك . ومنها انقضاء « سوار » (١) - ملك الأبلستين وأحد أمراء التركان - على أملاك الدولة ، في شمال الشام والبلاد الحلبية . حتى عظم أمره واشتد بأسه ، واستولى على قلعة « إياس » . فجرد عليه السلطان جملة حملات ، فباءت بالخيبة ، إلا الحملة التي قادها الأمير الشجاع الباسل « يشبك الدوادر » عام ٨٧٥ هـ ، فإنها هزمت جنود سوار ، وأعادت شمال البلاد الشامية والحلبية إلى طاعة السلطان . ووصلت في غزوها إلى شواطئ نهر جيحون ، وحاصرت قلاع التركان ، ثم شددوا الحصار على « سوار » حتى استسلم وخضع . فساقوه إلى مصر هو وجميع من الأسارى مصفدين في الأغلال ، بعد أن ولوا أخاه

(١) سوار هو ابن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلفادر التركماني . كان حاكما على الأبلستين ومرعش . خرج عن طاعة سلطان مصر فجاربه مرارا حتى هزم وشنق « اقرأ ترجمته في الضوء اللامع ج ٣ رقم ١٠٤٦ .

على بلاده مكانه . ثم قتل « سوار » على باب زويلة .

ومما شغل بال السلطان أيضا ، إغارة ملك العراقيين « حسن الطويل » على أملاك الدولة في الشام . فساق إليه جيشا قويا بقيادة الأمير « يشبك الدوادر » أيضا ، فرده على أعقابهِ . إلا أن هذا الأمير المقدم ، قد قتل بعد ذلك ، حينما خرج بعض أمراء شرق الشام عن طاعة السلطان ، ووقعت بسبب ذلك فتنة عمياء بمدينة حماة ، خفف الأمير « يشبك » لإطفائها عام ٨٨٥ هـ ، فنجح في ذلك نجاحا تاما . إلا أن انتصاراته المتوالية ، أغرته على أن يمعن في الفتح ، ويسير إلى شرق الفرات . فأصيب بهزيمة كبرى عند حصار مدينة « الرها » وقتل أمامها هو وكثير من جنوده ، وعذبت عدة من أمراء مصر المرافقين له في الحملة . وكادت البلاد الشامية والحلبية يفلت زمامها من يد سلطان مصر ، لولا أن تدارك السلطان هذا الخطر ، وبعث بحملة جديدة بقيادة الأتابكي « أزبك بن ططخ » ، فكان لها أثر حميد في إعادة الأمن إلى نصابه في تلك البلاد .

على أن قايتباي لم يلبث - بعد أن فرغ مما تقدم - أن واجه عدوا جديدا ، أخذ يطغى على أملاك الدولة : ويغير على أطرافها . وهذا العدو هو العثمانيون ، الذين لم يكفهم عدوانهم على البلاد ، فأغروا « على دولات » أخا « سوار » بالثورة في وجهه السلطان ، وعاونوه على ذلك . فلم يجد السلطان بدا من محاربتهِ ، فساق إليه جندا من مصر ومن حلب كسروه شر كسرة ، ولكن بعد أن أثخن فيهم قتلا . وكانت هذه الحادثة بدء النزاع الذي وقع بين المصريين والعثمانيين ، والذي كبر ونما في المستقبل ، حتى أفضى إلى الاحتلال العثماني للممقوت .

ولما رأى السلطان قايتباي ، ما يقوم به العثمانيون ضد بلاده ، حاربهم أكثر من مرة ، وعادت إليه جنده منتصرة فائزة ، تسوق في أففادها عديدا من الأسرى . ولقد خرجت إليهم في عام ٨٩٣ هـ ، حملة مصرية كبيرة العدد بقيادة الأتابكي

فسيبت تلف جزء منه ، فجدده الأشرف قايتباى عام ٨٨٦ هـ . وله عدد من المدارس والمساجد ، وضروب عدة من أعمال البر .

وقد أقدم بعض المماليك ، على العدوان على السلطان ، فرماه أحدهم بنشاب وهو فى سريره ، رغبة فى قتله . فلما شعر السلطان بذلك حَمَّ ومرض ، واشتدت عليه وطأة المرض ، فتولى الأمر مكانه ابنه محمد . ثم توفى الأشرف بعد قليل . وذلك فى عام ٩٠١ هـ ، وله من العمر نحو ست وثمانين سنة ، حكم البلاد منها نحو تسع وعشرين سنة ونصف .

ومن مساوئه : أنه قطع مرتبات بعض الجند والموظفين ، وصادر كثير منهم ، وفرض عليهم الأتاوات والغرامات . كما أنه كان يميل إلى ابتزاز أموال الأوقاف ، للإنفاق منها على حروبه وتجاريده . ومهما يكن من أمر فإن الأشرف قايتباى ، من أعظم السلاطين الذين حكموا البلاد المصرية . وولى ابنه السلطنة من بعده .

١٨ - الناصر « محمد بن قايتباى » ٩٠١ هـ - ٩٠٤ هـ

هو أبو السعادات ناصر الدين محمد بن محمد بن قايتباى . بويع بالسلطنة عام ٩٠١ هـ ، قبل وفاة أبيه بيومين ، واستبد بتدبير دولته الأتابكى « قانصوه خسمائة » ، والأستادار « كرتباى الأحمر » . وقد اضطرب حبل الأمن ، وطمع « قانصوه خسمائة » فى السلطنة ، فدبر مؤامرة اشترك فيها الخليفة المتوكل على الله أبو العز ، وقضاة الدولة الأربعة ، وعدد من الأمراء ، وبايعوا « قانصوه » ، فسمى بالملك الأشرف .

ولكن السلطان الناصر تعصب له جند كثير من ممالك أبيه . ف وقعت بين الفريقين حرب أهلية شعواء ، انهزم فيها « قانصوه » وجنوده وأصيب ، فقر واختفى ، بعد أن وقعت القاهرة فريسة للنهب والسلب ، وعاد الخليفة والقضاة إلى مبايعة الناصر ! . وتركت هذه الفتنة فى أعقابها فتناً أخرى متعددة ، قتل فيها كثير من

روس هذه المؤامرات ومديرها ، ووقع فيها أنواع شتى ، من فساد الجنود وعشهم ، حتى اضطروا الناصر إلى تغيير لقبه والتلقب « بالأشرف » ، حتى يتساوى المماليك الأشرافية وغيرهم ، ويصبح الجميع منسوبين إلى السلطان ... ومع ذلك تمخضت هذه الحوادث عن انقسام الأمراء والجند إلى معسكرين : معسكر يتزعمه الأمير « أقبردى » ، ومعسكر يتزعمه « قانصوه بن قانصوه » ، وهو خال السلطان ، وقد بزغ نجمه في هذا العهد . ومن عجيب الأمر أن فريق « قانصوه » المذكور كان يدافع عن السلطان ، بينما كان هو طامعا في الخفاء أن يقفز إلى كرسى السلطنة ! والفريق الآخر يناوى حزب « قانصوه » ، وهو حزب السلطان الناصر ، بينما السلطان الناصر نفسه يعطف سرا على فريق « أقبردى » ..! وتقاتل الفريقان وتراهما بالمشاب والرصاص وقذائف النفط ، وانضم إلى كل فريق جمع من العربان . ومن الرياء أن كان كل منهما ينادى : « الله ينصر السلطان » ! ويعلم الله مقدار ما يضمرون له من الحب . وظلت الحال كذلك ، والبلاد في قبضة هذه الفتنة الأهلية العمياء ، يصيبها القحط ، ويصمى أبناءها القتل ، ويفنيها الخراب ، أكثر من شهر . حتى أذن الله ، فانهزم « أقبردى » الدوادار ، وسلك سبيله إلى بلاد الشام عابثاً بها . فعجل السلطان بإرسال تجريدة خلفه بددت شمله ، ونسكت قتله ، ثم عادت إلى مصر ، وعاد هو إلى عبثه ببلاد الشام . وبينما الفساد يتفاقم أمره ، والأهواء تذكو شرورها ، إذ عاجل السلطان كمين رصده له أحد أمرائه وهو « طومان باى » فقتل شر قتلة ، إثر ليالى لحو حافلة عام ٩٠٤ هـ . فذهب فى سن السابعة عشرة ، ضحية لطيشه ونزقه ، وعدم إقامته على نية واحدة فى تصرّفاته ، بعد أن حكم نحو سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً .

١٩ — الظاهر « قانصوه بن قانصوه » ٩٠٤ هـ - ٩٠٥ هـ

هو أبو سعيد قانصوه الأشرفى ، أصله من ممالك « قايتباى » ، وأخو سريته

أم السلطان . وقد علا نجمه بسرعة ، فقد كان المتصرف في شئون الدولة ، في عهد ابن أخته . وظل يدبر الأمر لنفسه ، حتى وثب إلى الملك . ولم يمض بين إقامته مملوكا في أطباق القلعة ، وبين تسنمه كرسى المملكة سوى ست سنوات .

وأول ما عني به : إرسال حملة تأديبية ، على بلاد حلب ، وبلاد التركان ، حيث انتشر فيها نفوذ غريمه « أقبردى » الدوادار وأعوانه . فعادت الحملة ومعها عدد كبير من أسراهم . وأدب عرب عزالة الضاربين بجهات البحيرة ، بحملة قادها الأمير « طومان باى » الدوادار . فهزم جموعهم ، وشتت شملهم ، وقبض على كثير منهم ، واستاقهم إلى القاهرة مكبلين بالأصفاد .

ومن أهم ما حدث في عهده : خروج الأمير « قوصروه » نائب الشام عن طاعته فهم بتأديبه . ولكنه فوجئ بعصيان داخلي عنيف ، بزعماء الأميرين « جان بلاط » الأتابكي ، و « طومان باى » الدوادار . فوقع بينهما وبين السلطان موقعة ، انتهت بانخزال السلطان واختفائه ، بعد أن حكم أقل من عامين . وذلك في سنة ٥٩٠٥ هـ .

٢٠ - الأشرف « جان بلاط بن يشبك » ٥٩٠٥ - ٥٩٠٦ هـ

بويع بالسلطنة عام ٥٩٠٥ هـ ، على أثر اختفاء الظاهر « قانصوه » . وهو أبو النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفى - فلما ملك ، دبر له ملكة الأمير « طومان باى » وجد في البحث عن الظاهر « قانصوه » ، حتى قبض عليه ، وسجنه بالإسكندرية . ثم كثرت مصادراته للموظفين وغيرهم ليجمع ما لا ينفقه على الجند .

وأهم ما شغل به ، خروج « قوصروه » نائب الشام عن طاعته ، وتحصنه بها ، واستيلائه على مدنها . وكذلك الأمير « دولاب باى » نائب حلب ، أعلن العصيان ، وقيل إن هذا كله بترتيب « طومان باى » الدوادار ، إذ كان يمهّد لنفسه في الباطن . ومن سوء حظ « جان بلاط » ، أن أخرج إلى البلاد الشامية والحلبية تجريدة كبيرة ،

بقيادة « طومان باى » نفسه . فلما زحف بها على بلاد الشام ، انضم إليه عصاتها ، وأعلن بنفسه بينهم سلطاناً ، وتلقب « بالعدل » . ثم عاد إلى الزحف من جديد ، على البلاد المصرية . فلما رأى ذلك ، السلطان « جان بلاط » ، جمع جنده وعدده ، وتحصن بالقلعة ، وأقام بها ، على استعداد للقاء الزاحفين ، وترك بقية فجاج البلاد مفتوحة أمامهم . فحاصروه بالقلعة ، ولم ينتجه من الهزيمة حصنه العتيق . فأسر بعد موقعة رائعة كثيرة الهول ، وسجن في الإسكندرية ، ثم خنق عام ٩٠٦ هـ ومدة حكمه نحو نصف عام . وتولى السلطنة العادل « طومان باى » .

٢١ - العادل ، « طومان باى » ، ٩٠٦ هـ

هو أبو النصر طومان باى الأشرفى ، من مماليك الأشرف قايتباى . ذهب فى عهد سلفه إلى بلاد الشام لتأديب العصاة ، فألفهم حوله ، وسار على رأسهم ضد سلطانهم الأشرف « جان بلاط » ، بعد أن تسلطن هناك ، باسم « العادل » فى أواسط عام ٩٠٦ هـ . وانتهى أمره ، بأن أصبح سلطان مصر .

وطومان باى هذا هو الذى غدر بابن سيده فقتله وأعنى الناصر « محمد بن قايتباى » وهو الذى غدر بالسلطان « قانصوه » فكان من أهم أسباب خلعها عن ملكه . ومع ما عرفته الرعية عنه من الغدر ، كان محبباً إليها فى أول عهده ، لظهوره بمظهر الرجل المحب لها الحذب عليها . غير أنه ما لبث حتى غدر بأحد الأمراء الذين عاونوه على السلطنة ، وأعنى « قوصروه » ، فقد أمر بخنقه . ومن ذلك الوقت أخذ شره يزداد وشدد فى البحث عن أعدائه من الأمراء ، وألحق بالناس بسبب البحث عنهم أذى كثيراً ، حتى أصبح بغيضاً إلى الجميع . فخرج عليه عدد من الأمراء والجنود ووقع بين الفريقين نزال ، انكسر فيه الملك العادل . فاخفى بعد ساطنة لم تدم إلا نحو ثلاثة أشهر . وظل محتفياً زمناً حتى قبض عليه فخنق رأسه . وتسلطن بعده الملك الغورى .

٢٢ - الأشرف ، قانصوه الغورى ، ٥٩٠٦ هـ - ٩٢٢ هـ

هو أبو النصر قانصوه الغورى ، من ممالك الأشرف قايتباى أعتقه ، فأخذ سبيله إلى الترقى ، حتى كان أستاذاراً فى عهد الملك السابق « طومان باى » فلما اختفى « طومان باى » اتفقت كلمة الأمراء على تولية الغورى . فما زال يتأبى عليهم ، وهم يلحون عليه بالقبول ، حتى لبس خلعة السلطنة ، ودمعه يجرى إذ ذاك ، عام ٩٠٦ هـ . وكانت سنه حينئذ ستين عاماً تقريباً .

تولى الأشرف الغورى أمر المملكة المصرية ، وهى فى أخرج ساعاتها ، فقد اضطربت أحوالها الداخلية ، وتركز فى نفوس أمرائها وجنودها حب العصيان والخيانة ، واعتادوا الفتنة والثورة ، والتأبى على أوامر السلطان . وابتليت مصر إذ ذاك بطائفة الممالك « الجلبان » ، الذين بدأ شرهم فى عهد « قايتباى » وضاعت من قلوبهم هيبة السلطان ، وضحوا بمصلحة الوطن فى سبيل الاستحواز على المال ، وإرهاق السلطان بالإنفاق عليهم . فهذا بنيان تصدع داخله ، ولم يبق له قوام ، غير هيكل خارجى ، أصبح ينم عما تحتوى جوانبه . لهذا طمع فى الدولة المصرية الطامعون وامتدت إليها أظافر القطط ومخالبها ، ثم استأسدت عليها ، حتى هدمت بنيانها ، وقوضت أركانها ، وأدالت من حريتها ، وأزالت استقلالها ، فأصبحت تابعة ، وكانت متبوعة . وباتت خاضعة ، وكانت عزيزة منيعة . وتلك عاقبة محتومة لامر منها ، لمن لها ، وأمن مكر الزمان .

واجه الغورى منذ بدء حكمه ، شروراً فى الدولة متعددة ، وشدائد جمّة ، أخذ يعمل جاداً فى سبيل القضاء عليها . ولو أنصفه بنو جلدته ، وتركوا الفتن والمطامع ، ونبدوا هواهم جانباً ، لتغير بهم وجه التاريخ ، وانقلبت أمامهم أوضاعه ، ولا تمتد مُلك مصر إلى شواطئ بحر مرمرة ...

وأول ما معنى به الغورى؛ القبض على السلطان السابق «طومان باى» فقبض عليه، ثم أعدم. وثار فى وجهه الأمير «مصر باى». فما زال به حتى أعدمه. واضطرب أمر المماليك عليه طلبا لنفقتهم، فاضطر إلى اللجوء للأموال الموقوفة، فأخذ منها جانبا. وفرض الضرائب على الناس، حتى تدمروا منها. ولكن ماذا يصنع وخزائنه خاوية؟ واشتدت الفتن فى بلاد الحجاز وبين أمرائها، حتى اعتدوا على حجاج مصر، والشام. فعمل على تهدئة الحال وتأمين طريق المسافرين. وشذ عن طاعته بعض أمراء الشام، فصانعهم حتى أعادهم إليها. وازداد عبث عربان البلاد فى نواحيها، فكف أيديهم عنها.

إلا أن ذلك كله، لم يكن غير تسكين وقى لهذه الأدواء، لأنها كثيرا ما عادت إلى ثورانها من جديد.

ومع ذلك كله، قد كانت أمامه أخطار خارجية يحسب لها ألف حساب. ولكنه تباطأ فى الاستعداد لها فى الأوقات المناسبة. وذلك - فى أغلب الظن - بدافع الأحوال الداخلية. وأهم هذه الأخطار: عبث الفرنجة، وإغارة سلطان الفرس «الشاه إسماعيل الصفوى» على أملاك الدولة، وطموح العثمانيين إلى توسيع مملكتهم. أما الفرنجة، ولا سيما البرتغاليون. فقد هالهم ما كانت تجنيه مصر، وما يجنيه البنادقة، من الضرائب والأجور المفروضة على المتاجر بين الهند والشرق وبين أوربا، لمرورها بطريق مصر. فمالوا حتى كشفوا طريق جنوب إفريقيا. فتحولت بعض المتاجر إليه، ونقصت إيرادات مصر تبعا لذلك. ولم يكتفوا بهذه، بل أخذوا فى العبث بالسفن المصرية، والشواطئ المصرية والمتاجر المصرية، فى الشمال وفى الشرق وأثقلوا على بعض أمراء العرب والهند، الذين تربطهم بمصر روابط اقتصادية. فاستغاثوا بالسلطان. فخشى «الغورى» استفحال هذا الخطر، وصنع عمارات بحرية ساقها لتأديب هؤلاء العابثين فى الشمال وفى الشرق، وفى بحر العرب وشواطئ الهند،

بقيادة الأمير « حسين الكردي » . ولكنها لم تستطع كسح جماحهم ، بل وقتلوا كثيرا من جندها . - ولم يقتصر خطر الفرنجة على هذا ، بل كانوا يرسلون إلى البلاد عددا من الجواسيس . لاستطلاع أحوالها . وكانوا يطمعون ملك الفرس « الشاه إسماعيل » بالاستيلاء على أملاك السلطان . واستطاع المصريون في بعض الأحيان ، أن يقبضوا على بعض هؤلاء الجواسيس والدسامين ، ويمثلوا بهم شر مثلة .

وأما « الشاه إسماعيل » ملك الفرس ، فكثيرا ما أغارت جنوده على مدينة حلب وأطراف الشام ، وعبثت بها . وكان يراوغ السلطان ، فبينما تغير جنوده على البلاد ، إذ يرسل الهدايا والمكاتبات إلى السلطان ، معتذرا إليه عما جناه هؤلاء الجنود . ولولا ما شغل به « الشاه إسماعيل » من حروب أخرى ، لكان له - ولا شك - موقف آخر صريح تجاه مصر . فقد ابتلى « بأزبك خان » ملك التتار ، فما زالت الحروب تترى بينهما ، حتى قُتل « أزبك » عام ٩١٦ هـ . فتألم السلطان « الغوري » لموت ملك التتار ، لا لأنه مات ، وإنما لافراغ « الشاه إسماعيل » من الاشتغال به . . ومع ذلك فقد سُلط على هذا الشاه من بعد ، العثمانيون الطامعون في ملكه . فما زال به السلطان « سليم » العثماني حتى أذله وكسره شر كسرة ، وملك جانبا كبيرا من بلاده . وأخذ يتفرغ للقاء سلطان مصر وأمرائها وجنودها .

ولقد بدأ تدخل السلطان سليم ، في شئون مصر ، بأن عاون ابن « سوار » ضد عمه « على دولات » نائب حلب ، في نزاع بينهما ، وطلب إلى السلطان أن ينصف هذا الابن ، فرفض السلطان هذا الطلب . وكان السلطان من قبل هذا ، قد أرسل حملة إلى مدينة حلب ، تقيم فيها ، ترقباً للجوادث والحروب الناشئة ، بين « الشاه إسماعيل » و « السلطان سليم » . ومن عجيب الأمر وغريبه ، أن عاث جنود هذه الحملة فساداً في مدينة حلب ، حتى فضل أهلها أن يهجروها . . ثم عادت هذه الحملة عام ٩٢٠ هـ دون أن تقوم بعمل ما .

وفي عام ٩٢١ هـ تحقق السلطان الغورى ، أن العثمانيين يزحفون على البلاد الحلبية ، متجهين نحو الجنوب ، ويبنون القلاع والحصون . فتباطأ الغورى فى الاستعداد لملاقاتهم ورد زحفهم . وأعتقد أن أهم أسباب تباطئه تلكؤ الأمراء عن تلبية ندائه تلبية سريعة ، وروح العصيان البادية فى صفوف الجند ، وتذمرهم بسبب تأخر مرتباتهم . ومهما يكن من أمر ، فقد أخذ يعد العدة ، فجهر حملة قوية ، لم يدخر وسعاً فى الإنفاق عليها ، والدعوة إليها ، وتزويدها بكافة أنواع الأسلحة ، والخييل والملابس والقوت والمال . ونسبت الحملة من البلاد المصرية فى ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ فخرجت فى حفاوة باهرة ، بين أكف الدعاء والرضا . وبدأت فى أبهى زينة وأجمل حلة بجنودها وأمرائها . وخرج السلطان ومعه الخليفة والقضاة ، فبلغوا أبواب حلب .

هنا بعث السلطان « سليم » ، رسلاً من عنده إلى الغورى ، يبدى له الود السكين والحب الخالص ! ورفع إليه الهدايا الثمينة ! ويعلم الله أنها الحرب والمكر والخديعة . وأنها القدرة فى الاستطلاع ، والبراعة فى التخذييل وتشبيط الهمة . فرد الغورى أجمل رد . . وكان أجمل به أن يحتاط للأمر ، ويأخذ له أهبة . ولسكنه كان غافلاً عن مكر عدوه . فما وصلت رسل الغورى إلى السلطان سليم ، حتى مثل بهم ، وردهم إليه أقبح رد . وعالهم بزحفه للقاء سلطانهم ، فى « مرج دابق » قريباً من حلب .

تلاقى الفريقان فى « مرج دابق » فى رجب عام ٩٢٢ هـ . وعلى الرغم من كثرة العثمانيين وقوة مدافعهم ، أوقع المصريون الرعب فى نفوسهم ، حتى هم السلطان سليم بالفرار . هنا الأسف وقع التخاذل فى صفوف جنود مصر ، فقد أشيع أن السلطان يفضل فرقة منهم على أخرى ، فشقاعدوا عن القتال الصادق ، ثم ظهرت الخيانة المدبرة التى تزعمها « خير بك » نائب حلب ، إذ فر من المعركة دون سبب واضح ، وكان على ميسرة الجيش المصرى . فلما فر ، تبعه جنود كثيرون . فوقع الاضطراب والخوف فى صفوف جند مصر ، بينما ثبت السلطان الغورى فى عدد قليل من جنوده ، وهو

يرى بعينه ، خيانة خليفته وقضائه وأمرائه ، واستسلامهم لعدوه دون مقاومة تذكر . وهو يرى بعينه فرار جنده ، فيقول : « إلى أين يا أهل المروءة .. هذا وقت النجدة ، هذا وقت المعونة » . فلم يلتفت إلى ندائه أحد . فأصيب بالشلل . ودهمته الجنود العثمانية من كل جانب - وكانت قد عادت إليها شهامتها - فوقع إلى الأرض ، فتلقفته سنايك الخيل . ولم تدر أين جثته ، ولا عثر عليها من بعد - بذلك تمت الهزيمة هناك على جيش مصر ، وأخذت فلوله تعود منهوكة القوى ، خائرة العزيمة إلى البلاد ، تاركين جسد سلطانهم وسط فيافي حلب مجهولاً . وبذلك انتهى ملك الغورى ، بعد أن حكم نحو ست عشرة سنة .

وأهم ما يؤخذ على الغورى : بطؤه وتراخيه في الاستعداد لمقابلة الأخطار ، وتخوفه من الجند والأمراء ، وعدم الحزم في معاملتهم ، وخصوصاً في ساعات الشدة العصبية ، التى تتعرض لها البلاد ، وانخداعه بالظواهر ، وعدم احتياطه منها ، وجمعه الضرائب الظالمة من الناس ، ثم إنفاقها فى إنشاء البساتين ، وجلب أشجار الفاكهة ، وتوسيع الميادين ، وإنشاء السواقى ، والعناية بالعمائر والمباني . وهذه كلها ضروب من الإصلاح محمودة ، ولكن لكل شئ إبان . وكان أولى به أن ينفق المال على تنظيم الجند وأن يضرب على يد من يضمرون له الغدر والخيانة . وكان محباً لأنواع الرياضة والنزهة والتسلية ، مع أن صوت الحرب من حوله كان صخباً .

وهذا كله لا يمنعنا أن نذكر بعض منشئاته النافعة ، فقد أنشأ بحجة العقبة : مخافر وأرصفة وفنادق وسواقى ، وما إلى ذلك . مما يحتاج إليه الحجاج ، فى ذهابهم إلى الحجاز ، أو إيابهم منه . وأقام المئذنة ذات الرأسين بالجامع الأزهر . وجدد خان الخليلي . وأنشأ ميدان القلعة ، وجمله بالأشجار المجلوبة من الشام وغيرها . وأجرى إليه الماء من النيل بواسطة سواقى متعددة . كما أسس كثيراً من الجسور على خليجان

النيل، وخصوصاً جسر الفيوم، وله منشآت كثيرة غير ذلك. وهو من أعظم سلاطين مصر. وقد ملك من بعده «طومان باى».

٢٣ - الملك الأشرف «أبو النصر طومان باى» ٩٢٢هـ - ٩٢٣هـ

وهو من مماليك «قايتباى». ثم اعتقه «الناصر بن قايتباى». وما زال يدرج في مدارج الرقى، حتى بلغ في مملكة الغورى منزلة سنية. ثم كان نائب غيبة، حينما خرج الغورى إلى قتال العثمانيين بحلب. وفى أثناء ذلك ملأ قلوب الناس أمناً، بسهره على حفظهم، وحراستهم من اللصوص وقطاع الطرق والعابثين، فأحبوه. ولما قتل الغورى، اجتمعت كلمة الأمراء على توليته. فأخذ «طومان باى» يعد العدة للقاء العثمانيين، ورد زحفهم عن البلاد. وكان شجاعاً قوياً، وبطلاً صنديداً لا يهاب، ولكن حوله أمراء خائرين ضعافاً متنازعين، وجنوداً منحلى العزيمة، قليلى الثقة بالنفس. ومهما يكن من شيء، فقد بدأ «طومان باى» بإرسال طليعة من الجنود، على رأسها الأمير «جان بردى الغزالى»، وكان هذا قد أضمر الخيانة للسلطان كصديقه «خاير بك» نائب حلب. فمالمئت طليعته أن انهزمت.

أحب «طومان باى» أن يبادر بالخروج إلى الشام بجنود كشيعة، فمنعه الأمراء وأصبروه، والعثمانيون يزحفون، حتى دخلوا مصر نفسها. فأحب «طومان باى»، أن يبادر بلباقهم فى جهة الصالحية، قبل أن يصلوا إلى القاهرة. ولاسيما أنهم فى حينهم منهوكو القوى، قليلو الغذاء، لطول سيرهم. فمن السهل الفتك بهم. فمنعه الأمراء أيضاً وأصبروه، ولم يحبوا أن يقاتلوا بعيداً عن القاهرة. كأن القاهرة وحدها هى وطنهم دون سواها، أو أنها تلهم الشجاعة والإقدام دون غيرها! لكنه الجبن والخور والجهل السفه وقصر النظر. ثم خرجوا إلى جانب القاهرة بناحية الريدانية، وحصنوا ظهورهم،

حتى لا يطعنوا من الخلف . وقيل : كان عدد جنود مصر نحو عشرين ألف مقاتل .
ولكن قوتهم المعنوية متداعية ، والاتحاد بينهم ضائع ، والتعاون مفقود . وأصبح
كل منهم يفكر في نفسه فحسب ، ومصيره هو ، لا مصير بلاده . ف وقعت بينهم
وبين العثمانيين الزاحفين ، معركة شديدة الروح في ناحية الريدانية في أواخر عام
١٩٢٢ هـ ، قتل فيها من الجمعين عدد كبير . ودارت الدائرة على المصريين فقروا من
الميدان . وفر كذلك « طومان باى » بعد أن ثبت زمنا مع فئة قليلة من أتباعه . وغنم
العثمانيون غنائم لا تعد ولا تحصى . ثم زحفوا على القاهرة وملكوها ، وعاثوا في
أرجائها فساداً . وأثخنوا في أهلها قتلاً وسلباً وهتكاً . وتحصن « طومان باى » بالصعيد
ثم أخذ في الزحف نحو القاهرة . فلاقاه العثمانيون في ناحية الجيزة . وهزموه هزيمة
نكراء . ولكن بعد أن أن أظهر ضرباً من البطولة الخارقة .

ثم فر طومان باى إلى بعض أصدقائه من عربان البحيرة ، فسلموه إلى السلطان
« سليم » جزاء وفاقاً لصداقته لهم ويده عندهم . . ! ولما قبض عليه ، شنع أشنع شنقة ،
على باب زويلة ، في المحرم عام ١٩٢٣ هـ . وبموته انتهت دولة الجراكسة ، وبدأ عهد
الاحتلال العثماني الممقوت .

تعقيب

على الرغم مما يجول في خاطري - وأنا مصرى - من الحق على دولتي الممالك
وسلاطينهما وأمرائهما وجنودهما جمعاء ، وما يفيض بالنفس من شعور الأسف
الشديد على ما اجترحوه ، من تجاهل الشعب المصرى ، ومن نبذه نبذ النواة وعدم
الاكتراث له ، والإثقال عليه بضروب من الظلم والقسوة والإرهاق ، وعلى ما
ألفوه من التنازع على السلطان تنازعا يمليه الطمع والهوى ، لا الإيمان والعقيدة .
وتوحي به المصلحة الذاتية العارضة ، لا المصلحة العامة الباقية ، - وسنين ذلك فيما

بعد - أقول على الرغم من هذا كله ، خنقتمنى العبرة وملاكتنى الزفرة ، عند ما طالعت أخبار الفتح العثمانى اللعين ، وما اقترفه العثمانيون من مآثم فى القاهرة وفى مصر . فقد كانت مصر عصر المماليك ، مستقلة منشورة السلطان فى جميع البقاع الإسلامية ، تدين لها هذه البقاع بالتبعية السياسية أو التبعية الأدبية ، فكانت مركز الإسلام ، ومبعث الحركة العلمية ، ومنزل الخلافة . أما العثمانيون فقد أزالوا استقلالها ، وعيشوا بحرياتها ، وزادوها ظلمة على ظلمة ، ومكثت مومودة تحت عبء الاحتلال ، إلى أن أنقذها محمد على باشا من ويلاتها ، فأعادها العلم والمال والحياة والحرية والقوة والمعنوية ، والإيمان بالنفس والثقة بالله . - العثمانيون نهبوا أموال البلاد وملئوها جعابهم بذهبها وكتبها وساقوا إلى القسطنطينية خليفاتها وقضاها وأطباءها ومهندسيها ومباشرى الأعمال فيها ونجاريها وحدادها ، وكل ذى علم وفن معروف فيها ، ثم تركوها قاعا صفصفا يجرى الخراب على أديمها . فأى إثم هذا الذى اقترفوه ؟ لقد انتقل بهذا الاحتلال قلب الإسلام من القاهرة إلى القسطنطينية ، ومعه مركز العلم ومنزل الخلافة ، إذ تحيّلوا على الخليفة المتوكل فنزل لهم عنها وهو فى قبضة يدهم . وقد كاثفوا خونة الأمراء المصريين الذين عاونوهم فى خطة الفتح مكافأة قيمة . فقد عين « خير بك » نائبا عن السلطان العثمانى فى القاهرة وللقب « ملك الأمراء » وعين « جان بردى الغزالى » نائبا عنه فى الشام . - ولو كانت فى الشعب حياة وقوة لمزق أجساد الخونة شذر مذر ، مهما لاقى فى سبيل ذلك من سوء .

محاسن
الحق
للشأن
سبب الشؤ

السلطنة ونظام الحكم

كتبنا كلمة سابقة عن منشأ الممالك ، وعرفنا أنهم كانوا يجلبون من بلادهم ، إلى الأسواق المصرية وغير المصرية ، فيشتريهم السلاطين والأمراء . وعرفنا أيضاً كيفية انتقال الحكم المصرى من يد الأيوبيين ، إلى الممالك البحرية ، وهم بمالك الصالح نجم الدين الأيوبي . وسنكتب فيما بعد ، كلمة نشرح فيها ثقافة هؤلاء الممالك ، وأدوارها وطرقها . وسيتضح لنا أن المملوك ، فى أغلب الأحوال ، كان يظل رقيقاً زمناً غير محدود ، يعيشه فى طباق القلعة ، مبيشة جنديّة خالصة . حتى إذا ما ثبت لدى السلطان ، أن مملوكاً ما ، ذو مقدرة وكفاءة ممتازة ، وبدأ له ما يثبت تلك القدرة والكفاءة ، أعقبه وأنزله من الطباق إلى وظيفة أخرى . وأعاناه على حياته الحرة بما يعطيه من مال وقماش وخيل وما شابه ذلك .

وعتق المملوك لا يخرجّه عن أنه لا يزال من جند الدولة ، ومن سواعدها التى تستند إليها ، بل عتقه أول مراحلها فى خدمتها العليا . حينئذ يتسع أفق الرقى أمام المملوك ، وتساوره المطامع ، وتدفعه قدرته وحظه معاً ، إلى التنقل فى وظائف الدولة شيئاً فشيئاً ، ويخلع عليه السلطان لقب الإمارة ، فتسمو بذلك منزلته ، ويتنقل فى مدارجها صعداً ، آخذاً سمته نحو المناصب الرئيسية . وقد تدفع به الحوادث إلى أن يكون أستاذاراً أو دواداراً أو أتاكياً أو نائب سلطنة . وهذه المناصب من أسمى وظائف الدولة ، وليس وراءها غير منصب السلطنة الجليلة . فإذا بلغ المملوك هذا الحد أصبح دائماً إلى هذا المنصب . وكثيراً ما تتقلب الأيام ، وتبدل الحوادث ، فإذا بهذا الأتابكى أو النائب يُختار للسلطنة . وإن هذه المناصب المذكورة وما مثله

كانت تؤهل شاغلها لتولى الملك . فإذا اختير ملك جديد ، أقام بالقلعة ، وأعنى قلعة الجبل ، فقد استخدمت في معظم هذا العصر مقراً رسمياً للسلطان .

وإليك بعض الأمثلة التي تبين المراقى التي صعد بها بعض السلاطين ، من حالة الرق إلى حالة السلطنة ، وذلك نقلاً عن ابن إياس :

« السلطان كتيبغا المنصورى » : أسره الملك المنصور قلاوون في موقعة حمص ، التي كانت بينه وبين التتار ، فأصبح من مماليكه . ثم أعتقه وجعله أمير عشرة ، ثم صار مقدم ألف ، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون صار نائب سلطنة ، ثم خلع الناصر ، وقفز « كتيبغا » إلى العرش .

« السلطان برقوق العثماني » - جلبه إلى مصر « الخواجاج عثمان بن مسافر » تاجر الرقيق ، فاشتراه منه الأتابكي « يلبغا » ثم أعتقه . ولما تغير وجه الدهر للماليك « يلبغا » هرب « برقوق » إلى الشام ، فخدم عند الأمير « منجك » نائب الشام ، ثم ترقى أمير عشرة في دولة الأشرف شعبان ، ثم أمير أربعين ، ثم مقدم ألف ، ثم أمير أخور كبير ، ثم أصبح أتابك العساكر في دولة المنصور على بن الأشرف شعبان . ثم صار سلطاناً .

« السلطان جقمق العلائي » - أصله جر كمى جلبه « الخواجاج كزل » ، فاشتراه منه « العلائي على » بن الأتابكي « إينال اليوسفي » ، وقدمه إلى الملك الظاهر « برقوق » فصار من جملة المماليك السلطانية ، ثم رُقيَ خاصكياً ثم ساقياً . ثم قبض عليه وسجن في عهد الملك الناصر فرج ، ثم أطلق سراحه . وعين أمير طبلخاناه وخازنداراً في دولة المؤيد شيخ ، ثم صار مقدم ألف في عهد السلطان ططر ، ثم عين صاحب الحجاب في عهد الأشرف « برسبای » وترقى حتى بلغ الأتابكية ، فلما كان عهد ابنه العزيز ، أصبح « جقمق » نظام الدولة ومشيرها ، ثم خلع العزيز ، وولى « جقمق » السلطنة . غير أن الزمن الذي يستغرقه مملوك أسعده الطالع ، وبلغه منصب السلطنة ،

من عهد رقه إلى عهد سلطنته ، يختلف طولاً وقصراً ؛ حسب اختلاف الأشخاص والظروف . غير أن أقصر زمن - ولا شك - كان زمناً طويلاً ، ولا يعتبر قصيراً إلا بالنسبة إلى سواه . فقد يسلخ المملوك أربعين عاماً أو خمسين ، في حياة رقى مطرد ، حتى يصل إلى كرسى السلطنة . ولذلك عُددَ أمراً عجيبياً ، أن يصل السلطان الظاهر « قانصوه بن قانصوه » إلى منصب السلطنة ، في مدة لم تتجاوز ست سنوات ما بين رقه وعتقه وبين سلطنته .

والآن أصبح مفهومنا أن كل جندي مملوك ، قد يحول عليه الزمان ، وتدفعه الأقدار ، إلى أن يكون سلطاناً يوماً ما . والأقدار إذا صنعت ذلك لا تتكلف معجزة خارقة ، أو شذوذاً عجيباً ، أو سنة غير معلومة ، أو التواء وتحويراً في سياسة متبعة . بل ذلك هو المترقب المنتظر . ولهذا لا يصح أن تعترينا الدهشة ، عند ما يحدثنا التاريخ أن فلاناً المملوك أو الأمير ، حدثته نفسه يوماً ما ، بأن يلي السلطنة ، وبأنه إذا ولي السلطنة يصنع كذا وكذا . فقد روى (١) أن الأمير حسام الدين لاجين المنصوري ، كان قد اختفى مرة في مئذنة جامع ابن طولون ونذر أنه إن صار سلطاناً ليعمرن هذا الجامع ، وقد صار سلطاناً ووفى بنذره .

وروى (٢) : أن المنصور قلاوون لما كان أميراً ، في عهد الملك الظاهر « بيبرس » خرج في غزاة ، فأصيب بقولنج (٣) ، فعولج منه في مدينة دمشق ، بمعرفة أطباء جلبوا له الدواء من مستشفى « نور الدين الشهيد » فبرأ . فتأق إلى زيارة هذا المستشفى فزاره ، ونذر إن آتاه الله الملك ، أن يبني مستشفى « مارستانا » فلهذا أوتي الملك ، بر بنذره ، وأقام « البيمارستان المنصوري » .

(١) ابن إياس ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) خطط المقريري ج ٤ ص ٢٦٠ .

(٣) القولنج : مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الفضل والريح .

وقيل (١) : إن الملك المؤيد شيخا ، سجن مرة وهو أمير - في خزائن شمائل - فقامى بها شدائد عظيمة ، فندر في نفسه ، إن خلص من هذه الشدة ، وصار سلطانا ، يهدم هذا السجن ، ويقيم مكانه مسجدا . ولما صار سلطانا على مصر ، بر بوعده وبني جامعته الشهير بجانب باب زويلة ، مكان السجن المذكور .

وحكى (٢) : أن الأتابكي تمرز - الذى توفى عام ٩٠٢ هـ فى عصر الملك الناصر محمد بن قايتمبى - كان إذا سأله أحد فى حاجة ، يقول : اصبر علينا حتى يجيء وقتها . وكان طامعا فى السلطنة فخابت فيه الظنون . .

هذا ، والسلطان وأمرؤه ومماليكهم هم أهل الرأى ورجال الحكم وأرباب المناصب دون سواهم . يعاونهم بعض من يختارونهم من المتعممين ، ليلوا مناصب القضاء والكتابة وما إليهما .

إذن ! اعتبر الممالك أنفسهم « الطبقة الحاكمة » ، فى هذه البلاد وما يتبعها . وذلك بما لهم من القوة الباطنة ، والأيدى المسلحة ، والسكينة المجددة ، وحق القيام وخدمهم بالفتح والغزو . ولم يخرج الملك عن أن يكون لواحد منهم . ولكن من هو هذا الذى يخصونه بهذا الشرف العظيم ؟ وكيف يجدونه ؟

لم يوضع نظام ما لورثة السلطنة ، وإنما كانت مؤهلات الأمير الشخصية ، وما يؤتاها من حنكة ودهاء ، وما يديه من بلاء فى الحروب ، ومن إحسان فى السياسة ، ومن قدرة على الانتفاع من الفرصة السانحة ، وما يستطيع جمعه حول نفسه من مماليكه الأخصاء ، وغيرهم من محبيه ، ومن ذوى المطامع ، بمن يكون له منهم عصبية قوية يخشى بأسها . كل هذه الأمور ، كانت هى التى تقرب الأمير تدريجيا ، أو قد تقذف به أحيانا إلى المناصب الكبرى . مثل أتابك العسكر أو نائب السلطنة .

فيصبح قاب قوسين أو أدنى من منصب السلطنة .

بل إن الأمير إذا ما وصل إلى مرتبة النيابة والكفالة أو الأتابكية ، يقع في نفسه غالبا - أن الأقدار تهيمه بذلك لتولى السلطنة . فيعمل لبوع أمله هذا ، ولتحقيق إحساسه الباطني ، بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة . حتى لتجده في أغلب الأحوال ، يدبر لسلطانه المكائد ، وينصب له الحبائل ، ويخلق حوله المشاكل . ويحيك من أجله سلسلة من المؤامرات ، تنتهي غالبا بخلع السلطان أو قتله قتلة شريرة ، ووثوب النائب أو الأتابكي إلى كرسي المملكة .

فالأتابكي « قطز » خلع الملك المنصور « نور الدين علي بن المعز » سنة ٦٥٧ هـ وتولى مكانه . والأتابكي « بيبرس » البندقداري ، قتل بيده سلطانه « قطز » ووثب إلى عرش السلطنة عام ٦٥٨ هـ . والأتابكي « شيخ المحمودي » خلع سلطانه الخليفة « المستعين بالله » وتولى السلطنة سنة ٨١٥ هـ وهكذا .

وتعتبر هذه الحالة أمرا عاديا في دولتي المالك . ومعنى ذلك أن نظام الوراثة لم يكن مرعيا لديهم .

وهذا لا يمنعنا أن نقول : إن أسرة المنصور « قلاوون » كان لها نصيب كبير من وراثة الملك في الدولة البحرية . وإن أسرة « برقوق » كان لها نصيب آخر أقل من ذلك في وراثة الملك في الدولة الجرسية . وقد ولي السلطنة من أسرة « قلاوون » أربعة عشر مليكا . وقد ولي بعضهم بناء على وصية من أبيه بذلك . فإن المنصور « سيف الدين أبا بكر » بن الناصر محمد بن قلاوون ، قد بوع بالسلطنة بعد موت أبيه بعهد منه . وقد يكون هذا العهد لولد غير الابن الأكبر ، مثل عهد الناصر محمد إلى ولده المنصور المذكور .

غير أن مبايعة السلطان ، لا يمكن أن تتم في الواقع إلا بعد أن يتشاور الأمراء في الأمر فيما بينهم ، ويقع اختيارهم على من يصلح للملك . ثم إن هذه المشورة قد

تستغرق زمناً . وفي خلال هذا الزمن يحكم الممالك البلاد بلا سلطان فبعد مقتل لاجير ،
دبر الأمراء الأمر ، حتى عاد الناصر . وقد بقيت السلطنة شاغرة يومين عقب انكسار
السلطان « قانصوه بن قانصوه » واختفائه . ثم تولى السلطنة « آتابكي » جان بلاط .
وبعد قتل الغوري بقيت البلاد نحو خمسين يوماً بلا سلطان ثم تولى السلطنة « طومان باي » .
وقد درج أمراء الممالك - بعد وفاة السلطان أو خلعه أو قتله مثلاً - على أن
يعقدوا مجالس للشورى ، يتبادلون فيها الرأي فيمن يصلح للسلطنة . حتى إذا ما انعقد
على شخص ما ، أحضره في حفلة رائعة ، يتقدم فيها الخليفة ثم القضاة بمبايعته . ثم
يقبل الأمراء له الأرض ، بعد أن يلبس شعار السلطنة ، ويحمل في موكب ، وعلى
رأسه القبة والطير ، إلى أن يجلس على كرسي السلطنة . فتجرى رسوم الحفلة المذكورة
وعلى إثرها يوزع عليهم الخلع والعطايا والوظائف السنية ، فيرقى من يشاء ، ويقر
من يشاء ، ويعزل من يشاء .

فإذا وقع اختيارهم ، على معهود إليه بالملك من أيمة المتوفى مثلاً : أو على ابنه
أو أخيه ، ولو لم يكن معهوداً إلى أحدهما ، ولو كان صغير السن ، أقاموا له رسوم
التولية وقبلوا له الأرض . غير أنهم لا يستمرون على طاعته ، إلا بمقدار ما في هذا
الاستمرار من نفع شخصي لهم . لا لأنه وارث شرعي للسلطنة ، ولا لأنه أصبح
ذا حق قانوني فيها ، ولا لأنه واجب الطاعة ، ولا لأن في طاعته مصلحة عامة للشعب ،
تهون في سبيلها المصلحة الخاصة . . . !

وإذا شعر أحد الأمراء أو فريق منهم ، بأنه لم ينل في عهد السلطان الجديد ما ربه ،
أو أنه إذا انتقض عليه وثار في وجهه ، ينال من يخلفه هذه المآرب ، فسرعان ما ينتقض
عليه ويشور في وجهه ، ويدبر له المكائد ، يضخم عيوبه ، وينشر مثالبه . . . ثم قد
تمكن الفرصة هذا الثائر - وكثيراً ما تمكنه - من أن يطغى على سلطانه ، فيقتله أو
يسجنه أو ينفيه من الأرض ، ويحل غيره محله . وقد يكون هذا الغير من لا يمتون

إلى بيت الملك السالف بصلة ما . وهكذا . ومن السلاطين من كان صغير السن ، ولذلك طمع فيه الطامع بسرعة ، وثار في وجهه ، ونزعه من السلطنة . وتولى من بعده رجل جديد . كما وقع في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، حينما تولى أول مرة ، وسنه تسع سنوات ، فحكم أحد عشر شهرا ، ثم خلعه « كتبغا » المنصورى ، وتولى بنفسه السلطنة عام ٦٩٤ هـ . وكما وقع في عهد الملك الصالح « أمير حاج بن شعبان » حفيد قلاوون ، حينما تولى أول مرة وسنه إحدى عشرة سنة . فحكم نحو سنة وسبعة أشهر ، ثم خلعه « برقوق » العثماني وتولى بنفسه السلطنة عام ٧٨٤ هـ وأسس الدولة الجركسية .

ولم تكن هناك نظم للوصاية على السلاطين الصغار تحفظ حقوقهم في الملك ، وتنشئهم تنشئة ملكية مناسبة ، تؤهلهم لأعباء السلطنة المقبلة . ويندر أن تجد سلطاناً ترك من خلفه طفلاً صغيراً يلى السلطنة من بعده ، ثم أوصى عليه أحد الأمراء الكبار . وإذا ما أوصاه فيغلب أن ينتزع الملك منه - مع العلم بأنه روى ما يفهم منه أن مجالس الوصاية كانت معروفة في تلك العصور . فإن الملك المظفر صاحب حماة والمتوفى عام ٦٤٢ هـ ، قد ترك من خلفه ابنه محمدا المنصور ، وسنه عشر سنوات . فأقيم عليه مجلس وصاية مكوّن من أربعة رجال من أفذاذ مملكته منهم شيخ شيوخ حماة شرف الدين « عبد العزيز الأنصارى » . وكان هذا المجلس يرجع في رأيه إلى أم الملك (١) . هذا مع أن مملكة حماة كانت إحدى أقسام الدولة المصرية الواسعة في زمن المماليك . ولم يروا ابن إياس في بدائعه من أخبار الوصاية إلا لمحات يشعر منها المرء أن نظام الوصاية لم يكن مرعياً . وما رواه ما ذكره في ترجمة الناصر حسن قال « في سنة ٧٥١ هـ جمع السلطان حسن القضاة الأربع وسائر الأمراء ورشد نفسه واستعذر الأوصياء فأعذروا له في ذلك .

وحقاً كان يعاون الملك الصغير كبير من الأمراء ، أتابكيا أو نائب سلطنة أو غير ذلك . فيصرف له شئون الدولة . ولكن مع هذا كله ، كان الملك الصغير يجلس مع الأمراء مجلس السلطان ، وتقدم إليه الأوراق الرسمية ، فيمهرها بتوقيع السكريم ، ويرقى من يشاء ويعزل من يشاء ، كما يفعل السلطان الكبير تماماً ، ولو أن تصرفه هذا كان صورياً . فقد روى (١) أن الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون تولى الملك عام ٧٤٨ هـ فأهدى خلع الوظائف ، وألقاب الإمارة إلى من شاء وعمره ١٣ سنة . وروى : أن الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ولى الملك عام ٧٤٢ هـ وسنه سبع سنوات ، فتصرف في الأحكام صغيراً ، وعاونه الأتابكي « قوصون » . فكان إذا احتاج إلى توقيع السلطان أخذ « قوصون » بيد « كجك » والقلم فيها ، ويريه كيف يوقع على المراسيم والمناشير ، وهكذا كان الحال في عهد غيرهما من السلاطين الصغار .

هذا وإذا اختار الأمراء عليهم سلطاناً ، فالمفروض أنه سلطان مدى حياته . ويستمر سلطاناً فعلاً مدى حياته ، حتى تصادفه وفاته الطبيعية . إلا إذا عاقته ثورة جاحدة ، تكون فيها عاقبته ، من خلع أو سجن أو إعدام أو نفي أو اختفاء . ويندر أن يخلع سلطان بغير ثورة ، أو نزاع بين أنصاره وأعدائه . كما يندر أن يولى سلطان تولية مؤقتة ريثما يعين سلطان سواه تعييناً دائماً !.. فقد حدث ذلك مرة واحدة في تاريخ دولتي المماليك ، حينما خلع الملك المؤيد أحمد بن إينال عام ٨٦٥ هـ وأرسل الثائرون إلى الأمير « جانم » نائب الشام ليتولى السلطنة . ثم ولوا فيها مؤقتاً الأتابكي « خشقدم » فتلقب بالظاهر ، وانتظر الجميع عودة « جانم » ، ولكنه أبطأ في العودة ، فساعدت المقادير الظاهر « خشقدم » على أن يثبت في سلطنته ، بعد أن كان فيها خارجاً عن هيئة عمال الحكومة !.. ولبت يحكم نحو ست سنوات ونصف .

والأمراء هم أصحاب الأمر في تولية السلطان . ولكن ذلك لا يتم بناء على قانون موضوع وقواعد مدونة محكمة ، وإنما هو العرف جروا على اتباعه . أما الجند فهم من ورائهم يشدون أزهرهم وليس لهم رأى فعلى قاطع وقت الشورى فى أمر السلطنة . وإن كان الأمراء يراعون حينما اتجاء رأى الجنود . ومع ذلك فقد تدخل الجنود فى التولية فى أخريات الدولة الجركسية . ومن ذلك تدخلهم عقب اختفاء الملك الظاهر قانصوه بن قانصوه عام ٩٠٥ هـ ، فى أمر من يخلفه . فقد كان أمامهم ثلاثة مرشحين ، هم : الأمراء « تانى بك الجمالى » ، والأتابكى « جان بلاط » ، والدوادار « طومان باى » . وكان هناك مرشح رابع أيضا وهو الأمير « قانصوه خمسائة » الذى قد ملك آنا ولم يثبت ملكه ولم يُعترف به فاختفى . - فنادى الجنود على « قانصوه خمسائة » إذا أراد أن يظهر من خفائه ، فليظهر ، لتسند إليه السلطنة . فلم يظهر . ثم عُرض اسم « تانى بك الجمالى » فرفضه الجند ، ثم انحصر الأمر بين الأميرين الصديقين « جان بلاط » و « طومان باى » . وكان « طومان باى » مقربا من الجند ورغبتهم متجهة إليه ، فعرض اسم « جان بلاط » للسلطنة فلم يرضه الجند . ولكن « طومان باى » تعصب له وأمالهم إليه . - لحاجة فى نفسه . فاستقر الرأى على اختيار « جان بلاط » فى السلطنة . فكانت سلطنته تمهيدا لسلطنة « طومان باى » إذ خرج عليه وحاربه وهزمه وتولى مكانه (١) .

والأمراء كذلك هم أصحاب الأمر فى خلع السلطان ، وإزاحته عن السلطنة بأى شكل ، ويندر أن يتم ذلك بدون فتن ومؤامرات فيما بينهم ، ينقسمون فيها فريقين : فريقا مع السلطان وفريقا عليه ، يتربان حتى ينتصر أحدهما . أما الجند فالغالب أنهم ذوو رأى مرعى وذوو أثر فعلى فى مسألة خلع السلطان أو إبعاده عن

كرسيه ، لأنهم هم الذين يعززون الفريقين المحتربين من الأمراء . فتدخلهم في الخلع أكثر من تدخلهم في التولية .

وهناك عنصر ثالث في تولية السلطان وهو الخليفة والقضاة الشرعيون الأربعة . فلا بد لتمام التولية من حفلة مبايعة - كما ذكرنا - يتقدم فيها الخليفة أولا إلى السلطان المختار فيبايعه بالسلطنة . ثم يتبعه القضاة فيبايعون . ثم من بعدهم الأمراء . ولا تتم تولية السلطان بغير ذلك .

غير أن الخليفة والقضاة ليسوا ذوى رأى مرعى في التولية أو الخلع ، وإنما هم مأمورون فيؤدّون ما أمروا به ، ولا قدرة لهم على الامتناع عن المبايعة ، ما دامت مشورة الأمراء قد تمت . ومن السهل إذا ما حدثتهم النفس بالامتناع عن المبايعة - وهى لا تحذهم - أن يصرفوا عن وظائفهم ويقلدها سواهم فيقوم بما يطلب منه من المبايعة على خير وجه مرضى .

وقد اشتد تزاحم الأمراء حول منصب السلطنة ، وكثر تطلّعهم إليه ، وتشوفهم نحوه . وبسببه كانت تمور ثأرتهم وتدبر مؤامراتهم . مع العلم بأن هذا المنصب الشائك كان كثير الأعباء ، وهر حمل ثقيل على عاتق حامله لأنه قل أن يفلقه إلا مخلوعا أو منفيا أو مسجونا أو مقتولا . فوق ما يلاقيه في حياته من أذى المؤامرات والفتن ، أو مسئوليات الحروب ، أو غير ذلك . ومن الطريف أن نقص في هذا المجال ، ما وصف ابن إياس به الشهابى « أحمد بن العينى » إذ روى أنه كان يقلد السلاطين في معيشتهم ، حتى أطلق عليه « عزيز مصر » . وعرض اسمه مرة للسلطنة ، ولكن لم تتم سلطنته ، وقد لطف الله تعالى به حيث لم يل السلطنة لئلا يقضى عمره كله في القيد والسجن إلى أن يموت (١) .

ولذلك كان بعض السلاطين ، يتأبى على الأمراء ، حين اختياره للسلطنة ، ويمتنع عن قبولها خوفاً من أعبائها ، ورهبة من مسئولياتها . ومنهم الغورى الذى قيل إنه امتنع عن قبولها ، وألبسه الأمراء خلعة السلطنة ، ودفعه يجرى رهبة منها . - ولذلك كان بعض السلاطين يلجأ إلى دعوة الأمراء الذين اختاروه للسلطنة إلى أن يقسموا له يمين الطاعة والولاء والإخلاص على المصحف العثمانى ، فيقسمون ، والله يعلم ما تنطوى عليه قلوبهم من أهواء ! - وقد يكون ضرباً من ضروب التسلية أن نذكر للقارىء كيف تم اختيار الأمراء للأشرف « طومان باى » آخر الملوك الجركسية ، وكيف قبل السلطنة وذلك عام ٩٢٢ هـ فإنه حينما رجعت فلول الجيش المصرى بعد هزيمة الغورى فى « مرج دابق » وبعد قتله . وقع إجماع الأمراء ، على سلطنة « طومان باى » ، وكان نائب غيبة . فامتنع عن قبولها ، وأصر الأمراء على توليته ، وهو يمتنع . ثم ركب هو والأمير « علان » وجماعة من الأمراء ، وتوجهوا إلى كوم الجارح - خارج القاهرة - عند الشيخ « أبو السعود الجارحى » ! فلما جلسوا بين يديه ، عرض الأمراء عليه الأمر ، وذكروا تمتنع « طومان باى » عن السلطنة . فأبدى « طومان باى » عذره ، واحتج بأن خزائن بيت المال خاوية على عروشها ، وإنه لا يقبل السلطنة ، إلا إذا تعهد الجنود والأمراء ألا يطالبوه بنفقة ، وأن الجميع رهن إشارته ، لا يخونونه ولا يعصونه إذا استعد للحرب ، بمناسبة زحف العثمانيين على البلاد . ولما تراضى الجميع بين يدى الشيخ ، أحضر لهم مصحفاً شريفاً فأقسموا عليه بما تراضوا عليه وتواصوا به . - ثم جرت بعد ذلك رسوم التولية كالعتاد .. ! وهكذا تدخل الأولياء الصالحون فى تنصيب سلطان البلاد !

بعد أن تبين لنا ملابسات السلطنة من تولية وخلع وما إليهما ، نستطيع القول إن عدم وضع نظام ثابت مقرر مرعى لوراثة الملك وطريقة الحكم كان من أهم أسباب الاضطراب والفتن فى دولتى المماليك . وأعنى نظاماً آخر غير ما اتبعوه .

على أن النظام الذى اتبعوه ، يعتبر فذا وعجيبا فى التاريخ ، ووحيد نسجه . وقل أن نجد له ضريبا فى تاريخ الحكم وأدواره ، فى أية أمة من الأمم . فلا هو ملكية وراثية ، مطلقة أو مقيدة . ولا هو جمهورية شوروية ، يرأسها فرد أو جماعة ، من المستبدين أو غير المستبدين .

ولعله أقرب شيئا ، إلى حكومات الأشراف ، وهى التى عمادها بضعة نفر من الأفاذا والرموس ، فى الطبقات العالية من الشعب . يقومون معا متعاونين على حكم الشعب ، وخدمة شئونه الاجتماعية والاقتصادية .

غير أن هذا القياس لا بد فيه من بيان الفارق . إذ الأشراف فى اليونان القديمة مثلا ، وخاصة فى إسبرطة وأثينا قبل الميلاد بنحو ستة قرون ، كانوا من الشعب نفسه ، ومن صميمه ، وإن كانوا طبقة ممتازة من طبقاته . فهى تغار على الشعب غير طبيعية غير مجلوبة ، وتعطف عليه عطفًا عميقًا لا كلفة فيه . بل وكانت تعتبر نفسها صاحبة الوطن الأولى ، والمسكفة حراسته ، وتوجيه كل طبقة من طبقاته إلى خير المجموع ونفعه .

وبينما كانت هذه الطبقة الممتازة الحاكمة المذكورة من « أشراف » الشعب ، إذ كان بين طبقاته عدد من « الأرقاء » يعملون فى فلاح الأرض . هذا كان فى بلاد اليونان .

أما فى مصر فقد كان المالك طبقة طارئة على الشعب من الخارج ومن أمم شتى . فليست من صميمه ، ولا هى إحدى طبقاته التى قسمته إليها الأحداث الطبيعية والعوامل الاقتصادية . ثم إنها طبقة متجددة ، وتجدها يفد عليها من الخارج عادة ، ومن أسواق الرقيق ! ثم إنها طبقة « أرقاء » أما طبقات الشعب الأخرى فهى من « الأحرار » .

لو أن طبقة الممالك كانت من صميم الشعب ، مولودة منه وناجحة عنه . أو لو أنها كانت طبقة طارئة عليه ، ولكن محدودة ، ثم أقامت هي وسلاطاتها في هذا الوطن زمنا طويلا ، بغير أن يكون لها مدد أجنبي من الخارج ، لطبعت بالطابع المصرى الصحيح ، ولجرت في دماءها الجنسية المصرية الخالصة ، ولأصبحت تغار على مصر ، لأن مصر وطنها المحبوب ، لا ملكها المحمى . ولأنها البلاد العزيزة ، لا الضياع الخاصة .

ولعلنا لا نخطئ ، إذا قلنا : إن حكومة الممالك ، كانت خليطاً متمازجا عجيباً ، من نوعين متنافرين . هما : حكومة الأشراف ، وحكومة الطغاة . فإن الطبقة الحاكمة هنا هي « طبقة الممالك » ، وأمرؤها هم الذين يدهم الأمر والنهى في البلاد وهم الذين يختارون سلطانها . فحكومتهم « حكومة أشراف » . ثم إن السلطان الذى يولونه ، يلى بعد ذلك كل الأمور بنفسه ، وقل أن يستشير ، وإذا استشار فبمحض إرادته ، وهو غير مقيد بقانون ما . فيعمل ويعتقد أن المصلحة فيما يعمل فحكومته « حكومة طغاة » .

أما الشعب - وقد كان يتكون من عناصر وأجناس شتى ، مما خلفته في البلاد العصور المنصرمة - فلا وجود له هنا ، ولا صوت له ، ولا مظهر لإرادته في إدارة بلاده ، وإنما هو آلة صماء يؤمر فيفعل ، وتفرض عليه الضرائب فيدفعها ، لا لأنها تنفق في المصالح العامة وفي حاجيات البلاد ، بل لأن الذى يفرضها عليه قوى غليظ القلب ، لا يجب إلا الطاعة إذا أمر . ولذلك توقف البعض عن دفع الضرائب خلال الزحف العثماني لانشغال الممالك به ، حتى يرى لمن ستكون البلاد فيؤدى إليه حينئذ ما عليه من الضرائب ١ .

ولعل المظهر الوحيد ، الذى يمكن أن نعتبره مظهرا لإرادة الشعب ، هو اشتراك القضاة في حفلة مبايعة السلطان - لأن هؤلاء القضاة ، من طبقات الشعب

الأخرى غير طبقة الممالك . ومع ذلك قد علمنا أنه لم يسكن في مقدورهم ، الامتناع أو التخلف عن الحضور أو المعارضة ، فليس لهم في ذلك صوت مسموع . حتى إذا كان بينهم رجل قوى الشكيمة ، حديد الرأي ، صلب العزيمة ، ورع القلب ، ذو خبرة على مصالح المسلمين ، أراد أن يتوقف عن البيعة ، فإنه يستطيع سرعان ما ينظر في أمره وينجأ إلى طلبه . والغالب أنه يتوقف في أمور شكلية ، لا تمس صميم المبايعة ، ولا تعبر عن كرامة الشعب باعتباره شعبا .

ومن أمثلة ما يحكى في هذه المناسبة عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، شيخ الإسلام في عهد الظاهر بيبرس . أنه جلس في صدر المجلس الذى بايع بيبرس بالسلطنة وامتنع عن مبايعته ، وقال له : ياركن الدين ! أنا أعرفك بملوك البندقدار ! فما بايعه حتى جاءه من شهد له ، بخروج بيبرس عن ملك البندقدار ، للملك الصالح نجم الدين الأيوبي ثم عتقه .

أقول : لقد كان الشيخ عز الدين ذا مهابة وجراءة في الحق ، وكان يلقب بسلطان العلماء . قيل إنه لما توفي كان بيبرس ينظر إلى جنازته ، وهو واقف بالقلعة ، ثم قال : ما استقر ملكي إلا الآن ...

ثقافة الممالك وتربيتهم

نقصد بكتابة هذا الفصل ، أن نرسم صورة موجزة ، ولكن واضحة ، نبين فيها طرق التربية التي اتبعت في تثقيف ممالك مصر في هذا العصر الذي نحن بصددده ، ونتائج هذه التربية ، مع بيان طرق استخدامهم بعد الانتهاء من عهد التربية الرسمي . وقد كانت الرغبة في العصور الوسطى منصرفة في الدول التي كثرا استخدام الرقيق فيها ، من سببايا الفرس والترك والروم ، إلى الانتفاع بهم في أعمال الخدمة في القصور ، وما شابه تلك الخدمة خارج القصور ، والتسرى بالجوارى الجميلات ، أو الانتفاع بمراهمين في الخدمات المناسبة . ولم يعن بتربية الذكور تربية جنسية منظمة استعدادا للانتفاع بهم في الحروب . إذ كان الجنس العربي مختصا وحده بهذه التثنية دون سواه ، بدافع العصبية العربية . وبتوالي الأيام تداعت هذه العصبية ، واحتاج بعض الخلفاء إلى اتخاذ الجنود من الأجناس الأخرى غير العربية ، وبنى للمالكة منهم المدن الخاصة . فبدأت من ذلك الحين تمتد العناية إلى الأرقاء ، ويهتم بتربيتهم تربية جنسية منظمة .

وأول عناية انصرفت إلى تربية ممالك مصر ، الذين تولوا قيادها بعد انقضاء عصر الأيوبيين ، كانت عناية الملك الطالح نجم الدين الأيوبي ، فقد راعه ممالكه بإخلاصهم له ، حينما قبض عليه أعداؤه من ذوى قرابته ، وسجنوه بالكرك ، فبقى حوله هناك ممالكه ، وكانوا ثمانين رجلا . حتى أطلق وعاد إليه ملكه وجلس على أريكه مصر بمعاونتهم ، فعظمت مكانتهم لديه ، وحينما استتب له الأمر في مصر ، أكثر من شرائهم ، وجعلهم أمراء دولته وبطانته (١) . قيل فلما زاد شغبهم على

(١) عن خطط المقرئى جزء ٣ ص ٣٨٤ « ذكر دولة الممالك البحرية » وكذلك

تحت عنوان « الطباى بسامة الايوان » ج ٣ ص ٣٤٦

الناس ، وعيبتهم ببضائع التجار ، وارتفعت أصوات القاهريين منهم بالشكاية ، بنى لهم الملك الصالح قلعة خاصة ، وهى قلعة الروضة . فأصبحت لهم بمشابة الشكنات العسكرية ، وأمرهم ألا يزايروها وألا يخالطوا الناس . وقلعة الروضة المذكورة تسمى قلعة المقياس أيضا ، وقد زودها الملك الصالح ، بكل ما يحتاج إليه بماليسكه من زاد وأسلحة ، وبنى حولها البساتين وجملهاخير تجميل (١) وبلغ عدد من كان بهامن الجنود أقل من الألف ، ومنهم الأمراء عز الدين بن ايوب ، وبيبرس البندقدارى ، وفارس الدين أقطاي ، وقلاوون الألفي ، وبلباى الرشيدى ، وسنقر الرومى ، وغيرهم وقد ملك من الأمراء المذكورين فى الدولة البحرية : عز الدين وبيبرس وقلاوون .

واطردت ثقافتهم طيلة عصرى الدولتين ، وكانت ترمى فى جوهرها إلى الاحتفاظ بهم جنودا - هم والآرقاء الجدد الطارئون عليهم باستمرار - وذلك لأن دولتهم ان تقوم إلا إذا وجدت لها سواعد مفعولة ، وقلوبا تملؤها الشجاعة ، وعقولا أمهرتها الدربة والمرانة فى ضروب القتال . فكان لا بد لهم إذن من الاحتفاظ بهم جنودا على أهبة الاستعداد لخوض المعامع والحروب ، والدفاع عن الوطن ، والذود عن حياض الإسلام ، والاحتفاظ بالملك . يفزعون إلى حمل السلاح ، إذا ما نفخ فى الأبواق ، وقرعت الكشوس . ولا يمنع هذا أن يتزود منهم من يشاء ، ومن يدفعه ميله الخاص ، من موارد العلم وموائد الأدب . لذلك لا تعجب إذا لقيت منهم رب القلم ، أو ناظم الشعر ، أو الفقيه الدارس لعلوم الدين .

ولما كانت الثقافة العسكرية هى برنامج تعليمهم ، ناسب أن نورد عنها بعض التفصيل . وقد كان للسلطان ممالك ، يقيمون فى طباق قلعة الجبل ، يسمون « الممالك السلطانية » هم أهم من تتجه إليه العناية بالثقافة . وقد كان للأمراء ممالك آخرون ،

(١) اقرأ خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٩٧ « ذكر قلعة الروضة » .

لكل واحد منهم طائفة . وهؤلاء بلا شك أقل ثقافة ودربة من المماليك السلطانية .
والثقافة العسكرية المذكورة ، مرت في ثلاثة أدوار : ١ - دور الصرامة
٢ - دور النساheel ٣ - دور الأهمال . ولنتكلم عن كل دور منها .

١ - دور الصرامة

هو دور الأخذ بالشددة ، وفرض النظم الدقيقة ، والسهر على تنفيذها ، بقسوة
لا تعرف سبيلا إلى اللين أو المصانعة . فهو دور الثقافة الكاملة .

وحقا ، إن قلعة الروضة قد تهدمت ، وقوض أركانها الملك المعز بن أيبيك ،
وشدت شمل ممالكها البحرية . وذلك لأنهم ضايقوه في أول عهده بالسلطنة ، وأرغموه
على قبول أحد الأيوبيين شريكا له في الملك . فرضى مكرها ، وصابرهم وصابر نفسه ،
وعمل على شراء ممالك له خاصة . حتى إذا ما رأهم قد أصبحوا من حوله كثرة ،
يسهل التغلب بهم على أعدائه من المماليك البحرية ، بطش بهم ، وقتل رموسهم ،
وشدت شمل الباقين منهم ، فقرروا من وجهه إلى بلاد الشام . وقد ملك من ممالك
المعز بن أيبيك : الملك المظفر « قطز » . - ولكن المماليك البحرية ، عادوا من بعد ابن
أيبيك إلى هذه البلاد ، حتى ملك منهم الظاهر « بيبرس » ، فأعاد بناء قلعة الروضة ،
وأسكن بها عددا من الأمراء والجنود . ومع ذلك ، قد بقي عدد من البحرية مشتين
هم وأبنائهم ، حتى جمعهم الملك المنصور قلاوون ، وأسكنهم بأبواب قلعة الجبل ،
بعيدا عن « البرجية » . لأنه كان قد ابتنى للمماليك الإخصاء بروجاً في تلك القلعة .
جعلها بما جلبه إليها من بناء قلعة الروضة ، وأسكنهم بها وسماهم « البرجية » .

كانت هذه البروج طباق مقسمة ، يسكن في كل طبقة منها أبناء جنس واحد
من المماليك . ويشرف على ممالك كل طبقة « أغوات » أو طواشية ، و « زمامون »

يهيمنون على تنفيذ الأوامر وتعليم المماليك . ولكل طبقة فقيه أيضا .

وأهم العصور التي سادت فيها الثقافة الكاملة : عصر المنصور ، قلاوون ، وابنيه الأشرف خليل ، والناصر محمد .

وينقسم التعليم في هذا الدور ، إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : تبتدىء من عهد الصغر إلى سن البلوغ . فكانت المماليك تجلب صغار السن ، ثم يوضعون في الطباق تحت إشراف « الأغوات » ، فيقومون ببعض التمرينات الرياضية الهينة ، ويعلمون الكتابة والقراءة ، ويلقنون آيات من الذكر الحكيم ، وضروبا من الفروض الدينية ، ويعودون الصلاة ، ويحفظون بعض الأدعية لتلاوتها في مناسباتها . ويحجب إليهم الدين والذود عنه ، والتخلق بكل جميل من الأخلاق .

المرحلة الثانية : وتبتدىء من سن البلوغ . وفيها يؤخذ المملوك بكل شدة ، فلا يتسامح معه إذا غلط أو هفأ ، أو بدا منه شذوذ خلق . بل يعاقب على ذلك عقابا قاسيا . ويقسم المماليك إلى طوائف ، وتوكل كل طائفة إلى معلم ماهر ، فيمرنها على السباحة في الماء ، واللعب بالسيف ، والضرب بالرمح ، والقذف بالأطواق ، وركوب الخيل ، والعدو على ظهورها ، والمبارزة ، ورمى النشاب . ولعب الكرة . وقد تكون على ظهور الخيل . وليس هناك مانع من أن يجنح المملوك في وقت فراغه إلى مطالعة علم أو مدارس أدب . ولذلك قد يتفقه أحدهم في الدين ، وقد يأخذ نفسه بنظم الشعر أو الكتابة .

ونهاية هذه المرحلة ليست محدودة بسن معينة ، بل هي رهن ظهور مهارة المملوك وبروز مواهبه ، ونضوج خواصه .

المرحلة الثالثة : إذا ما برزت مواهب المملوك ، فغلبه شأنه ، وذاع فضله ،

وعرفت قدرته ، وشدة حيلته ، وشوهدت عليه ضروب الشجاعة ، وحسن البلاء في الرياضة العسكرية ، عرض ، واشترك في سباق أو مبارزة أو حفل أو لعب أو سيق في عداد المحاربين إلى صفوف القتال . - وتسكون مكافأته في النهاية أن يعتق ، وترد إليه حرّيته ، ويوكل إليه أمر وظيفة من الوظائف الصغيرة ، ويكتب له إقطاعها . - والإقطاع عبارة عن جزء من الأرض يستغله صاحبه كما يشاء . أو يفرض له عليه مال معين - ويمنح خيلا وقاشا ، وما شابه ذلك ، معاونة له على النهوض في حياته الحرة الجديدة . ويظل جنديا موظفا ، فيترقى في سلك وظائف الجندية ، حتى يبلغ مبلغ الإمارة ، فيمنحه السلطان لقبها ، ثم يترقى في سلسلتها ، حتى يصل إلى كبريات المناصب في الدولة ، وقد تفدّف به الحوادث والحظوظ إلى منصب السلطنة .

ولم يسمح للملوك في هذا الدور ، أن ينزل إلى المدينة ، ولا أن يختلط بأهلها ، ولا أن يتزوج ، حتى يعتق .

وكانت السلاطين معنية بملابس ممالك الطباق عناية محدودة ، وألبسهم بعضهم في بعض الأحيان الملابس الفخمة ، والمناطق الذهبية المزركشة . وقدمت إليهم المأكّل والمشارب . وكان المنصور « قلاوون » ينزل إلى مواضع الطعام والمطاهي ، ويشهد الأطعمة بنفسه قبل تقديمها إلى الممالك . ولا يتسامح مع المتهاون في إعدادها ، إذا ما وجدتها .

وسمح لهم الإشراف « خليل » ، بالنزول إلى المدينة بعض النهار ، بلا تخلف إلى الليل . وعُني بتقسيمهم إلى طوائف حسب جنسياتهم . كما أسبغ عليهم الناصر « محمد ابن قلاوون » كثيرا من النعمة ، وغالى في جلبهم . وكان يوصى تجار الرقيق ، بالعناية في اختيارهم من صفار الغلمان . ورفع أثمانهم حتى وصل ثمن الواحد إلى آلاف الدراهم . ولذلك كان يسيل لعاب آباء الأطفال ، لهذا المال الوفير والخير الكثير . فيلقون بأطفالهم بين أيدي التجار ، ويوصونهم ببيعهم في مصر ، مهد النعمة الغزيرة

والتربية العالية والمستقبل الزاهر . وسمح لهم الناصر بالنزول إلى حمامات المدينة مرة في كل أسبوع تحت عيون الرقباء .

وكانت نتيجة هذه التربية العسكرية الخلقية من خير النتائج . وقد صدق المقرئ إذ قال : « إنهم كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة ، يبالغون في إظهار الجميل . »

ويظهر أن هذا النظام الدقيق الذي أخذوا به في هذا الدور كان طبيعياً ، إذ كانت الدولة في بدء نشوئها ، ففيها كثير من الحيوية . والممالك الجدد حديثو العهد بعظمة سلطتهم ، فكان لا بد من التشدد في تربيتهم ، حتى تبقى دولتهم قائمة ، وسلطتهم منشورة ، ونفوذهم ممدودا .

وعرف من الممالك في هذه الفترة الأولى ، أناس اشتهروا بحب الألعاب الرياضية وبأعمال الفروسية ، ومنهم سلاطين مصر وكبار أمراءها . روى عن الملك السعيد « محمد بن الظاهر بيبرس » ، أنه توفي عقب عثرة عثرها فرسه أثناء لعبه بالكرة فكسرت أضلاعه ، وذلك عام ٦٧٨ هـ (١) . وروى عن « قطلبغا بن بلبان الجوكندار » ، وكان من أمراء الأربعين بدمشق - توفي عام ٧٢٠ هـ - أنه كان فارساً بطلاً خفيف الحركات . ويقال إنه عدا بفرسه ، فقطع نصف سفرجلة من غصنها ، وبقي نصفها الآخر مكانه ماهراً في لعب الكرة (٢) . وروى أن « محمد بن بكتمر » المتوفى في عام ٧١٠ هـ وكان - انتهت إليه الرياسة في زمانه في لعب الكرة ، فلم يكن من يجاريه إلا « علاء الدين قطلبغا » . فكانا إذا اجتمعا ، رأى الناس منهما العجائب . وكان الناصر « محمد بن قلاوون » يكرم محمداً هذا ، ويدعوه « أخى » (٣) . وقد كان للعب الكرة

(١) عن ابن إياس جزء ١ ص ١١٤ (٢) عن الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٦٥١

(٣) عن الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ١٠٥٢

مواسم خاصة من السنة ، يزاوله فيها السلطان وخاصة أمرائه ، وقد كان الغوري يزاوله بالرغم من كبر سنه وإن تأخر عصره .

على أننا في الواقع لسنا في حاجة إلى الاستشهاد على فروسيتهم بدليل ما ، وأمامنا حروبهم في الدولة البحرية ، وإيقاعهم بالفرنجة ، وهم خلاصة جنود الأوربيين . والتتار ، وهم الذين اكتسحوا أواسط آسيا . فأوقعوا بهؤلاء وهؤلاء ، المرة تلو المرة ، حتى ردوهم عن البلاد صاغرين .

هذا وقد قيل : إن مشتريات المنصور « قلاوون » بلغت ١٢ ألف مملوك . وقيل إنهم كانوا ٦٧٠٠ مملوك فقط . فأكملها ابنه الأشرف « خليل » إلى عشرة آلاف . وقيل اشترى الناصر « محمد بن قلاوون » نحو ١٢ ألف مملوك . وبلغت ممالك جيوشه ، نحو ٢٤ ألف مملوك .

وكان لكل أمير ممالكه في هذه الآونة أيضا . وروى أن ممالك الأمير « صرغتمش » المتوفى عام ٧٦١ هـ ، في عهد الناصر « حسن بن محمد بن قلاوون » ، بلغت عدتها ثمانمائة مملوك . وأن ممالك الأمير « يلبغا » العمرى الذى قتل عام ٧٦٨ هـ ، في عهد الأشرف شعبان ، بلغت عدتها ثلاثة آلاف مملوك .

٢ - دور التساهل

هو دور التراخي وترك التشدد ، وإباحة أنواع من الحرية لممالك الطباق ، وعدم عصمتهم من التمتع بلذائذ كانت محرمة عليهم في الدور السابق . وظهر هذا الدور بوضوح ، في عهد السلطان الظاهر « برقوق » العثماني ، مؤسس الدولة الجركسية . وقد استمرت فيه التريبة العسكرية التي وصفناها ، وأهم ما طرأ عليها ، التسامح في نزولهم من طباقهم إلى المدينة ، وإباحة التزوج . فكان من أثر ذلك أن اختلطوا بالعوام وصاحبوا سفلة الناس ، وعاشروا النسوة . فبدأ الترف الجسدى يكون محببا إلى

نفوسهم ، وبدأت البطالة تسكون عادة ممقوتة لهم ، وبدأت ملكتهم الحربية تتعثر وتخور ، وفنوتهم العسكرية تنسى .

والجندى كان ولا يزال آلة صماء ودابة عمياء ، ما دام في ثكناته وبين رؤسائه . فإذا ما أترف ، وأبيح له النعيم انصرف انصراف الملهوف ، وانكسب عليه انكسباب الظامى الصادى ، فلا يبقى على شىء ولا يذر .

٣ دور الاهمال

وابتداً فى عهد الملك الناصر « فرج بن برقوق » . ومنذ عهده لم توجه إلى تربية المماليك العسكرية عناية كبيرة دقيقة ، كما كانت توجه إليهم من قبل . وترك لهم الحبل على الغارب . وظن الناصر « فرج » أن إطلاق الحرية لهم ، سبيل إلى إتمام مواهبهم ، وإذكاء ملكاتهم . فليس ثم ضرورة إلى دفعهم لفقيه أو مؤدب . بل قيل : « استقر رأى الناصر « فرج » على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم » .

وقد قلت أجورهم ، وغث طعامهم ، وأعطوا جانباً من المال لينفقوا منه على ما كلهم . فاختلفت فى ذلك مشاربهم ، واتحوا وجهات متباينة فكسكت وحدتهم ، وباعدت بينهم . ولم تعد تبذل فى سبيل اختيارهم عناية ولا دقة . فاستقدموا كبار السن ، ومنهم من كان محترفاً فى بلده قبل وفوده إلى مصر .

وفى عصر الدولة الجركسية ، كان السلاطين أحياناً يتوالون على العرش بسرعة . ويزولون بسرعة . ويغلب أن يتخذ كل سلطان لنفسه جماعة من المماليك جدداً ، يطلق عليهم اسمه ، ويسكنون فى عداد ساكنى الطباق بقلعة الجبل ، يتعصب لهم السلطان ، ويتعصبون له . ويعنى بهم عناية خاصة لا يظفر بها غيرهم من المماليك الآخرين فتتج من ذلك أن تعددت أنواع المماليك ، فكان منهم - بمرور الأيام - فى الطباق : مماليك مؤيدية ، وإينالية ، وأشرفية ، وبرسية ، وخشقدمية ، وغير ذلك .

وكانت الحقود والضغائن تفرق بين هذه الجماعات ، نتيجة للغيرة والتحاسد .
ومن الطريف المناسب ذكره أن ممالك الأشراف قايتباي « الأشرفية » رأوا
بعد وفاته أن ابنه الناصر قد كون لنفسه جماعة جديدة من الممالك ، وسماهم « الناصرية »
وصرف إليهم عناية ، حرمتها الأشرفية فثاروا ، وأرغموا الأمراء والسلاطان على
تغيير لقبه وتلقبه بالأشرف كإبيه ، ليكون الجميع « أشرفية » فلا يفرق بينهم في
المعاملة . وقد تم هذا التغيير فعلا !

ولما شح عليهم السلاطين بالمال والرعاية والزينة الصالحة ، فسبدوا وكثرت ثورتهم .
وكان أكثرهم ثورة الممالك « الجلبان » . وقد أمر الناصر « محمد بن قايتباي » بإضافة
عدد من هؤلاء الجلبان ، إلى كل أمير لتأكل معه من إقطاعه . . ! فتأذى كل من
الفريقين ، وكانت هذه الحالة أدعى إلى فساد الخلق .

وقد حاول بعض السلاطين كالغوري ، المحافظة عليهم ، وإعادة النظام
إليهم ، ومنعهم من النزول إلى المدينة ، ووضع القيود لهم في سبيل
الزواج ، وحظر مخالطة النساء عليهم . ولكن كانت الشجرة قد انفتحت ، وكانت
النفوس قد جنحت إلى اللذة ، وأشربت حب العصيان ومخالفة الأوامر . ولذلك
ذهبت هذه المحاولات عبثا . وخولفت دون اكتراث . بل روى أنه لما ناب الأمير
« طومان باي الداودار » عن السلطان « الغوري » في السلطنة عند غيابه في حروب
العثمانيين ، بالبلاد الحلبية ، لم يلزم أجناد الحلقة بالمبيت بالقلعة .

ومن اشترى وجدد في الممالك ، في الدولة الجركسية : الملك المؤيد شيخ فقد
قل بلغت ممالكه « المؤيدية » خمسة آلاف مملوك . والملك الأشرف برسباي ، بلغت
ممالكه « البرسيمية » خمسة آلاف مملوك ، والملك الظاهر « خشقدم » بلغت ممالكه
« الخشقدمية » أربعة آلاف مملوك . وكان الملك الأشرف « قايتباي » مغرما بشراء
الممالك ، حتى قيل : إنه لولا الطواغين التي أصيبت بها البلاد في عهده لأصبح مجموع

ما عنده ثمانية آلاف مملوك . وهكذا تعددت طوائف المماليك ، بتعدد الملوك واتجاههم
وجهة حزبية خاصة في اقتنائهم .

ومع ضعف التربية العسكرية والخلقية في هذا الدور لم يترك السلاطين وكثير
من الأمراء مزاوله ما أغرموا به قبلا من ضروب المرانة الرياضية . فلقد كان
الأشرف الغوري - على الرغم من شيخوخته - لا يفتأ يلعب الكرة في مواسمها
الخاصة هو وخاصته من الأمراء - كما ذكرنا - وكانوا يلعبونها وهم على ظهور خيولهم ،
في ميدان القلعة ، وقد تصاحبهم الموسيقى وقت اللعب .

أما الجنود فقد كانت نتيجة التهاون في تربيتهم ، والإهمال في الإشراف الدقيق
عليهم منذ نشأتهم ، واختلاط أجناسهم ، والبخل بالإنفاق عليهم ، وخيمة . فكثرت
ثوراتهم وتآلبهم على السلطان ، فأصبحوا لا يطيعونه أو يعظمونه ، إلا إذا أشبع بطونهم
من الطعام ، وأنجم جيوبهم بالمال . وانصرفوا عن التفكير في المصلحة العامة إلى المصلحة
الخاصة وضعفت فيهم الروح العسكرية ، حتى كانوا لا يخرجون إلى قتال إلا بعد رجاء
وإلحاح من السلطان . وكانوا في أغلب أمرهم يومنون بالخبيثة . وقد كانت هذه الحالة
من أهم ما عجل بسقوط الدولة الجركسية ، ووقوع مصر غنيمة باردة في يد العثمانيين
إذ سقطت هيبة الدولة ، وتطلع إليها الطامعون . وهذا كله نتيجة فساد الجندية في
العصر الأخير . وقد صدق المقریزی ، إذ قال في وصفهم : « وصارت
المماليك السلطانية أرذل الناس ، وأذنانهم وأخسهم قدرا ، وأشجعهم نفسا ، وأجهلهم
بأمر الدنيا ، وأكثرهم إعراسا عن الدين . ما فيهم إلا من هو أرنى من قرد ، وألص
من فأرة ، وأفسد من ذئب . » (١) . - هذا مع أن المقریزی توفي قبل انتهاء الدولة
الجركسية بنحو سبع وسبعين سنة . لأنه مات سنة ٨٤٥ هـ .

الرتب والمناصب الهامة في الدول (١)

قال القلقشندي ما ملخصه : « إن الدولة الأيوبية ، لما خلفت الدولة الفاطمية خالفها في كثير من ترتيب الدولة ، وغيرت معالمها . وجرت على ما كانت عليه دولة « عماد الدين زنكي » بالموصل ، ودولة ابنه « نور الدين محمود » بالشام . ثم جاءت الدولة التركية ، وقد تنقحت المملكة وترتبت . فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب وتنضيد الملك ، وقيام أهله . ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها . فسلكت سبيله ، حتى تهذبت ، وفاقت سائر الممالك . »

وفيه مذكرته في صبح الأعشى (٢) ، وكذلك المقرئ (٣) في خطه وما نثره ابن إياس (٤) في ثنايا بدائع . ما يلي :

أن مناصب الدولة - عدا منصب السلطنة - كانت مقسمة بين نوعين من الرجال هما : المتعممون والأمرأ . وقد أطلق لفظ « المتعممين » على المشقفين من أبناء الشعب ، المتخرجين في المساجد ، النابغين في علم أو أدب . وهؤلاء يختار منهم : قضاة القضاة ونوابهم ومساعدوهم ، وكتاب الدواوين ومعاونوهم ، وكتاب السر وشيوخ المدارس والخوانق ، وما إلى ذلك . أي تركت لهم مناصب القضاء والكتابة والتعليم وما يتصل بها . وهؤلاء أجور ورواتب وضروب من المعونة يمنحونها ، من أوقاف أو نحوها ، لقاء أعمالهم .

(١) اعتمدنا في هذا الباب على ج ٤ من صبح الاعشى ، وج ٣ من خطط المقرئ ، ومترقات في بدائع ابن إياس وسلوك المقرئ .

(٢) ج ٤ من صبح الاعشى تحت عنوان « من أحوال المملكة ما عليه ترتيب المملكة .. الخ »

(٣) ج ٣ من الخطط ص ٣٤٨ تحت عنوان « دار النيابة » وما بعدها

(٤) حوادث عام ٩٠٨ هـ ٩٢٢ هـ في بدائع الزهور .

أما الأمراء ، فأصلهم - كما بينا - من معتوق الممالك ، الذين سمت بهم همتهم وحظهم ، إلى مرتبة الإمارة . ولكل واحد من هؤلاء ، إقطاع يمنحه ، فيستغله وفق هواه ، أو يتناول منه مالا معيناً . ويتغير إقطاعه ، ويعطى أوسع منه ، كلما ترقى . ويرد الإقطاع إلى السلطان لينححه لأmir آخر ، إذا توفى صاحبه أو عطل .

ويعتبر الأمراء جميعاً أعضاء عاملين في الجيش « ضباطا » إلا من غضب عليه السلطان منهم ، فنفاه وجعله « طرخانا » أى عاطلا بلا عمل . ولكل أمير رياسة على طائفة من الجنود محدودة ، حسب مرتبته . ومن هؤلاء الأمراء من يشغل - بجانب إمارته - وظيفة من وظائف الدولة ، أو أكثر . ومنهم من يكون بلا وظيفة . والوظائف التي توكل إلى بعضهم ، هي ماعدا وظائف القضاء والكتابة والتعليم وما يتصل بها مما اختص به « المتعممون » . فغيرها ، مقصور على طائفة الأمراء دون سواها . وينذر أن يوظف في إحداها متعمم ، إلا إذا كانت عملا كتابيا ومراتب الإمارة - في الغالب - أربع وهي :

١ - أمير مائة ومقدم ألف : ويرأس مائة فارس ، وقد تزيد . ويتقدم ألف أمير ، ممن دونه في المرتبة . ويبدو لنا أنه تقدم أدنى لا غير . وهذه المرتبة أرفع مراتب الإمارة . ويختار من طبقتها نواب السلطنة ، وأكبر موظفي الدولة مثل الآتابكي وحاجب الحجاب . - وبلغ عدد الأمراء المقدمين في أيام الناصر بن قلاوون أربعة وعشرين ، ثم نقص هذا العدد أو زاد قليلا . وبلغ في عهد الغوري نحو ستة وعشرين أميراً .

٢ - أمير طبلخانة : ويرأس أربعين فارساً ، وقد تزيد . وهذه المرتبة ثانية مراتب الإمارة . ويختار من طبقتها موظفون أقل خطراً من سابقهم ، وكشاف الأعمال . وعدد أمراء هذه الطبقة لا ضابط له . وقد بلغ في عام ٩٠٨ هـ ، نحو خمسة وأربعين أميراً ، كان منهم عشرة موظفين ، والباقي بغير وظيفة .

٣ - أمير عشرة : ويرأس عشرة فرسان ، وقد تزيد . ويختار من طبقتها أصاغر الولاية والموظفين . وعدد أمراء هذه الطبقة ، لا ضابط له أيضا . وبلغ في عام ١٩٠٨ هـ نحو مائة ومائتين أميراً .

٤ - أمير خمسة : وهم قلائل ، ويعتبرون كأكابر الجنود .

ورتب الإمارة رتب عسكرية ، وتمنح عادة في حفل عظيم . وبخاصة عقب حفلة تولية سلطان جديد . وقل أن تمنح ألقاب الإمارة لأحد من أبناء السلاطين ، بل يعرفون بالآسياد . ويقال لأحدهم : سيدى فلان .

والمملوك إذا اكتمل شبابه وأبنع ، وأظهر كفاءة ونشاطا ، أعتق ، ومنح لقباً من ألقاب الإمارة - وهو أمير عشرة غالباً - ثم يعطى خيلاً وقاشاً ومالاً ، ويفرد له إقطاع جديدة مناسبة للقبه . وبعد زمن يقضيه في نشاط مستمر ، يرقى إلى أمير طبلخانة ، وبعد زمن آخر يرقى إلى أمير مائة ومقدم ألف وهكذا غالباً .

ويتسكون الجيش من هؤلاء الأمراء ، ومعهم الجنود . والجنود أنواع ، وأهمها وأوسعها عدداً « المماليك السلطانية » وهم من تحدثنا فيما سبق عن ثقافتهم . وكثيراً ما يتخذ بعض الأمراء حاشية لنفسه وجندا ، من مماليك أخصاء ، يشترهم بماله الخاص . يعينونه إذا اشترك في حرب أو فتنة .

أما الوظائف التي يليها بعض هؤلاء الأمراء ، فكثيرة . ولا نقصد هنا أن نستوعبها ونتتبع الأحوال التي تقلبت فيها . وإنما نذكر بعضها فحسب . فمنها :

١ - النيابة : وهي ثلاثة أنواع (أ) نيابة السلطنة (ب) نيابة الأقاليم (ج) نيابة الغيبة .

(أ) نيابة السلطنة : هي أرفع مناصب الدولة . ويدعى شاغلها « نائب السلطنة » ، ويقال له أيضاً « النائب الكافل » و « كافل الممالك الإسلامية » . وهو يحكم في كل ما

يحكم فيه السلطان ، ويؤشر على ما ينبغي أن يؤشر عليه . فهو - في الواقع - الحاكم الفعلي وليس للمملكة إلا نائب سلطنة واحد . وسنتحدث عن النيابة بتفصيل .

(ب) نيابة الأقاليم : كانت المملكة مقسمة إلى عدة أقسام ، هي وتوابعها ، كالبلاد الشامية والحلبية . ويقال لكل قسم « نيابة » . ويحكم كلا منها « نائب » يختار من كبار الأمراء . فكان مثلاً لكل من الشام وقلعة دمشق وحلب ، وصفد ، وطرابلس ، وحماة ، والكرك ، والإسكندرية ، « نائب » . وأعظمهم جميعاً نائب الشام وما يذكر أن نواب « حماة » من بنى أيوب أبناء المظفر ، أطلق عليهم لفظ « ملوك حماة » أيام الناصر محمد بن قلاوون تكريماً لهم .

(ج) نيابة الغيبة : وهي نادرة ، ولا تكون إلا إذا خرج السلطان ونائبه في غزاة خارج البلاد . حينئذ ينصب أحد كبار الأمراء ، « نائب غيبة » يقوم بالمهام حتى ينوب السلطان .

٢ - الأتابكية : ومعناها إمارة الجند . ويقال لشاغلها « أتابك » « وأتابكى » « وأتابك العساكر » وهي تلي رتبة نيابة السلطنة في الأهمية ، وقد تضارعها ، وقد تسندها ، كما سنبينه .

٣ - الحجوبية : ويسمى شاغلها « حاجب الحجاب » . ويختار من أكابر الأمراء المقدمين . وهو قاض كبير له أعوان . ويفصل في المنازعات التي تقع بين الجنود والأمراء ، وفي قضايا الدواوين السلطانية . ولمنصبه أهمية كبرى ، حتى قيل إنه يلي نيابة السلطنة في الأهمية . وقد اتسع اختصاصه بتوالى الأيام حتى فصل في المنازعات المدنية ، بل وفي بعض القضايا الشرعية . والتي تقع بين أفراد الرعية ، لا بين الأمراء والجند فحسب . وذلك من باب استدرار الأموال من المتخاصمين . وقد وسوس له اتساع الاختصاص وحب المال ، أن يقضى وفق هواه بغير مراعاة لأحكام الشرع سنتحدث عنه في باب القضاء .

- ٤ - أمير مجلس : ويوكل إليه أمر الأطباء ومن إليهم .
- ٥ - أمير سلاح : وهو رئيس السلاح دارية من المماليك السلطانية . يوكل إليه أمر الأسلحة السلطانية ، وحمل السلاح للسلطان في الأوقات الجامعة .
- ٦ - أمير أخور : يوكل إليه النظر في الاصطبلات السلطانية وخبولها .
- ٧ - رأس نوبة : يوكل إليه الحكم على المماليك السلطانية ، وكبح جماحهم .
- ٨ - الأستاذار : يوكل إليه النظر في بيوت السلطان جميعها ، والإشراف على مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه ، وينفق على بيوته ومن فيها . ويدبر له ما يحتاج إليه .
- ٩ - الداودار : يبلغ رسائل السلطان ، ويقدم إليه المظالم والأخبار ونحوها ، وينظر في المقابلات السلطانية . ويقدم البريد إلى السلطان مع كاتب السر وأمير جاندار . ويطلب توقيع السلطان على المناشير والرسائل ونحوها .
- ١٠ - أمير جاندار : يعاون الداودار وكاتم السر ، ويستأذن للأمراء في الدخول إلى السلطان ، وينظم مواكب السلطان حين سفره ، ويتسلم بعض المغضوب عليهم فيعتقلهم في الزردخانة ، وهي تحت إشرافه .
- ١١ - الجاشنكير : ينظر في الموائد السلطانية ، مع الأستاذار .
- ١٢ - الخازندار : ينظر في خزائن الأموال السلطانية ، تحت إشراف باظر الخاص .
- ١٣ - شاد الشرا بخانة . ينظر في المشارب السلطانية وما فيها من فاكهة وحلوى وأشربة .
- ١٤ - أستاذار الصحة : ينظر في المطابخ السلطانية ، ويشرف على الأطعمة وتنظيم الموائد .

- ١٥ - مقدم الممالك . يشرف على الممالك السلطانية ويحكم فيهم
- ١٦ - الزمام : يشرف على تربية الممالك السلطانية .
- ١٧ - نقيب الجيش : ينظم الجند ويزينهم وقت العرض . ويحضر إلى السلطان أو نائبه من يحتاج إليه من الأمراء وغيرهم .
- ١٨ - المهمندار : يقابل الرسل والوافدين إلى الأبواب السلطانية ، من داخل البلاد أو خارجها .
- ١٩ - شاد الدواوين : وهو يعين الوزير في عمله ، ويستخلص الأموال ، ونحوها .
- ٢٠ - شاد العماير : يوكل إليه أمر العماير السلطانية ونحوها ، فيبنى أو يحدد .
- ٢١ - والى القاهرة : يقوم بالمحافظة على الأمن في هذه المدينة . وهو بمثابة « المحافظ » الآن . وللنواحي الأخرى ولاية غيره .
- ٢٢ - الكاشف : وهو ضرب من حكام الأقاليم .
- ٢٣ - الوزير : ينظر في الأمور المالية وتحصيل المال وصرف النفقات وتعيين المباشرين . وكانت هذه الوظيفة جلية الشأن ، وكان صاحبها قريباً من السلطان ، ثم تناقص خطرهما وألغيت حيناً . ويعاون الوزير أحياناً : شاد الدواوين وناظر الدولة . ويقوم مقام الوزير في عمله - ومستوفى الصحبة - ويعد المراسيم ليوقع عليها السلطان -
- ٢٤ - ناظر الخاص : وظيفة أحدثها الناصر بن قلاوون لما أبطل الوزارة . وموضوعها : النظر في كل ما يتصل بمال السلطان الخاص . وأصبحت كالوزارة . ولشاغلها أتباع من كتاب ديوان الخاص ، كمستوفى الخاص ، وناظر خزانة الخاص .
- ٢٥ - ناظر الجيش : وعمله النظر في أمر الإقطاعات بمصر والشام ، والكتابة بالكشف عنها ، ومشاورة السلطان في أمرها ، ويتصل بالنظر في شئون الممالك السلطانية ، وله أتباع .

٢٦ - المحتسب : ينظر فى شئون القاهرة ، ويراقب الصناعات والعمال والتجار ومن إليهم ، ويراقب استقامتهم ، ويضرب على يد المنحرفين منهم ، وهو شبيه « بحكمдар » العاصمة .

هذا وهناك كثير من الوظائف العامة ، غير ما سلف ، ضربنا الذكر صفحا عنها وعن اختصاصها . وحسبنا منها ما ذكرناه . ونرى من النافع فى هذا المقام ، أن ننوه بهذا الثابت القيم ، الذى سجله ابن إياس فى بدائعه فى مطلع حوادث عام ٩٠٨ هـ مرة ثم عام ٩٢٢ هـ مرة أخرى . دون فى كل أسماء القائمين بالأمر فى الدولة ، والهيئة الحاكمة فيها . مع ذكر وظيفة كل منهم . ونحن هنا ننقل ثبت عام ٩٢٢ هـ ذاكرين الوظائف دون أسماء الشاغلين لها فعلا إذ ذاك . فهى تعين على رسم صورة لأولى الأمر فى البلاد ، ومن يعاونهم . ومنهم من ضم وظيفتين . وهى بإيجاز :

١ - السلطان ٢ - الخليفة ٣ - قضاة القضاة الأربعة ،

٤ - أمراء مقدمون أرباب وظائف ، وعددهم ستة وعشرون ، منهم من يشغلون الوظائف الآتية : أمير كبير « أتابك » : أمير سلاح . أمير مجلس . أمير أخور كبير رأس نوبة النوب . حاجب الحجاب . الدوادر الكبير . الأستاذار . كاشف الكشاف والباقون بلا وظائف .

٥ - نواب البلاد الشامية والحلبية : نائب حلب . نائب طرابلس . نائب حماة . نائب صمد : نائب غزة . نائب القدس . نائب السكر . ومن النواب من شغل أكثر من نيابة واحدة .

٦ - أمراء طبليخانات موظفون : شاد الشراب خانة . الزدركاش الكبير . تاجر المالىك . أستاذار الصحبة . رأس نوبة ثان . الحاجب الثانى . والى الشرطة . المهندار . نقيب الجيش . شاد الشون . الترجمان . معلم المعلمين . أمراء رموس نوب كثير . قال ابن إياس : وقد تكامل فى هذه السنة من الأمراء الطبليخانات

والعشرات فوق الثلاثمائة أمير .

٧ - كبار المباشرين وهم من المتعممين : كانم السر وناظر ديوان الإنشاء .
نائبه . ناظر الجيش . مستوفيا ديوان الجيوش . ناظر الخاص . ناظر الأوقاف .
الوزير . ناظر الدولة . كاتب المالك . ناظر الأصطبل . مستوفى ديوان الخاص .
ناظر الزردخانه . مستوفى الزردخانه . ناظر الحسبة . ناظر الأحباس . مستوفى
ديوان الجيش الشامى . المتحدثان فى الخزانة الشريفة . المتحدث فى وظيفة الزمامية .
المتحدث فى الديوان المفرد . البرردار . المتحدث فى الشئون السلطانية وغيرهم من
المباشرين وأعيان الدولة .

٨ - أعيان الخدام الطواشية والخاصكية : فى هذه السنة تكاملت الخاصكية ،
فبلغت نحو ألف ومائتى خاصكى من مشتريات السلطان .

وهذا . ونظرا لما لنيابة السلطنة والأتاككية والوزارة والقضاء والخلافة ، من
أهمية ، أفردنا لكل منها فصلا ، يبين أحوالها . وأتبعنا كل فصل ، بترجمة عدد ممن
شغل منصبها . أما كتاب الدواوين وكتاب المر ، فنتحدث عنهم فى الجزء الرابع ،
بمعون الله .

نِيا بة السلطنة (١)

درجت السلطنة المملوكية منذ نشوئها تقريبا ، على أن يكون لها « نائب سلطنة » . ومنصب « النيابة » أرقى مناصب الدولة جمعاء . ونائب السلطنة في المرتبة الثانية بعد السلطان . وهو أوسع الأمراء نفوذا ، وأكثرهم اختصاصا ، وذلك بحكم منصبه . ويقوم بإنجاز كثير من الأعمال ، التي تعتبر من اختصاص السلطان . فتعرض على سمعه القضايا المرفوعة إلى السلطان ، فيفصل فيها ، وقد ترسل إلى السلطان طلبا لموافقته . وفي هذه الحالة يكفيه النائب مئونة النظر بنفسه في تلك القضايا .

وينظر النائب في أحوال الجيش ويفتشه . ويخرج أنواعا من الإقطاع ، ويختار لها من يشاء . ويرشح لمراتب الامارة بعد مشاورة السلطان . ويعين من يريده للوظائف المختلفة ، ما عدا ما كان خطير الشأن منها ، كالقضاء والوزارة وكتابة السر ، فإنه يعرض على السلطان من يصلح لها ، وقل ألاّ يحاب . (٢)

والنائب يشاوره كثير من أرباب الدولة ورؤسائها في أمور اختصاصاتهم . ويكتب إليه نواب الأقاليم فيما يكتبون فيه إلى السلطان . ويمتاز عنهم بأنه يلقب « بالنائب الكافل » ، و « كافل المالك الإسلامية الشريفة » ، ويمشي الأمراء في ركابه . إلى غير ذلك من ضروب الميزة والاختصاص . فهو السلطان الثاني ، واليد العاملة

(١) راجع ما كتبناه بعد عنها في باب « أتابكية العساكر » .

وراجع كتاب « التعريف » لابن فضل الله تحت عنوان « النواب » . وخطط المقرئ ج ٣ تحت عنوان « دار النيابة » . وصبح الاعشى ج ٤ تحت عنوان « النيابة » . وبدائع ابن عباس في حوادث السنين المذكورة . والسلوك ص ٣٨٤ ، ٣٩٠ وحوادث السنين المذكورة .

(٢) هذا مؤدى كلام المقرئ . ويفهم من عبارة القلقشندي أن النائب يعين من يشاء في الوزارة وكتابة السر . وقل ألاّ يحاب فيمن يعينه

المحركة لشئون الدولة . وهو - فى الغالب - الحاكم الحقيقى فى البلاد . وقد يشتهد نفوذه ، حتى يطغى على نفوذ السلطان نفسه .

ومختار النائب من أوسع الأمراء جاها ، وأشد هم دهاء ، وأفضلهم ذكاء ، وأكثرهم حنكة ودربة . وقد يعين فى وظيفته تلك ، خوفا منه أو ترضية له .

وكثيرا ما ترشح النيابة شاغلها لتولى السلطنة . فقد تتقلب الظروف بالسلطان ، ويختفى من مسرحه لسبب ما ، أو يدعو سبب إلى اختفائه ، وهنا يقفز النائب ويتولى السلطنة مكانه .

وقد يوجد من الدواعى ، ما يختفى لأجله نائب السلطنة نفسه . كأن يترأى للسلطان القبض عليه ، أو الحكم بإعدامه ، أو نقله من منصبه ، عقابا له . فإذا اختفى خلا منصبه ، وأقيم فيه نائب جديد . لذلك قد يتعدد نواب السلطنة فى وقت واحد ، مثل عهد الناصر محمد بن قلاوون ، فقد شهد جملة من النواب . ويبقى لكل واحد منهم لقبه ، فيقال له « نائب السلطنة » ، وإن كان شاغل المنصب منهم واحدا فقط ، وهو الرجل العامل من بينهم .

وهناك منصب آخر يسامق « النيابة » ، ويطلق عليها جاها ونفوذا ، وهو « الأتابكية » - إمارة الجند - ، كثيرا ما طغى شاغلها « الأتابك » بجاهه ونفوذه على ما للنائب من جاه ونفوذ . وربما جمع أمير بين منصبى « الأتابكية » « والنيابة » معا ، فيبلغ بذلك الغاية من الملك والسلطان . ويرجع سبب ذلك - فى أغلب الأحوال - إلى شخصيته : وإلى نصيبه من الحيلة والذكاء والأعوان .

ومهما يكن من شيء ، فقد تقلبت الأحوال بنبابة السلطنة ، طول العصر ، فصادت فيها جملة أمور نلخصها فيما يلى :

فى ١٣ شوال عام ٦٤٨ هـ استناب الملك المعز الأمير « علاء الدين البندقدار »

بديار مصر ، لترتيب الأمور وكشف المظالم (١) ، فهو أول نواب السلطنة بمصر . وفي خلال عام ٦٥٠ هـ أُمّر الملك المعز أيبك عددا من مماليكه ، وجعل مملوكه ، الأمير سيف الدين « قطز » ، نائبا لسلطنته ، ووكل إليه تدبير شؤنه (٢) . وكان واسع النفوذ ، أثيرا عند سلطانه ، عاونه على تثبيت مملكه ، وتدعيم أركانها . ومن ثم توالى نواب السلطنة في كل عهد تقريبا . حتى كان عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، وكان نائب سلطنته « طرطاي » . فقبض عليه بسعاية وزيره « علم الدين سنجر » الشجاعى . واختار من بعده الأمير « بيدرا » عوضا عنه . غير أنه ما لبث أن عزل الوزير الشجاعى المذكور ، وعين مكانه صديقه وصفيه « شمس الدين بن السعلوس » وزير اعلم ٦٩٠ هـ . وأطلق يده في شئون المملكة ، حتى صار صاحب الحل والعقد فيها . فطغى نفوذه على نفوذ النائب « بيدرا » ، ومشت الامراء والقضاة في ركابه ، وقرئت القصص والمظالم عليه ، وفصل فيها برأيه دون أن يستشير السلطان . وعظم بذلك منصب الوزارة ، وشأ النيابة وغيرها .

ولما ملك الناصر « محمد بن قلاوون » تنابع في عهده عدد من نواب السلطنة ، ساءت العلاقات بينهم وبينه ، حتى قرر إلغاء « النيابة » جملة ، كفا لشر النواب . فتم ذلك عام ٧٢٧ هـ . غير أن هذا المنصب سرعان ما أعيد في عهد ابنه « المنصور » ، واختير لنيابة سلطنته الأمير « طرطدمر » . وذلك في عام ٧٤١ هـ .

ولما كانت سنة ٧٤٢ هـ . ملك الأشرف « كجك » بن الناصر ، وفي عهده جمع الأمير « قوصون » بين منصبى « النيابة » و « الأتابكية » . وعظم أمره واستبد ، وغلب عليه لقب « الأتابكى » . غير أنه لبث كذلك زمنا وجيزا ، ثم قتل ، وخُلع مملكه فانفصل المنصبان . وعين فى النيابة الأمير « طشتمر » .

ولبثت « النيابة » حتى كان عهد الناصر محمد بن قلاوون . فألغاها عام ٧٥٥ هـ . كما ألغاها أبوه من قبل . وأنشأ مكانها وظيفة جديدة هى « الإمرة الكبرى » واختار

لها الأتابكي « شيخو » العمرى الناصرى ، فهو أول من سمي بأمير كبير . وظل هو والأمير « صرغتمش » صاحب الحول والطول زمنا .

ولما زالت دولة الناصر حسن عام ٧٦٢ هـ ، عادت نيابة السلطنة إلى الظهور مرة أخرى ، في عهد خلفه المنصور محمد بن حاجي . وعين فيها الأمير « قشتمر المنصورى » . وظلت قائمة حتى عام ٧٧٥ هـ . إذ تولاها الأمير « منجك اليوسفى » وجمعها إلى « الأتابكية » ، وأصبح صاحب الحول والطول في أيام الأشرف شعبان ابن حسين بن الناصر محمد . كما كان « قوصون » من قبل . فلهاولى ابنه على بعده ، فصل بين المنصبين . وعين في « النيابة » الأمير « أقتمر الصاحبى » الشهير بالحنبل . وفي « الأتابكية » الأمير « طشتمر المحمدى » الشهير باللفاف . إلا أن الأمير « أينبك » البدرى ، نازع « أقتمر » وأمره بالسفر إلى دمشق « نائبا » بها . فسمع وأطاع !

وقبض على « طشتمر » فخلا الجوالأمير « أينبك » . فأُسندت إليه « الأتابكية » . واستبد بها بعده الأتابكى « برقوق » قبل سلطنته . فاخفت « النيابة » حينما . حتى أسس « برقوق » دولته الجر كسية عام ٧٨٤ هـ ، فاختر لنيابة سلطنته الأمير « سردون الفخرى » الشيخونى . ويبدو لنا أن النيابة اتضعت عن قبل . فقد وفد إلى مصر المقر السيفى « بيدمر » الخوارزمى نائب الشام زائرا ، فأكرمه السلطان برقوق ، وقدمه فى المواقف الرسمية على نائب سلطنته « سودون » .

وآل أمر النيابة فى عهد فرج بن برقوق إلى الأمير « تميز » . ويبدو لنا أنها عطلت من بعده زمنا طويلا ، واستبد بأمور الدولة الأتابكيون وأخوانهم . حتى كان عهد السلطان « جقمق » عام ٨٤٢ هـ . فعين فى أواخر العام المذكور الأتابكى « أقبغا » التمرزى نائبا لسلطنته ، مع الأتابكية ، فعظم أمره .

قال ابن إياس ما ملخصه : « أن أقبغا التمرزى ، صار يحكم بين الناس ، وعلى بابهِ رأس نوبة ونقباء . وهو آخر من تولى نيابة السلطنة المصرية » .

هذا . وقد كان لنائب السلطنة ، دار خاصة بالقلعة وتسمى « دار النيابة » ، يقيم فيها اسماع القصص ، والأحكام ، أى لمباشرة عمله . وقد بناها المنصور قلاوون عام ٦٨٧ هـ وأول من سكنها « طر نطاي » . فلما أُلغى ابنه الناصر نيابة السلطنة ، هدم تلك الدار . ثم أعاد النائب « قوصون » بناءها ، ولكن لم تسكمل ، حتى قبض عليه . ثم ما زالت حتى أقام بها النائب « آق سنقر » عام ٧٤٣ هـ ، بعد تجديدها . وظل النواب يقيمون فيها ، ويشرفون على الجيوش المصرية منها ، حتى عهد النائب « تمران » أيام « فرج ابن برقوق » ، فهجروها ، ولم يقيم بها .

نواب السلطنة (١)

ولى نيابة السلطنة ، كثير من أمراء الدولة متتابعين . ومنهم من بلغ السلطنة ، وملك البلاد . مثل : قطز المعزى ، وكتبغا المنصورى ، ولاجين المنصورى . ومنهم من لم يبلغها ، ووقف به جده عند النيابة . ونحن هنا نترجم لعدد من هؤلاء فى إيجاز مناسب ، مع ذكر ما عثرنا عليه من سنوات وفاتهم فحسب ، إذ كثير منهم مجهل أول سيرته . فمنهم :

١ - علاء الدين إيدكين البندقدار الصالحى ٦٨٤ هـ

أول نواب السلطنة بديار مصر . اختاره الملك المعز أيبك فى ١٣ شوال ٦٤٨ هـ . فجلس فى دار العدل مع النواب . وأخذ فى ترتيب الامور . وكشف المظالم . وما زال حتى اختار مكانه مملوكه « قطز » عام ٦٥٠ هـ .

وهذا الأمير من جملة مماليك الصالح نجم الدين الأيوبى . كما أن الظاهر بيبرس ، كان من جملة مماليكه هو ، ولذلك نسب إليه فقيل له : « البندقدارى » .

ولما ساءت العلاقة بين المعز والمماليك البحرية ، وبينه وبين زوجته شجرة الدر ، قبض على عدد من البحرية الصالحة ، ومن بينهم ، « إيدكين » ، واعتقلهم بالجلب بقلعة الجبل عام ٦٥٥ هـ . ثم لما ولى « بيبرس » السلطنة ، حظى هذا الأمير عنده ، وولى نيابة دمشق زمنا يسيرا ، ثم ولى نيابة حلب ، وشهد عصر الملك السعيد ، واشترك مع الثائرين عليه ، حتى خلعوه . وقد مات « إيدكين » عام ٦٨٤ هـ .

« سلوك المقرينى ج ١ ص ٧٣٠ »

٢ - عز الدين « إيدمر » الحلى ٦٦٧ هـ (١)

ورد ذكره فى سلوك المقرينى ، ويفهم منه أنه كان نائبا للسلطنة فى عهد السلطان « قطز » (٢) ، فلما ولى « بيبرس » السلطنة ، بعد قتل « قطز » ، حفظ « إيدمر » القلعة ، حتى سلمها إلى « بيبرس » . وسرعان ما عين « بيبرس » الأمير « بيليك » الخازن دار مملوكه ، نائبا للسلطنة ، مكان « إيدمر » عام ٦٥٨ هـ .

وقد اختير « إيدمر » عام ٦٦٢ هـ ، ليكون « أتابكا » خاصا للملك السعيد بن بيبرس ، وهو ولى للعهد . غير أنه يبدو لنا أنه احتفظ له بالقب « نائب السلطنة » ، وأنه كان ذا مكانة رفيعة لدى « بيبرس » . وفى أواخر عام ٦٦٤ هـ ، طعنه أحد الجندارية بسكين ، فأصابه إصابة بالغة . واساه من أجلها « بيبرس » أكبر مواساة . وقال « والله يهون على موت ولدى بركة ، ولا يموت الحلى » .

وفى صفر عام ٦٦٧ هـ اختار « الملك السعيد » - وكان يحكم عوضا عن والده - الأمير بدر الدين « بيليك » الخازن دار بدلا من « الحلى » . وعقب ذلك خرج « الحلى » مع السلطان « بيبرس » إلى بلاد الشام ، فمات هناك بدمشق فى أول شعبان

(١) فى النهج السديد ، دواء مرة « الحلبى » ومرة « الحلى » : انظر ج ١ ص ٤٨٢ ، ٤٩٠

(٢) وهذا يوافق رواية ابن أبى الفضائل فى النهج السديد ج ١ ص ٤٠٨

عام ٦٦٧ هـ ، عن نيف وستين سنة . ومن آثاره : أنه جدد الجامع الأزهر عام ٦٦٥ هـ ، وأقام به مقصورة ومنبراً جديدين ، وضم إلى أوقافه أوقافاً كانت منصوبة ، وكان سبباً في عودة صلاة الجمعة فيه بعد عطلة منها زمناً طويلاً . وقد حج « الحلى » في هذا العام نفسه (١)

« سلوك المقرئى ج ١ ص ٤٢٧ ، ٤٤٥ ، ٤٥٩ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٣٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٧٣ ، ٨٥٠ - النهج السديد ج ١ ص ٤٠٨ ، ٤٨٢ ، ٤٩٠ . ٤٩١ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ .

٣- بدر الدين بيليك الخازندار ٦٧٦ هـ

كان مملوكاً للظاهر بيبرس ، قبل سلطنته . فلما صار سلطاناً ، خلع على مملوكه هذا وأقامه في نيابة سلطنته عام ٦٥٨ هـ . وفوض إليه شؤون الدولة ، فصار صاحب الحل والعقد فيها . وخرج مع السلطان مراراً إلى بلاد الشام للقتال . ولعله أُبعد عن النيابة زمناً ، وحل محله فيها ، « عز الدين إيدمر الحلى » ، حتى كان عام ٦٦٧ هـ ، إذ اختاره الملك السعيد - حينما كان يجلس للحكم عوضاً عن والده - نائباً له .

ولما مات « بيبرس » في نواحي دمشق ، كان معه « بيليك » ، فسكن خبر موته أملاً يطمع التتار في بلاده ، في هذه الفترة العصيبة . وسار إلى مصر ، ومعه محفة السلطان كأنه فيها . حتى بلغ مصر ، فأعلن الناس بوفاة سلطانهم . وأتم سلطنة ابنه « الملك السعيد » ، وبذلك حفظ له العرش . فأقره « الملك السعيد » في نيابته . فلبث قليلاً حتى مات عام ٦٧٦ هـ في ربيع الآخر . ويقال إن « الملك السعيد » دس إليه السم ، خوفاً منه . وروى صاحب النهج السديد : أن « بيليك » دخل إلى والده الملك

(١) في النهج السديد ج ١ ص ٤٩٠ ، ٤٩١ ما يفهم منه أن « إيدمر » كان يطلق عليه « نائب » في حين أن « بيليك » كان نائباً للسلطنة بالفعل

السعيد ، عقب سلطنته مباشرة ، يعزىها بوفاة « بيبس » ، ويهتبا بسلطنة ابنها ، فسقطه سكراميون ، أصيب عقبه ، ومرض . فرشوا طبيبه « عماد الدين النابلسي » ، فأهمله فمات . - وقد كان « بيليك » محسنا كثير البر ، عارفا بالتاريخ ، جيد الخط . ومن آثاره : أنه بنى عام ٦٦٥ هـ ، مقصورة جديدة بالجامع الأزهر ، لما جده « عز الدين الحلي » ، ورتب فيه أيضا دروسا في فقه الشافعي ، والحديث ، والقراءات ، وأوقف على ذلك أوقافا كافية . ولما مات حزن الناس عليه ، وكانت جنازته حافلة .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٩ ، ١١٠ ، ١١٢ - والسلوك ج ١ ص ٥٥٧ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٦٤٨ - والنهج السديد ج ١ ص ٤٩١ ، ج ٢ ص ٤٥٣ »

٤ - شمس الدين آق سنقر الفارقاني ٦٧٦ هـ

اختاره الملك السعيد بن بيبس ، نائبا لسلطنته عقب وفاة « بيليك » عام ٦٧٦ هـ ، فلبث قليلا ثم أثار غضب السلطان ، فقبض عليه ، وسجنه بشجر الاسكندرية (١) ، ثم أمر بخنقه في نفس العام ، ودفن في سجنه . - وذكر صاحب النهج السديد : أنه ولي النيابة عام ٦٧٧ هـ ، فوقع شقاق بينه وبين الخاصكية - حرس السلطان الخاص - فقتلوه في العام المذكور .

« ابن إياس ج ١ ص ١٠٩ ، ١١٢ - النهج السديد ج ٢ ص ٤٩٣ ، ٤٩٨ ، ٥٤١ ، ٤٦٣ - السلوك ج ١ ص ٦٥٠ ، ٧٠٤ » .

٥ - شمس الدين سنقر المظفرى الألفى ٦٨٠ هـ

ولى النيابة عقب وفاة « آق سنقر » . فرأى الأمور مختلة ، والنظام فاسدا ، بتحكم الصبيان الجهلة من الخاصكية ، الذين أخذوا يوغرون صدر السلطان عليه .

(١) هذه رواية ابن إياس . ويفهم من السلوك أنه لم يخرج للاسكندرية ، وأنه مات عام ٦٧٧ هـ .

فطلب إلى سلطانه الملك السعيد ، أن يقيه ، فأقاله . وما مكث إلا قليلا في نيابته .
ومات عام ٦٨٠ هـ ، وهو مسجون - كما قيل - بالإسكندرية .

« النهج ج ١ - والسلوك »

٦ - سيف الدين كوندك الساقى ٦٨٠ هـ

ولى النيابة بعد استقالة « سنقر المظفرى » عام ٦٧٦ هـ . وهو من رجال الخاصكية .
وكان إذ ذاك شابا ذكيا . ومن قبل كان مع سلطانه الملك السعيد فى المكتب صغيرين ،
فانعدت بينهما صلة الود . فلما ولى له نيابة سلطنته ، مكن له تمكيننا ، لم يكن لأحد
قبله . ورسم بالآ يوقع لأحد إلا بقبله وعلمه . وقد عاونه فى مهمته الأتابكى قلاوون
الأفنى . - وفى عام ٦٧٨ هـ وقعت بينه وبين الخاصكية منازعة ، وكادوا يقتلونه . لولا
أن حماء الأمير « سنقر الأشقر » . وطلبوا إلى السلطان عزله . فأمره بالرحيل إلى
حلب ، ومنحه إمرة أربعين . ١ . فحاول أن يوقع بين السلطان وأمرائه ، - ومنهم
« قلاوون » - لينتقم . فاستشرى الفساد بين الفريقين ، حتى خلع الملك نفسه .

وبعد حين ، ولى السلطنة المنصور « قلاوون » ، فتآمر « كوندك » عليه مع آخرين ،
وهموا بقتله . فقبض عليه ، وسلم للأمير « حسام الدين طر نطاي » عام ٦٨٠ هـ ، فضرب
عنقه ، وأغرقه فى بحيرة طبرية .

« ابن إياس ج ١ ص ١١٣ - النهج السديد ج ٢ ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ - السلوك
ج ١ ص ٦٨٥ ، ٦٨٦ »

٧ - عز الدين أيبك الأفرم الصالحى

عينه السلطان بيمرس فى أول سلطنته ، أمير جاندار (٢) . فسافر فى عام ٦٦٠ هـ .

(١) هذه رواية ابن إياس . ويفهم من السلوك أنه لم يخرج للإسكندرية ، وأنه مات عام ٦٧٧ هـ
(٢) أمير جاندار : هو الذى يستأذن على الأمراء ليدخلوا لخدمة السلطان . ويقدم البريد
إلى السلطان ، مع الدوادار وكاتب السر — « صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠ » .

بعسكر إلى بلاد الصعيد ، وأوقع بعربانها الثائرين بقوص . وسافر إلى أسوان عام ٦٧٣ هـ ، مع آخرين لقتال ملك النوبة العايب بتلك الجهات . - ثم أقيم نائباً للسلطنة في عهد العادل « سلامش » . ولكن الأمر كان في يد الأتابكي « قلاوون » . فلما ولي « قلاوون » السلطنة ، اختاره نائباً لسلطنته عام ٦٧٨ هـ . فلبث قليلاً ، ثم استعفى مدعياً المرض . فأعفاه السلطان ، ورتب له ما يكفيه . واستشاره فيمن يخلفه ، فأشار عليه باختيار الأمير « حسام الدين طرناى » ، فوافق ذلك هوى في نفس السلطان . ولم يلبث أن ندبه مع عدد من الأمراء وجوع من الجنود ، لمحاربة « سنقر الأشقر » الذى ملك بلاد الشام ، وخرج على السلطان . فما زال به حتى أخضعه . واشترك مع السلطان في حرب التتار .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، والسلوك ج ١ » .

٨ - حسام الدين طرناى ٦٨٩ هـ

هو طرناى بن عبد الله . كان من مماليك المنصور قلاوون . رباه صغيراً ، وترقى هو فى خدمته . حتى تقلد المنصور سلطنة مصر ، فجعله نائب سلطنته ، بعد « الأفرم » الصالحى . وذلك عام ٦٨٧ هـ . وهو أول من سكن « دار النيابة » التى أنشأها المنصور عام ٦٨٧ هـ . وقد بعثه المنصور عام ٦٨٦ هـ . للقبض على الأمير « سنقر الأشقر » ، الذى أعلن بنفسه سلطاناً على بلاد الشام . فما زال به حتى استسلم ، فساقه إلى مصر ، ودفع به بين يدى المنصور .

ولما مات المنصور ، وتولى ابنه الأشرف خليل . دس له الأمير « علم الدين سنجر الشجاعى » الوزير دسيسة عنده . وكان الأشرف يكره « طرناى » قبل سلطنته ، لأنه كان يعرقل أعماله وآماله . وقيل للأشرف : إنه يعمل على إفساد مملكته . فقبض عليه عام ٦٨٩ هـ ، فسجنه بالقلعة ، ثم أمر بخنقه .

وكانت الأمراء قد حذرتهم من بطش الأشرف خليل ، وراودوه على ألا يعاونوه

على إتمام سلطنته بعد أبيه، وأغروه بالقبض عليه . ولكن « طرطاي » كان واثقا من نفسه معتمدا على مهابته ، حريصا على أن يكون وفيما لسيد المنصور ، فلا يغدر بابنه ، فراح ضحية ثقة، ووفائه . وأحاط الأشرف بماله وتحفه ، ويقال إنه ترك من ذلك الشيء الكثير . وكانت له مدرسة اشتهرت بالمدرسة الحسامية .

« ابن إياس ج ١ ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ - وخطط المقرئ ج ٤ ص ٢٢٨ تحت « المدرسة الحسامية » - سلوك ج ١ ص ٦٥٥ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٧ ، ٧١٥ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ . »

٩ - بدر الدين بيدرا ٦٩٣ هـ

ولى الوزارة حينما فى عهد قلاوون ، بإشراف القاضى تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز ، وشهد له هذا القاضى عند سلطانه ، بالسداد والحزم واللف فى العمل . ثم عزل منها ، وولياها القاضى المذكور . ثم عزل القاضى وأعيد الأمير « بيدرا » ، فسار فى أعمالها بمفرده . وكان حينئذ أمير مجلس . ثم رقى إلى الاستدارية مع الوزارة . وظل كذلك إلى آخر عهد المنصور قلاوون . ولما آل الملك لابنه الأشرف خليل ، خلع على الأمير « بيدرا » وجعله نائب سلطنته ، وذلك عام ٦٨٩ هـ ، بعد « طرطاي » . وخرج عام ٦٩١ هـ ، فى جملة من عسكر مصر لقتال سكان جبال كسروان ببلاد الشام ، فأب خاسراً ومرض بسبب ذلك . وكان الأشرف اختار لوزارته صديقه الحميم ، القاضى « شمس الدين بن السعلوس » وأطلق يده ، فاستبد بتدبير المملكة ، وأصبح بيده الحل والعقد فيها . وطغى بنفوذه على نفوذ النائب « بيدرا » ، وتدخل فيما يعتبر من اختصاصه ، فلم يظهر لذلك غضبا لعله بميل السلطان إليه . ثم إن « ابن السعلوس » انتبى بعض الأخطاء التى وقع فيها غلمان « بيدرا » ، ودس له عند السلطان ، حتى أحققه عليه . فأحضره وأغلظ له فى القول ، وأثقل عليه فى الحديث ، حتى جرح كرامته ، وتوعده بكل سوء . فتحيل الأمير « بيدرا » ، وتلف به ، حتى

خلص من بين يديه ، وفي نفسه ما فيها من الغيظ والحقد . فأضمر له الشر ، وأخذ يدبر هو وأتباعه مؤامرة لاغتياله . وقد سنحت لهم الفرصة المرجوة ، في يوم السبت ٥ محرم عام ٦٩٣ هـ ، إذ خرج « الأشرف » في إحدى رياضياته بالجيزة ، ولم يكن في صحبته غير أمير واحد . وكان أتباع « بيدرا » يراقبون حركاته وسكناته . حتى انفرد ، فهجموا عليه هجمة صادقة ، ومزقوا جسده شرمزق . وتركوه جثة هامة رهن الخلاء .

ثم اتهموا فيما بينهم فيمن يستحق السلطنة . فاستقر الرأى على سلطنة « بيدرا » . فتلقب بالملك « الأجد » ، وقيل « الرحيم » . ولكن الخبر شاع وملاً البقاع . فهبت بقية الأمراء ، ومعهم المماليك السلطانية ، ووفدوا إلى الجيزة ، وأحاطوا « بيدرا » ومن معه ، فقطعوه بسيوفهم إربا إربا . فانتهى أمره بهذه العاقبة ، ولما تم على سلطنته ليلة كاملة .

وقد ولى النيابة من بعده « كتبغا » ثم « لاجين » وقد صار كل منهما ملكا - كما بينا - .

« ابن إياس ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ » .

١٠ - شمس الدين قرا سنقر المنصوري ٧٢٨ هـ

هو قرا سنقر بن عبد الله ، الجوكندار المنصوري . اشتراه المنصور قلاوون قبل سلطنته ، ثم ترقى في خدمته ، إلى أن ولاه نيابة حلب عام ٦٨٢ هـ (١) . ويقال إنه من أبناء النصارى .

وفي عهد الأشرف خليل عزل من نيابة حلب عام ٦٩١ هـ ، ووفد في عصبة

الأمير « بيدرا » ، نائب السلطنة حينذاك ، لقتال سكان جبال كسروان ، فلم يظفروا بطائل . ثم دخل القاهرة ، وانضم إلى « بيدرا » ، ودبر معه مقتل الأشرف خليل . ثم اختفى زمنا . ولما صار الملك إلى « لاجين » ، أقام « قراسنقر » نائبا لسلطنته عام ٦٩٦ هـ (١) . غير أنه لم يلبث غير أشهر ، ثم فسدت علاقته بالسلطان « لاجين » ، واتهمه بجملة تهم ، منها كثرة جباية الأموال بغير حق . وقبض عليه ، فلبث في سجنه زمنا ، ثم أطلق سراحه في عهد الناصر بن قلاوون . وقدم إلى الناصر ضروبا من الموهنة ، فخطى عنده . وولى عدة نيابات منها نيابة الشام عام ٧٠٩ هـ . ثم فسد ما بينه وبين الناصر ، ففر مع جماعة إلى « خربندا » ملك التتار ، فأعجب به ، وسر بعقله وذكائه . وحبب إليه الإقامة لديه ، وزوجه تترية حسناء عالية القدر ، وهى ابنة « قتلوشاه » أحد أمراء التتار الكبار . وقد توفى في ٢٧ شوال عام ٧٢٨ هـ . وقد كان شجاعا صنديدا غير هياب ، يقصده الطامعون في جدواه . ومدحه بعض الشعراء وكان حسن التدبير راجح العقل . وقد بنى عام ٧٠٠ هـ ، مدرسة بالقاهرة عرفت إذ ذاك بالمدرسة القراسنقرية .

« ابن إياس ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ - والدرر الكامنة ج ٣ رقم ٦٢٥ - والخطط ج ٤ ص ٢٣٢ »

١١ - سيف الدين منكوتمر الحسامى ٦٩٨ هـ

كان مملوكا للسلطان حسام الدين لاجين . فأنعم عليه في أول سلطنته عام ٦٩٦ هـ بإمارة مائة وتقدمه ألف ، فصار بذلك من عظماء الأمراء فجأة . ولم ينصرم العام ، حتى أقامه نائبا لسلطنته ، بعد قبضه على النائب « قراسنقر » . ولم يكن « منكوتمر » أهلا

(١) هذا كلام ابن إياس . وفي الدرر : أنه ولى نيابة السلطنة في عهد « كتبغا » والاول أصح ، لأن نائب « كتبغا » كان « لاجين » الذى وثب من بعده من النيابة إلى العرش .

لهذا المنصب الجليل ؛ إذ كان في الأمراء من يفوقه دربة وخبرة ، وأحق منه بالنيابة
 لسكفائه وأقدميته . . . وبلغ من عناية السلطان به ، أن هم مرة بجعله وليا لعهد . كل
 ذلك أحمق عليه قلوب الأمراء . وأطلق السلطان يده في شئون الدولة فعبث بالحقوق
 وغير الأوضاع . وكان أكبر معوان للسلطان على تنظيم « الروك الحسامي » ،
 الذي قسم فيه الإقطاعات تقسيما جديدا ، عده الأمراء والجنود محفابهم . فأغرى
 السلطان ببعض الأمراء ، فقبض على البعض ، وفر منه البعض . فثارت بذلك ثائرة
 التآمر عليهما معا . وتزعمها الأميران « كرجي » و « طغجي » . فقتل « كرجي » السلطان
 غيلة في إحدى الليالي ، فاستسلم « منكوتر » على الأثر إلى « طغجي » ، فبعثه إلى جب
 القلعة سجيناً . فكاد يبطش به من في الجب من السجناء الذين أرسلهم إليه من قبل .
 وسرعان ما استدعاه « كرجي » بعد ساعة ، وذبحه بيده وكان ذلك عام ٦٩٨ هـ .

وكان « منكوتر » ظالماً غشوماً كثير الدس للأمراء ، مستبداً . فكان عمله هذا
 وبالا عليه . ومن آثاره مدرسته المنكوتيرية ، بحارة بهاء الدين بالقاهرة - كانت - التي
 أكمل بناءها عام ٦٩٨ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٢٧ ، ١٣٨ - خطط المقریزی ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢

وج ٤ ص ٢٣٠ ،

١٢ - سيف الدين « سلار » ، المنصوري ٧١٠ هـ

أصله من التتار الأويراتية ، اشتراه قلاوون قبل سلطنته ، وأعطاه ابنه عليا .
 فخدمه وخدم بعده الأشرف خليل . وحينما عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون عودته
 الأولى إلى ملكه عام ٦٩٨ هـ ، عقب قتل الملك « لاجين » ، عين الأمير « سلار » ،
 نائبا للسلطنة في ذلك العام . فدبر له أمور دولته . وسار في رفقته عام ٦٩٩ هـ ، إلى
 بلاد الشام لقتال غازان ملك التتار .

ولما وافت سنة ٧٠٧ هـ ، ساءت العلاقات بينه وبين سلطانه الناصر ، ودبت عقارب المشاحنات بينهما . وضغط على السلطان في تصرفاته حتى غص السلطان به وبالاتابكي « بيبرس » الجاشنكير ، اللذين كانا يدبران له أمر مملكته ، فاستبدا بذلك الأمر من دونه . فعزم الناصر على أن يخلع نفسه من السلطنة ، فرارا من هذين الحاجرين . فأعلن عام ٧٠٨ هـ ، بعزمه على الخروج إلى الحج . وخرج فعلا ، ولكنه تخلف في السكرك ، وخلع نفسه من الملك . فتشاور الأمراء فيمن يولونه . وكانت الرغبة متجهة بجد إلى اختيار النائب « سار » ، ولكنه صمم رأيه وأعلن عزمه على عدم قبول هذا المنصب الرفيع ، مع أهليته له . فتمت بذلك المشورة على اختيار الاتابكي « بيبرس » فتلقب « بالمظفر » . وظل « سار » نائب سلطنة أيضاً في ذلك العهد الجديد .

ازداد نفوذ « سار » وعلا جاهه وقويت سطوته وظل كذلك زمناً ، حتى تقلبت الأحوال ، واثمر كثير من الأمراء والجند على خلع « بيبرس » ، والتف عدد منهم حول الناصر بالسكرك ، وكاتبه أمراء الشام بالطاعة . فزحف بأنصاره من السكرك إلى الشام ، وخطب باسمه على منابرها . ثم أعد العدة للزحف على مصر . فاحتاط الأمير « سار » لنفسه ، وظهر بُعد نظره وقوة حيلته ، في أنه أخذ يزين للمظفر بيبرس ، أن يخلع نفسه من السلطنة ، ويعلن بطاعته للناصر ، قبل أن يدهمه بجنوده . فرضى المظفر مرغماً ، وأطاع ، وكاتب الناصر بهذه الطاعة ثم فر .

أما « سار » فإنه لم يظهر عداً للناصر ، وأعد العدة لحسن استقباله . فأطلق من في السجون من أمراءه الموالين له ، وأغلق خزائن المال ، واحتفظ بالملك سليماً ، ريثما يعود الناصر ، فيتسلمه . - هذا إذا استثنينا مانه المظفر « بيبرس » وقت هروبه ، من مال وسلاح وتحف وماليك .

عاد الناصر إلى عرشه عودته الثانية عام ٧٠٩ هـ ، فتقدم إليه النائب « سار » ،

وقبل الأرض بين يديه ، وطلب إليه أن يعفيه من مهام منصبه ، وأن يسمح له بالأقامة بعيداً عن القاهرة في إقطاعه بجهة « الشوبك » . فأعفاه . وبذلك انتهت نيابة سلطنته عام ٧٠٩ هـ ، بعد أن قام بها نحو إحدى عشرة سنة . وأقام بالشوبك ، وقيل بالسرك .

ورقى إلى علم السلطان الناصر بعد زمن أن أخاه « سلار » وأتباع « سلار » يدبرون مؤامرة لاغتياله . فقبض على طائفة منهم . ثم حمل « سلار » على العودة إلى القاهرة . فلما حضر بين يديه ، دسه في السجن ، فبقي به زمناً قليلاً ثم مات كمداح حيرة عام ٧١٠ هـ . ولما توفي ، حملت تركته إلى الناصر ، فضمها إلى ممتلكاته . وقيل إنها كانت مليئة بأموال كثيرة ، وأنواع شتى من التحف النادرة والجواهر الثمينة . مما يعد فذاً في بابه . وينسب إلى « سلار » أنواع من الملابس « السلارية » ، التي استخدمت طيلة هذا العصر ، من بعده : وكذلك أنواع أخرى من الأسلحة وأدوات القتال . كما أنه كان كثير البر والتصدق على الفقراء . وقد دفن في المدرسة الجاولية .

« ابن إياس ج ١ من ص ١٢٩ إلى ١٥٦ - الفوات ج ١ ص ٢٣٢ - الدرج ٢ رقم ١٩١٣ ، . »

١٣ - بكتمر الجو كندار المنصوري ٧١٦ هـ

كان حسن الصلة بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون . ولاه إمارة الحاج عام ٧٠٠ هـ ، فبذل ضروبا من البر ، وشكرت سيرته . وقد أقامه الناصر نائباً لسلطنته عام ٧٠٩ هـ ، عقب خروج « سلار » منها . ولكنه مال به حتى فسدت علاقته بالسلطان ، فقبض عليه عام ٧١١ هـ ، وأردعه السجن بالإسكندرية . ثم نقل إلى السرك ، ويقال إنه قتل بها ، عام ٧١٦ هـ ، وكان رزينا لين الجانب كثير الصدقات .

« ابن إياس ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٧ - الدرج ١ رقم ١٣٠٧ ، . »

١٤ - بيبرس الدودار المنصورى ٧٢٥ هـ

أصله من ممالك المنصور. ولاه نيابة السكرك، ثم عزله الأشرف «خليل»، ورقاه دودارا كبيراً. وقد أرسله الناصر محمد فى عام ٧٠٩ هـ، فى إثر الملك المظفر «بيبرس» الجاشنكير، لما فر من وجهه، إلى إخميم. فتلطف هو والأمير «بهادر آص» به، حتى استرد منه ما نهبه من المال والتحف.

واختاره الناصر نائباً لسلطنته عام ٧١١ هـ. بعد القبض على «بكتمر». إلا أنه لم يستمر طويلاً، بل ساءت فيه ظنون الناصر. فقبض عليه، وقذف به فى السجن عام ٧١٢ هـ. فلبث بسجن الإسكندرية نحو خمس سنين، ثم شفع فيه النائب «أرغون» فأطلق عام ٧١٧ هـ. ثم حج عام ٧٢٣ هـ. ومات عام ٧٢٥ هـ، عن نحو ثمانين عاماً. وقد اشتغل «بيبرس» بالعلم والتاريخ، ومن مؤلفاته: زبدة الفسكرة فى تاريخ الهجرة، والتحفه الملوكية فى الدولة التركية.

«ابن إياس ج ١ ص ١٥٤، ١٥٧ - تاريخ آداب اللغة لجورجى زيدان ج ٣ ص ١٨٦ - حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٠ - الدرر ج رقم ١٣٨٤».

١٥ - أرغون الدودار الناصرى ٧٣١ هـ

اشتراه المنصور «قلاوون»، ورباه مع ولده الناصر «محمد». فظل فى خدمته، ولازمه. فلما قبض الناصر على نائبه «بيبرس» عام ٧١٢ هـ، اختار «أرغون» نائباً. فحسن سيرته، ودفع عن الناس كثيراً من الظلم. وزار مرة منية ابن خصيب، فخرّب بها كنائس للنصارى، ومنع استخدام النصارى فى ديوانه. وكلفه الناصر عام ٧٢٦ هـ أن يقبض على «مهنّا» العربى الثائر. فتباطأ. فأثار بذلك غضب الناصر، فقبض عليه. ثم أخرجه نائباً على حلب. فمات بها عام ٧٣١ هـ. وكان ذا دراية بفقّه أبى حنيفة، وذا عناية

كبرى باقتناء الكتب . مع الحلم وحب الخير .

« ابن إياس ج ١ ص ١٥٧ - الدرر ج ١ رقم ٨٧٣ » .

١٦ - طقز دمر الناصرى ٧٤٦ هـ

أصله من مماليك المؤيد صاحب حماة . اتصل بالناصر « محمد » ، فعلت عنده مكانته . وزوج ابنتيه لولديه المنصور والصالح . ثم ولى نيابة السلطنة عام ٧٤١ هـ . فى عهد المنصور أبى بكر بن الناصر . واسكن أمر الدولة كان بيد « قوصون » ، أتابكى العصر . قبض « قوصون » على المنصور ثم على نائبه ، ونفاه إلى دمياط . وأصبح « قوصون » نائباً وأتابكياً معاً . ثم أطلق سراح « طقز دمر » وأرسل نائباً على حلب فى أول عهد الصالح بن الناصر . ثم نقل إلى نيابة الشام . ثم أشخص إلى مصر مريضاً ، فمات بها عام ٧٤٦ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ - الدرر ج ٢ رقم ٢٠٤٢ » .

١٧ - سيف الدين « قوصون » . الساقى الناصرى ٧٤٢ هـ

أحد أمراء مصر العظام . قدم إلى مصر لأول مرة عام ٧١٩ هـ (١) . حينما حضرت إلى مصر خطيبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهى ابنة القان « أزبك » ، صاحب الموصل . حضرت فى ذلك العام ومعها طائفة من الأمراء والخدم والمماليك . وكان « قوصون » بين هؤلاء المماليك . فأعجب الناصر به إعجاباً دفعه إلى شرائه . وقيل دفع ثمنه ثمانية آلاف من الدراهم . وقيل ثمانين ألفاً . وقد أعتق توا . فلم يعيش بين الطباق بالقلعة ، كما عاش غيره من الأمراء . وكان « قوصون » ، يفتخر بذلك -

وقد ذكرنا قبلا ، المفارقة التي وقعت بينه وبين الأتابكي « بكتمر » الساقى ، وهى وهى من هذا القبيل .

وقد صادف وجوده ، هوى فى نفس الناصر بن قلاوون ، حتى ركن إليه ، وقدمه فى كثير من الأمور والمهام . ورافقه فى سفره إلى الحجاز للحج عام ٧٣٢ هـ . ثم زوجه من بعد ذلك إحدى بناته (١) . فكان هذا الزواج إحدى مفاخره ، وقد زادت به منزلته رفعة ، وجاهه علوا ، ونفوذه اتساعا . حتى أضحت قرينا للأتابكي « بكتمر » فى المنزلة والجاه والنفوذ ، بل ربما شآه فى ذلك . مع أن « بكتمر » هذا كان مدبر شئون الملك للناصر ، وعليه كل اعتماده فى تصريف شؤونه . فلما مات « بكتمر » ، خلا الجو للأمير « قوصون » ، وانفسح أمامه المجال ، واتسع الأفق ، وازداد قربا من الناصر ، وأنعم عليه بأسلحة « بكتمر » . فلما انقضت أيام الناصر وتولى ابنه المنصور أبو بكر عام ٧٤١ هـ ، أقيم « قوصون » أتابكا للعساكر . وكان هناك أمير يحقده عليه هو « طاجار » ، اشتد بينهما الجفاء ، حتى انقسم الجند معهما فى متعاديين . ثم حجب « طاجار » إلى السلطان أبى بكر أن يقبض على « قوصون » . فأوصى السلطان أحد خواصه من الجنود باغتياله . فلما كان من الجندى إلا أن أسر الخبر إلى « قوصون » . فعجل بتدبير مؤامرة مع فئة من الأمراء ، كانت تتيقظ خلع السلطان ، وإقامة أخيه الأشرف علاء الدين كجك مكانه .

حينما تربع « كجك » فى دست الملك كان صغير السن فكان « قوصون » بجواره كوصى عليه . وهنا بلغ قمة مجده ونهاية سوءده ، فأبرم ونقض ، وحل وربط ، وأمر ونهى ، وجمع إلى الأتابكية نيابة السلطنة عام ٧٤٢ هـ . وأخذ فى تجديد دار

(١) يفهم من ابن إياس أن هذا الزواج كان عام ٧٣٣ هـ ، وذكر فى الدرر أنه كان عام ٧٢٧ هـ .

النيابة ، بعد أن كانت قد هدمها الناصر بن قلاوون . قيل : وكان يجلس في داره ،
ويعمد للأمراء سماطا أعظم من سماط السلطان .

هذه الغاية التي بلغها « قوصون » ، أثارت الحقوق والضغائن في قلوب منافسيه
وأعدائه . ومما أشعل نيران هذه الحقوق أيضا ، أن أصدر أمره بالقبض على من
توسم فيهم العصيان من المماليك السلطانية ، ومن كبار الأمراء كالأمير « طشتمر » ،
نائب حلب في ذلك الوقت ، وكالأمير « إيدغمش » أمير أخور كبير ، وكالأمير
« قطلبغا » الفخرى . فأهاج بذلك على نفسه فتنة لم يقو على درتها . فقد أخذته
الاعداء من كل جانب ، واستباحوا داره . وأغروا بها العوام ، فنهبوا من مكتوباتها
ما أغناهم دهرآ . فقد كانت مليئة بكثير من المال والتحف والسلاح والخيل ، وغير
ذلك . — أما « قوصون » فقد احتجى بالقلعة . ورأى بعينه ما يفعله الرعاع بداره .
فلما اشتد الأمر ، أرسل إلى « إيدغمش » في طلب الأمان ، فقبض عليه « إيدغمش » ،
وسجنه بالزردخانة . ثم أرسل في طي الليل إلى سجن الإسكندرية . وأهين أتباعه ،
وقتل منهم كثير . ثم أعاد « قوصون » بالإسكندرية عام ٧٤٢ هـ .

هذه هي نهايته ، بعد أن بلغ من المجد مبلغا عظيما ، حتى هابته الأمراء . قيل إنه
لما تزوج ابنة الناصر محمد ، أهدى إليه الأمراء ، نحو خمسين ألف دينار . وكان كريما
كثير البذل والسماح . وله مسجد بناحية بركة الفيل بالقاهرة . وخانقاه بجهة باب
القرافة . كانت . —

« ابن إياس ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ — الخطط

ج ٤ ص ١٠٤ — الدرر ج ٣ رقم ٦٢٢ »

١٨ — طشتمر البدرى الساقى ٧٤٣ هـ

كان من مماليك الناصر بن قلاوون . وترقى حتى بلغ الإمارة . ولسكنه كان غليظ

القلب ، شديد البأس . لذلك لم يسترح إليه ضمير الناصر . فقبض عليه عام ٧٢٦ هـ .
 - وقيل عام ٧٢٧ هـ . - فشفع فيه بعض الأمراء ، فخلى سبيله . ومع هذا ظل ممقوتاً لدى الناصر . وقد عين نائباً لحلب في عهد المنصور أبي بكر بن الناصر . وفي عهد خلفه الأشرف « كجك » ، رغب نائب السلطنة الأتابكي « قوصون » في القبض عليه فلم يفلح . وألب عليه « طشتمر » بلاد حلب والشام . فلما زال عهدهما ، قدم « طشتمر » إلى مصر . وعين نائباً للسلطنة في عهد الناصر أحمد بن الناصر محمد عام ٧٤٢ هـ . غير أنه لم يهنأ بهذه النيابة إلا شهراً تقريباً ثم سادت علاقاته بالسلطان . فقبض عليه وسجنه بالقلعة . ثم سافر السلطان أحمد إلى الكرك ، فساق معه « طشتمر » وزميله « قطلوبغا » فسجننا في قلعتها مدة ، ثم أعتدما عام ٧٤٣ هـ . فكان قتلهما مما عجل بخلع السلطان . ويتراى لنا أن « طشتمر » كان شخصية نادرة ملهية . وقد سماه العوام « حصص أخضر » لأنه كان يحب أكله . ولهم فيه أغان وأشعار طريفة .

« ابن اياس ج ١ ص ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ - الدرر ج ٢ رقم ٢٠١٧ - المخطوط ج ٤ ص ٣٤٩ » .

١٩ - شمس الدين آق سنقر السلاري ٧٤٧ هـ

كان في جملة ممالك المنصور قلاوون . ثم ضم إلى الأمير « سلار » فنسب إليه . ثم حسن اتصاله بالناصر بن قلاوون ، فزوجه بابنته . وولى في عهده نيابة صفد وغيرها ، فأحسن الولاية واشترك بعد الناصر في عدة حوادث . حتى ملك الناصر أحمد بن الناصر محمد ، فولاه نيابة السلطنة بعد « طشتمر » . وظل بها في عهد خلفه الصالح إسماعيل عام ٧٤٣ هـ . فأتى تجديد دار النيابة بالقلعة ، وأعادها إلى سابق مجدها ، وأقام فيها لشماع القصص والشكايات .

غير أنه لم يقيم طويلاً ، حتى تغير قلب السلطان عليه ، فسجنه بالإسكندرية أوائل عام ٧٤٤ هـ . ثم أطلق سراحه بعد زمن . وكان في عداد الثائرين على السلطان

شعبان بن الناصر . فلما ملك المظفر حاجي ، قبض على « آق سنقر » ثم خنقه في عام ٧٤٧ هـ .

« ابن اياس ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٧ — الدرر ج ١ رقم ١٠١٤ — الخط ج ٣ ص ٣٤٩ ج ٤ ص ١٠٧ » .

٢٠ - سيف الدين الحاج آل ملك الجـ . وكندار ٧٤٧ هـ

أصله من سبي الأبلستين . وآل ملكه إلى قلاوون قبل سلطنته . ثم صار أميراً وترقى في الإمارة . وأعجب به الناصر محمد لرجاحة عقله . وولى نيابة حماة . ثم اختاره السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ، في نيابة السلطنة عام ٧٤٤ هـ بعد القبض على « آق سنقر » . - ومن أهم ما قام به أن هدم « خزانة البنود » التي كانت سجنافى عهد بنى أيوب ، ثم اتخذها بعض الفرنجة داراً للفساد . وبنى مكانها مسجداً .

لبث « آل ملك » في نيابته زمناً ، يجلس في دار النيابة للحكم ، حتى مات سلطانه الصالح إسماعيل عام ٧٤٦ هـ ، وتولى مكانه أخوه الكامل شعبان بن الناصر ، فقبض عليه وسجنه بالقلعة زمناً . ثم أفرج عنه ، وولاه نيابة دمشق فصغد . ثم أوصى بالقبض عليه ثانياً ، فأرسل إلى سجن الإسكندرية عام ٧٤٧ هـ فخنق . وكان يمنح نحو الخير ، وفيه دين وعبادة .

« ابن اياس ج ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢١٠ - الخط ج ٤ ص ١٠٨ - الدرر ج ١ رقم ١٠٦٤ » .

٢١ - أرقطاي القفجقي ٧٥٠ هـ

كان من ممالك الأشرف ، وكان ذكياً خبيراً . ولى نيابة حمص عام ٧١٦ هـ . ثم صفد وغيرها . ولما قبض السلطان الكامل شعبان ، على النائب « آل ملك » عينه ، مكانه في النيابة عام ٧٤٦ هـ (١) . فظل فيها حتى شهد عصر المظفر حاجي . فلما ملك

(١) ذكر في الدرر أنه ولى نيابة السلطنة لأول مرة في عهد المظفر حاجي .

الطيش هذا الملك ، تأمر الأمراء عليه بزعامة « أرقطاي » . ودارت رحى الحرب بين الفريقين . ثم قبض على « حاجي » ومضوا به حاسر الرأس إلى « أرقطاي » فلقبته لقاء كريما ، وأنف أن يقتله . وأمر بسجنه في القلعة . ولكنه أحد الأمراء غدره وخنقه . وملك من بعده الناصر حسن ، فخلع نيابة حلب على « أرقطاي » عام ٧٤٨ هـ ، ثم نقل إلى دمشق نائباً . ولكنه كان مريضا ، فمات في طريقه إليها عام ٧٥٠ هـ . وسنة ٧٨ سنة . وكان كيتسا أديبا .

« ابن إياس ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ - الدرر ج ١ رقم ٨٧٧ »

٢٢ - بيدغا أروس الناصري ٧٥٤ هـ

كان خاصكياً في أيام الناصر محمد . ثم كان في عداد الشائرين على المظفر حاجي . وهو الذي غدر به وساقه إلى المقابر في الباب المحروق ، وخنقه هناك ، بدل أن يمضى به إلى سجن القلعة . لهذا علت مكانته عند السلطان الجديد ، وهو الناصر حسن بن الناصر محمد . فأقامه نائباً لسلطنته ٧٤٨ هـ ، عوضاً عن « أرقطاي » ، الذي عين نائباً لحلب . ثم ما لبث أن تغير قلب سلطانه عليه ، فسجنه بقلعة الكرك عام ٧٥١ هـ . فلما خلع الناصر حسن ، وملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد عام ٧٥٢ هـ ، أفرج عنه ، وجعله نائباً لحلب ، في ذلك العام . فلبث زمناً ثم أظهر العصيان ، وزحف بجند كشيء إلى بلاد الشام ، ودخل دمشق . وانضم إليه كثير من الأمراء والعربان ، فعاث في دمشق فساداً . فخرج إليه الصالح في جيش كبير هزمه هناك هزيمة منكرة ، وقبض على كثير من أعوانه . أما هو فقد فر إلى بلاد التراكمة - فأرسل خلفه من قبض عليه في الأبلستين . وقتل عام ٧٥٤ هـ . وهو أخو « منجك اليوسفي » الآتي ذكره .

« ابن إياس ج ١ ص ١٨٩ و ١٩٠ و ١٩٥ و ١٩٦ - الدرر ج ١ رقم ١٣٨٧ »

٢٣ - أرغون الكاملي ٧٥٨ هـ

أصله من بماليك الصالح إسماعيل ، رباه صغيراً ورقاه . وكان جميل الشكل حسن السياسة . وولاه الناصر حسن نيابة حلب . ثم ولي نيابة دمشق . واختاره الصالح

صلاح الدين صالح ، نائبا لسلطنته عوضا عن « يلبغا أروس » عام ٧٥٢ هـ . غير أنه كان قليل الخيلة إزاء الأمير « طاز » الدوادار ، الذي امتد نفوذه ، وأصبح صاحب الحل والعقد في البلاد . وانتقل الى نيابة حلب عام ٧٥٤ هـ (١) . فثبت بها أركان السلطنة . ولبت بها حتى عين مكانه الأمير « طاز » عام ٧٥٥ هـ . وقبض على « أرغون » وسجن بالإسكندرية زمنا . ثم أفرج عنه ، وعاش بالقدس عاطلا ، حتى مات عام ٧٥٨ هـ وهو دون الثلاثين .

« ابن اياس ج ١ ص ١٩٥ و ١٩٦ و ٢٠١ — الدرر ج ١ رقم ٨٧٤ »

٢٤ - سيف الدين قبلاى الناصرى ٧٥٦ هـ

ولى نيابة السكر ، ثم الحجوبية في أيام الناصر حسن بالقاهرة . وولى نيابة السلطنة في أيام الصالح صلاح الدين ، بعد نقل الأمير « أرغون الكاملى » منها عام ٧٥٣ هـ . ومن بعده شغرت نيابة السلطنة مدة في عهد الناصر حسن . حتى عين فيها « قشتمر » وقد مات « قبلاى » عام ٧٥٦ هـ .

« ابن اياس ج ١ ص ١٩٦ — الدرر ج ٣ رقم ٦١٧ — الخطط ج ٣ ص ٣٥٦ »

٢٥ - قشتمر المنصورى ٧٧١ هـ (٢)

أقامه السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى ، نائبا لسلطنته عقب توليته عام ٧٦٢ هـ . ولما انتهى عهده لبث « قشتمر » نائبا لخلفه الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد . وكان نفوذه ضئيلا بجوار « يلبغا العمرى » أتاك العسكر إذ ذاك . ثم نقل نائبا لصفد عام ٧٦٤ هـ . ثم عاد إلى مصر . وعين في عهد الأشرف شعبان

(١) ذكر ابن اياس ج ١ ص ١٩٥ أن أرغون كان نائبا على الشام عام ٧٥٣ هـ . فعمله عين فيها ثم نقل الى حلب — وفي الدرر أنه عين نائبا لحلب عام ٧٥٣ هـ للمرة الثانية . ولم يذكر أنه كان نائب سلطنة بمصر .

(٢) ذكر في الدرر أنه قتل بضواحي حلب عام ٧٧٥ هـ .

أيضا ، حاجب الحجاب سنة ٧٦٨ هـ . وانتقل إلى نيابة حلب عام ٧٧١ هـ . وفي هذا العام وقعت فتنة بينه وبين الأمير « جبار » آل فضل ، وطوائف العربان . فاشتد القتال بين الفريقين ، فقتل خلاله « قشتمر » . وكان عالما بالعربية حسن الخط .
« ابن اياس ج ١ ص ٢١١ و ٢١٣ و ٢١٩ و ٢٢٥ و ٢٢٦ - الدرر ج ٣ رقم ٦٣٤ »

٢٦ - علي المارديني ٧٧٢ هـ

أصله من ممالك صاحب ماردين . وكان يجيد الضرب على العود . اتصل بالناصر محمد بن قلاوون منذ عام ٧٢٨ هـ ، فحظى عنده ، وترقى في سلك الإمارة . وولى مراراً بلاد الشام نائبا . فلما خلت نيابة السلطنة في عهد الأشرف شعبان عام ٧٧٠ هـ (١) جعله نائبا . فلبث قرابة عامين ، ثم توفي عام ٧٧٢ هـ . وكان من خيار الأمراء ، كثير البر والصدقات قليل الأذى .

« ابن اياس ج ١ من ص ٢٢٤ الى ٢٢٧ - الدرر ج ٣ رقم ١٦٠ و ج ٤ رقم ٩٩٨ »

٢٧ - طشتمر العلائي ٧٨٤ هـ

لما توفي الأمير علي المارديني نائب السلطنة عام ٧٧٢ هـ ، عين الملك الأشرف شعبان بن حسين ، الأمير « طشتمر العلائي » نائبا عوضاً عنه . فلبث في النيابة زمناً وبعده هو الذي تولى الأتابكية بعد في عهد المنصور علي بن الأشرف . « انظره في الأتابكة » . ومات عام ٧٧٤ هـ .

« ابن اياس ج ١ ص ٢٢٧ - الدرر ج ٢ رقم ٢٠١٨ »

٢٨ - المقر السيفي إيدمر الدودار ٧٧٥ هـ

كان نائبا على حلب ثم طرابلس . فاستدعاه الأشرف شعبان عام ٧٧٥ هـ وجعله

(١) ذكر في الدرر ج ٤ رقم ٩٩٨ أنه عين في نيابة السلطنة عام ٧٦٩ هـ . ولكنه استعفى من النيابة بعد قليل ، ثم عين في الأتابكية في نفس العام . انظر ترجمته في الأتابكة .

أتاك عسكره ونائب سلطنته معا . فلبث كذلك مدة يسيرة ، ثم توفي في نفس العام ،
وقيل عام ٧٧٦ هـ . وكان حسن السياسة عادلا متواضعا ،

« ابن اياس ج ١ ص ٢٢٨ - الدرر ج ١ رقم ١١٢٧ »

٢٩ - سيف الدين « منجك اليوسفي » ٧٧٦ هـ

يعتبر هذا الأمير ، من أفذاذ رجال عصر المماليك ، لكثرة ما شغله من المناصب
وعديد ما قام به من الأعمال ، فوق اتصافه بالشجاعة والإقدام . وكان يندبه السلاطين
لمهام الأمور ، فيقوم بها بكفاية ودربة وعزم . وقد أتى عليه حين من الدهر ، كان
صاحب الحل والعقد بالديار المصرية .

وكان « منجك اليوسفي » ، أحد الأمراء الممتازين ، في عهد الملك الصالح إسماعيل
ابن الناصر محمد . فلما اشتدت الفتنة ، بين السلطان وبين أخيه المخلوع ، المسمى
الناصر أحمد ، المنفي في الكرك ، واستسلم الناصر لجنود أخيه السلطان ، فقيده ، أرسل
السلطان إليه الأمير « منجك اليوسفي » فقطع رأسه وأحضره إلى القاهرة في علبة ،
وذلك في صفر عام ٧٤٥ هـ . وكان إذ ذاك سلا حداراً .

ولما ثار الأمير « يلبغا اليحياوى » نائب الشام ، في وجه السلطان الكامل شعبان ،
وأظهر العصيان عام ٧٤٧ هـ ، اجتمع رأى الأمراء على أن يوفد السلطان الأمير « منجك
اليوسفي » إلى الشام ، ليمتحنس الأخبار ، فتوجه إليها تواقب أن يتوجه إليها
السلطان بجنوده .

ثم مازال يعلو به الجذ ، حتى عينه السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد ، وزيرا
وأستادارا بالديار المصرية بإشارة من أخيه « يلبغا أروس » - نائب السلطنة - إذ ذاك
عام ٧٤٨ هـ ، فنفذ أمور الدولة ودبرها واقتصد من نفقات المماليك مبلغ ستمين ألف
درهم شهريا ، وقطع رواتب أخرى . وفي هذا العام انحرف مجرى النيل ، فتآكلت
شواطئه وخيف الغرق . فوكل إلى الأمير « منجك » إصلاح هذه الشواطئ ، ففرض

على كل متجر بمصر والقاهرة ، وعلى كل نخلة بجهة الشرقية ، درهمين من الفضة ، فاجتمع له من ذلك مال كثير . فاشتري عدة مراكب ، جلب بها الأحجار إلى الشاطئ . لتقويته ضد المياه ، حتى يكسر من حدتها . وما زال جادا في عمله ، دون نتيجة حاسمة ، حتى زاد طغيان المياه ، وضج الناس بسببه . فأدى فشله في مهمته إلى اتهامه ، والقبض عليه ، ومصادرة أمواله ، ثم عزل من الوزارة . ولكن سرعان ما عاد إليها . وبما يذكر أنه وهو في الوزارة ، أباح في عام ٧٤٩هـ للجند ، النزول عن الإقطاع أو المقايضة عليه . فجد جدهم ، وبذل كل منهم ، إقطاعه لمن يدفع من العامة وسواها في سبيله المال المناسب ، على شرط أن يدفع مبلغ نظير ذلك للوزير .

ويبدو أن « منجك » كان يسعى إلى المال بطرق عدة ، ويحتازه لنفسه . وعن بضروب من الاقتصاد لتوفير المال للدولة . غير أنه لم يخل من الشبهة . وأخذت الظنون تتجمع حوله ، والنفوس تتوثب حقدا عليه . وحاول أن يوسع في اختصاصه ، وأن يضيف وظيفة نظر الخاص إلى الوزارة ، فاعترضه الأمير « شيخو العمرى » ومنعه . فكان ذلك من جملة أسباب النزاع بين « شيخو » و « يلغا أروس » نائب السلطنة حينذاك ، - وأخى « منجك » - وكان سببا في خروج « منجك » من الوزارة إلا أنه عاد إليها بعد قليل - كما ذكرنا :-

ولقد زاد موقفه حرجا ، أمام السلطان حسن ، فقبض عليه عام ٧٥١هـ ، هو وطائفة من الأمراء ، وسجنهم في الإسكندرية وأحاط بماله ومدخره ، فلبث « منجك » في السجن ، حتى ولى الملك السلطان الصالح بن الناصر محمد ، فأطلق سراحه عام ٧٥٢هـ ، وأنعم عليه بتقدمة ألف ، وأعاد إليه بعض ما أخذ منه . وعرضت له محنة بعد قليل ، اختفى على أثرها . ثم قبض عليه . ثم أطلق عام ٧٥٥هـ . ثم عاد السلطان حسن إلى العرش ، فأصلحت الظروف بينه وبين « منجك » ، فعينه نائبا على طرابلس ، ثم نقل إلى حلب عام ٧٥٩هـ ، عوضا عن الأمير « طاز » ، الذى قبض عليه

ولكن الأمير « منجك » ، لم يلبث أن دب الفساد فيما بينه وبين السلطان ، فعول على الاختفاء ، فاختفى عام ٧٦٠ هـ . فعاقب السلطان بعض شيعته ، وأقام الأمير « بيدمر الخوارزمي » نائبا لحلب مكانه . ثم آل أمره إلى القبض عليه ، فأشخص إلى السلطان ، فوبخه . ثم ما لبث أن عفا عنه ، ومنحه إمرة أربعين في الشام ، على أن يقيم هناك عاطلا . فسافر لساعته إلى تلك البلاد . فلبث زمنا . ثم اشترك مع « بيدمرى » نائب الشام ضد « يلبغا » العمري مدبر الدولة المنصور بن حاجي ، فقبض عليه وسجن زمنا ، حتى نصه السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد ، نائبا للشام ، خلفا للأمير « أزدمر العمري » المتوفى ، ذلك عام ٧٧١ هـ (١) . فظل بها حتى توفي المقر السبق « إيدمر » نائب سلطنة مصر عام ٧٧٥ هـ ، فاستدعاه حينئذ السلطان الأشرف شعبان وأقامه نائبا للسلطنة وأتابك عسكر معا ، فجمع بذلك بين أكبر منصبين في الدولة . وفوض إليه السلطان ، أمور المملكة في الديار المصرية والشامية ، وجعل من حقه أن يخرج أنواعا من الإقطاع دون مشورة السلطان . ولا شك أن هذا العهد كان عهد عظمة الأمير « منجك » اليوسفي ، إذ أصبح صاحب الأمر في البلاد ومعتمد السلطان . فلبث يكفيهما مئونة الرأي والتدبير ، حتى توفي عام ٧٧٦ هـ ، وعمره نحو سبعين سنة . ودفن في الخانقاه التي أنشأها لنفسه في رأس الصوة تجاه « الطبلخانات » السلطانية إذ ذاك . وكان معروفا بالبر والإحسان وله آثار عدة . - وعين من بعده « أقتمر بن عبس الغني » عام ٧٧٨ هـ فلم يلبث إلا قليلا . وما يندكر أن السلطان « برقوقا » كان من ممالك « منجك » اليوسفي ، حينما كان نائبا على الشام .

« ابن أبياس ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ،

(١) هذه رواية ابن أبياس ، وذكر المقرئ في الخطط ج ٤ ص ١٢٩ ، أنه ولي نيابة

٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠ - وخطط المقریزی ج ٣ ص ٣٥٦، ج ٤ ص ١٢٤ - الدرر ج ٤ رقم ٩٨٥ .

٣٠ - آقتمر الصاحی،

وهو الشهير بالحنبلی . عين نائباً للسلطنة عام ٧٧٨ هـ ، عقب تولية السلطان المنصور علی بن الأشرف شعبان . عوضاً عن المقر السیفی « آقتمر بن عبد الغنی » الذی عينه الأشرف شعبان نائب سلطنته ، فی ذلك العام نفسه ، فلم یمكنك بها إلا قليلاً ، ثم عزل ؛ ثم عاد كما سنبینه فيما بعد .

أما « آقتمر الصاحی » فإنه وقع نفور ونزاع بينه وبين الأمير « أینبک البدری » وکمان قد تزعم نزاعاً وقع بين الأمراء . فأشار « آقتمر » الصاحی علی السلطان المنصور علی بالقبض علی « أینبک » . ولکن المشورة لم تتم إلى غایتها . واستطاع الأمير « أینبک » البدری ، أن یهدد الأمير النائب « آقتمر » الصاحی ، وأمره بأن یغادر البلاد تواء إلى دمشق . وتوعده بالقتل إن توقف عن تنفيذ الأمر . فصعد هذا به ، ورحل إلى بلاد الشام فی نفس العام . وأصبح « أینبک » سید الموقف فی مصر ، كما سیتضح فی ترجمته . حتی قبض علیه . وفي هذا دلیل علی ضعف نیابة السلطنة فی ذلك الحین .

« ابن یاس ج ١ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ »

٣١ - آقتمر بن عبد الغنی

كان نائباً علی الشام عام ٧٦٨ هـ . ثم عينه الأشرف شعبان حفید الناصر ، نائباً لسلطنته عام ٧٧٨ هـ ، قبل « آقتمر » الصاحی السابق ذکره ، وذلك وقت خروجه للحج . فلبث فی منصبه قليلاً ، ثم عزل فی نفس العام . وقبض علیه وسجن . ولما نفی « آقتمر » الصاحی إلى نیابة دمشق فی عهد المنصور علی بن الأشرف شعبان

بتهديد الأتابكي « أينبك » البدرى ، أفرج عن « آقتمر بن عبد الغنى » وأعيد إلى نيابة السلطنة . فكان ضئيل النفوذ بجوار « أينبك » .

« ابن اياس ج ١ ص ٢١٧ و ٢٣١ و ٢٣٩ و ٢٤٠ - الدرر ج ١ رقم ١٠٠٨ »

٣٢ - سودون الفخرى الشيخونى ٧٩٨ هـ (١)

شغرت نيابة السلطنة ، بعد « آقتمر بن عبد الغنى » إذ استبد بالملك فى أخريات الدولة البحرية الأتابكى « برقوق » . فلما صار سلطانا على مصر عام ٧٨٤ هـ ، وأسس الدولة الجر كسية ، عين فى نيابة سلطنته الأمير « سودون » الفخرى الشيخونى . وقد وفد على مصر حينذاك الأمير « بيدمر » الخوارزمى نائب الشام ، فأكرمه « برقوق » وقدمه فى بعض المواقف على « سودون » . وفى ذلك ما فيه من اتضاع منزلة النيابة . وقد اشترك « سودون » وبعض الأمراء ، مع « برقوق » ، فى الفتنة التى أشعلها ضده « يلبغا » الناصرى ، والتى أدت إلى اختفائه ، وعودة الصالح أمير حاج إلى السلطنة عام ٧٩١ هـ . وقبض على « سودون » وسجن فى دمياط . ثم أفرج عنه بعد قليل . ولما عاد « برقوق » إلى السلطنة عام ٧٩٢ هـ ، أعاد « سودون » إلى نيابة سلطنته . فظل يشغلها فى كنفه حتى توفى عام ٧٩٨ هـ . وقد كانت له يد طولى فى عودة « برقوق » إلى عرشه .

« ابن اياس ج ١ ص ٢٦٠ و ٢٧٣ و ٢٧٥ و ٢٧٩ و ٢٨٤ و ٢٨٦ و ٢٩١ و ٢٩٥ و ٢٠٦ »

٣٣ - تمراز

ذكره المقرئى وقال إن الناصر فرج بن برقوق ، أقامه فى نيابة السلطنة ، فلم

(١) ذكر المقرئى فى خطه جزء ٣ تحت عنوان « دار النيابة » قال : « ولم يل النيابة أحد فى الايام الظاهرية » . ولما سكن ابن اياس صريح فى أن « سودون » ظل زمنا فى عهد الظاهر « برقوق » ، وهو نائب سلطنة ، حتى مات .

يسكن دار النيابة ، ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب - وهو غير
تمراز الأتابكي في عهد قايتباي .

« الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ »

٣٤ - أقبغا التمرازی

أحد الأمراء الذين اعتمد عليهم السلطان الظاهر أبو سعيد جقمق . إذ خلع عليه
عام ٨٤٢ هـ إمرة سلاح ، بعد أن كان أمير مجلس . وظل يتقدم في عليا المناصب
لديه ، حتى عين في العام المذكور أتابكا ونائبا للسلطنة معا . وهو آخر النواب .
قال عنه ابن إياس : « صار يحكم بين الناس ، وعلى بابہ رأس نوبة ونقباء .
وهو آخر من تولى نيابة السلطنة بالديار المصرية » .

ولما ثار نائب الشام « إينال الحكي » وخرج عن طاعة السلطان ، أرسل مكانه
الأمير « أقبغا التمرازی » نائبا على الشام . وبنقله من النيابة بمصر ، انتهى عهدها .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٥ و ٢٧ »

أتابكية العسكر

روى القلقشندي (١) في صبح الأعشى، قال: «أتابكية» ويعبر عن صاحبها بأتابك العساكر. قال السلطان عماد الدين في «تاريخه»: وأصله «أطابك»، ومعناه الوالد الأمير. وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، حين فوض إليه ملكشاه، تدبير المملكة سنة خمس وستين وأربعائة، ولقبه باللقاب، منها هذا. وقيل: أتابك، معناه «أمير أب» والمراد أبو الأمراء. - وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل. وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهى. وغايته رفعة المحل وعلو المقام.

ويفهم من حديثه هذا أن «أتابك» هو أبو الأمراء. أى مقدمهم جميعا. وأن لقبه هذا - في العصر المملوكي - لقب شرف فحسب. وأنه ليس لديه عمل جدى - بحكم لقبه - يشترك به في إدارة شئون الدولة.

ولكننا نشعر - وقد قرأنا تاريخ هذا العصر - أن الأتابكية كانت من أهم مناصب الدولة وألقابها. وأن «أتابك» كان يشترك باستمرار في شئون الدولة، ويديرها، وأنه كان يندب لحل كثير من مشاكلها، وأنه كان فيصلا في المعقد من أمورها. وأنه كان - في الغالب - كبير قوادها، والمقدم على رأس جندها، والمشار إليه المذكور في حروبها. بل كثيرا ما بذ «أتابك» نائب السلطنة، وغض من شأنه.

ولعل «أتابكية» كان الملحوظ فيها عند بدء إنشائها، أن تكون لقب شرف

ولكن الأتابكيين في العصر المملوكي لم يقفوا عند هذا الحد . بل برزوا بروزا واضحا ، وكثيرا ما كان « الأتابك » محورا للدولة تدور حوله . والواقع أن الدولة عرفت « الأتابكية » منذ عرفت « النيابة » تقريبا . فقطز المعزى - وهو ثانى نواب السلطنة - كان أيضا أول الأتابكية ، وذلك فى عهد المنصور على بن المعز أيبك ، جامعا بين الرتبتين ، ولما صار سلطانا اختار للأتابكية الأمير فارس الدين « أقطاي » المستعرب ، ووكل إليه مع الوزير تدبير الحساكر واستخدام الأجناد وسائر أمور الدولة (١) . ولم يحدث فى أى عهد من عهود سلاطين المماليك ، أن شغل « الأتابكية » أمير لم يكن أهلا لها . أو كان دون نائب السلطنة مهابة ومكانة ، وشجاعة وإقداما وجاها وعصية ، وت دخلا فى أمور الدولة . بل ربما كان « الأتابك » أقرب مجلسا إلى السلطان . وكثيرا ما رشحت « الأتابكية » شاغلها لولاية السلطنة . وولى السلطنة سلاطين كانوا من قبل أتابكة . ولما خلع الناصر محمد بن قلاوون فى المرة الثانية ، وقع الاختيار على سلطنة « الأتابكى » بيبرس الجاشنكير ، مع وجود « نائب السلطنة » الأمير سلار .

ولقد تقلبت ظروف الزمان ، بناية السلطنة - كما بينا - ، فألغيت أكثر من مرة ، وظلت شاغرة حتى تنوى أمرها ، ثم لما عادت ، عادت أضعف مما كانت عليه . ولما شغلها « أقبغا » التمرزى عام ٨٤٢ هـ ، ثم فارقتها ، كان ذلك آخر عهد الدولة بها . فى حين أن « الأتابكية » منذ نشأت فى الدولة ، لازمتها ، حتى انتهت معها . ولم تخف إلا لمحات يسيرة ، كما وقع فى عهد قلاوون وابنه خليل ، وكما وقع فى عهد العادل « طومان باى » عام ٩٠٦ هـ ، بعد أن فتك بأتابكيه « قوصروه » فإنه لم يعين بدلامنه ، حتى أخذ الغورى بزمام السلطنة . فأقام فى « الأتابكية » الأمير « قيت الرجبى » .

وفي الوقت الذي كان يخلو من « نيابة السلطنة » كان « الأتابك » مرجع السلطان وسنده ومستشاره . كالآتابكي الأمير الكبير « شيخو » العمرى ، في عهد الناصر محمد . وحدث في ظروف كثيرة ، أن تضخم نفوذ « الأتابك » ، حتى صار المتصرف الوحيد في شؤون الدولة . - روى ابن إياس في ترجمة المظفر قطز قال : « إنه خلع على الأمير بيبرس ، واستقر به أتابك العساكر ، وفوض إليه جميع أمور الدولة . - وفي عهد المنصور بن حاجي ، عادت « نيابة السلطنة » بعد إلغائها زمننا ، فعين فيها المقر السيفي « قشتمر » المنصوري ، ولكنه كان ضعيف الكلمة قليل الجاه يازاء « آتابكي » عصره ، المقر السيفي « يلبغا » العمرى الناصري ، إذ كان هو مدبر شؤون الدولة دون سواه . - وفي عهد الغوري ، كان « آتابكيه » مرجعه في ضبط الأمور ، ولم تكن هناك « نيابة سلطنة » . والأمثلة وفيرة .

وقد تسمو منزلة أمير ليس « نائبا » ولا آتابكيا ، ويمده السلطان بثقته ، ويطلب مشورته ، ويطلق يده ، فيتضخم نفوذه ويخمل من عداه من الأمراء ، سواء في ذلك « النائب » و « الآتابكي » . ومن الأمثلة على ذلك : القاضي المقر الزيني « عبد الباسط » بن القرشي : كان ناظر الجيوش في عهد « برسباي » ، ولكنه ظل صاحب الرأي في دولته زمننا . - والجمالي « يوسف » ، ناظر الخاص في عهد « إينال » ، كان مدبر مملكته . - والأمير « أفندي » الدوادر ، تضخم نفوذه في أخريات عصر « قايتباي » ، حتى صار صاحب الحل والعقد . - والأمير « كرتباي » الأحمر ، عين في عهد الناصر بن قايتباي عام ٩٠١ هـ ، وزيرا وأستادارا وكاشف كشاف ، وصار صاحب الأمر في الدولة . وقد ظل « كرتباي » هذا زمننا في أوائل عهد الناصر المذكور ، حتى وقعت فتنة اختفى على أثرها . وظهر شخص آخر مكانه ، وهو خال السلطان ، ويدعى « قانصوه بن قانصوه » ، فعينه السلطان في « شادية الشرا بخانة » . واجتمعت فيه ثقة الملك ، وأصبح بيده الحل والعقد بمصر ، مع وجود « الآتابكي »

« تميز » . ثم اختير « قانصوه » ، هذا للسلطنة مع وجود الأتابكي « أزيك بن ططخ » ،
ومن طغى نفوذه على نفوذ أتابكي عصره : الأمير « طومان باي » ، الدوادار الذي ملك بعد
باسم العادل ، كان دوادارا وأستادارا ووزيرا وكاشف كشاف ، في عهد « جان
بلاط » ، عام ٩٠٦ هـ ، وكان صاحب الرأي في الأمور ، مع وجود الأتابكي « تاني
بك الجمالي » .

هذا ويبدو أن لقب « الأتابكي » كان يلزم صاحبه - ولو بعدت به الأحوال
عن شئون السلطان - أكثر مما كان لقب « النيابة » يلزم صاحبه . كما يبدو أنه إذا
جمع أمير بين لقبى الأتابكي والنائب ، برز لقبه الأول وبقي ، أكثر من الثانى .

ومن جمع بين الرتبين : « قطز » و « قوصون » و « منجك اليوسفى » :

ومن حظى بالسلطنة من الأتابكية : الظاهر « بيبرس » ، كان أتابكيا فى عهد
قطز ، (١) . والمنصور قلاوون ، وكان أتابكيا فى عهد العادل سلامش . والظاهر
« برقوق » ، كان أتابكيا عهد الصالح أمير حاج . والمؤيد شيخ كان أتابكيا
فى عهد السلطان الخليفة العباسى . والظاهر جقمق كان أتابكيا فى عهد العزيز بن
برسباى . وغيرهم كثيرون

الأتابكة (٢)

ولى الأتابكية عدد كبير من الأمراء متتابعين ، وبلغ منهم السلطنة كثيرون .
أما من لم يبلغها ، فتحاول هنا أن نثبت له ترجمة مناسبة أيضا ، ذاكرين ما عثرنا عليه

(١) روى ابن إياس أن بيبرس كان أتابكيا من بدء عهد قطز ج ١ ص ٩٦ ٩٨٦ وفى
السلوك أن « فارس الدين أقطاي المستعرب » هو الذى كان أتابكيا منذ أول عهد قطز : ج ١
ص ٤٠٥ (٢) راجع فهرس السلوك للمقرئ

من سنوات الوفاة . فمنهم :

١ — فارس الدين أقطاي المستعرب

ويعرف بالصغير . أحد أمراء الدولة البحرية . اختير أتابكيا في أول عهد المنصور على بن المعز أيبك عام ٦٥٥ هـ (١) . ولكن الحل والعقد كان إذ ذاك ، بيد نائب السلطنة الأمير « قطز » فلما ولي قطز السلطنة ، أقر « أقطاي » أتابكيا كما هو ، عام ٦٥٧ هـ . وفوض إليه أمر عسكره ، واستخدمهم ، وسائر أمور الدولة ، بمعاونة صاحب « زين الدين يعقوب » .

وقد اشترك « أقطاي » مع سلطانه « قطز » عام ٦٥٧ هـ ، في غزو التتار ببلاد الشام . وهزمهم في موقعي « عين جالوت » و « بيسان » . . غير أنه يبدو لنا أنه ضلع مع المتآمرين على سلطانه ، بزعمه « بيبرس » . فقتلوه على مقربة من أرض الصالحية . وكان « أقطاي » أول من بايع « بيبرس » بالسلطنة فجعله بيبرس أتابكيا لعسكره . كما كان - عام ٦٥٨ هـ . ولكنه كان أقل نفوذا من نائب سلطنة الأمير « بيليك » الخازندار ، مملوك « بيبرس » ومحل ثقته .

وفي عام ٦٦٢ هـ . اتهم النصارى بإضرار الخرائق في أرجاء القاهرة ، فأمر السلطان « بيبرس » بأن يجمعوا ويحرقوا . فشفع فيهم « أقطاي » ، ففرض عليهم غرم مالى ، بدلا من العقوبة ، مع إلزامهم إصلاح ما أتلفوه من الدور . وهذا الأمير غير « فارس الدين أقطاي » رأس الماليك البحرية ، الذى قتله الملك المعز أيبك عام ٦٥٢ هـ .

(١) رواية ابن إياس ج ١ ص ٩٦ ، ٩٨ تدل على أن « أقطاي » بلغ الاتابكية لأول مرة في عهد بيبرس عام ٦٥٨ هـ . ورواية السلوك ج ١ ص ٤٠٥ تدل على أنه بلغها منذ عهد المنصور بن المعز عام ٦٥٥ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٨ ، ١٠٤ - سلوك المقریزی ج ١ ص ٤٠٥ ، ٤١٨٠ ،
٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٥٣٢ ، ٥٥٦ ، ٥٧٣ النهج السديد ج ١ ص ٤٠٨ ، ٤٩٥ ، ٥٣٤ ، -
ج ٢ ص ٤١٢ ، ٤١٧ . »

٢ - بکتمر الساقی ٧٣٣ هـ

ولی الأتابکية بعد « أقطای » أتابکیون وصلوا إلى منصب السلطنة مثل المنصور
قلاوون . وشعرت الأتابکية حينما (١) ، وما زالت حتى ولیها « بکتمر الساقی » فی عهد
الناصر محمد بن قلاوون .

وقد ذکره ابن إياس فقال ماملخصه : « لما خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون
إلى الحجاز حاجا للمرة الثالثة عام ٧٣٢ هـ . خرج بصحبته عدد من الأمراء ، من
بینهم الأمير « بکتمر الساقی » الأتابکی ، هو وولده الأمير أحمد . فلما قضوا حجهم
ورجعوا ، مرض الأتابکی « بکتمر » فی أثناء الطريق . فلما وصل إلى « عیون القصب »
ثقل علیه المرض فمات هناك ، ودفن فی نفس الناحية يوم ثانی المحرم عام ٧٣٣ هـ .
ثم مرض ابنه ، وتوفی علی أثره ودفن « بنخل » . وبعدهم نقلت جثتهما إلى القاهرة
حيث دفنتا فی الخانقاه التي أنشأها « بکتمر » بالقرافة الصغرى بالقرب من
جبل المقطم ، (٢) .

وكان بکتمر من ممالیک المظفر بیبرس الجاشنکیر ، ثم انتقل ملکه إلى الناصر
محمد بن قلاوون ، فحظى عنده وجعله ساقیا . وما زال یترقى ، حتى صار أتابک
عسکره . وكان مقربا منه کثیر الجلوس إلیه . وكان الناصر کثیرا ما یقیم بدار
بکتمر ، ثم صاهره ، فعلا بذلك جده ، واتسع جاهه . حتى صار الملك لا یبرم أمراً

(١) ذکر فی السلوک أن الامیر « بکتاش » کان أتابکا فی عهد لاجین .

(٢) روى فی الدرر السکامنة أن ابن بکتمر مات قبله بثلاثة أيام ، ویفهم من حديثه أن
الناصر محمد بن قلاوون له دخل موتهما . وأن موت بکتمر کان فی أوائل عام ٧٣٦ هـ .

دون استشارته ، ولا يهدى إليه نفيس دون أن يقسم له منه . فكثير ما له وزاد دخله غير أن هذا الحظ الذي واثاه على يدى الملك نفسه أغراه به ، حتى قيل إنه أمل أن ينتزع سلطانه من كرسيه ، ويستوى بنفسه عليه . فبادر الناصر إلى مناجزته ، فدرس له - كما قيل - من سقاه هو وابنه السم ، فماتا - كما تقدم - ترك « بكتمر » من النفائس ما لا حصر له . وقد كان وافر العقل زائد الحرمة كيس الحديث وقورا محسنا . وهو الذى تلاهى مع الأمير « قوصون » وتفاخرا ، ففخره « قوصون » ، لأنه لم يكن مثل « بكتمر » ممن عاش فى طباق القلعة . وقد أشرنا إلى هذه المفارقة آنفا فى باب « أصل الممالك » : وكان موته فوزا « لقوصون » . إذ ترقى واستولى على جميع الأسلحة التى خلفها « بكتمر » وقد قومت بنحو ستمائة ألف دينار .

« ابن إياس جزء ١٠ ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ - الدرر ج ١ رقم ١٠٣٨ »

٣ - « سيف الدين شيخو العمرى » ٧٥٨ هـ

من ممالك الناصر محمد بن قلاوون ، ظهر فى أيامه وأيام أبنائه ، وحظى عند المظفر حاجى بن الناصر . ولما اشتدت الفتنة بين هذا السلطان وبين أمرائه عام ٧٤٨ هـ بسبب طيشه وتهوره فى معاملتهم ، ورأى أنهم على أهبة الاستعداد للإيقاع به ، رأى أن يوسط بينهم وبينهم هذا الأمير « شيخو العمرى » . فاجتمع بهم ليتفقهم رأيهم . فطلبوا إليه أن ينزل السلطان عن كرسيه . فباغ الأمير « شيخو » هذه المقالة إلى السلطان فأبى . وانتهى الأمر بقتله وزوال ملكه . ثم ما لبث أمر « شيخو » أن علا . وأخذ نجمه يصعد فى أول سلطنة الناصر حسن ، فولاه نيابة دمشق . غير أنه سرعان ما غضب عليه ، فسيق بسبب ذلك إلى السجن بقلعة دمشق ، ومنها أرسل إلى سجن الإسكندرية عام ٧٥١ هـ ، ثم أفرج عنه فى عهد الملك الصالح وصلاح الدين ابن الناصر محمد عام ٧٥٢ هـ . ومن ثم أصبح من خاصة رجاله . حتى إنه رحل معه فى جملة الأمراء إلى بلاد الشام عام ٧٥٣ هـ ، وقتلوا بعض الأمراء الخارجين فى فتنة

« يلبغا أروس » ، وقبضوا على كثير منهم ثم عادوا . وفي عام ٧٥٤ هـ ، اشترك مع بعض الأمراء بقيادة السلطان المذكور ، وأدبوا عربان الصعيد الذى شقوا عصا الطاعة على السلطان بقيادة شيخهم « ابن الأحب » ، غير أنه ما لبث أن تزعم حركة ائتمار على هذا السلطان ، كانت نتيجةها أن خلع من عرشه ، وأعيد مكانه الملك الناصر حسن بن الناصر محمد عام ٧٥٥ هـ . فلما تمت عودته إلى السلطنة ، كان طبيعيا أن يقرب إليه الأمير « شيخو » ، فصار أتابكى عسكره . وألغيت نيابة السلطنة ، وأقيمت مكانها « إمارة كبيرة » يسمى شاغلها « أميراً كبيراً » . وأول من شغلها هو « شيخو العمرى » . وبذلك اجتمعت فيه الكلمة ، وصارت بيده مقاليد الأمور . وعظمت مكانته وكثر حساده ومنافسوه ، ومنهم الوزير « منجك اليوسفى » . وكثرت أمواله ، حتى قيل له « قارون عصره وعزيز مصره » . واستطاع فى عام ٧٥٦ هـ ، أن ينشئ مسجده المشهور وخانقاه بحى الصليبية الطولونية . وأنشأ بها حمامين وربوعا وحوانيت . ونظم فيها دروسا تلقى عقب صلاة العصر من كل يوم . وأقام فيها عدداً من الصوفية . وكان المدرس الذى يلقى بها دروسه هو شيخ الإسلام أكمل الدين الحنفى من جلة الأحناف فى عصره . وأجرى أرزاقا على هؤلاء الصوفية وأوقف على ذلك كله أوقافا واسعة .

ثم إنه فى عام ٧٥٨ هـ . اغتاله « قتلوقجاه » (١) الساحدار أحد المماليك السلطانية والذى يمت بصلة إلى « منجك اليوسفى » ، وهو فى الإيوان يوم موكب . فضربه بالسيف فى وجهه ثلاث ضربات ، فوقع مغشيا عليه . وحمل إلى بيته . ثم توفى بعد أيام ، ودفن فى الخانقاه الشيخوخنة التى أنشأها . وكانت جنازته حافلة ويومه مشهودا . وكثر حزن الناس عليه ، لما له من الفضل الكثير والأيدى البيضاء ، أما

قاتله فقد قبض عليه ، واعترف أنه اندفع إلى فعلته الشنعاء ، لأن الأتابكي لم ينصفه في مظلمة رفعها إليه . وقد أمر السلطان بتسميره والطواف به ، ثم قتله على مشهد من ممالك الأتابكي « شيخو » . وبهذه المناسبة نذكر أن الأمير « شيخو » كان أحد الذين عنوا بجلب الممالك وشراهم وتربيتهم ، حتى بلغت عددة ممالكه سبعمائة مملوك .

« ابن إياس . جزء ١ . ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،

٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، - خطط ج ٤ ص ١١٣ - درج ٢ رقم ١٩٥٠ . »

٤ - يلغا العمرى الناصرى الكبير ٧٦٨ هـ

كان هذا الأمير من ممالك السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد . وفي سنة ٧٦٠ هـ أنعم هذا السلطان على مملوكه « يلغا » بإقطاع واسع ، هو إقطاع الأمير « تنكز بغا الماردني » أحد الأمر المقدمين ، والمتوفى في السنة المذكورة . وصار « يلغا » أمير مجلس من ذلك الحين . وتعتبر هذه السنة بدءا للجد السعيد الذي صادف الأمير « يلغا » . فما زال نجمه في الصعود ، حتى أصبح من خيرة المقربين لدى السلطان حسن . ولكن ذلك حز في نفوس أعدائه . فمشوا بالسعاية والدس بين « يلغا » وسلطانهم . وزينوا للسلطان ضرورة مناجزته قبل عدوانه . فأن كان من السلطان حسن إلا أن هم بالفتك بمملوكه ، إثر ليال قضاها السلطان في لهو ولعب ومرح ، بين خيام أنيقة ، ضربت لذلك في شط الجزيرة . وكان « يلغا » إذ ذاك أحد الذين أقاموا في الخيام مع السلطان هناك ، وسمروا معه . فلما أحس « يلغا » من السلطان بقرب غدره ، زایل خيمته في نفس الليلة التي فجأه السلطان فيها ، وهي ليلة الأربعاء ٩ جمادى الأولى عام ٧٦٢ هـ . وبذلك نجا من الفتك به . وفي الوقت نفسه كان « يلغا » قد دبر لسلطانهم كميناً برز له في خلال عودته ، فوقع بينه وبين جنس السلطان موقعة قاسية ، انكسر فيها السلطان ، وفر تحت جناح الظلام هارباً إلى القلعة

فلما أسفر الصباح كان الأمير « يلبغا » قد جمع جموع جنده ، وحاصر السلطان في القلعة ، ففر منها ثم قبض عليه ، فسجنه « يلبغا » ، وقيل إنه خنقه ورماه في البحر ، لأنه لم يعثر له على أثر من بعد ، ولم يدفن في مدرسته داخل القبة التي أنشأها لذلك ولما تم ذلك كله أصبح « يلبغا » ، بعد أن هزم سلطانه وسيده ، صاحب الكلمة والأمر والنهي . ولهذا سرعان ما اختاره السلطان الجديد ، وهو الملك المنصور محمد ابن المظفر حاجي أتابكا لعسكره ، في تلك السنة - ٧٦٢ هـ . وأصبح القائم بتدبير الأمور في المملكة ، وفي السنة التالية تزوج « يلبغا » « بنخوندلولوز » ، زوجة أستاذه الملك الناصر حسن ، وبلغ من نفوذ « يلبغا » أن خلع الملك المنصور من السلطنة عام ٧٦٤ هـ ، وقبض عليه وسجنه في دور الحرم بالقلعة ، محتفظا به للطوارئ . وولى مكانه الملك الأشرف شعبان أبا المعالي بن حسين بن الناصر محمد . وظل « يلبغا » أتابكيا وأميرا كبيرا أيضا . وطغى نفوذه على من عداه من الأمراء ، ولا سيما نائب السلطنة « قشتمر المنصوري » . وساعده على هذا الطغيان ، أن كان السلطان الأشرف شعبان في سن صغيرة ودون البلوغ .

وفي عام ٧٦٧ هـ واجه الأتابكي « يلبغا » فتنة شديدة تزعمها ضده الأمير « طنبغا الطويل » . وكان هذا الأمير برتبة أمير سلاح . فاستصدر « يلبغا » مرسوما سلطانيا « لطنبغا » بأن يكون نائبا على الشام . فرفض أن يطيع المرسوم ، وجمع جموعه ، لمقاتلة جنود السلطان وأتابكيه معا . فتلاقى الفريقان في ناحية « قبة النصر » فانكسرت جنود « يلبغا » وفر هاربا . وكادت الهزيمة تتم عليه ، لو أنه كان قد أكن لاعدائه كميناً فجأهم في عودتهم وكسرهم شر كسرة ، وقبض على الأمراء المتزعمين في هذه الحركة ومنهم « طنبغا » ، وسيقوا في الإسار بين يدي « يلبغا » . فأرسلوا تحت جناح الليل إلى السجن بشجر الإسكندرية . ثم فرقت رتبهم وإقطاعاتهم على رجال جدد . وعظمت بذلك منزلة « يلبغا » ، حتى كان الأمراء الكبار يسعون

إليه بالهدايا النفيسة .

ومن أجل أعمال « يلبغا » أن رسم في عام ٧٦٧ هـ ، بإنشاء عمارة بحرية ترسل إلى الشواطئ لكي تؤدب الفرنجة المغيرين عليها ، وتمنع هجومهم وعشهم على هذه البلاد . وقد احتفل بانزالها إلى النيل احتفالا شائقا .

وبينما كان الاحتفال على أممه إذ كانت المؤامرات تحاك للفتك بالأتابكي « يلبغا » . فبينما كان في شط الجزيرة مع السلطان ، إذ شعر بوثوب بعض مماليكه عليه ، لأنه ضرب أحدهم وقطع أنفه . ولكنه استطاع أن يفر وهو متزى بزى فلاح ولما بلغ القاهرة ، جمع حوله عددا من الأئراء والجنود ، ووقفوا في الصباح تجاه الجزيرة . ووقف إزاءهم في الشاطئ الآخر المماليك الثائرون عليه ، وقد أغروا السلطان وأرغموه على أن يقف بين صفوفهم . وظل القتال دائر بين الفريقين . - ومن الاحتياطات التي اتخذها « يلبغا » ، أن أعلن خلع السلطان الأشرف شعبان وبايع هو ومن معه أخاه « أنوك » ، ولقبوه بالملك المنصور ، ونادوا باسمه في أرجاء القاهرة ! وكذلك أمر الملاحين في النيل بأن يمتنعوا عن نقل الفريق الآخر إلى شاطئ القاهرة . - ولكن أحد الزووية استدرجه السلطان شعبان ، فنقله هو وجموع من جنوده إلى الشاطئ المذكور . ومن ثم صعد إلى مقره بالقلعة . فتسامع الناس بصعوده ، وتراجع عدد من الملتفين حول « يلبغا » عن نصرته . ففت ذلك في عضده ، ونكص عائدا إلى بيته بناحية الكباش في أسوأ حال . ولقى من العوام شرورا كثيرة في أثناء عودته . ثم إن السلطان الأشرف شعبان أرسل إليه من قبض عليه وسجنه . غير أن مماليكه الثائرين أخرجوه من السجن عنوة وأذاقوه ألوانا من العذاب ، وتقدم إليه أحدهم واسمه « قراتر » وضربه بسيفه ضربة أطاحت رأسه عن جسده . ثم مثلوا بها شر تمثيل . وبعد لاي دفنوه في مقبرة عند الباب المحروق . وكان قتله ليلة الأحد ٩ ربيع الثاني عام ٧٦٨ هـ . وهكذا كانت خاتمة « يلبغا العمري » .

بعد أن شهد من العز والجاه الشيء الكثير ، واقتنى من الممالك ما يزيد عن ثلاثة آلاف مملوك . غير أنه على ما يظهر كان سىء المعاملة . وقال ابن إياس : إنه كان سفاكاً للدماء . ولا أدل على خيائته وعدم وفائه من أنه غدر أستاذه الناصر حسناً وتزوج زوجته من بعده . - و « يلبغا » هذا هو غير يلبغا الناصرى الذى ظهر فى عهد برقوق وثار عليه . أما المترجم هنا فقد كان برقوق أحد ممالكه .

« ابن إياس ج ١ من ص ٢٠٧ إلى ٢١٩ - الدرر ج ٤ رقم ١٢١٨ ،

٥ - المقر السيفى استدمر الناصرى ٧٦٩ هـ

أحد أفذاذ هذا العصر . وقد عينه السلطان الأشرف شعبان ، أتابك العساكر ، عوضاً عن « يلبغا » العمرى ، بعد مقتله عام ٧٦٨ هـ . فسكن هذا الأمير حيث كان يسكن الأتابكى « يلبغا » والتف حوله عدد كبير من ممالك « يلبغا » وتشبه به فى رواحه وغدوه وعظيم جاهه ، حتى حسده كثير من الأمراء . وما زال الحسد يأكل قلوبهم ويستفزها ، حتى ثاروا ثورة جائحة ، وطلبوا إلى السلطان أن يسلمهم الأتابكى « استدمر » ليفتكوا به . ولما كان قد استطاع أن يضم إليه عدداً كبيراً من أمراء جنود ، ودهم الثائرين عليه دهمة قاسية ، فقر منهم من فر ، وانكسر فى النهاية منهم من انكسر . ثم استطاع أن يقبض على كثير منهم ، ومن بينهم الأمير « الجاى اليوسفى » والأمير « يلبغا آص » والأمير « أرغون شاه تتر » وغيرهم ، وسيقوا جميعاً إلى سجن الإسكندرية . خلال عام ٧٦٨ هـ أيضاً . فظهرت حاشية السلطان مؤقناً من بذور الفساد . وكان هؤلاء الأمراء يدعون أن « استدمر » يسعى بالفساد والنم بينهم وبين السلطان . والظاهر أن نفس « استدمر » لم تكن مخلصاً للسلطان وأنه وقع تحت تأثير ممالك « يلبغا » الذين جربوا لذة الفتن . فلقد رؤود مرة بأن يخلع السلطان ، ويقوم هو ملكاً على البلاد . ولكنه أبى . ولعل الفرصة لم تكن واثته بعد ، وهو فى أول سنى أتابكيته . ولذلك سرعان ما أعد للأمر عدته فى عام

٧٧٠ هـ ، بعد أن قبض على خمسة من كبار الأمراء بضغظ من ممالك « يلبغا » وساقهم إلى السجن . ثم سُمِّمَ بالقبض على السلطان . ومن سوء حظه أن كان ممالك « يلبغا » قد عاثوا في الأرض فسادا ، وأذاقوا كثيرا من الناس سوء العذاب . فسكره وهم وتمنوا زوالهم . وما هي إلا أن نشبت الحرب الأهلية بين جنود (استدر) اليلغاويين وبين جنود السلطان شعبان ، حتى انضم إلى جانب السلطان عدد ضخم من العوام ، ومعهم المقاليع والحجارة ، انتقاما من هؤلاء الممالك . فسكره وهم شر كسرة . وهرب « استدر » . ثم قبض عليه بعد أن قتل العوام عددا كبيرا من ممالك « يلبغا » . ومن سوء تصرف السلطان شعبان أن سمع لمن تقدم إليه شافعا في « استدر » ، فأطلق سراحه وجعله في حراسة ابن عمته الأمير « خليل بن قوصون » . فما كان من الرجلين إلا أن تعاهدا على الانتفاض على السلطان . وجهدا حتى اجتمع حولها عدد ضخم من الأمراء والجنود . وشعر السلطان بدنو الوثبة عليه وأوجس خيفة . ولكن جنوده ومن انضم إليهم من العوام ، شتوا شمل المتآمرين في موقعة مروعة ، قتل فيها عدد كبير من ممالك « يلبغا » ونفي عدد آخر ، وقبض على « استدر » و « خليل » وغيرهم ، وسيقوا إلى سجن الإسكندرية . وأمر السلطان بالإفراج عن كثير من سجنهم « استدر » ومن بينهم الأمير « يلبغا آص » الذي أسندت إليه الأتابكية من بعد .

« ابن أبياس جزء ١ من ص ١١٩ إلى ص ٢٢٤ ، الدرج ١ رقم ٩٧٢ (١) »

٦ - « يلبغا آص المنصوري » : ٧٧٠ هـ

أحد الأمراء الذين ظهروا في عهد السلطان الأشرف شعبان حفيد قلاوون . ولما أسندت الأتابكية إلى « استدر » الناصري ، كان الأمير « يلبغا آص » ، في جملة الأمراء الناقمين عليه ، والذين جرت بينهم وبينه فتن ووقائع عدة ، كان من نتائجها

(١) ماورد في الدرر هو ترجمة « استدر » بالنون بدل التاء . وهو الذي ذكر وفاته عام ٧٦٩ هـ

أن قبض عليه مع آخرين وأودعوا في السجن عام ٧٦٨ هـ ، بغير الإسكندرية . ولما وقعت فتنة « استدمر » بينه وبين السلطان وقبض في النهاية عليه ، رسم السلطان بالإفراج عن أعداء « استدمر » فخرجوا من السجن وفي جملتهم « يلبغا آص » ، المنصوري عام ٧٧٠ هـ . فأُسند إليه السلطان منصب الأتابكية . غير أنه لم يحسن سياسته تجاه السلطان ، إذ تحقق أنه يهيم بالانقضاض عليه . فناجزه السلطان وقبض عليه ، وأعادته إلى السجن ، هو وبعض المتآمرين معه ، ومنهم الأمير « ملكتمر الشيخوني » . ثم قتله في ذلك العام - وذكر في الدرر أنه قتل قبل ذلك .

وذكر في الدرر أيضا أن الأشرف شعبان عين في الأتابكية بعده « استدمر » ثم « طقتمر » النظامي ، ثم « ملكتمر » المحمدي و « يلبغا » المنصوري معا . ثم « منكلي بغا » الآتي ذكره .

« وابن إياس ج ١ حوادث عام ٧٦٨ هـ ٧٧٠ هـ - الدرر ج ٤ رقم ٩٩٨ ترجمة منكلي بغا الآتي »

٧ - منكلي بغا الشمسي ٧٧٤ هـ

أحد ممالك الناصر حسن . ولي نيابة الشام زمنا في أول حكم الأشرف شعبان من عام ٧٦٤ هـ . ثم زار مصر عام ٧٦٨ هـ بأمر السلطان ، وقدم إليه وإلى الأمراء هدايا نفيسة . فنقله إلى نيابة حلب ، وجعلها أرفع من نيابة الشام . ولما قبض على « يلبغا آص » توالى من بعده عدد من الأتابكة ، ثم ولي الأتابكية « منكلي بغا » عام ٧٦٩ هـ . فظل بها حتى توفي عام ٧٧٤ هـ . وذكر في الدرر أنه ولي نيابة السلطنة بمصر عام ٧٦٩ هـ ثم استعفى منها . وبعد قليل ولي الأتابكية .

وقد كان من أمثال الأمراء . وقد تزوج السلطان « برقوق » ابنته عام ٧٧٨ هـ وهي ابنة أخت الأشرف شعبان حفيد الناصر . وهو غير « منكلي بغا » الشمسي ، الذي ظهر في عهد المؤيد شمس.

الدرج ٤ رقم ٩٩٨ .

٨ - سيف الدين الجاى اليوسفى ٧٧٥ هـ

هو الجاى بن عبد الله اليوسفى ، أحد البارزين فى عهد الاشراف شعبان حفيد الناصر بن قلاوون . ويمتاز بأنه تزوج أم هذا السلطان وهى « خوندبركة » وله عليه فضل رعايته صغيرا . غير أنه حينما أسندت الاتابكية إلى « أستدر » الناصرى عام ٧٦٨ هـ ، كان الأمير « الجاى » فى عداد منائيه ، الذين ثاروا فى وجهه . ولكن « أستدر » استطاع أن يقبض عليه وعليهم ، بعد قتال عنيف استغرق نصف يوم . وأرسلهم مقيدين إلى سجن الإسكندرية . فلبث « الجاى » فى السجن حتى قامت الفتنة والقتال بين « أستدر » ومعه مماليك « يلبغا العمرى » ، وبين أنصار السلطان وانتهى الأمر بالقبض على « أستدر » وسجنه . فرسم السلطان بالإفراج عن كثير ممن سجنهم الاتابكى « أستدر » ، ومنهم الأمير « الجاى اليوسفى » . وسرعان ما عينه السلطان ، أمير سلاح عوضا عن الأمير « أزدمر » العامرى الناصرى الخازن دار ، وذلك عام ٧٧٠ هـ . وفى عام ٧٧٤ هـ ، لما توفى الاتابكى « منكلى بغا » الشمس ، استدعى السلطان الاشراف الأمير « الجاى اليوسفى » وأسند إليه منصب الاتابكية . وفى هذه السنة بالذات ، توفيت زوجة « الجاى » وهى أم السلطان الاشراف . ويظهر أن هذا كان بداية النحس لهذا الاتابكى ، فإنه ما لبث فى أوائل عام ٧٧٥ هـ ، أن سولت له نفسه أن يشق عصا الطاعة على سلطانه . وقيل إن سبب ذلك خلاف وقع بينهما على ميراث الأم المتوفاة . فوقع بين أنصار الاثنين معارك فادحة ، عرض السلطان أثناءها عليه أن يكون نائبا على حماة ، ولكن الاتابكى « الجاى » رفض هذا العرض . فكبأ به جده ، وانهزم هزيمة منكرة ، وفر هاربا أمام جنود السلطان نحو شبرا . ثم أيقن أنهم لا شك لا حقوه ، فرمى بنفسه وجواده إلى النيل فغرق . ثم أخرجت جثته ، ودفن بمدرسته التى أنشأها فى سويقة العزى ، وذلك يوم

الجمعة ١٠ محرم سنة ٧٧٥ هـ . وقد كان مهيبا كثير الصدقات . وقد أنشأ مدرسة عام ٧٦٨ هـ وزودها بخزانة كتب ، ورتب فيها دروسا - ومملوكه « جر كس » هو الذى قتل بيده السلطان شعبان المذكور عام ٧٧٨ هـ .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ - خطط ج ٤ ص ٢٤٩ » .

٩ - المقر السيفي (أيدير) ٧٧٥ هـ

كان نائبا على طرابلس عام ٧٧٥ هـ . فاستدعاه السلطان الأشرف شعبان في هذا العام ، وأسند إليه الأتابكية ، بعد غرق الأتابكي « الجاى اليوسفي » ويظهر أن السلطان ضم إليه معها نيابة السلطنة . فقد ذكر ابن إياس أن « أيدير » أقام في نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ، ثم توفي عام ٧٧٥ هـ . ولعل مما يرجح ذلك أن الأتابكي الذى خلفه ، انضمت إليه النيابة أيضا ، وهو الأمير « منجك اليوسفي » . وقد ذكرنا عنه كلمة في نواب السلطنة لهذا .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٢٨ - الدرج ١ رقم ١١٢٧ »

١٠ - المقر السيفي « أرغون شاه » الأشرفي :

صار أتابكيا بعد « أيدير » و« منجك اليوسفي » في عهد السلطان الأشرف شعبان . وقد صاحبه في خروجه إلى الحج عام ٧٧٨ هـ ولما عصاهم الجنود ، وانشق عليهم عدد من الأمراء في الطريق ، ووقع بين الفريقين معارك دامية ، فر السلطان وفر معه الأتابكي « أرغون شاه » ، ودخلا القاهرة مختفين . ولكن أمراء القاهرة كانوا قد أعلنوا بالعصيان أيضا وأقاموا ابن السلطان الأشرف ملكا عليهم وهو المسمى « عليا » فأنت ترى أن ظروف هذا الأتابكي قد ساءت إلى أبعد مدى .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٩ »

١١ - الأمير طشتمر الحمدي

وهو الشهير باللفاف كان أمير عشيرة ، فأقامه السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان أنابكيا مباشرة عام ٧٧٨ هـ. عوضا عن « أرغون شاه » ، وأنعم عليه بممتلكاته أيضا، وذلك إثر ثورة عنيفة خلع فيها السلطان الأشرف نفسه ثم قتل . وتولى مكانه ابنه على المذكور . ولبت « طشتمر » بمنصبه هذا قرابة ثلاثة شهور ونصف ، ثم عزل ونفي إلى القدس عاطلا .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ »

١٢ - الأمير « أينبك » البدرى

ظهر هذا الأمير واشتد جاهه وذاع صيته ، فى عهد الملك الأشرف شعبان حميد الناصر محمد بن قلاوون، واستعان فى سبيل ظهوره ، بسلسلة من المؤامرات على سلطانه ، وعلى أئداده من الأمراء وسنحت له الفرصة ، حينما خرج السلطان الأشرف شعبان ، إلى الحج عام ٧٧٨ هـ فاشتترك ثورة فى تزعمها الأمير «طشتمر» الحمدي المعروف باللفاف . وكان مقرها القاهرة . وادعى الثوار أن السلطان شعبان قد قتل فى العقبة . واستدعوا ابنه الأمير عليا ، وملكوه على البلاد ولقبوه بالمنصور . ولما تم لهم هذا الأمر ، زادت مكانة الأمير « أينبك » . واستطاع أن يعثر على البيت الذى اختبأ فيه السلطان الأشرف شعبان بالقاهرة ، إذ فر من مماليكه الثائرين عليه بالعقبة ، وعاد مختفيا إلى القاهرة ، هو وأتابكيه « أرغون شاه » . ولما قبض عليه الأمير « أينبك » ، شدد عليه فى السؤال ، حتى اعترف بأموال وذخائر عدة . ثم أسلمه إلى بعض أعدائه ، فقتلوه أشد قتلة . واكتسب « أينبك » بذلك مكانة جديدة ، وصار أمير آخور كبيرا : وبلغ من جرأته أن دس منوما « بنجا » لآحد منافسيه من الأمراء وهو الأمير المقر السيفى « قرطاي » الطازى رأس نوبة النوب فى ذلك الوقت . وأثار

فتنة ضد السلطان وكثير من أمرائه ، حتى اضطر نائب السلطنة إذ ذاك وهو الأمير « آقتمير » الحنبلى ، أن يتقدم إلى السلطان المنصور على ويطلب إليه أن يقبض على الأمير « أينبك البدرى » . ولكنه كان قد استشرى شره ، وكثر معاونوه والمتعصبون له والطامعون فى جاهه . فلم يجد مانعا لديه من أن يتهدد نائب السلطنة وأن يتوعده وأرسل إليه - وكان قد سار نحو المطرية - أن يخرج منها توا إلى دمشق ، وأن يكون نائبا على الشام . فلم يستطع نائب السلطنة أن يخالفه ، وسار إلى دمشق من المطرية . فخلا الجو فى الدولة من كثير من منافسى « أينبك » فكان طبيعيا أن يخلع عليه السلطان مرتبة أتابكية عسكريه ، وذلك فى أواخر شهر صفر من عام ٧٧٩ هـ . بعد القبض على الأتابكى « طشتمر الحميدى » اللغاف . ويظهر أن من سوء حظ هذا الأمير ، أن تجمع عليه فى بلاد الشام كثير من أعدائه ومن ضحايا اعتدائه . ومع أنه أصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد المصرية ، يتصرف فى أمورها حسب مشيئته حتى إنه خلع الخليفة المتوكل على الله من الخلافة ، وولى مكانه ابن عمه زكريا ابن ابراهيم ، ولقبه بالمستعصم بالله ، وفرق مماليكه الأخصاء ، فأسكن بعضهم فى مدرسة السلطان حسن ، والبعض الآخر فى مدرسة الأشرف شعبان . أقول : مع كل ذلك ، لم يستطع القضاء على جميع أعدائه فى داخل القاهرة . وقدثار عليه نواب البلاد الشامية ، وخرجوا عن الطاعة ، فجهز لهم جيشا ، خرج به إلى بلاد الشام ، ومعه السلطان المنصور على محمودا فى محفة - وكان لا يزال صغير السن - وذلك فى ١٩ ربيع الأول من عام ٧٧٩ هـ . واسكن الجيش ما عثم بعد خروجه من القاهرة ، ووصله إلى بليس أن وقعت فى صفوفه الفتنة ، وتاق بعض من فيه إلى أن يفتك بالأمير « قطلوفجاه » أخى الأتابكى « أينبك » ، وكان فى طليعة الجند . فلما أحس الأمير « أينبك » وأخوه بالغدر ، فرا قافلين إلى القاهرة حاملين معهما السلطان .

فانتشر الخبر في أرجاء القاهرة ، وتشجع الجبناء ، وتحفز الكثير من الأمراء والجند إلى القضاء على الأتابكي « أينبك » ، فجمع كل من الفريقين جموعه ، وتلاقيا في ناحية الرملة ، واقتتلا قتالا شديدا ، حتى انكسر الأمير « قطلوفجاء » أخو « أينبك » . وقبض عليه . ففر الأتابكي « أينبك » ، واختفى زمناً . وذلك كله في يوم الاثنين ٣ ربيع الثاني من عام ٧٧٩ هـ . وفي الأحد التالي ظهر « أينبك » في مكان في كوم الجراح . فأرسل إليه الأمير « يلبغا الناصري » - أحد أولى الأمر في ذلك الوقت - من قبض عليه . وأرسل مقيدا إلى سجن الإسكندرية ومعه عدد من المتعصبين له . فقال فيه الشاعر الشيخ شهاب الدين العطار المصري :

من بعد عز قد ذل أينبكا وانحط بعد السمو من فتكا
وراح يبكي الدماء منفردا والناس لا يعرفون أين بكى
ولقى في سجنه ألوانا شتى من التغذيب . وهو صاحب الدرب الذي في
« السبع سقايات »

« ابن إياس جزء أول من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٤٢ »

١٣ - المقر السيفي « طشتمر العلائي » ٧٨٤ هـ

كان نائبا على الشام . عينه في نيابته السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان في أول ولايته الملك : وكان تعيينه في يوم الاثنين ٧ ذى القعدة سنة ٧٧٨ هـ . فسافر في ذلك اليوم من القاهرة إلى مقر وطيفته . ويظهر أنه كان وقورا جليل الشأن . لأن السلطان المذكور أرسل إليه يطلبه إلى القاهرة بعد زوال أتابكية « أينبك » البدرى . فلما حضر خرج السلطان إلى لقائه مع سائر الأمراء ، وأصعده إلى القلعة ومنحه مرتبة الأتابكية . وقد استقدم معه من ديار الشام ، طائفة من الأمراء من عصابته ، فأنعم عليه السلطان برتب وألقاب عدة . وكان له عدد من المماليك ، وقعت فتنة بينهم وبين ممالك الأمير « الزينى بركة » الجوبانى كان فيها القضاء عليهم وعلى سيدهم . إذ وقع بين الفريقين قتال

عنيف في الرملة . فلما طال أمر هذا القتال . صعد الأتابكي « طشتمر » إلى باب السلسلة ، ولقي الأمير آخور برقوقا - الذي صار سلطانا فيما بعد - ويبدو أن غرض « طشتمر » أن يتوسل إلى برقوق ليفض هذا النزاع الدائرة حراه . ولكن « برقوقا » كان كبير المطامع . فانتهاز هذه الفرصة ، وقبض على « طشتمر » وأرسله إلى السجن بشغل الاسكندرية وذلك كله في أخريات العام ٧٧٩ هـ . وبذلك انتهت أتابكية « طشتمر » وعين مكانه برقوق ، الذي ظل في الأتابكية ، حتى صار سلطانا على البلاد المصرية . - ولعل « طشتمر » هذا هو الذي كان نائب سلطنة بمصر عام ٧٧٢ هـ . في عهد الأشرف شعبان بن حسين . ولعله هو الذي مات عام ٧٨٤ هـ .

« ابن إياس جزء أول ص ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، - الدرر ج ١ رقم ٢٠١٨ »

١٤ - المقر السيفي « إيتمش البجاشي » (١) ، الجر كسي ٨٠٢ هـ

ظلت الأتابكية بيد برقوق العثماني ، بعد القبض على « طشتمر » آخر عام ٧٧٩ هـ ، حتى صار برقوق سلطانا على مصر عام ٧٨٤ هـ . فأقام في الأتابكية أحد أتباعه وهو الأمير « إيتمش البجاشي » . وكان قد ظهر قبل ذلك في عدة حوادث هامة . فقد حاول الأمير « بركة الجوباني » أن يوقع الشر والفتنة ، بينه وبين الأتابكي « برقوق » عام ٧٨١ هـ ، في عهد الملك المنصور على . فقد أرسل الأمير « بركة » إلى « برقوق » في الأربعاء ١٧ صفر من العام المذكور ، يخبره أن الأمير « إيتمش » ألبس مماليكه آلة حرب ، واستعد للوثوب على برقوق . ولكن اتضح أن الخبر عار عن الصحة وانتهى أمر « هذه الدسيسة » بأن تدخل بين هؤلاء الأمراء شيخان جليلان هما الشيخ « أكمل الدين الحنفي » والشيخ « أمين الدين الحلوتي » وأتما بينهم الصلح . فهدأت الفتنة حينها .

(١) البجاشي ذكر بالشين وبالسين ، وذكر بالجيم وبالحاء .

واشترك الأمير « إيتمش » بماليكه مع عدد آخر من الأمراء بماليكههم ، في إطفاء الحريق الهائل الذى شب بظاهر باب زويلة ، عند باب دار التفاح ، واتصل لهبه بكثير من النواحي المجاورة . وأوصل إليها التلف والدمار . وذلك فى ٢٥ من ذى الحجة سنة ٧٧٩ هـ . وفى أخريات تلك السنة أنعم السلطان المنصور على الأمير « إيتمش » بإمارة أخورية كبيرة عوضا عن « برقوق » الذى صار حينئذ أتابكيا . وانعقدت المودة بين الاثنين حتى أن « إيتمش » عاون « برقوقا » وهو أتابكى على عسبة « إينال اليوسفى » الحاقدين عليه . إذ انحاز « برقوق » إلى دار « إيتمش » فنححه السلاح والماليك وقتلا معا حتى هرب عدوهما وذلك فى شعبان عام ٧٨٠ هـ . واشترك كذلك فى إطفاء فتنة عربان البحيرة ، التى طمت وعمت عام ٧٨١ هـ . فقد تناهت الأخبار إلى القاهرة ، بأنه قد تجمع نحو خمسة آلاف من هؤلاء العربان وأغاروا على مدينة دمنهور ، بزعامة أحدهم « بدر بن سلام » . ونهبوا أسواقها وبيوتها وألحقوا التلف ببلاد أخرى غيرها . فأرسل الأتابكى « برقوق » حملة تأديبيه عليهم ، بقيادة ثمانية من كبار الأمراء ، كان الأمير « إيتمش » فى عدادهم وقد نجحت هذه الحملة فى مهمتها .

ولما آل الملك إلى « برقوق » عام ٧٨٤ هـ ، جعل الأمير « إيتمش البجاشى » أتابكيا للعسكر . فكان بذلك أول الأتابكة فى دولة الجراكسة . وأصبح عضدا قويا يعتمد عليه السلطان « برقوق » . وقد كان فيمن خرج عن طاعته الأمير « يلبغا الناصرى » ، وكان حينئذ نائبا عن السلطان فى حلب . وكان عصيانا فى أوائل ٧٩١ هـ والتف حوله بعض أمراء البلاد الشامية وما والاها . فلم يجد السلطان بدا من أن يرسل على هؤلاء حملة عسكرية ، يكل إليها أمر تأديبهم . فكان الأتابكى « إيتمش البجاشى » أحد أمراء هذه الحملة . إلا أنها حينما بلغت مدينة دمشق ، رأت « يلبغا » قد ملك الشام وقلعتها . وتلاقى الفريقان المتعاديان فى ظاهر دمشق ، فانكسر عسكر

السلطان ، وهرب من أمرائه من هرب وأُسر من أسر . وكان نصيب « إيتمش » من هذا كله أن أُسر وسجن بقلعة دمشق ، وذلك في ٢١ ربيع الثاني من عام ٧٩١ هـ ، فظل في سجنه زمنا . أما يلبغا فقد استطاع الزحف إلى القاهرة . وكانت النتيجة أن نزل السلطان برقوق عن عرشه . وعاد إلى السلطنة الملك الصالح أمير حاج ابن الملك الأشرف شعبان . فانتَهت بذلك أتابكية إيتمش ، إذ عُين (يلبغا الناصري) مكانه في الأتابكية في هذه الدولة الجديدة .

ظل « إيتمش » بعد ذلك منكور الاسم غير مذكور . حتى جرت الأيام مجرى جديدا وعاد السلطان برقوق مرة ثانية إلى ملكه . فكان طيعيا أن يعيد « إيتمش » إلى الأتابكية . غير أن ذلك لم يتم إلا عام ٨٠٠ هـ ، إذ كان يشغل الأتابكية آخرون بالتوالى ، قذفت بهم الأيام إليها بعد سجن « إيتمش » . ومع ذلك لم يفتأ « إيتمش » قبل أن يلي الأتابكية للمرة الثانية ، يعاون السلطان ويشارك في شؤون الدولة . فمن ذلك أنه اشترك مع بعض الأمراء ، في دفع عدوان الأتابكي « منطاش » عن مدينة دمشق عام ٧٩٢ هـ ، إذ كان ثائرا ضد السلطان « برقوق » ، ثم عاد « إيتمش » هو وجماعة من الأمراء ، إلى القاهرة بعدمطاردة « منطاش » وذلك عام ٧٩٣ هـ . وتوسط بين ممالك الطباق وبين الأمير « جمال الدين محمود » الاستادار ، إذ ثاروا عليه - بسبب تصرفاته معهم - ثورة كادت تودى به ، لولا أن تدخل الأتابكي « إيتمش » في الأمر هو ومماليكه ، وكف عنه عدوان المعتدين ، ثم صالح الطرفين . وما زال هذا حاله حتى عادت إليه الأتابكية - كما قلنا - عام ٨٠٠ هـ . وأصبح من أقرب المقربين إلى السلطان « برقوق » . ولقد حدث في السبت ١٢ ذى القعدة من عام ٨٠٠ هـ أن لعب السلطان بالكرة والصولجان مع الأتابكي « إيتمش » . فغلبه السلطان . فهم الأتابكي « إيتمش » بعمل وليمة من ماله ، فمنعه السلطان وقام هو بعمل الوليمة

نيابة عنه . فكانت وليمة فاخرة جمعت ما لذ وطاب ، والتأم فيها شمل كثير من الأمراء وغيرهم .

ما زال « إيتمش » مقرباً من « برقوق » حتى مرض « برقوق » مرض الموت . فجعله في عداد الأوصياء على أولاده وماله وأوقافه . وتوفى ، وورث الملك من بعده ابنه « زين الدين فرج » عام ٨٠١ هـ . فثبت « إيتمش » في منصبه ومنحه أيضاً لقب أمير أخور كبير فظل صاحب حول وطول . وكان السلطان فرج صغير السن إذ ذاك ، فاستمد الأتابكي « إيتمش » من صغره سلطة ونفوذاً ، وتصرف في كثير من أمور الدولة ، وسكن بباب السلسلة . وأخذ يضرب على يد من يعصيه . فقبض فيمن قبض عليه ، على الأمير « سودون » أمير أخور كبير ، وهو أحد أقرباء « برقوق » وأحد الواجدین على « إيتمش » فقيدته وسجنه بشعر الإسكندرية . وقبض كذلك على الأمير « تراز » الناصري و « ترمغا » المنجسكي وغيرهما فقيدهم وأرسلهم إلى السجن بشعر الإسكندرية . ثم قبض على الأمير « يلبغا » الأحمدی الأستاذار ، وألحقه بهم وهكذا . وأصبح بذلك مسيطراً على شئون الدولة ، متصرفاً فيها ، تغدق عليه الإنعامات من الملك وما أن بلغ سن الرشد ، حتى حدثت « إيتمش » نفسه الإمارة ، بالثورة والانتفاض على السلطان . فجمع مماليكه وأعدهم للحرب في يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول من عام ٨٠٢ هـ . وانضم إليه عدد من الأمراء . واجتمع إلى السلطان كثير من الأمراء والممالك ، وتقاتل الفريقان بباب السلسلة قتالاً عنيفاً ، حتى انعكس « إيتمش » وهرب نحو قبة النصر . وخسر في هذه المعركة خسارة كبرى إذ نهبت ممتلكاته وزايله أنصاره . وكانت ثورته تلك وبالاً على مدينة القاهرة ، وكاد يعم بسببها الفساد والنهب . - ثم إن الأتابكي « إيتمش » فر إلى بلاد الشام هو ومن لف لفه من الأمراء ، فبلغوا دمشق يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول من عام ٨٠٢ هـ .

فقبولوا هناك بحفاوة بالغة ، إذ كان نائب الشام حينئذ من الذين شقوا عصا الطاعة على سلطنة فرج ، وهو الأمير « تم » فاجتمع شمل هؤلاء معا وقويت شوكتهم ، وانضم إليهم نائب حلب ونائب حماة ونائب صفد ونائب طرابلس . وكاد الأمير « تم » يكون سلطانا على بلاد الشام . إلا أن السلطان فرجا خرج بحملة عسكرية كبيرة ، لتأديب هؤلاء العصاة . فلما بلغ الشام انحاز إلى جانبه عدد من الثوار ، وحل الضعف في صفوف أعدائه . ففر الأمير « إيتمش » ومعه « تم » نائب الشام وكثير معهم . فرغب السلطان في صلحهم فأبوا . فتابعهم بجنوده حيثما حلوا وأوقع بهم في موقعة كبيرة بمكان يقال له : الحبطين . وانتهى أمر الأمير « إيتمش » بالقبض عليه هو و « تم » وغيرهما . فقيدوا وحبسوا بقلعة دمشق ، حتى أمر السلطان بقتلهم فقتلوا . قتل إذن الأمير « إيتمش » بجزيرة الحام بقلعة دمشق . وأرسل رأسه مع رأس غيره ، فطيف بها في أرجاء القاهرة ، ثم علقت على باب زويلة . وبهذا انتهت حياة ذلك الرجل في شعبان سنة ٨٠٢ هـ .

« ابن اياس جزء أول ص ٢٤٣ ، ٤٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ . - الضوء ج ٢ رقم ١٠٥٩ »

١٥ - المقر السيفي « يلبغا الناصري » ٧٩٣ هـ

« يلبغا » الناصري هذا كان من أتباع « يلبغا » العمرى الناصري الكبير مملوك الناصر حسن المذكور سابقا . وقد بدأ نجم « يلبغا » الناصري يتألق في عهد الملك المنصور على بن الأشرف شعبان ، فكان أمير سلاح ، وحياته كحياة أئداده من الأمراء ، عبارة عن سلسلة من الحوادث والمؤامرات والمغامرات التي يخوض عبابها

مقامرا ، فلعله يكون فيها من الفائزين . كان « يلبغا » فى عداد الأمراء الذين دافعوا عن الأشرف شعبان ، ضد الثائرين عليه حينما خرج للحج عام ٧٧٨ هـ ثم فر ، ثم اشترك عام ٧٧٩ هـ فى فتنة شعواء ، تزعمها الأمير « برقوق » العثمانى - السلطان برقوق فيما بعد - والأمير « بركة » الجوبانى وغيرهما ، وذلك فى عهد السلطان المنصور على ابن الأشرف فقاتلوا عددا آخر من الأمراء المعادين لهم فانتصروا عليهم وسجنوهم بشجر الإسكندرية . وأقام الأمير « يلبغا الناصرى » من ذلك الوقت يحكم فى باب السلسلة بين الناس ، نحو سبعة أيام ، منفردا فى ذلك عن صحابته من أهل فتنته . فحفظهم هذا إلى مناجزته . فهجم عليه الأمير « برقوق » العثمانى والأمير بركة الجوبانى ، فى وقت الظهيرة ، وأنزلوه إلى بيته مرغما . ومن ذلك الوقت دبت عقارب الحسد والحقد ، بين الأمير « يلبغا » الناصرى وبين الأمير « برقوق » العثمانى . وظل ذلك بينهما مساجلة ، ولا سيما بعد أن بلغ « برقوق » منصب الأتابكية ثم السلطنة فلما رقى « برقوق » إلى الأتابكية أخريات عام ٧٧٩ هـ ، قبض على « يلبغا » وقيده وأرسله إلى السجن بشجر الإسكندرية ، ونزع منه لقبه وإقطاعه طبعاً ، وأعطى لسواه وهو الأمير « إينال » اليوسفى . ويظهر أنه أطلق سراحه بعد قليل . لأنه ما لبث أن ظهر فى ميدان الفتنة التى اندلع لهيبها ، بين الأتابكى « برقوق » والأمير « بركة » الجوبانى . إذ كون الأمير « بركة » فرقتين لحرب « برقوق » ، إحداهما كان فيها الأمير « يلبغا الناصرى » ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٧٨١ هـ . فتصدى له هذه الفرقة المذكورة الأمير « إيتمش » البجاسى ، فاندحرت أمامه وغلبت على أمرها وكذلك كان نصيب الفرقة الأخرى .

ويظهر أن فتن هذا الأمير ، هدأت حينما ، لأنه استطاع أن يعين نائباً لحلب . غير أنه ما لبث أن عاد إلى فتنته ، بعدما اعتلى « برقوق » كرسى المملكة المصرية .

فقد بلغه في سنة ٧٨٧ هـ ، أن « يلبغا الناصري » نائب حلب ، متواطئ مع الأُمير « سولي » بن ذى الغادر أمير التركمان ، وأنهما قد اتفقا على العصيان . فلما تحقق السلطان « برقوق » صدق هذا الخبر ، أرسل إلى « يلبغا » الأُمير « بهادر » المنجكي الاستدار ، يستقدمه إلى السلطان ، فقدم معه . فلما بلغا غزة قبض عليه وقيده ، وأرسله إلى سجن نجر الإسكندرية . وعين الأُمير « سودون » المظفرى نائبا على حلب مكانه . وأرسل الأُمير « جمال الدين محمود » شاد الدواوين ، إلى حلب لمصادرة ممتلكات « يلبغا » ولبت « يلبغا » في السجن زمنا مغضوبا عليه . ثم أطلق سراحه ، وأعيد إلى نيابه حلب . وكان قد انتقل إلى سجن دمياط عام ٧٨٨ هـ . بأمر السلطان وظل فيه بغير قيد . فاستقدمه السلطان برقوق في شهر شعبان من سنة ٧٨٩ هـ وأكرمه وخلع عليه وأعادته إلى نيابته . فنشطت دسائسه واثاراه من جديد ، وأساء إلى الأُمير « سودون » المظفرى نائب حلب من قبله عام ٧٩١ هـ ، وخرج عن طاعة السلطان ، وقتل عددا من المماليك ، وقبض على عدد من الأُمراء . فهب السلطان « برقوق » للقضاء على هذه الفتنة . وكان يريد في الظاهر الإصلاح بين « يلبغا » وبين « سودون » المظفرى . وأوصى في الباطن بالقبض على « يلبغا » . وكان رسوله في ذلك الأُمير « تليكتمر » . وكانت هناك صحبة وصداقة أكيدة بين « تليكتمر » و « يلبغا » . فهياً « يلبغا » كميناً « لسودون » فقتله وهو قادم بدعوة منه للصالح . ثم أظهر « يلبغا » عصيانه للسلطان ، والتف حوله بعض الجند والأُمراء ، ومن بينهم « تمبرغا » الأفضلي المسمى « منطاش » الذي كان مملوكا « لبرقوق » ثم نقم عليه . ثم صار من بعد أتابكيا - كما سيأتي - . فعزله السلطان من وظيفته ، وجهاز جيشا لمكافحته . ولكن « يلبغا » كان قد زاد شره ، وامتدت فتنته ، حتى عمت بلاد الشام . فلما وصلت حملة السلطان إلى الشام ، احتربت مع عدوها فانكسرت

وأسر بعض أمرائها، ومن بينهم الأتابكي « إيتمش » البجاسى . وفر الباقون . اشتد بذلك أزر « يلبغا » وزحف بجنود من التراكمة والعربان على البلاد الشامية ومنها إلى البلاد المصرية ، حتى قارب الصالحية فبلغها . فاضطرب السلطان « برقوق » لذلك ، وأخذ يستعد لملاقاة عدوه . غير أن عددا من الأمراء غدر السلطان وهجره وانحاز إلى « يلبغا » ، فقت ذلك فى عضده ورأى ضعفه إزاء خصمه ، فأرسل إليه يعرض التنازل عن العرش ، لقاء أن يؤمنه على نفسه . فأمنه « يلبغا » واختفى « برقوق » وزالت سلطنته وتولاها من بعده الملك الصالح أمير حاج بن الملك الأشرف شعبان ، للمرة الثانية عام ٧٩١ هـ . وكان طبعيا أن يكون « يلبغا الناصرى » أتابكى العسكر فى هذه الدولة بدل إيتمش . ابتسم الزمان لهذا الأمير ، وأصبح صاحب الحول والطول فى البلاد . فاتجهت عنايته أولا إلى القبض على عدوه السلطان برقوق فأطلق المناداة عليه فى القاهرة ، وهدد من يكون محتبئا فى داره بأشنع العقوبات ، حتى دل على مكانه دليل . فقبض عليه وأرسله مسجونا مقيدا بقلعة الكرك . فأكرمه نائبها بومئذ الأمير حسام الدين الكجكنى .

ظن « يلبغا » الناصرى ، أن الدهر قد صفا له ، وأن وجهه الأيام قد راق . وأن ميدان المنافسة قد خلا من المنافسين . غير أن الظروف خطأت هذا الظن . فإنه سرعان ما وقع بينه وبين صديقه « منطاش » خلف شديد ، ودبت بينهما عقارب الفتن والحسد . فتهيا « منطاش » للبطش بصديقه يوم الاثنين ١٦ شعبان سنة ٧٩١ هـ ، وكايدى الفتى يدان . جمع منطاش مماليكه ، ولبسوا ثوب الحرب وأعدوا عندها فى ذلك اليوم . واقتحموا باب السلسلة والتف حولهم عدد عظيم من العوام والعبدان واجتمع إليهم مماليك « برقوق » وغيرهم من الموتورين . وكان « يلبغا » قد استعد للقاء هؤلاء الثائرين . وتلاقى الجمعان فى الرملية . فاستحر القتال بينهما ،

واستخدمت فيه شتى وسائله . وظل يومين حتى غلب الأتابكي « يلبغا » على أمره ، وفر تحت جناح الليل هو وبعض عصابته . ويمموا شطر بلاد الشام . غير أنه ما وصل إلى بلبس ، حتى قبض عليه هو وصحابته . وسبقوا إلى القاهرة . ومن ثم قيد وسجن بشعر الإسكندرية . وبذلك انتهت أتابكيتته ، وتولاهما من بعده « منطاش » .

ظل « يلبغا » مقبلا في سجنه حتى وقعت الواقعة بين الأتابكي « منطاش » وبين السلطان « برقوق » المخلوع وكان من نتائجها أن زال شبح « منطاش » من مسرح السياسة المصرية ، وعادت سلطنة « برقوق » مرة أخرى عام ٧٩٢ هـ . فرأى « برقوق » أن يستصفي « يلبغا » ويذهب مافي قلبه من وجد عليه ، فرسم بالإفراج عنه ، ومنحه لقب أمير سلاح . ولعل الذي دفع « برقوقا » إلى ذلك ، أن لهما عدوا مشتركا هو « منطاش » . ولذلك مالبت السلطان « برقوق » حتى استخدم « يلبغا » في مطاردة « منطاش » الذي فر وأخذ يعيث فسادا في بلاد الشام . فرحل « يلبغا » إلى دمشق وأوقع هو وغيره من الأمراء بجنود « منطاش » والمنحازين إلى صفوفه . وصدف أن قتل نائب الشام حينئذ فأرسل السلطان « برقوق » تقليدا إلى « يلبغا » وعينه نائبا على الشام ، ليكن له من مكافئة منطاش ودفع شره . وقد أبلى « يلبغا » في هذه السبيل بعض البلاء . غير أنه كان لا يزال يضمهر الشر ، ويتربص الفرص للعودة إلى السكيد لبرقوق . ولم يكن يمنعه من ذلك إلا وجود منطاش في أطراف بلاد الشام ، ومعاودته مناوشتهم الفينة بعد الفينة فأحب « يلبغا » أن يعمل على إبعاد « منطاش » حتى يخلو له جو المكيدة . فأوعز إلى الأمير سالم الدوكاري أمير التركان ، أن يغري منطاش على الهرب إلى بلاد الروم . وكان برقوق في ذلك الوقت ، قد زحف بجند كثيف إلى البلاد الشامية ، ليظهرها من « منطاش » وعقبه . فأطلعه أمير التركان المذكور ، على مراسلة « يلبغا » واثماره ووجهة نظره .

فلم يجد السلطان « برقوق » بدا من القبض على « يلبغا » ومن لف لفه من الأمراء ، وسجنهم بقلعة حلب ثم أمر بقتلهم جميعا فقتلوا . وانتهت بهذا حياة « يلبغا الناصرى » وذلك فى عام ٧٩٣ هـ .

« ابن إياس جزء أول ص ٢٣٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ - الدرج ٤ رقم ١٢١٩ »

١٦ - « تمر بغا الأفضلى » المعروف بمنطاش الأشرفى ٧٩٥ هـ

كان أولا من مماليك الأشرف شعبان فذهب إليه . ثم فى سنة ٧٨٧ هـ اشتراه السلطان « برقوق » ، وهو أخو الأمير تمر باى الدمرداشى . ولبت فى رق برقوق مدة حتى رباه ثم أعاق ، ونفجه بخيل وقماش وعينه جمدارا . هذا هو « منطاش » الذى ابتلى به السلطان برقوق فى عداد من ابتلى بهم من الثائرين عليه والخارجين على طاعته ، والذى أقلق باله زمنا ليس بالقليل . وما ذلك إلا لأنه كان يضممر بين جنبه كمية من الشرور والطمع كافية لأن تجعل حياته سلسلة من الكيفاج .

كان « منطاش » شجاعا باسلا إلا أنه جنوح إلى الفساد ، فضر به سيده برقوق ثم نفاه إلى بلاد الشام ، فظل يعيش فسادا فى أرجائها ملتصقا ساعة الانتقام من سيده . فانت له ساعة الانتقام المرجوة حينما ثار فى وجهه الأمير يلبغا الناصرى ، حينما كان نائبا على حلب وحديثه نفسه بالعصيان ومزاحمة السلطان والغدر به . وتهيأت أسباب النصر ليلبغا ومن معه وفى جملتهم « منطاش » فقد زحف على مصر زحفا لم يحد معه السلطان برقوق بدا من النزول عن عرشه والاختفاء عن العيون وبذا عادت السلطنة إلى الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان عام

٧٩١ هـ . وصار يلبغا أتابك عسكره .

أما « منطاش » فقد أصبح قسيما يلبغا في هذا الجاه العريض الذى بلغه ، بل وأصبح أحد الحاقدين عليه ؛ بل أصبح أول هؤلاء الحاقدين . فلماذا تكون الأتابكية وجاهها يلبغا وحده ؟

ظهرت هذه الروح لدى « منطاش » ومتى خبثت نفسها الصديقين تحفزا للشر واستمر الخلاف ، ولهذا سرعان ما وقع الخلف بين « منطاش » ويلبغا وملاّت صدريهما الحقود والأطماع . فلم يجد « منطاش » بدا من مناجزة نده فجمع مماليكه وزودهم بضروب من السلاح وعاونهم عديد كبير من العوام والعيبد وكثير من ممالك الأشرف شعبان والظاهر برقوق ومن لف لفهم من الموتورين من يلبغا . وذلك فى يوم الاثنين ١٦ شعبان عام ٧٩١ هـ . وترامى الفريقان واحتالا فى القتال وأسباب النصر ، حتى انهزم جمع يلبغا وولى الأديار . ففر تحت ستر الليل هو وعدد كبير من الأمراء إلى بلاد الشام ولكنه قبض عليه فى بلبس وأعيد إلى يد « منطاش » فسجنه بشجر الإسكندرية وأمر « منطاش » بالإفراج عن كثير من الأمراء الذين سجنهم يلبغا ومن بينهم المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة كان .

بهذا الانتصار وثب « منطاش » إلى مرتبة الأتابكية ، وصار مصدر الأمر فى هذه البلاد بجوار سلطانها أمير حاج .

أحب « منطاش » بعد ذلك أن يخلى الميدان من كل منافسيه . فأراد البدء بالسلطان برقوق سيده القديم وعدوه الحالى ، والمسجون بقلعة الكرك . فاستصدر « منطاش » من السلطان أمير حاج مرسوماً شريفاً أرسله إلى نائب الكرك يأمره بقتل الملك الظاهر برقوق . وكان برقوق قد استصنى جماعة من رجال الكرك وحراس قلعتها . فقتلوا الرسول الذى يحمل المرسوم ، وهموا بقتل نائب الكرك نفسه فاستجار ببرقوق فخاه وأخذ نفوذ برقوق يتسع ويزداد فى الكرك حتى ملك

قلعتها وأخذ يعد العدة للإغارة على الشام ثم مصر فاضطرب « منطاش » أيما اضطراب ، ومالت نفسه الحيرة . وأخذ يستعد للظروف . غير أن برقوفا كان قد انضم إلى جيشه أناس كثيرون أغار بهم على بلاد الشام وملكها . وانساق كثير من أمرائها إلى الانضواء تحت رايته . ففت ذلك في عضد « منطاش » وحاول أن يستعين على برقوق بفتوى دينية . فعرض على الخليفة والقضاة الأربعة سؤالاً نصه : « ماتقول السادة العلماء في رجل خلع الخليفة وسجنه وقيد من غير موجب لذلك . وقتل رجلاً شريفاً في الشهر الحرام في البلد الحرام واستحل أخذ أموال الناس بغير حق ، واستعان بالكفار على قتال المسلمين . ، - فامتنعوا من الإجابة حتى يجيب شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني . فأجاب بقوله ، ، إذا قامت عليه البينة بذلك وجب قتاله ومحاربه فهو خارجي ، ، . وتوالى العلماء والقضاة يكتبون من بعده . والمتبادر إلى الذهن أن « منطاش » أراد أن يكتسب الرأي العام ضد برقوق ، ويذكر الناس ببعض أعماله السيئة التي وقعت منه في أول دولته . - غير أن ذلك كله لم يجد نفعا فإن برقوفا تغلب على كل الصعاب التي اعترضته في سبيل امتلاك الشام وإن كان قد لقي بها ضروبا من الإرهاق والغت . فلم يسع « منطاش » إلا أن يجهز حملة كثيفة الجند يسير في طلعها هو وسلطانها أمير حاج . وأخذت هذه الحملة في المسير نحو الشام منذ الاثنين ١٧ من ذي الحجة سنة ٧٩١ هـ . وكادت جنودها ترفض الخروج لما نال بعضهم من أذى « منطاش » وسوء تصرفه . - تلاقي الفريقان في البلاد الشامية وظل النصر والهزيمة يتناوبان كل فريق ، والوقائع تترى بينهما حتى انكسر عسكر « منطاش » وولوا الأدبار . وبينما أخذ السلطان برقوق يزحف بجنوده للاستحواذ على مصر ، إذ ظل « منطاش » شريداً في الديار الشامية . وبلغ برقوق مصر وصعد إلى مقر الحكم بالقلعة يوم الأربعاء ١٥ صفر سنة ٧٩٢ هـ ومُخلع السلطان أمير حاج . ودالت دولة « منطاش » حتى قال فيه بعض الزجالة :

من الكرك جانا الظاهر وجب معو أسد الغابة
ودولتك يا أمير منطاش ما كانت إلا كدابة
كانت هذه الخاتمة التي انتهى بها أمر « منطاش » حافزاً له إلى أن يهب نفسه
للشر والعبث والفساد ، وأن يعيش عيشة الفتاك المشردين ليسكون شوكة حادة
تؤلم جنب دولة السلطان برقوق . لذلك ما عتمت الأخبار أن جاءت بوثوب
« منطاش » على مدينة دمشق ، وبموافقة عوامها له على تسليمها إليه فهبت لصدده عنها
عدة من الأمراء من بينهم إيتمش البجاسي وبلغا الناصري الأتابكيان من قبله ،
فأوقعوا به واقعة هائلة ثم تراجع الفريقان . وبعد قليل كر « منطاش » بعصابته
على مدينة عيتاب ، واستطاع نائبها بعد جهد أن يشتت شمله فهرب إلى
ضفاف الفرات . . . وفي سنة ٧٩٣ هـ التف حوله عدد كبير من التركمان
والعربان وبعض الأمراء حتى توالى الأخبار بأنه قد ملك حماة وحمص وبلبك ،
وسالمة أهلها . وأخذ في حصار الشام وفجأ دمشق ونهب أسواقها ومتاجرها ،
واضطبلاتها . فلم يجد السلطان برقوق مذوحة عن السفر للملاقاة والقضاء عليه وعلى
شروبه . فخرج سنة ٧٩٣ هـ إلى الشام في جند كثيف ومعه الخليفة المتوكل والقضاة
الأربعة وسائر الأمراء إلا قليلاً منهم . فبلغ دمشق وأقام بها زمناً ثم يمم شطر حلب
وقبض على عدد من الأمراء الذين يضمرون له السوء ومن بينهم بلغا الناصري الذي
لم يخلص في مكافحة « منطاش » ، ثم قتلهم . وأخذ في تطهير البلاد الشامية والحلبية من
فساد « منطاش » . وكان هذا لا يفتأ يختلس الفرص للكر على مدن الشام وحلب
ثم يرتد إلى ضفاف الفرات . فكتب السلطان برقوق الأمير نعيم ابن جبار يطعمه
في جائزة فريدة إن هو قبض على « منطاش » . وكان السلطان قد عاد إلى الديار
المصرية قبيل سنة ٧٩٤ هـ ولم يظفر بالقبض على « منطاش » . ثم إن نعيم المذکور
كان قد صاهر « منطاش » فلما اتفق مع أبي يزيد الدوادار نيابة عن برقوق على أن
يقبض على « منطاش » احتال عليه حتى أوقعه في أسره وأرسله مخفوراً إلى نائب

حلب فأرسل السلطان إليه الأمير طولو بن علي شاه ليحضره إليه . فأخذ هذا الأمير في التحقيق معه ليظفر منه بما غصبه من البلاد إلا أن (منطاش) كان قد أصاب نفسه بخنجر كان في حجزته فدخل في دور النزاع . فقطع الأمير طولو رأسه وطيف به في كل مدينة ، حتى بلغ القاهرة فعلق على باب زويله .. وفرح السلطان بذلك فرحاً لا مزيد عليه . وبهذا ختمت حياة هذا الأمير وكان ذلك ٧٩٥ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٦٢ إلى ٢٩٩ - تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٨٧ ، ٤٩٧ »
٥٠٤ - الدرر ج ٤ رقم ٩٩٥ ،

١٧ - إينال اليوسفي ٧٩٤ هـ

كان المقر السيفي « إينال اليوسفي » هو الذي وقع عليه اختيار السلطان برقوق ليسند إليه منصب أتابكية عسكره عقب عودته إلى سلطنته واندهار الأتابك السابق تمر بغا الأفضلي المعروف بمنطاش . وتم ذلك في أوائل سنة ٧٩٢ هـ .

ولقد تقلب « إينال » في مناصب شتى قبل بلوغه هذه الرتبة الجليلة . فقد كان إلى سنة ٧٩١ هـ ، أتابك العساكر بدمشق في عهد سلطنته برقوق الأولى . وكان الأمير يلغا الناصري حينئذ نائبا على حلب فبدرت منه بادرة عصيان تحقها السلطان برقوق . فخلعه من نيابته وأسندها إلى « إينال » : غير أن يلغا كانت قد اشتدت فتنته وزحف بجنود جمعها إلى مصر واستطاع أن يزيل ملك برقوق ويعيد الملك الصالح أمير حاج إلى عرشه . فحرم إينال نيابة حلب ، وأسندت في العهد الجديد إلى المقر السيفي كمشغا الجوى وسجن إينال في قلعة صفد . - فلما عاد برقوق إلى نشاطه وزحف من السرك إلى الشام ، اضطربت أمورها وتآمر المتآمرون وانضم المنضمون إلى صفوف برقوق . وكان من أثر ذلك أن أطلق سراح الأمير إينال اليوسفي بوساطة دوا دار نائب صفد المدعو يلغا السالمى . وقد كان هذا من ممالك

برقوق ، فاتفق مع حاجب صفد ونائب قلعتها على الإفراج عن « إينال » . وبمجرد خروجه تزعم حركة العصيان ضد الأتابكي « منطاش » وسلطانها أمير حاج . فكان ذلك نصرا جديدا لبرقوق . واستطاع « إينال » أن يملك صفد وقلعتها ومخازنها ، وأن يكون قوة فعالة في الوصول إلى النصر الذي يرجوه برقوق . وسار « إينال » بجانب برقوق حتى كتب له النصر على عدوه منطاش ، وعاد إلى سلطنته ، فأُسند الأتابكية إليه .

ومن عجيب الأمور أن « إينال » هذا كان في يوم ما عدوا ثائرا على برقوق . وذلك في عام ٧٨٠ هـ في عهد سلطنة المنصور على . فقد اتفق في يوم الاثنين ٢٤ شعبان من ذلك العام أن سار برقوق - وهو أتابكي لما يُرقَّ إلى السلطنة - نحو المطرية ، فاعتنم الأمير « إينال اليوسفي » - وكان إذ ذاك أمير سلاح - هذه الفرصة ، وجمع مماليكه ولبسوا لباس الحرب ويمموا جهة الرملة . وانضم إليه عدد من الأمراء والماليك السلطانية وأحدثوا فتنة هائلة ، فحطموا باب السلسلة واغاروا على مستودعات الأسلحة الخاصة بالأتابكي برقوق . وذلك كله حسدا لبرقوق ، ورغبة في التخصيد من شوكتهم والتقليل من جاهه . ولولا أن أسرع برقوق بالعودة ، ولولا أن عاونه في محنته الأمير إيتمش البجاشي ، ففتح مماليكه وكمية هائلة من الأسلحة ، ولولا أن كان الأمير بركة الجوباني غائبا في مزارعه بالبحيرة ، وهو صديق حميم للأمير « إينال اليوسفي » ، أقول لولا ذلك ، لوقع لبرقوق مالا تحمد عقباه . ولكننه استطاع مع هذه الظروف أن يقضى على خصمه ، وأن يقبض عليه هو وأعوانه وأن يبعث بهم مصفدين في الأغلال إلى سجن الإسكندرية . وقد قال الشاعر المصري ابن العطار في ذلك :

قد ألبس الله برقوقا مهابتة نهار الاثنين في عز وتمكين
وراح إينال مع سودون وانكسرا وكان يوما عسيرا يوم الاثنين
ومن عجيب الأمور أيضا أن برقوقا - وهو أتابكي - كان السبب في ترقية الأمير
« إينال اليوسفي » إلى أمير سلاح بدل يلبغا الناصري الذي قبض عليه ، وذلك في
أخريات عام ٧٧٩ هـ . فكان جزاؤه منه الثورة والفتنة .

ومهما يكن من أمر ، فقد لامت الظروف بينهما وأصبح برقوق سلطانا ،
وأصبح « إينال » أتابك عسكره غير أنه - على ما يظهر - وقع منه ما كان سببا في غضب
السلطان عليه ، ولذلك أبعده عن منصبه ، وأقام مكانه الأمير كمشبغا الحموي . وقد
توفي حوالى عام ٧٩٤ هـ أو في هذا العام .

« ابن إياس جزء أول ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ -
خطط ج ٤ ص ٢٥٢ - درج ١ رقم ١١٣٥ »

١٨ - كمشبغا الحموي ٨٠١ هـ

من ممالك ابن صاحب حماة ، قدمه للناصر حسن . ترقى حتى كان نائبا على حلب
في عهد الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان . وذلك في أول عودته إلى الملك
عام ٧٩١ هـ . وكان الأتابكي حينئذ « منطاش » . وكان برقوق مسجوناً بقلعة الكرك ،
ثم بدأ « برقوق » يستعد سلطانه ويزحف بعصابتة من الكرك إلى الشام ، بعد أن
استولى على الكرك . فضلع الأمير « كمشبغا » مع « برقوق » ، وأعلن العصيان
بحلب ، شأنه في ذلك شأن كثير غيره ، من أمراء البلاد الشامية والحلبية . وقد قدم
« كمشبغا » إلى « برقوق » في ذلك الوقت عدة مساعدات متنوعة إبان دخوله دمشق ،
وأصاب « برقوق » في ذلك الوقت هزيمة مؤقتة ، فهرب هو والأمير « كمشبغا » ،
ورحل هذا إلى حلب وأقام فيها حصونا ، استعدادا للظروف . إلا أن أهالى حلب

كانوا قد أصابهم ضيق بسبب تصرفات نائبهم « كمشبغا » فانتهزوا فيه فرصة ، حينما أرسل « منطاش » بعض عصابته ، بزعامة شخص يدعى « تمان تمر » ، الأشرفي لامتلاك حلب باسم « منطاش » ، فانضم أهل حلب إلى هؤلاء المغيرين ، أما الأمير « كمشبغا » ، فقد أقام مع جنوده في بعض الأبراج الحصينة ، وظل الفريقان يتراميان ثلاثة أشهر ، حتى كتب النصر الأمير « كمشبغا » . وانكسرت أمامه عصابة « منطاش » ، وولوا الأدبار . فأخذ « كمشبغا » يستعيد نفوذه في المدينة ، وعكف على إصلاح ما تهدم منها ، وزاد على مبانيها ومرافقها ما سمحت له به الظروف .

كان « برقوق » قد استعاد سلطانه في البلاد الشامية والحلبية في تلك الأثناء ، وزحف بجنوده على مصر ، واسترد عرشه فيها . وبذلك وحده استطاع « كمشبغا » أن يسترد نفوذه في حلب ، ويقوم بهذه الضروب من الإصلاح . - وفي عام ٧٩٣ هـ وفد الأمير « كمشبغا » إلى مصر ، وحظى بمقابلة « برقوق » وأطلعته على ما يضره ويظهره التركان والعربان من العصيان ، والخروج عن الطاعة ، معاونة منهم « لمنطاش » ، الشائر ضد السلطان . فأعد السلطان للأمر عدته . وأقام « كمشبغا » من ذلك الحين في القاهرة بجوار السلطان ، إذ كان يرتاح إلى مشورته . - ولما خرج « برقوق » بجنوده في الاثنين ٢٢ شعبان من عام ٧٩٣ هـ ، إلى بلاد الشام للقضاء على « منطاش » وعقبه ، أقام الأمير « كمشبغا الحموي » نائب غيبة عنه بمصر حتى يعود ، مفضلا إياه بذلك على نائب سلطنته ، المقر السيفي « سودون » الفخري . فكان ذلك مرشحا له للوصول إلى مرتبة الأتابكية . فما إن انتهت أتابكية « إينال » اليوسفي ، حتى أسند السلطان هذه المراتبة الجليلة إلى الأمير « كمشبغا الحموي » .

ظلت أمور هذا الأمير تجري له بالسعد ، حتى كانت سنة ٨٠٠ هـ ، فحدث منه ما استاء له قلب السلطان « برقوق » فخلعه من منصبه ، وقبض عليه وقيد ، وأرسله مسجونا إلى نجر الإسكندرية . فضل في سجنه سنتين إقليلا . ثم توفاه الله في أخريات

عام ٨٠١ هـ، وهو في السجن المذكور . وأعيدت الأتابكية من بعده إلى الأمير « إيتمش » البجاسي .

« ابن إياس جزء أول ص ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، - الضوء ج ٦ رقم ٧٩٣ . »

١٩ - « بيبرس » الركني ٨١١ هـ

كان « بيبرس » هذا دوادارا كبيرا في عام ٨٠٠ هـ في عهد السلطان « برقوق » ، وهو قريبه . وأبلى بلاء محمودا إلى جانبه في الثورة التي شبها ضده الأمير « علي باي » والأمير « يلغا » الأحمدى الاستادار . وهو الذي قبض على « علي باي » وهو محتبي . وصعد به إلى القلعة وألقى به بين يدي « برقوق » ، فأمر بسجنه .

ظل « بيبرس » دوادارا كبيرا ، إلى أن توفي « برقوق » . وقبل وفاته جعله في عداد أوصيائه على أملاكه وأوقافه . وفي دولة السلطان « فرج بن برقوق » ثبت « بيبرس » في دواداريتيه الكبرى كما كان . - ولما وقعت الفتنة بين الناصر « فرج » والأتابكي « إيتمش » البجاسي ، انجاز « بيبرس » إلى جانب السلطان . فكان أحد الأمراء الذين دافعوا عنه وكسروا جنود « إيتمش » ، وأبلى في ذلك البلاد الحسن . ولما فر الأتابكي « إيتمش » إلى دمشق ، اختار السلطان الأمير « بيبرس » الدوادار مكانه في الأتابكية ، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ٨٠٢ هـ .

من ذلك الحين أصبح الأمير « بيبرس » مقربا لدى السلطان مرعى الكلمة لديه . وقد حدث أن قبض السلطان على بعض كبار الموظفين ، للتحقيق معهم في أموال بددوها ، وكاد يبطش بهم لولا أن شفع فيهم لديه الأتابكي « بيبرس » فأطلق السلطان سراحهم .

ولما وقعت فتنة الأمير « تنم » نائب الشام ، وخرج السلطان « فرج » لمحاربتة ،

أناب عنه في غيبته الأتابكي «بيبرس»، وذلك في شهر رجب من عام ٨٠٢ هـ .
ولما زاد عدد التتار وزعيمهم «تيمورلنك» ببلاد الشام، واضطر السلطان
«فرج» أن يسير لقتاله وأعد الأمر عدته . كان الأتابكي «بيبرس» الركن في مقدمة
من سار بجانبه إلى هذا القتال ، وقد بدأ خروج هذه الحملة في ٣ ربيع الثاني سنة
٨٠٣ هـ . لكنها لم تحقق ما أعدت له تماما . إذ استشرى من بعد عودتها خطر
«تيمورلنك» على بلاد الشام وما والاها .

ويظهر أن الأيام وغيرها ، لم تدع «بيبرس» ينعم باستمرار بمنزلته السامية
لدى السلطان «فرج» . إذ أنه قرب إليه الأمير «نوروز» الحافظي في ذلك العام ،
وجعله مشير الدولة ومدير المملكة ، فعظم جاهه ونفذت كلمته . ثم تزوج «نوروز»
أخت الملك الناصر فرج عام ٨٠٤ هـ ، فكان ذلك بمثابة تثبيت لمنزلته . فأنى للأتابكي
«بيبرس» أن ينافسه ؟ . لذلك رأى السلامة في أن يصادفه ويصادقه . فبقى مرعى
الكلمة لدى «نوروز» .

ولما هبت على السلطان فتنة الأمير «جكم» العوضى و «نوروز» الحافظي ،
اشترك الأتابكي «بيبرس» في إطفائها بنحو ألف مملوك وذلك في شوال عام ٨٠٤ هـ .
وخسر الأمير «نوروز» بهذه الفتنة مركزه السامي لدى السلطان فحاول الأتابكي
«بيبرس» أن يصلح ذات بينهما ، فوعده السلطان خيرا ، وأسر في نفسه غدرا .
فقد وعده أنه إذا أتاه بالأمير «نوروز» ، يصفح عنه ويمنحه نيابة ما . فلما طلع به
إليه منحه نيابة الشام ، ولكن «نوروز» ما لبث حين سار أن قبض عليه ، وقيد
وأرسل إلى سجن الأسكندرية . - فكان ذلك مشارا لجزع الأتابكي «بيبرس» ،
وحنقه على السلطان ، لأنه لم يبر له بوعده . وبدأت النفرة بينهما . ولهذا أمره في
سنة ٨٠٥ هـ أن يرحل منفيا إلى دمياط ، هو وأسرته ويقيم بها . وكاد يتم رحيله ،
لولا أن تدخل كل الأمراء المقدمين في الأمر ، وشفعوا له لدى السلطان . فأبطل

أمره إليه بالرحيل ، ومنحه رضاء . غير أن ذلك لم يستصف قلب « بيبرس » على السلطان ، فقد أخذ يكيد له كيذا ، ويوغر صدور الأمراء عليه ، حتى أصبح في كل مكان عليه نقمة بادية فلم يجد بدا من اعتزال السلطنة ، والاختفاء عنها عام ٨٠٨ هـ .

تولى السلطنة بعد « فرج » أخوه المنصور « عبد العزيز » فعلت منزلة الأتابكي « بيبرس » عنده ، وأقره في منصبه . فأصبح صاحب الحل والعقد بالديار المصرية . إلا أن ذلك كان مثارا للغضب بعض الأمراء وحقدهم عليه ، ولا سيما الأمير « يشبك » الشعباني . فانقسمت القوى إلى فرقتين ، وأخذت كل فرقة تكيد للأخرى ، حتى وقعت الحرب بينهما ، فكانت عقبي « بيبرس » الانكسار . وزالت دولة مملكته المنصور « عبد العزيز » ، وعاد « فرج » إلى عرشه مرة أخرى . وكل ذلك قد استغرق شهرين وعشرة أيام من نفس العام . فلما عاد السلطان « فرج » إلى عرشه ، قبض على الأتابكي « بيبرس » ، وساقه مقيدا إلى سجن الإسكندرية . وانتهى بذلك عهد أتابكيتيه . وقد قبل عام ٨١١ هـ . وولى الأتابكية من بعده الأمير « تغرى بردى » .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ الضوء ج ٣ رقم ١٠١ »

٢٠ - تغرى بردى بن يشبغا ٨١٥ هـ

كان نائبا لحلب عام ٧٩٦ هـ ، عينه في هذه النيابة السلطان برقوق . فظل فيها قرابة أربع سنوات . وفي سنة ٨٠٠ هـ استقدمه ، وأنزله في منزلة الأمير « طاز » وخلع عليه ، وجعله أمير سلاح . وظل في مرتبته هذه ، حتى انتهى عهد « برقوق » وبدأ عهد ابنه « فرج » ، فأقره فيها : - ولما ثار الأتابكي « إيتمش » في وجه السلطان « فرج »

سنة ٨٠٢ هـ انحاز « تغرى بردى » إلى جانب الأتابكي وأبلى في ذلك بلاء حسنا . غير أنهمما دحرا وفراهما ومن معهما إلى الشام . فخلع « تغرى بردى » من إمرته . على أنه لم ينجح هربه من وجه السلطان . فقد اقتفى أثر الهاربين الأمير « جكم » العوضى ، وقبض على « إيتمش » و « تغرى » وغيرهما ، وسجن « تغرى » في قلعة دمشق . فسكت مسجوناً ردحا من الزمن ، حتى ثارت نائرة « تيمورلنك » على أملاك السلطان ، واضطر إلى الخروج إلى الشام لحربه في ربيع الثاني عام ٨٠٣ هـ . فخلع على الأمير « تغرى بردى » عند ما وصل إلى غزة ، وجعله نائبا على الشام . غير أنه ما لبث غير قليل ، ثم عاد مع السلطان « فرج » إلى مصر ، في جمادى الآخرة من العام المذكور ، دون أن يقوموا هما ومن معهما بعمل حاسم ضد تيمورلنك . وبقي « تغرى بردى » في مصر . فعين السلطان الأمير « سودون » قريبا نائبا على الشام مكان « تغرى بردى » . غير أن « سودون » هذا ما لبث أن وقع في أسر « تيمورلنك » . ولذلك أعاد السلطان « تغرى بردى » إلى نيابة الشام عوضا عن « سودون » . وذلك بعد زمن يسير وفي نفس العام . وفي أوائل عام ٨٠٤ هـ ثقلت تصرفات الأمير « تغرى » على أهل دمشق ، فتربصوا به الدوائر ، ورجموه . ونجى نفسه بالفرار من وجههم إلى نائب حلب . فلما علم السلطان « فرج » هذا الخبر خلع على المقر السيفي « أقبغا الجمالي » وقلده نيابة الشام عوضا عن « تغرى » . فعاد هذا بعد زمن إلى القاهرة . ولما فسد ما بين الأتابكي « بيبرس » والسلطان « فرج » واختفى السلطان « فرج » وملك أخوه « عبدالعزيز » ، ثم عاد « فرج » إلى العرش عام ٨٠٨ هـ ، قبض على الأتابكي « بيبرس » وعين مكانه في الأتابكية الأمير « تغرى بردى » . فأخذ من ذلك الوقت يبذل النصيحة والإرشاد للسلطان فرج . ولكن هذا كان مستعبدا إلى حد أن نصائح أتابكيه ذهبت هباء . فقد نهاه كثيرا عن بطشه بماليك أبيه برقوق ، ولكنه لم يستمع إلى نهيه . وتخلص من ناصحه بأن أمر بأن يكون نائبا على الشام مرة جديدة . وذلك في أوائل

عام ٨١٢ هـ . وهكذا انتهت مهمته في هذا المنصب بعد أن سلخ فيه نحو أربع سنوات ، لم يستطع فيها أن يبدط نفوذه ، كما بسط سواه من أنداده . - وبعد « فرج » ملك الخليفة المستعين ، وكان أتابكه المؤيد شيخا . وسرعان ما قفز المؤيد شيخ إلى السلطنة . فظهر في عهده الأتابكي « قرقاس الشعبان » . ثم « الطنبغا القرشي » .

ذكر السخاوى أنه توفي سنة ٨١٥ هـ ، وهو نائب على دمشق . - وهو والد المؤرخ أبى المحاسن صاحب النجوم الزاهرة .

« ابن إياس جزء أول ص ٢٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ - الضوء ج ٢ رقم ٢١٢٨ »

٢١ - الطنبغا القرشى ٨٢٤ هـ

من ممالك الظاهر برقوق . ضلع مع يشبك ، ثم شيخ . حتى كان أتابكيا في عهد الملك المؤيد شيخ المتوفى عام ٨٢٤ هـ . فلما توفي ، ملك من بعده ابنه المظفر « أحمد » ، وكان « الطنبغا القرشى » غائبا حينئذ في البلا الشامية ، على رأس حملة لتأديب العصاة من النواب . فاستبد بالأمر دونه الأمير « ططر » ، وكان أمير مجلس . وانتهاز الفرصة لصغر سن الملك ، وأصبح مدبر المملكة ، واعداد بأنه يستمر كذلك ، حتى يعود « الطنبغا القرشى » من الشام . غير أن « الطنبغا » لسوء حظه ، علم بتغير هذه الأحوال ، فحدثته نفسه بالعصيان . فأعلنه وهو في البلاد الشامية ، وملك دمشق وقلعتها وحصنها ، وجمع ما استطاع من العربان وغيرهم ، وانتظر اللقاء إذا أحد حدثته نفسه بالقتال . فكانت هذه فرصة صالحة للأمير « ططر » ، إذ وثب إلى منصب الأتابكية ، ومنها وثب بعد قليل إلى رتبة السلطنة . - استعد « ططر » لقتال « الطنبغا » وخرج من مصر ومعه جنده وأمرؤه وملكه الصغير محمولا في محفة . فما بلغوا الشام حتى ارتعبت مفاصل « الطنبغا » ، وأعلن بالطاعة للسلطان . غير أن « ططر » قبض عليه ثم أمر

بمخقه وهذا كله فى عام ٨٢٤ هـ . ولم يعين أتابك غيره فى عهد السلطان (ططر) حتى مات ، ثم عين فى الأتابكية « جانى بك الصوفى » فى عصر ابنه .

« ابن إياس جزء ثان ص ١٠ ، ١١ - الضوء جزء ٢ رقم ١٠٢٥ ،

٢٢ - جانى بك الصوفى ٨٣٥ هـ (١)

بعد زوال الأتابكى « الطنبغا القرشى » ، لم يعين فى الأتابكية أحد فى عهد الملك « ططر » ، إذ كان عهدا قصير الأمد . فلما تولى ابن ططر ، وهو الملك الصالح « محمد » ، أقام فى أتابكية عسكره الأمير « جانى بك الصوفى » ، وجعله مدبر مملكته ، إذ كان هو صغير السن . وذلك فى أواخر عام ٨٢٤ هـ . فصار الأمير « جانى » من ذلك الوقت ، صاحب الحل والعقد فى البلاد . فأثار ذلك حفيظة غيره من الأمراء . ف وقعت بينهم الفتن : وكان على رأس الحاقدين الأمير (برسبای) الدقاق - الذى صار سلطانا بعد - فاستطاع « برسبای » أن يقبض على عدوه « جانى » ، وأرسله إلى السجن بالإسكندرية . وانتهت بذلك أتابكيته كأنها لم تكن . بل انتهت أيضا سلطنة الملك الصالح « محمد بن ططر » . ووثب إلى السلطنة الأمير « برسبای » نفسه فى ربيع الثانى من عام ٨٢٥ هـ . وظل الأمير « جانى بك » مسجوناً حتى عام ٨٣٠ هـ ، فأدخل إليه مبرد ، تغلب به على قيده ، فكسره وهرب . فاضطرب الملك (برسبای) لهذا الحادث ، وعذب كثيراً من الناس بسببه ، دون أن يذنبوا اعتقاده أنه قد أخفوه لديهم . وما زال الأمر كذلك ، حتى نـمى إلى السلطان أن « جانى بك الصوفى » قد فر إلى بلاد التركان فهـدأت نفسه . - وفى سنة ٨٣٥ هـ ، وفد إلى القاهرة بعض التراكمة ومعهم رأس الأتابكى « جانى بك » ، ليحظوا لدى السلطان بهذه الفعلة الشنيعة . فأمر

بأن يطاف بالرأس في القاهرة . ثم علق على باب زويلة ثلاثة أيام . ثم في ميساة
جامع الحاكم .

« ابن إياس جزء ثان ص ١٤ ، ١٨ ، ١٩ - الضوء جزء ٣ رقم ٢٣٠ ،

٢٣ - قجق الشعباني ٨٢٩ هـ

أصله من ممالك الظاهر « برقوق » . ترقى في عهد الناصر « فرج » ، حتى صار
من الأمراء المقدمين . وانضم « لنوروز » و « شيخ » في ثورتهم بالشام . فلما ملك
المؤيد شيخ مصر ، جعله حاجب الحجاب . ثم غضب عليه وحبس بالإسكندرية ،
ثم أطلقه السلطان « ططر » وحظى عنده ، فرقه . وما زال حتى كانت سنة ٨٢٧ هـ ،
في عهد « برسبای » ، فاختير أتابكا ، واستمر في الأتابكية حتى مات عام ٨٢٩ هـ .
فبذل السلطان وصلى عليه مع المصلين . وكان « قجق » أميرا جليلا معظما ، ماهرا في
ركوب الخيل وفنون الفروسية . وولى الأتابكية بعده « يشبك الأعرج » .

« الضوء جزء ٦ رقم ٧٠٢ ،

٢٤ - يشبك الساق المعروف بالأعرج ٨٣١ هـ

أصله من ممالك الظاهر « برقوق » . كان خاصكيا في أيامه . واشترك مع
« يشبك » الشعباني في حروبه ووقائع فخر جراحا بليغة ، أصيب على أثرها بالأعرج
وبلغ مرتبة الإمارة في عهد الناصر « فرج » . وانضم بعد مدة مع « نوروز » ، الحافظي
فأرسله إلى حلب ليحفظ قلعتها . ولما استتب الملك للمؤيد شيخ ، غضب عليه ونفاه
إلى مكة ، بعد أن ظل من أتباعه زمنا . ثم اتصل بالسلطان « ططر » قبل سلطنته ،
ولبت في خدمته مدة ، ثم ترقى على يديه بعد أن أصبح سلطانا . وقد عظم أمر « يشبك »
في عهد الأشرف « برسبای » ، فاختاره أتابكا لعسكره بعد « قجق » الشعباني . فلبث

حتى مات عام ٨٣١ هـ . وما يذكر أن الملك الصالح « محمد بن ططر » تزوج ابنته .
فلما مات عنها ، تزوجها الأشرف « برسبای » . وكان « يشبك » يحب الخير ويكثر
من العبادة .

(ابن إياس جزء ٢ ص ١٤ ، ٢٢ - الضوء جزء ١ رقم ١٠٨٨) .

٢٥ - « ببيغا المظفرى » ، ٨٣٣ هـ

لعله هو أيضاً أحد الأتابكة الذين ظهرُوا في عهد الملك المؤبد « شيخ » المحمودى .
لأنه وقت أن تغلب الأمير برسبای الدقماقي على سلطنة الملك الصالح محمد بن ططر
وأتابكه جاني بك الصوفى ، كان هناك أتابك آخر على قيد الحياة وهو « ببيغا
المظفرى » . لذلك اشتور الأمراء عام ٨٢٥ هـ فى ربيع الآخر فيمن يولونه السلطنة :
أيولون الأتابك « ببيغا » أم يولون برسبای ؟ وقد كان برسبای إلى ذلك الوقت
دوادار كبيراً . فتقدم « ببيغا المظفرى » وآثر بالسلطنة زميله برسبای . والحق أنه
ما فعل إلا ما تقضى به الحكمة . لأن برسبای كان ذا قوة وشكيمة حادة حينذاك
فلا يبعد إن قبل « ببيغا » السلطنة أن يقفز عليه فى الغد وينزعها منه . فقدمها إليه من
أهون سبيل وآمن طريق ١١ وضمن لنفسه أن يبقى أتابك عسكر فى هذه الدولة .
وقد تم له ما أراد . فقد منحه برسبای بعد سلطنته هذه المرتبة . أو بالأحرى استبقاه
فيها . وبوصف « ببيغا » هذا بأنه طلق اللسان شديد العارضة لا يعرف من العربية إلا قليلاً ،
حاد الطبع سيء الخلق . فحالت هذه المؤهلات ادون بلوغه منصب السلطنة ، ولم يرشحه
لها الجند . وما يذكر هنا أن « ببيغا » ظل قليل الحيلة ضيق السطوة أمام السلطان برسبای
ومن يثق فيهم من الأمراء . إذ صار فى أول عهده صاحب الحل والعقد فى مصر المقر
الزينى « عبد الباسط بن القرشى » خليل ناظر الجيوش المنصورة . ثم صار بعده مملوك
برسبای الأمير « جاني بك » وهو الذى اجترأ على أتابك العصر « ببيغا » المظفرى فنفاه إلى

الإسكندرية دون علم السلطان . - وذكر السخاوى فى الضوء أن «بيغا» توفى عام ٨٣٣ هـ .
(ابن إياس جزء ٣ ص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٧ - الضوء جزء ٣ رقم ١٠٦)

٢٦ - سودون الظاهرى ٨٤١ هـ

يبدو لنا أنه كان أتابكيا فى عهد « برسبای » بعد « بيغا » المظفرى . واسمه
سودون بن عبد الرحمن ، وأصله من ممالك الظاهر برقوق . وكان من خاصكيتة . ثم
ترقى فى عهد الناصر فرج ، فصار من الأمراء المقدمين . ثم ولى نيابة غزة ، ثم ولى
نيابة طرابلس فى عهد المؤيد شيخ . وما زال حتى اختاره الأشرف « برسبای »
للدوامارية الكبرى ، ثم لنيابة الشام عام ٨٢٧ هـ عوضا عن تنبك البجاسى . ثم نقل
إلى مصر أتابكيا . ثم تقاعد بعد مدة ، وأرسل إلى دمياط . فمات بها عام ٨٤١ هـ .
وكان جليلا شجاعا حسن السياسة . وله مدرسة بخانقاه سرياقوس ، أوقف
عليها أوقافا .

« الضوء ج ٣ رقم ١٠٤٨ »

قرقاس الشعبانى ٨٤٣ (١)

أصله من ممالك الظاهر « برقوق » . ثم ملكه ابنه الناصر « فرج » ، فأعتقه
وجعله خاصكيا . ورقى دوادارا صغيرا فى عهد المؤيد شيخ . وما زال يرقى ، حتى
صار حاجب الحجاب . ثم نقل الى نيابة حلب بعد قصره . ثم اختاره السلطان
الظاهر « جقمق » أتابكا لعسكره فى عام ٨٤٢ هـ ، ومنحه الإمرة الكبيرة . وكان
« قرقاس » يطمع فى السلطنة ، فأحب أن يحتال على سلطانه « جقمق » ، ويقبض عليه
وهما يلعبان الكرة ، ثم يعلن بنفسه سلطانا ، غير أنه لم يستطع ولم تجز حيلته .

ووقعت النفرة بين الرجلين ، ودارت رحى الحرب بين فريقيهما جهة الرملة . فانهزم « قرقاس » وهرب . ثم أرسل إلى السلطان يطلب الأمان ، فأمنه . فصعد عنده ، فقبض عليه وقيده ، وأرسله إلى سجن الإسكندرية . وذلك عام ٨٤٢ هـ . ثم استطاع « جقمق » أن يثبت عليه كفرا . وحكم عليه به قاضى قضاة المالكية « شمس الدين البساطى » ، فضربت عنقه فى السجن عام ٨٤٣ هـ .

وقد عين فى الاتابكية من بعده الأمير « أقبغا » التمرازى ، وهو الذى جمع بين الاتابكية ونيابة السلطنة . وكان آخر نوابها وقد ذكرناه فى النواب : ثم ظهر بعد « أقبغا » الأمير يشبك السودونى .

« ابن إياس ج ٢ ص ٨ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ - الضوء ج ٦ رقم ٧٢٩ »

٢٨ - يشبك السودونى ٨٤٩ هـ

ظهر هذا الأمير فى عهد السلطان « فرج بن برقوق » . وانحاز إلى جانب سلطانه فى الفتنة التى شنها ضده الأمير « جكم » العوضى عام ٨٠٤ هـ . وكانت له يد فى نصرته السلطان عليه وقت قتاله . ثم حسن اتصاله بالسلطان « ططر » . وما زال نجمه فى صعود حتى صار فى عهد الملك الظاهر « جقمق » العلائى أمير مجلس بعد أن لبث حاجب الحجاب زمنا . وفى سنة ٨٤٣ هـ نقل « أقبغا » التمرازى الاتابكى فى عهد « جقمق » إلى نيابة الشام ، ووقع اختياره هذا السلطان على الأمير « يشبك السودونى » ، فرقاه إلى الاتابكية عوضا عن « أقبغا » التمرازى . وكان « يشبك » قبيل العام المذكور قد عاون السلطان جقمق ضد الاتابكى « قرقاس » الشعبانى النائر فى وجهه . وما زال « يشبك » اتابكيا حتى توفى فى عهد جقمق أيضا عام ٨٤٩ هـ . فتولى الاتابكية بعده إينال العلائى . الذى ملك البلاد بعد ذلك عام ٨٥٧ هـ . وتلقب بالملك الأشرف . وذلك بعد خلع المنصور بن جقمق .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٤٥ ، ج ٢ ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ - الضوء ج ١٠
رقم ١٠٨٩ » .

٢٩ - تانى بك البردبكي الظاهرى ٨٦٢ هـ

أصله من ممالك الظاهر برقوق . وكان من الخاصكية فى عهد المؤيد شيخ ، وظل
يرقى حتى بلغ الأتابكية فى عهد إينال . وكان إينال العلأى ، الأتابكى ، لما
بلغ مرتبة السلطنة عام ٨٥٧ هـ ، أقام فى الأتابكية بدلا من نفسه ابنه المقر الشهابى
أحمد - وهو الذى صار سلطانا بعد أبيه - فتذمر الأمراء من ذلك . فأسرع السلطان
إينال يخلع ابنه من الأتابكية ومنحها للأمير « تانى بك البردبكي » . الظاهرى .
فلبث فى الأتابكية خلال سلطنة إينال . ولما تولى السلطنة ابنه الشهابى أحمد عام
٨٦٥ هـ ، أقام فى الأتابكية الأمير خشقدم . وهو الذى صار سلطانا على مصر ،
على إثر انكسار الملك المؤيد أحمد أمام الثوار من الممالك فى نفس العام المذكور .
فلما بلغ خشقدم منصب السلطنة منح الأتابكية المقر السيفى جرباش المحمدى
المعروف بكركت .

هذا وكان « تانى بك » أو « تنبك » رجلا وقورا متدينا لينا . ومات فى عام ٨٦٢ هـ
مقاربا التسعين .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٠ - الضوء ج ٣ رقم ١٧٣ فى « تنبك » ،

٣٠ - جرباش الجركسى المحمدى المعروف بكركت ٨٧٧ هـ

تنقل هذا الأمير فى ثلاثة أنواع من الإمارة : اثنين فى عهد سلطان واحد وهو
السلطان « إينال » العلأى . وهذه الإمارات هى إمارة الآخورية الكبرى ، رقى إليها
فى أول عهد إينال عام ٨٥٧ هـ . وفى أواخر عام ٨٦١ هـ رقى إلى أمير مجلس . ثم
ارتقى فى عهد الملك المؤيد أحمد بن إينال إلى أمير سلاح ، عوضا عن الأمير

« خشقدم ، الذى ارتقى إلى الأتابكية . وذلك عام ٨٦٥ هـ . ولما آلت السلطنة إلى الأتابكى خشقدم ، خلع على الأمير « جرباش المحمدى » ، ورقاه إلى الأتابكية عوضا عنه ، عام ٨٦٥ هـ أيضا . غير أنه لسوء حظه انساق فى أوائل عام ٨٦٦ هـ (١) إلى الاندماج فى الثورة التى شنها المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف برسبای ، ضد السلطان خشقدم فإن هذا السلطان قبض فى مستهل العام المذكور ، على كثير من أمراء هؤلاء المماليك . فثاروا فى وجهه وبحشوا عن متزعم يرأس حركتهم ، فوقع اختيارهم على الأتابكى « جرباش المحمدى » فقصدوا إليه ، وكان قد اختفى عن عيونهم فى تربة الظاهر برقوق ، فما إن النقبوا به حتى سلوا سيوفهم وأرغموه على الركوب معهم ، ونشروا فوق رأسه أعلاما سلطانية ودخلوا به مدينة القاهرة من باب النصر . وكانوا يرمون إلى سلطنته وخلع الملك خشقدم ، ولذلك لقبوه بالملك الناصر . فما كان من مماليك خشقدم إلا أن أوقعوا بهم . ثم تطف خشقدم واستقدم إليه الأتابكى « جرباش » بوساطة الأمير « جانى بك » المعروف بنائب جدة ، وهو الذى تحيل عليه حتى أصعده إلى السلطان بالقلعة . ثم أوقعوا بالمماليك الأشرفية حتى شتوا شملهم وقبضوا على بعض متزعميهم . أما هذا الأتابكى فقد كانت الحادثة آخر عهده بالأتابكية إذ خلع منها . ثم قبض عليه وسجن بدمياط . فلبث بها زمنا حتى آلت السلطنة إلى الأشرف قايتباى فسعى بعض الأمراء لديه للإفراج عن هذا الأتابكى ، فأفرج عنه فى رمضان عام ٨٧٦ هـ (٢) وسمح له بالإقامة فى القاهرة عاطلا ، فبلغ القاهرة فى أخريات العام المذكور . فما إن حضر حتى صعد إلى السلطان للتشرف

(١) روى فى الضوء اللامع ج ٣ رقم ١٥٢ فى ترجمة « تراز » الشمس أن هذه الثورة كانت عام ٨٦٩ هـ .

(٢) هذه رواية ابن إياس . ويفهم من السخارى أن السلطان « خشقدم » هو الذى صفا عنه واستقدمه إلى القاهرة .

بمقابلته فلقبه لقاء حسنا وأكرمه . ثم عاش بعد ذلك زمنا متبطلا بالقاهرة ، حتى وافته منيته في رمضان ٨٧٧ هـ مناهزا سن التسعين . وأصله من ممالك الناصر فرج بن برقوق . وقد تزوج بخوند شقراء بنت هذا السلطان وقد ولدت له ابنة الناصري محمدا ، وقد توفي هذا الولد وأمه بعد قليل . وقد اشتهر بسكرت لكونه كثير الشعر . وولى الأتابكية بعده الأمير قائم التاجر .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٠ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٧٧٣ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ - الضوء ج ٣ رقم ٢٧٠ . »

٣١ - قائم التاجر المؤيدى ٨٧١ هـ

وهو ابن صفر خجا الجركسى المعروف بالتاجر . اشتراه المؤيد شيخ . ثم أعتقه وجعله من الممالك السلطانية ثم من الخاصكية ، وظل يترقى ، حتى كان أمير مجلس فى أول عهد السلطان الظاهر خشقدم . ولما انساق الأتابكى جرباش المحمدى فى ثورة الممالك الأشرفية ضد السلطان خشقدم ، كما تقدم فى ترجمته عام ٨٦٥ هـ ، ظهر نجم الأمير « قائم » ، وولى الأتابكية بعده . ثم ساد علاقته بالسلطان بعض الجفاء ، ولكن ذلك لم يدم . لأنه فى عام ٨٧٠ هـ ، أقام حفلا عظيما للسلطان خشقدم ، شهد به جمع من الأمراء والممالك الجند ، وقام فيه اللاعبون بألعابهم ، حتى عم السرور جميع المشاهدين . وما زال الأتابكى « قائم » فى منصبه ، حتى وافته المنية فى أوائل سنة ٨٧١ هـ ، إذ مات فجأة .

وقيل إنه مات مسموما . وكان كثير المال ساعيا فى الخير معينا على قضاء الحوائج ، وقد ولى الأتابكية من بعده على التوالى « بلباى » المؤيدى ، ثم تمر بغا الرومى ، ثم قايتباى المحمدى . وقد صار كل منهم سلطانا على التعاقب . فلها ولى قايتباى السلطنة ، اختار لنيايته الأمير جاني بك قلعسير .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ - الضوء ج ٦ رقم ٦٩٥ ،

٣٢ - جاني بك قلقسير الأشرفي ٨٨٣ هـ

أصله من ممالك الأشرف برسبای . وأخذ في الترقى حتى صار حاجب الحجاب في عهد خشقدم وأرسله هو وخمسة أمراء في تجريدة إلى البحيرة . ثم هو وأزبك ابن ططخ إلى العقبة لتأديب عربانها أوائل سنة ٨٧٢ هـ . وقد وصل إلى مرتبة الأتابكية ، في أول عهد السلطان الأشرف قايتباي المحمودي عام ٨٧٢ هـ . فلما خلعه السلطان عليه ، نزل من القلعة إلى منزله في موكب حافل . ولما أخذ السلطان « قايتباي » في إعداد حملة عسكرية ، يؤدب بها الشاه « سوار » بن دلغادر ملك الأبلستين ، الثائر في وجهه ، والزاحف على بلاد السلطان ، كان الأتابكي « جاني بك قلقسير » في مقدمة أمراء هذه الحملة ، وبلغت نفقته وحدة أربعة آلاف دينار . وخرجت هذه الحملة في يوم الاثنين ١٢ شعبان سنة ٨٧٢ هـ . ثم جاءت أخبارها في شهر ذي القعدة من هذه السنة ، بأن عسكرها كسر كسرة شنيعة ، وأسر الأتابكي « جاني بك قلقسير » ، وقتل جماعة من الأمراء والجند كثيرة . وعادت البقية الباقية منها في حالة يرثى لها . وكانت هذه الكسرة في يوم الاثنين ٧ من ذي القعدة . ثم إن « سوارا » سجن الأتابكي « جاني بك قلقسير » في جب ، فلبث فيه أياما ثم أطلق سراحه . ولكن هذا الأسر كان سببا في زوال منصب الأتابكية منه ، إذ وهبه السلطان للأمير « أزبك بن ططخ » . فكان الأتابكي « جاني بك قلقسير » لم يمكنه في منصبه هذا سوى شهرين تقريبا .

ولما أطلق سراحه رحل إلى حلب مكرما . وكان إطلاق سراحه ضربا من السياسة ، اتبعه « سوار » وأراد من ذلك ، أن يكون سفيرا بينه وبين السلطان .

للصلح ، فلبث « جاني بك » زمنا في حلب ، إلى أن تهيأ للرحيل إلى مصر . ويظهر أن السلطان كان قد شك في نواياه . ولذلك أرسل إليه يستبقيه في حلب . غير أن أمر الاستبقاء لم يصل إلى حلب ، إلا بعد أن فارقها « جاني بك » في طريقه إلى مصر . وحضر في جمادى الأولى من سنة ٨٧٤ هـ . فصعد إلى القلعة ، وتشرف بلقاء السلطان الأشرف ، فقام له واعتنقه وأكرمه ، وخلع عليه وأهدى إليه . ثم بعد أيام منحه لقب أمير سلاح ! لأنه كان اللقب الشاغر في ذلك الحين . ولكنه أقل من مرتبته التي يستحقها . ومع ذلك فقد بقيت له حرمة . فناب عن الأتابكي « أزبك بن ططخ » في فتح السد في العام المذكور ، لغيابه عن القاهرة في ذلك الحين . وتدخل - عام ٨٧٧ هـ وفي شهر المحرم منه - بين الأتابكي « أزبك » والأمير « تغرى بردى ططر » بسبب نزاع شب بينهما . ولبت بمصر مرعى الجانب موفور الكرامة ، حتى رأى السلطان الأشرف قايتباي أن يجرد حملة تأديبية إلى « حسن الطويل » ملك العراقيين ، بسبب إغاراته على بلاد السلطان . فجهز هذه الحملة في جمادى الآخرة عام ٨٧٧ هـ . وكان الأمير « جاني بك قلقسير » على رأس الأمراء بها . فسارت إلى حلب مسرعة . ثم ألحقها بحملة أخرى . وفي خلال إقامة « جاني بك » بالشام أرسل السلطان إليه خلعة ، وأمره بأن يبقى نائباً في الشام عوضاً عن نائبها المتوفى ، وهو برقوق الناصري الظاهري . وذلك في شوال من العام المذكور . فظل « جاني بك » في هذه النيابة زمناً طويلاً ، وتولاها بجدارة وكفاءة . وفي ربيع الأول من سنة ٨٨١ هـ أرسل هدية إلى السلطان الأشرف . كان في جملتها عشرة آلاف دينار من الذهب وأنواع شتى من المنسوجات الثمينة . وما زال « جاني بك قلقسير » في هذه النيابة ، حتى وافته منيته في شهر ذى الحجة عام ٨٨٣ هـ . بعد أن تولى مناصب عليا شتى . وكان معروفا بالشجاعة والفروسية ، والكفاية التامة لما يعهد إليه من الأعمال .

٩٨، ١٠٠، ١١٥، ١١٦، ١٢٢، ١٣٥، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٦٦، ١٨٥ -
الضوء ج ٣ رقم ٢١٩ .

٣٣ - أزبك بن ططخ ، ٩٠٤ هـ

أحد أجلاء الأمراء ، وذوى الأثر والاسم الباقى منهم . وكان ميدان ظهوره عصر السلطان الأشرف قايتباى . ولبت فى الأتابكية بمصر ثلاثين عاما . قام بمهامها بمهارة وقدرة . وهو منشىء الأتربةكية ، وتلخص سيرته فيما يلى :

يقال إن أصله من الممالك الكتائبية ، الذين اشتراهم السلطان الأشرف « برسباى » ، وقد جلبه إليه الخواجا « ططخ » من بلاد جر كس وكان مرافقا ، فاشتراه « برسباى » عام ٨٤١ هـ . قيل : ثم تحول ملكه إلى بيت المال . فاشتراه منه الملك الظاهر « جقمق » وأعتقه ثم رقاها ساقيا فأمر عشرة فى عام ٨٥٢ هـ بدلا من تمر از البكتمرى المصارع ، ثم جعله من رموس النوب . وزوجه ابنته من مطلقته « خوند مغلى » ابنة ناصر الدين بن البارزى . - وتزوج أختها عام ٨٧٠ هـ ، بعد وفاة زوجها . وفى أوائل عهد الأشرف إينال كان خازندارا كبيرا ثم إنه كان فى عداد الأمراء الذين سخط عليهم هـ - هذا السلطان ، لأنه انتزع السلطنة من الملك عثمان بن جقمق . وكان الأمير « أزبك » منحازا - ولا شك - إليه مع المنحازين . لذلك لما تم أمر « إينال » العلائى فى السلطنة قبض على عدد من الأمراء كان من بينهم الأمير « أزبك بن ططخ » وذلك عام ٨٥٧ هـ . وسجن الجميع مقيدى بسجن الإسكندرية ثم نقل إلى صفد ، ثم أطلق سراحه بعد حين عام ٨٥٨ هـ . وأرسل إلى القدس عاطلا . ثم عاد بواسطة زوجته والجمالى ناظر الخاص عام ٨٦١ هـ وتقلبت به الأحوال حتى صار رأس نوبة النوب فى عهد الظاهر « خشقدم » . ثم غضب عليه « خشقدم » فنفى مع تمر بعا الظاهرى - الذى ملك بعد - بسجن الإسكندرية حتى شفع فيهم الأتابكى قانم التاجر فأفرج عنهم بعد ٣ أيام ثم اختير فى عام ٨٧٢ هـ ، لى يخرج إلى العقبة هو

والأمير جاني بك قلقسیر بسبب فساد عربانها ، فقام بهذه المهمة . ثم عاد بعد وفاة الملك « خشقدم » ، وقيام سلطنة الظاهر « بلباى » . فكان فى صحبته نحو ستين من العربان أسرى فى الأغلال فأمر بلباى بقتلهم فقتلوا . واتضح أن « أزبك » قد بلغ فى رحلته هذه إلى الأزم .

وما حان عصر الأشرف « قايتباى » حتى أخذ نجم الأمير « أزبك بن ططخ » فى الصعود . فعين نائباً على الشام - وقيل عين على الشام قبل ذلك - . وفى ذلك الحين - أعنى فى عام ٨٧٢ هـ - قامت فتنة الشاه « سوار » ملك الأبلستين ضد السلطان فجردله حملة عسكرية قادها أتابكيه « جاني بك قلقسیر » ، وكان نصيبها الفشل وأسر قائدها . فخلا بذلك منصب الأتابكية بمصر ، فمحنه السلطان قايتباى للأمير « أزبك ابن ططخ » واستقدمه من الشام على وجه السرعة ليتولاه .

وبما يذكر هنا أن « أزبك » كان قد اشترك فى الحملة ضد « سوار » وانهمز مع المنهمز مين ، وعاد إلى حلب جريحاً لا مال معه ولا سلاح ولا جند . فلما أسند إليه السلطان منصب الأتابكية ووافته الرسل بذلك فى المحرم عام ٨٧٣ هـ ، زم رحله ويم شطر مصر ، فبلغها فى صفر من هذا العام . فظل فى هذا المنصب نحو ثلاثين سنة من عام ٨٧٣ هـ إلى عام ٩٠٤ هـ ، وهو مثال العمل الدائب والاجهد المستمر . ما عدا نحو عامين قضاهما فى مكة .

خرج فى سنة ٨٧٣ هـ إلى البحيرة ، ليطفىء فتنة عربانها ، فأقام بها ردحاً من الزمن ثم عاد فى رجب . وفى خلال غيبته - وكان السلطان قد أرسل حملة أولى لتأديب « سوار » - هم بتجهيز الحملة الثانية ، فاختر أتابكيه « أزبك » ليكون قائدها . فلما عاد « أزبك » ، أظهر إباءه عن قيادتها . بسبب قلة ما أعطى من المال خاصاً به ، وبسبب نفوره من ممالك السلطان . فما زال « قايتباى » يتلطف به حتى أجابه إلى

السفر ، وقبل ما أعطى من المال . فخرج بجنده فى شعبان من العام نفسه ، وودعه السلطان قبيل رحيله . وقد ذكرنا أن « أزبك » كان قد تزوج بأخت الملك المنصور « عثمان » وهى بنت الظاهر « جقمق » . لذلك كانت له مكانة ممتازة بين الأمراء .

أما الحملة التأديبية التى قادها ضد « سوار » فقد كان نصيبها الفشل والانكسار ، فأقام بعدها بحلب مدة ، ثم عاد بمن بقي من الأمراء والعسكر ، وفى صحبته شاه « بضاع » أخو سوار ، الذى انتزع منه سوار بلاده . فلاقاه السلطان لقاء حسنا . وكانت عودة « أزبك » فى رمضان عام ٨٧٤ هـ . وفى أخريات عام ٨٧٦ هـ ، دعاه السلطان مع عدد من الأمراء على رأس تجريدة ، لتأديب عرب الشرقية ، من بنى حرام وبنى وائل ، الذين زاد عبثهم ، وفجروا فى اعتدائهم على الناس ، حتى وصلوا إلى أحياء من القاهرة نفسها ، ونهبوا كثيرا من المتاجر والأقمشة . فرحل إليهم « أزبك » ومن معه من الأمراء . ثم إنه عاد إلى القاهرة بعد عدة أيام ، ومعه بعض الأسرى فسيجنوا بسجن المقشرة . أما الأمراء الآخرون فقد بقوا زمنا آخر فى الشرقية ، للقضاء على فتنة هؤلاء العربان . وقد عاود الاتابكي « أزبك » الذهاب إلى الشرقية ، ثم عاد ومعه عدد آخر من الأسرى مصنفين فى الأغلال . وذلك فى صفر سنة ٨٧٧ هـ .

وظل الاتابكي « أزبك » يقوم بمهام كثيرة مما تحتاج إليه الدولة سياسة أو إدارة أو بناء أو غير ذلك . فكان هو المقدم عند كسر السد نيابة عن السلطان . وكان يصحبه كثيرا فى حفلاته الرياضية وغير الرياضية . ويعمل على الصلح بينه وبين ممالك السلطنة ، إن بدا منهم له عصيان . أو بين بعض الأمراء والبعض الآخر أو يتوسط لدى السلطان شفيعا لبعض المذنبين . أو يقوم بتهدئة فتنة يثيرها بعض الأمراء أو الجند . أو يستشير السلطان فى الأمور الهامة . وهكذا . وفى هذا كله دليل على ما كان له من علو الجاه ، نافذ الكلمة ومسموع الرأى .

وفى شهر رجب من عام ٨٨٠ هـ ، رحل السلطان الأشرف قايتباى إلى القدس فصحبه الأتابكى « أذربك » ، فدبرا هناك ما اقتضى التدبير ، وعادا فى شعبان هما ومن معه معهما . وفى ذى القعدة من نفس العام ، رحل رحلة أخرى بصحبة السلطان أيضاً لزيارة الفيوم ، فزارا هناك طاحونا تدور بالماء أنشأها خاير بك بن حديد أحد أمراء العصر .

إنشاء الأذربكية

وفى العام المذكور « ٨٨٠ هـ » بدأ الأتابكى « أذربك » إنشاء الأذربكية ، وقد أورد ابن إياس وصفا شائقا لها ، نجمله فيما يأتى . قال : كانت أرض الأذربكية خربة ممثلة بكثب من الرماد ، يثبت بها بعض أشجار السنط والائل ، وبها أضرحة بعض الأولياء . وتناولها بعض المصلحين بضروب من الإصلاح ، فأجرى إليها الماء ، بوساطة خليجان تمتح من النيل ، وأنشأ بها المناظر والبساتين ، وما شابه ذلك . ثم عفى الزمان أثرها وعادت إلى خرابها ، وتناقص عمرانها . وما زال هذا أمرها ، حتى سكن الأتابكى « أذربك » على مقربة منها . ولم تكن أرضها ملسا له ، وإنما كانت من أملاك الدولة ، ما يخرج منها من ثمار يعود على الناس . وسكن الأتابكى « أذربك » ، رأى أن يجرى إليها أسباب الحياة ، ويمد لها ضروب العمران ، فاستخار الله وأنفق عليها نحو من مائتى ألف دينار . فهد أرضها بوساطة المحارث ، وأنشأ مناخا لجماله ، ثم حفر بركة وجمال شواطئها ، وأجرى إليها الماء بوساطة خليجان ، وبني فوقها القناطر ، ونشر حولها المقاعد ، وأحاطها بالبساتين . وشاد العائز والربوع والحمامات والقاعات والطواحين والأفران ، وضروبا كثيرة من مرافق الحياة . حتى غدت الأذربكية أحد منازل القاهرة . وتكسر سدود خليجائها كل عام فى حفل ، يحضره الأمراء والأعيان ، ويجتمع فيه الناس للمشاهدة واللهو والسمر . وما أنشأه

فيها مسجد كبير . وقد وهب السلطان أرض هذه الأذربكية ، للأتابكي « أذربك » بعد تمام هذه الجهود في إنشائها .

وقال السخاوى فى الضوء : إنه ابنتى بها جامعا عظيما ، قرر به صوفية ومدرسين وقرّاء ، وزوده بخزانة كتب .

وفى أخريات عام ٨٨٣ هـ ، عهد إليه السلطان ببناء قناطر فى ناحية الجيزة . وقد تم بناءها فى شعبان عام ٨٨٥ هـ فتمحه السلطان هدايا قيمة . وفى جمادى الاولى من عام ٨٨٤ هـ سافر فى صحبة السلطان الأشرف إلى الإسكندرية لتفقد شئونها . وكان سفرهما بطريق النيل ومعهما عدة من الأمراء والجند . وشاهدوا البرج الذى أنشأه السلطان بها ، وعاد الجميع فى أخريات الشهر المذكور . ولما سافر السلطان الأشرف إلى الحج عام ٨٨٤ هـ . كان الأتابكى « أذربك » هو صاحب الحل والعقد بالديار المصرية مدة غيبته ويعاونه الامير « يشبك » الدوادار . ولما عاد السلطان من حجه فرّق أنواعاً من الهدايا على الأمراء ، وابتدأ فى ذلك بالأتابكى « أذربك » ،

وفى عام ٨٨٥ هـ قتل الامير « يشبك » الدوادار فى معركة حامية وقعت بينه وبين « بابندر » أحد نواب يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقيين . وكان يشبك قد خرج فى جند كشاف من مصر بأمر السلطان ، فى طلب الثائرين على مملكتاه ، ولا سيما « سيف » أمير آل فضل الذى قتل نائب حماة . فكان حينه فى ذلك الخروج . وبانهزامه انتشرت الفوضى فى البلاد الشامية والحلبية ، حتى خاف السلطان عاقبتها . فأرسل إليها نوا ، الأتابكى « أذربك » لإعادة الأمن إليها ، فى عدد كشاف من الأمراء والجند . وفوض إليه أمر البلاد الشامية والحلبية ، وكل إليه حق العزل والولاية فى كل مناصبا كما يشاء . فبلغ « أذربك » فى ذلك الوقت ماشاء ، من عظمة وعلو جاه . ولما وصل إلى حلب ، وجد أن الفتنة قد ركبت . فأرسل رسولا إلى « يعقوب » بن حسن الطويل ملك العراقيين ، تلمظ معه ليطلق من عنده من أسرى المصريين ، فأطلقهم

فأطلقهم ، وعادوا مع رسوله إلى حلب . فكان ذلك نصرا مبينا للاتابكي « أذربك » . وظل هنال ، يدبر أمر الملك ويثبت قاعدته . ثم عزم على العودة إلى مصر ، فبلغها في شوال سنة ٨٨٦ هـ ، ودخل القاهرة في موكب حافل .

وفي شوال عام ٨٩٠ هـ خرج الاتابكي ، أذربك ، على رأس حملة عسكرية كبرى لتأديب جنود ملك الترك العثمانيين ، العاشين بأطراف بلاد السلطان . ولتأديب « على دولات » الثائر ضد السلطان أيضا فأوقع « أذربك » بأعداء السلطان ، وعاد ومعه منهم جم غفير ، مصنفين في الأغلال . ولولا عصيان جنده له مرات عدة بسبب الإنفاق عليهم ، لكان له شأن أعظم مما وقع . وكانت عودته حافلة في ذى القعدة عام ٨٩١ هـ فوهب له السلطان خلعا سنية .

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٩٢ هـ ، تم عقد زواج الأمير « قانصوه خمسمائة » - وهو الذي كاد يكون سلطانا على مصر عام ٩٠٢ هـ - على ابنه الاتابكي « أذربك » ، من ابنة الظاهر جقمق ، وذلك بجامع القلعة وبحضور القضاة الأربعة وأعيان الناس وقد أهدى السلطان إليهم . وفي شهر رجب التالى تحت ليلة زفافهما في الأذربكية . وكان « لقانصوه » ركب حافل ، تقدمته الأمراء بالملابس الفاخرة ، والخاصكية بالشموع . وحمل الأثاث من الأذربكية إلى قناطر السباع حيث بيت « قانصوه » نحو أربعائة حمال . ويقال إن ثمنه نحو مائتى ألف دينار . - وهذا كله دليل على ما بلغه الاتابكي « أذربك » ، من علوجاه واتساع ثروة . - هذا وقد توفيت هذه العروس في جمادى الآخرة عام ٨٩٧ هـ وبعدها بأيام توفيت أختها بكرا . -

وفي هذه الأثناء ازداد عبث الأتراك العثمانيين بأطراف الدولة ، فجرد عليهم الأشرف قايتباى حملة عسكرية كبرى ، فاقت الحملة الأولى ، بل فاقت ما سبقها من الحملات . وكان على رأسها الاتابكي « أذربك » ، ومعه طائفة كبيرة من عظماء الأمراء من بينهم صهره « قانصوه خمسمائة » . وأنفقت عليها نفقات طائلة . وخرجت هذه

الحملة من القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٨٩٣ هـ . وقد أبلت بلاء حسنا في مكافحة
العثمانيين ، وغنمت منهم الغنائم وأسرت الأسرى ، وساقتهم إلى مصر . وقد عاد
الأتابكي « أزبك » من حربه تلك ، في صفر سنة ٨٩٤ هـ . فكان لعودته وقع عظيم
في نفوس الناس . وقد خرج إلى حلب مرة أخرى لمثل الغرض السابق ، فكان
خروجه بحملته الجديدة في ١٥ ربيع الثاني عام ٨٩٥ هـ . وأبلوا بعض البلاء في محاربة
العثمانيين ، ثم دبت فيهم الفتن فعادوا إلى القاهرة . وكان رجوع الأتابكي « أزبك »
من حربه تلك في مستهل المحرم سنة ٨٩٦ هـ . وهذه آخر تجاريدته إلى البلاد الحلبية .
وقد تفرغ الأتابكي « أزبك » بعد ذلك لأعمال البناء والتعمير سواء ما اتجهت
إليه رغبة السلطان ، أو ما اتجهت إليه رغبته . من ذلك ما أمر به في جمادى الآخرة
سنة ٨٩٩ هـ ، من تجديد عمارة المدرسة المنصورية التي بدهلين البيمارستان ، وضرب
على الفسقية التي بها قبة ، وجددها منبرا ، وأقام خطبة . وهذه أعمال حاولها من
من قبله الأتابكي « إيتشمش » البجاسي في دولة الناصر فرج ، فتعذرت عليه بسبب
فتوى بعض العلماء ، بدعوى مخالفتها لشروط الواقف . ولكن « أزبك » تغلب على
مثل هذه الفتاوى . وما يذكر هنا أن الأتابكي « تمرز » قد أبطال الخطبة منها بعد
خلع « أزبك » من الأتابكية . فلما قتل « تمرز » وأعيد « أزبك » إلى الأتابكية
أعاد الخطبة إليها مرة ثانية ، فاستمرت بها زمنا طويلا .

وما يذكر أنه منذ توليه منصب الأتابكية ، كان المقدم في فتح السد كل عام .
ولم يفتحه سواه إلا إذا كان غائبا في تجريدة خارج مصر . ثم أنه فتح السد في ذي
القعدة سنة ٩٠٠ هـ ، وكانت هذه آخر مرة له في فتحه .

وفي يوم الخميس مستهل ذي الحجة من عام ٩٠٠ هـ ، بدأت حادثة فتنة تزعمها
« قانصوه خمسمائة » ، وانحاز إليه الأتابكي « أزبك » ، لأنه صهره . وسببها أن بعض
المماليك نهب دار الأمير « قانصوه خمسمائة » في أثناء تغيبه ليلة عيد الفطر بإقطاعه .

ففهم أن الذي ساقهم عليه هو الأمير « أقبردى » الدوادر ، لعداوة قديمة بينهما . فجمع حوله عددا ضخما من الأمراء والجنود ، ولبسوا آلة الحرب ، واجتمعوا بالأزبكية عند الأتابكي « أزبك » ، فما كان من السلطان الأشرف إلا أن نادى الجنود إلى الاستعداد للقتال ، ففت في ساعد أنصار « قانصوه » و « أزبك » ، وشرقوا واختفى منهم من اختفى . ففر « قانصوه » واختفى . وكان ذلك انتصاراً كبيراً لعدوه « أقبردى » الدوادر وعصابته أما « أزبك » فقد استقدمه السلطان إليه بالقلعة ، وأمره بالإقامة بها في قاعة البحرة ، خوفاً عليه من المماليك الجلبان أن يقتلوه . فلبث أسبوعاً . ثم خرج مع السلطان في صلاة الجمعة فتحفز له كثير من المماليك وهموا بالبطش به . ولكن السلطان حماه . فرأى « أزبك » أنه لم تعد تطيب له الإقامة بمصر ، وسط هذه العاصفة الهوجاء ، التي هبت ضده على حين غفلة . واستأذن السلطان في أن يقيم بمكة المكرمة ، فأذن له . فزایل القاهرة في ركب غير حافل في ٨ ذى الحجة من العام المذكور . وانتهت بذلك أتابكيتته الأولى ، بعد أن مضى فيها نحواً من سبع عشرة سنة . بلغ فيها من العز والجاه ، ما ترنو إليه عيون الكثيرين من العظماء ولم يبلغوه . ثم زایل كل شيء مزائلة فجائية لأسباب تافهة .

تقلبت الأحوال ، بعد أن غادر الأتابكي « أزبك » مسرح السياسة المصرية وترك الأتابكية . فتوفي الأشرف قايتباى وملك ابنه الناصر محمد . وبلغ « قانصوه » خمسمائة ، منصب الأتابكية ، ثم زایلها فعادت إلى « تمرز » . واشتدت الفتنة بين « قانصوه » و « أقبردى » وأعلن « قانصوه » بنفسه ملكاً على مصر . ثم فشل في حركته وأدت ثورته هذه إلى اختفائه . ثم ظل « تمرز » في الأتابكية حتى قتله بعض المماليك في أخريات سنة ٩٠٢ هـ . وفي عام ٩٠٣ هـ ، شعر جميع الأمراء بحاجتهم إلى أتابكى قدير ، واتفق رأيهم على استدعاء الأتابكى « أزبك » من مكة ، ليلى منصب الأتابكية بمصر للمرة الثانية . فكتب السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، مرسوماً بذلك

في أوائل العام المذكور . فعاد « أزيك » إلى القاهرة في يوم الخميس ٢٢ ربيع الأول من نفس العام ، فمنحه السلطان الناصر منصب الأتابكية ثانية . وكانت مدة غيابه بمكة نحو سنتين وثلاثة أشهر . غير أنه في هذه المرة ، لم يعد له من الجاه أو الكلمة المسموعة أو الشفاعة المقبولة ، ما كان له في المرة الأولى . ومع ذلك كان له أثر لا بأس به في تهدئة الفتن وفض المؤمرات ، التي كان يقوم بها المماليك ضد السلطان الناصر محمد بن قايقباي .

ولما قتل هذا السلطان في ١٥ ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ ، اضطرب الأمر على الأمراء وثاروا فيمن يولونه السلطنة ، واتجهت رغبة بعضهم إلى سلطنة الأتابكي « أزيك » ، وفاوضوه فعلا في ذلك . فأبى إباء شديدا ، وأقسم ألا يكون سلطانا . وإلا يذهب إلى مكة ويجاور فيها كما كان . - ولعله خاف عاقبة السلطنة ، إذ رأى حولها كثيرا من الذئاب الراغبة فيها ، والطامعة في نواها . فربأ بنفسه عن مهاويها ومؤامراتها . فآلت السلطنة إلى الأمير « قانصوه بن قانصوه » خال الناصر ، وظل « أزيك » مستمرا في أتابكيته ، إلى أن توفي عهد السلطان قانصوه المذكور . وكانت وفاته في يوم الأربعاء ٢٠ رمضان سنة ٩٠٤ هـ .

وبذلك انتهت حياة أحد أبطال هذا العصر . ويقال إنه كان إلى جانب نفوذه وجاهه ، يشوبه كبر وبطش . ومع ذلك فهو يعتبر أحد المصلحين المنشئين . والغازين الناشئين لواء مصر في الربوع الأخرى . وقيل إنه ترك من ورائه مالا طائلا . وقد دفن بترية أستاذه الملك الظاهر جقمق ، وله ابن يدعى شرف الدين يحيى أقام في حماة زمنا طويلا ثم عاد لمصر . وتولى الأتابكية من بعده الأمير جان بلاط وهو الذي بلغ رتبة السلطنة فيما بعد . - وفي الفترة التي هاجر فيها « أزيك » إلى مكة أسندت لatabكية إلى « تراز » ثم « قانصوه خمسمائة » .

١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١٦، ١١٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٤، ١٣٥،
 ١٣٦، ١٣٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٧٥،
 ١٧٦، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٣،
 ٢٠٤، ٢١١، ٢١٩، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥،
 ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٧٧،
 ٢٨٢، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠٧، ٣٢٢، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٣، ٣٤٧،
 ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٥ - جز ٣٠ ص ٧٧ - الضوء اللامع ج ٢ رقم ٨٤٤ .

٣٤ - الأمير « تراز الشمسى » ٩٠٢ هـ

قدم إلى مصر مع جالبه عام ٨٣٦ هـ ثم صار من ممالك الأشرف برسباى . لذا
 يقال له الأشرفى نسبة إليه ، ويقال له أيضا العزيزى نسبة للعزيز بن الأشرف برسباى
 فهو معتقه . ثم أعانه على حياته الحرة . وعين جمدارا . وفى عهد الأشرف إينال صار
 خاصكيا فساقيا ثم أمير عشرة . وفى عهد الظاهر خشدقم انضم مع الآتابكى « جرباش
 كرت » المحمدى ضد سلطانه . وذلك عام ٨٦٩ هـ . فاستحق النفى إلى دمياط . وفى
 عهد الظاهر تبرعا عاد إلى القاهرة سنة ٨٧٢ هـ . وفى عهد الأشرف قايتباى علا نجمه
 واتصل بالسلطان ، إذ اتضح أنه أحد أقاربه . قيل أنه ابن أخته . - لهذا رقاہ إلى مقدم
 ألف . وسافر مع الحملة ضد « سوار » ثم صار رأس نوبة كبير . ثم أمير سلاح . وولى
 أمر البحيرة فجمدت سيرته . ورأس حملة ضد « على دولات » فأبلى بلاء حسنا . ولما
 انحاز الآتابكى « أزبك » إلى زوج ابنته الأمير « قانصوه خمسائة » ، فى فتنه ضد
 السلطان الأشرف والأمير « أقبررى » انحاز « تراز » إلى السلطان . وكان من
 نتيجة ذلك ما ذكرنا من نفي الآتابكى « أزبك » إلى مكة . فخلا منصب الآتابكية
 فوهبه السلطان للأمير « تراز » . وكان ذلك فى الاثنين مستهل صفر عام ٩٠١ هـ .

وبعد ذلك بأيام عينه السلطان أيضا ناظرا على البيمارستان المنصوري .
وفي شهر ذي القعدة عام ٩٠١ هـ . أيضا ، اعترى المرض السلطان الأشرف .
فانتهز الفرصة الاتابكي « تمتاز » ، وخاطبه في أن يخلع نفسه من الملك ليتولاه ابنه
محمد ، فلم يطاوعه السلطان ولم يرد عليه جوابا . فاستصحب معه ابن السلطان وهم
بتوليته . وأشيع حينذاك أن الاتابكي « تمتاز » يرشح نفسه للسلطنة . فغضب جماعة
من الأمراء من بينهم « قانصوة خمسمائة » و « كرتباى الأشهر » . وحمل غضبهم
ودفعهم إلى قتاله . ثم قبضوا عليه ، وقيّدوه بقسوة ، وبعثوا به إلى سجن
الإسكندرية .

توفي الملك الأشرف قايتباى ، عقب ذلك بأيام قليلة ، وتولى أريكة الملك ابنه
الناصر محمد ففتح الاتابكية « لقانصود خمسمائة » . وهو الذى دبر ثورة ضد الأشرف
قايتباى من قبل . فما لبث هذه المرة حتى دبر مؤامرة وثورة جديدين ، ضد سلطان
الناصر محمد بن قايتباى ، وأعلن بنفسه سلطانا على البلاد . ولما كان هذه الحركة كانت
عاقبتها الفشل التام ، فاختفى « قانصود خمسمائة » ، وخلا منه منصب الاتابكية ،
وذلك فى جمادى الأولى عام ٩٠٢ هـ ، فرأى السلطان الناصر بن قايتباى ، أن يفرج
عن الاتابكي « تمتاز » ، ويعيده إلى منصبه . فأصدر مرسومه إليه بذلك فى مستهل
جمادى الآخرة من العام المذكور . ومن الغريب أن « قانصود » لما اختفى قيل إن
الأمير « قانصود » الشامى ، وهو من عصمته ، توجه مع آخرين إلى الإسكندرية ليقتل
« تمتاز » فى سجنه ، مستعينا فى ذلك بنائب الإسكندرية ، لأنه أخو « قانصود
خمسمائة » . ولما كان خاب مسعاه ، إذ فجأه فى الطريق هو ومن معه جماعة من العربان
أثخنوا فيهم ، وقبضوا على « قانصود » الشامى . وأودعوه بسجن الإسكندرية حيث
كان « تمتاز » .. !

وفى الشهر المذكور عاد « تمتاز » إلى القاهرة ، فلقية السلطان لقاء كريما ،

وأعاده إلى الاتابكية. غير أنه ما لبث غير قليل، حتى شعر بحركة ضده، يقوم بها ممالك « قانصوة خمسائة » وغايتها قتله. فأمره السلطان بأن يقيم بالقلعة، محافظة على حياته. فأقام في الجامع الصغير، داخل الحوش، السلطان عدة أيام، ثم ظهر « قانصوة خمسائة » وحاول إضرار فتنة جديدة. فاستطاع « تراز » حينئذ أن يترك مكانه، ويسير وفي ركبه جماعات عدة من الممالك الجلبان الحانقين على « قانصوة » ليقضوا عليه. وكان متحصنا بالآزبكية في منازل صهره أزبك، فلما شعر « قانصوة » بدنوهم، لاذهو ومن معه بالفرار. وبعد ذلك سمح السلطان لآتابكية « تراز » بأن يعود إلى داره.

ويبدو لنا من تتبع سيرة حياته هنا، أن نفوذه صار متقلصا، وأن هناك من أمراء عصره من أصبح له نفوذ فوق نفوذه، وجاه فوق جاهه، وعصبية فوق عصبيته. لذلك لم يكن غريبا منه أن ينضم إلى الأمير « أقبردى » الدوارار، حينما قامت بثورة ضد « قانصوة » خال الملك الناصر محمد بن قايتباى فى عام ٩٠٢ هـ فى شهر ذى القعدة، وقاتله قتلا عنيفا استمر إلى أواخر ذى الحجة. فلما انكسر وهزم، فر إلى بلاد الشام هو وعصابته. أما الآتابكى « تراز » فقد كان قبيل ذلك مريضا، فلم يشعر بانكسار « أقبردى » حليفه فى حينه. فأرسل « أقبردى » إليه يستدعيه للحرب معه، فأبطأ عليه، فتركه ويمم إلى بلاد الشام. وبقي « تراز » بمصر. فقبض عليه واقتيد إلى القلعة. وبينما هو فى طريقه لقيه عدد من ممالك أعدائه فجزوا رأسه ومثلوا به والذى تقدم لقتله منهم مملوك يدعى « بردبك » الآشقر من أرذلهم. ثم دفن فى تربة الآشرف قايتباى. وكانت قتلته فى ذى الحجة عام ٩٠٢ هـ. وكان أميرا دينيا مهيبا كثير البر. توفى فى العقد الثامن فى عمره. وكان له طمع فى السلطنة حتى كان إذا سأله أحد إنجاز وعد، أو تعلق به بأمل، صابره ويقول « اصبر علينا حتى يحنى وقتها » وكان متوددا للعلماء بالفقراء. وقد تزوج عدة مرات تزوج « ملكباى » ابنة قرغاس فاتت عام

٨٧٩ هـ . فتزوج ابنة الملك المنصور بن الظاهر جقمق بكرا ، فولدت له بنتان لم تعيش طويلا . ثم ماتت زوجته هذه . فتزوج عام ٨٨٧ هـ ابنة الأمير « جانم » الأشرفي نائب الشام بكرا ، فولدت له .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ . - الضوء ج ٣ رقم ١٥٢ . »

٣٥ - قانصوه خمسائة الأشرفي بن طراباي ٩٠٢ هـ

أمير من عطاء الأمراء . ومن ذوى الأطااع الكبرى . حدثته نفسه بانتزاع السلطنة من صاحبها فانتزعها ثلاثة أيام ، وتلقب بالملك الأشرف . ولكن سلطنته لم تكن إلا كرويا الحالم . ويقال إن أصله من المماليك السكتانية ، الذين ابتاعهم الملك الظاهر خشقدم . ثم آل ملكه إلى الأشرف قايتباي فأعتقه فيمن أعتق . ومن ثم ظل يتقلب في مناصب الدولة حتى بلغ أرقاها . وقد اختير أميراً للركب الأول للحاج عام ٧٨٧ هـ .

وهو أحد المولعين بإشعال نار الفتنة والائتار . وأحد الذين رموا بأنفسهم في محيط الحروب الأهلية ، التي جرت بين المماليك في خلال دولتهم الثانية ، ليصل من وراء ذلك إلى ما تصبوا إليه نفسه من أمل .

ويظهر أنه كان محبا للنزاع والشغب منذ نشأته ، حتى مع جيرانه الأدينين . فقد حدث في عام ٨٨٣ هـ ، وفي شهر ربيع الأول منه . أنه أنشأ بعض الأبنية في جهة قناطر السباع بالقاهرة ، فاقتطع في سبيل ذلك بعض أشجار جاره ، وفتح في ناحيته بابا بغير حق ، مما اضطر هذا الجار ، وهو المدعو الشهابي أحمد بن اسنبغا الطيار ، إلى شكايته إلى السلطان الأشرف قايتباي ، فانتصف له منه . مع أن « قانصوه » كان

في ذلك الحين من أخضاء السلطان .

في ربيع الأول من عام ٨٨٤ هـ ، منحه السلطان الأشرف قايتباي الدوادرية الثانية . وفي نفس الشهر أصلح الأمير « يشبك » الدوادر الكبير بين « قانصوه خمسمائة » والأمير « جانم » الشريف ، إذ كانت بين الاثنين وحشة وجفاء ، وقد جمع بينهما في وليمة حافلة .

وفي شهر المحرم عام ٨٨٦ هـ قفز الأمير « قانصوه » من الدوادرية الثانية إلى الأمير آخورية الكبرى . وبين الوظيفتين مراحل شتى . وهكذا علا نجمه وسعد جده وبدأ يكون من عظماء الأمراء .

ولما خرج الأتابكي « أزبك بن ططخ » عام ٨٩٠ هـ في شهر شوال ، لقتال « على دولات » وتحت قيادته حملة عسكرية كبرى ، كان « قانصوه خمسمائة » أحد كبار أمرائها . وقد نجحت هذه الحملة نجاحاً نسبياً ، كما بينا فيما سبق . ويقال إن « قانصوه » كانت رائعة الملبس والسلاح والمظهر ، ويقال إنه أنفق في إعدادها نحواً من ثمانين ألف دينار .

وبدت سنة ٨٩٢ هـ ، بالغلاء والاضطراب ، وثوران الممالك ولا سيما الجلبان ، فانقسموا فرقتين : إحداهما مع قانصوه « والثانية مع الأمير « أقبردى » الدوادر . وهو الذي ابتلى « قانصوه » بعداوته ومنافسته له . وقد حظى « قانصوه » فوق اختصاص الأشرف به ، بزواجه من بنت أتابكي العصر الأمير « أزبك » وحفيدة الملك الظاهر « جقمق » . وتم العقد في جمادى الآخرة عام ٨٩٢ هـ ، بجامع القلعة وبحضور القضاة الأربعة وعظماء الناس ، وأهدى إليهم السلطان بعض الهدايا المناسبة . وبعد أيام تمت ليلة زفاف العروسين ، على أروع ما يكون زفاف في ذلك الحين . وركب « قانصوه » في جمهرة من الأمراء والخاصكية ، والشموع في أيديهم .

إلى آخر ما ذكرنا في ترجمة «أزبك» ،

وهذه العروس قد توفيت بعد زواجها بنحو خمس سنوات ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٨٩٧ هـ .

ولما زاد عبث العثمانيين بأطراف البلاد ، رأى السلطان الأشرف أن يجرد عليهم حملة أخرى . فكانت بقيادة الأتابكي «أزبك» وصحبه فيها أيضا الأمير «قانسوه» صهره . وخرجت الحملة تقصد البلاد الشامية والحلبية في جمادى الآخرة سنة ٨٩٣ هـ . وخرج «قانسوه» في ركب حافل كالركب السابق في الحملة الأولى . وأبليت الحملة بلاء حسنا في مكافحة الأعداء ، وعادت في صفر عام ٨٩٤ هـ .

وفي شهر ذي الحجة سنة ٨٩٦ هـ ، اختلف الأمير «قانسوه» والأمير «أقبردى» الدوادار بسبب نوتى . فكان ذلك بدءا للنزاع المستحكم والمنافسة الدموية بين هذين الأميرين ، مما كان ذا أثر بارز في حياتهما .

وفي ربيع الآخر سنة ٨٩٨ هـ ، عين «قانسوه» أمير حج في ركب الحمل . فخرج بركبه في شوال من نفس العام باحتفال مهيب . وعاد من مكة في المحرم عام ٨٩٩ هـ ، ولم يلهج أحد بالثناء عليه ، فقد بدرت منه - على ما قيل - بوادر آذت الناس ، وأخذ من بعضهم جملهم ، وترك بعضهم في «ينبع» حين عودته ، فتألموا لذلك . ولعل هذا كان بدء نحس هذا الأمير . فإنه ما لبث حين مرض السلطان الأشرف عام ٩٠٠ هـ ، أن قيل له ما يؤخذه أنه أن «قانسوه» اجتراً على مقام السلطنة ، ولذلك منعه السلطان من الدخول عليه أثناء مرضه . وهذا دليل على كثرة أعدائه ، وفي ليلة عيد الفطر من العام المذكور ، رحل «قانسوه» إلى إقطاعه ، فانتهزت طائفة من المماليك المعادية له ، هذه الفرصة ، واقتحموا داره ، ونهبوا ما فيها ، وأحرقوا ، أغلب نواحيها . فلما عاد «قانسوه» وعلم ما حل بداره إبان غيابه ، ملأ قلبه الشر

على عدائه، وعزم على تأديبهم. وأخذ في تدبير الأمر لذلك. فلما كان يوم الخميس مستهل ذى الحجة، جمع «قانسوه» عصابته من أمراء ومماليك سلطانية، وشرعوا أسلحتهم، وتجهزوا بالأزبكية حول بيت الأتابكي «أزبك» صهر «قانسوه»، حيث انضم إليهم الأتابكي نفسه. فاضطر السلطان الأشرف قايتباي إلى مقابلتهم بالشدّة، خوف استطارة هذه الفتنة. فكانت عاقبتهم الانكسار والهزيمة. - ومما يذكر أن الأمير «أقبردى» الدوادار كان أحد قائدى عسكر السلطان. ولذلك تعد هزيمة «قونسوه» هناصرة له. وكانت هذه أولى الهزائم التى منى بها «قانسوه» على الرغم من تدبيره وسياسته وشجاعته. وبعد هذه الهزيمة اختفى، وقبض على كثير من عصابته.

ظل الأمير «قانسوه» محتفيا نحو تسعة أشهر. ثم ظهر وصعد إلى القلعة، فلقبه السلطان لقاء حسنا. ولكنه خشى عليه أن يفنك به الجند إذا رأوه. فاحتال السلطان على الجند، بأن ألبس «قانسوه» ثوبا بعلبكيا - مما يكفّن فيه الموت عادة - دلالة على استسلامه. ومن العجب أنه نزل إلى داره، يصحبه الأتابكى الجديد «تمراز» الشمسى والأمير «أقبردى» الدوادار عدوه اللدور !

غير أن فئة كبيرة من المماليك الجلبان من عصابة «قانسوه» سرعان ما أثارت فتنة فى ذى القعدة عام ٩٠١ هـ. وشرعت سلاحها وذهبت إلى جهة الرميّة، وحاصرت «أقبردى» الدوادار، وأحرقوا بعض الدور. فاخفى «أقبردى» ومرض السلطان «قايتباي» بسبب هذه الفتنة، وهم الأتابكى «تمراز» بأن يعلن بنفسه سلطانا، أو يملك ابن قايتباي. وهكذا كانت فتنة ممالك «قانسوه»، سببا فى اضطراب الأمور وانشعاب الأهواء. فلما علم «قانسوه» بما عول عليه الأتابكى «تمراز» دهمه بجنوده ومعه الأمير «كربتاي» الأحمر، وقبضا عليه وقيده وأرسله إلى

سجن الإسكندرية . ونهبت دور الأمير « أقبردى » ومن لف لفه من عصابته . وكانت النتيجة بعد ذلك أن اشتور الأمراء فيمن يولونه السلطنة . وذلك لأن السلطان اشتد عليه المرض ، ودخل في دور النزاع . فاتفقوا على تولية ابنه الملك الناصر محمد . وقد تمت توليته ، وتوفى أبوه بعد قليل . وكان هذا في الشهر المذكور .

كان طبيعيا أن يكون الأمير « قانصوه » صاحب الحل والعقد في هذه الدولة الناصرية الجديدة ، فمنحه السلطان الناصر بن قايتباى منصب الأتابكية والإمارة الكبرى ، عقب تولية مهام السلطنة .

وكم كان يكون سعيدا مجدودا لو قنع بما بلغه من المناصب الممتازة ، ولم يتطلع إلى ما فوقها من مرتبة السلطنة ! ولكن لعله قد خدعه صغر سن سلطانه الجديد ، فقد ولى الملك فى الرابعة عشرة من عمره . وسرعان ما دبت الأهواء والخطرة فى نفس « قانصوه » ، وسوالت له أن يمتنع عن أن يصلى مع السلطان صلاة عيد النحر فى العام المذكور أو صلاة الجمعة ، ثم أخذ فى تطهير القاهرة من ممالك الأمير « أقبردى » الدوادار فشتتهم فى أماكن عدة . وعاون صديقه « كرتباى » الأحمر ، فأسندت إليه وظائف عدة ، منها الوزارة والأستادارية وكشف الكشاف وغير ذلك . وطفق يبحث عن مكان عدوه « أقبردى » فهجمت جنده عدة دور وجوامع وزوايا بسبب ذلك . ثم اتضح أن « أقبردى » ، قد فر إلى غزة . وأخذ فى تتبع أنصار « أقبردى » حتى اضطروا إلى الاختفاء خوفا من سطوته . . . فما يصنع السلطان إزاء هذه الحالة الشاذة ، واستفحال شأن أتابكية « قانصوه » ؟ حاول أن يصلح ذات البين ، فأمن من استخفى من عصابة « أقبردى » وصالحهم على « قانصوه » . غير أن هذا كان قد أصر فى نفسه على المسكيدة ، ودبر من وراء الستار أمرا خطيرا ، فإنه استضاف بعض أتباع « أقبردى » ، وبينما هم فى مأدبته وفى داره ، إذ دهمهم الجند

وقبضوا عليهم ، وساقوهم إلى النيل ، وأغرقوهم - كما قيل - .

وفي ليلة الأربعاء ٢٨ جمادى الأولى سنة ٩٠٢ هـ اجتمع « قانصوه » باتباعه من أمراء وجنود ، وتهيئوا لسلطنته في الغد . وفي صباح الأربعاء المذكور ، استقدموا الخليفة والقضاة ، واجتمع عدد كبير من أمراء وعسكر ، واحتمل الجميع على الخليفة ، حتى خلع السلطان الناصر محمد بن قايتمباي ، وأعلن « بقانصوه » سلطانا على البلاد . وتلقب بالملك الأشرف ١١ . وكادت سلطنة تقع عند جميع الناس موقع القبول ، ويضمن لها البقاء . لولا أن الملك الأشرف « قانصوه » لم يحتط للمستقبل ، واشتط في معاملة أعدائه . وأمر بالقبض على الملك الناصر ، فاحتاج لذلك عدد كبير من ممالك أبيه ، يتزعمهم الأمير « قانصوه » خال الملك الناصر ، وقاوموا « قانصوه » خمسمائة « مقاومة كبيرة . فتبادل الفريقان القتال حتى أريق دماء كثيرة . وآلت العاقبة بالهزيمة على « قانصوه » خمسمائة . فأثر الحرب والاختفاء في مستهل جمادى الآخرة ، ولم يمض على سلطنته سوى ثلاثة أيام ! وعادت السلطنة بذلك إلى صاحبها الملك الناصر ابن قايتمباي .

كانت القاهرة في خلال هذه الفتنة التي قام بها « قانصوه » ، مسرحا للفوضى والنهب والسلب ، نحو أسبوعين . وباختفائه انتهت أتابكيتته . فأمندها السلطان الناصر إلى الأمير « تمران » الشمسي للمرة الثانية ، واستقدمه من سجنه بالإسكندرية .

وفي ١٨ جمادى الآخرة من العام نفسه أي ٩٠٢ هـ ، ظهر « قانصوه » بعد اختفائه ، فتسامعت به عصابته ، فيممت شطره ، والتفت حوله في درب المرسينة عند قناطر السباع . فسار بهم إلى الأزبكية ، ليميت ليلة ثم يستأنف هجومه في الصباح . ولكن هذه الليلة بددت أحلامه ، فقد انفض من حوله جمعه شيئا فشيئا في الصباح ولم يقيموا معه . فلما وقع ذلك رأى « قانصوه » شبح الهزيمة ماثلا أمام عينيه هو ومن معه ،

وتسامعوا بقدم المماليك الجلبان لقتالهم ، فأثروا الفرار من وجههم . وتوجهوا نحو غزة ، فلقوا في طريقهم الأمير « أقبردى » - وكان مختفيا فارا من وجه « قانصوه » فأوقعوا به وبمن معه ، وكادوا يفتككون بهم ، لولا أن جاءتهم نجدة من غزة على حين غفلة ، فانكسروا أمامها شر كسرة . وهذه رابع هزيمة تصيب أميرنا « قانصوه » خمسمائة . ويقال إن « قانصوه » قبض عليه إذ ذاك وقتل وأرسل رأسه إلى القاهرة مع غيره من الروس . ولبث الناس في شك من أمر قتله . ومع ذلك كله فقد كانت واقعة مع « أقبردى » آخر العهد به .

وكان « قانصوه » أميرا جليل الشأن كبير الأطماع ، شجاعا وافر العقل محبا للبناء ، شيد بعض الدور والأبراج بالأزبكية وبقناطر السباع .

وقد تولى الأتابكية من بعده « تمرز » الشمسى . ثم عاد إليها « أزبك » بن ططخ صهر « قانصوه » . ثم « جان بلاط » الذى ولى السلطنة بعد زمن . وكان أتابكيا في عهد الظاهر « قانصوه بن قانصوه » . ثم اعتلى السلطنة بعده . فأسند الأتابكية إلى الأمير « قوصروه » نائب الشام حينذاك . ولكن « قوصروه » أعلن بالعصيان ولم يلب الأمر . فظلت الأتابكية شاغرة مدة يسيرة . ثم أسندها السلطان « جان بلاط » إلى الأمير « تانى بك الجمالى » .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ . الضوء ج ٦ رقم ٦٨٣ . »

٣٦ - تانى بك الجمالى الظاهرى ٩٠٨ هـ

أصل هذا الأمير من ممالك الظاهر « جقمق » ، وقد برز في عهد الناصر « محمد بن قايتباى » ، فكان نظام الملك وأمير سلاح . وكان في جملة من انضم إلى الأمير « قانصوه خمسمائة » ، في ثوراته المتعددة ، وقاتل معه ضد الأمير « أقبردى الدوادر » . واختفى أكثر من مرة ، على أثر الهزائم المتوالية التى منوها بها . وظهر أخيرا فى عهد الناصر بن قايتباى ، أيضا ، واختير أميراً للركب المحمل عام ٩٠٣ هـ . ولماولى سلطنة مصر الأشرف « جان بلاط » عام ٩٠٥ ، حفظ منصب الأتابكية لنائب الشام « قوصروه » . غير أن « قوصروه » امتنع بالشام وأعلن السلطان بالعصيان . فأسند أتابكية عسكره إلى الأمير « تانى بك الجمالى » ، وذلك فى المحرم عام ٩٠٦ هـ .

ومما يجدر ذكره هنا ، أن الأمير « طوماى باى » بن قانصوه ، كان فى ذلك الحين أمير سلاح ودوادر كبيراً ووزيراً وأستاداراً وكاشف كشاف ، جمع بذلك بين وظائف عدة من أهم وظائف الدولة . فقوى أمره ، واشتد ناصره . وأصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد . وغض من شأن الأتابكى « تانى بك الجمالى » . و « طومان باى » هذا ، هو الذى ملك البلاد فيما بعد ، وتلقب بالعدل بعد قتال طاحن مع السلطان « جان بلاط » ، فإن « جان بلاط » أرسله على رأس حملة إلى بلاد الشام ، لإخضاع نائبها العاصى « قوصروه » . فاتحد مع « قوصروه » ، وأعلن بنفسه سلطاناً ، وزحف بجنوده من الشام على مصر . فحاربه سلطانها « جان بلاط » . وكان فى جملة الأمراء الذين انحازوا إلى السلطان الأتابكى « تانى بك الجمالى » . غير أنهم انهزموا وفر منهم كثيرون ، وفى عدادهم « تانى بك » ، واختفى ولم يعثر له على أثر . وكان ذلك فى عام ٩٠٦ هـ فى جمادى الآخرة .

ولما ثارت ثورة الجند والأمراء ضد العدل « طومان باى » وانتهت بهزيمة

واختفائه، ظهر «تاني بك»، وانضم إلى الأمراء الثائرين، ومنهم «قيت الرجبى»، و«مصر باى» و«طراباى» وغيرهم، فى منزل «قانسوة خمسمائة» بقناطر السباع. وكان «قانسوة»، ما زال محتفيا - فتم الاتفاق على سلطنة الأتابكى «تاني بك». وكادت تتم سلطنته، ويباع، لولا أن الجند لم يرتضوه. فعـدل عنه إلى الأمير «قانسوة الغورى»، فولى السلطنة. فقبض على «تاني بك»، ونفاه إلى مكة. فسافر صحبة الحاج فى شوال عام ٩٠٦ هـ. وظل هناك زمنا. وقيل إن «الجازانى» العربى الثائر بمكة، عبث «بتاني بك» عام ٩٠٨ هـ، وطلب منه مالا، فاعتذر. فعاقبه عقابا فاحشا، حتى مات، وأخذ ماله.

«ابن إياس ج ٢ ص ٣٠٣، ٣٠٧، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٧٤، ٣٨٣، ٣٨٧ - ج ٤ ص ٦، ٧، ٤٨ - والضوء ج ٣ رقم ١٧٥».

٣٧ - قاصروه نائب الشام ٩٠٦ هـ

اشتراه الملك الأشرف «قايتباى» وظل حتى أعتق. وأخذ سمته إلى عليا المناصب حتى تولى نيابة حلب فى عهد الملك الظاهر «قانسوة بن قانسوة» سنة ٩٠٤ هـ. ويظهر أنه كان أحد المغرمين بالعصيان، فإنه ما لبث حين دخل الشام فى طريقه إلى حلب، أن استولى قوة واقتدارا على أموال الأمير «كرتباى» الأحمر، وكانت نحو من ٦٧ ألف دينار، بدون أن يستأذن السلطان - جاء هذا الخبر إلى القاهرة فى شهر جمادى الأولى من العام المذكور، وعلم به السلطان «قانسوة» فغضب، وأوفد إلى «قصوره» من يأمره برد المال، فلم يأبه لهذا الأمر، واعتذر بأعذار واهية. - وظل «قاصروه» فى نيابة حلب، حتى انتقل الأمير «جان بلاط» - السلطان فيما بعد - من نيابة الشام إلى الأتابكية بمصر - فانتقل الأمير «قاصروه» إلى نيابة الشام عوضا عنه، فى ذى الحجة عام ٩٠٤ هـ. غير أنه ما لبث أن عاد إلى

عصيانه ، فأعلنه في رمضان عام ٩٠٥ هـ . وقد كان هذا العمل من جانب « قاصروه » من أهم الأسباب التي أودت بملك السلطان « قانصوه » . فإنه أخذ في إخضاعه ، فبعث إليه رسولا وهو « أقبای الطویل » يطلب إليه أن يكف عصيانه ، وأن يترك قلعة الشام لنائبها - وكان قد استولى عليها - وفي نظير ذلك لا يؤاخذ السلطان بما قدمت يداه . ولكنه أصر وتمادى في العصيان . فأعد السلطان له حملة تؤدبه ، وهم بالمسير بنفسه إليه . ولكن كانت القلوب قد تغيرت عليه ، والنفوس تحفزت للوثوب ضده - وكان هناك الأمير « طومان باى » - الذى ملك فيما بعد - وبينه وبين « قاصروه » علاقة وطيدة . فقاد طومان باى الثورة ضد السلطان « قانصوه » ، ومازال به حتى أزال دولته ، وملك من بعده الأتابكى « جان بلاط » . فلما استولى هذا على عرشه ، طلب إلى الأمير « قاصروه » نائب الشام أن يتولى منصب الأتابكية بمصر ، وذلك في ذى الحجة عام ٩٠٥ هـ . ولكن « قاصروه » ظل على عصيانه القديم وامتنع عن قبول هذا المنصب السامى - ولعله كان متواطئا في الخفاء مع الأمير « طومان باى » نفسه ! فما عثم « طومان باى » حين بلغ الشام ، أن أعلن بنفسه سلطاناً ، ودخل في طاعته الأمير « قاصروه » ، وعاونه أكبر معاونة . وزحفاً معاً بجنودهما من الشام على البلاد المصرية ، فأدخلا الرعب والهلوع في قلب سلطانها « جان بلاط » ، ووقعت بين الفريقين واقعة يطول شرحها ، كان « قاصروه » من أكبر الأيدي العاملة فيها ، الساعين إلى إنجازها ، قيل إنه كان هو ومالكيه يشتغلون في حفر الخنادق ، التي استدعتها خططهم الحربية ، ويعملون ويعمل معهم بيده ، ويحمل الأتربة بنفسه .

فلما تم النصر « لطومان باى » وأصبح ملكاً على الديار المصرية ، وقبض على « جان بلاط » واختفى أتابكيه « تانى بك الجمالى » وذلك في جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ ، أسند منصب الأتابكية بمصر ، إلى عضده الأكبر ومعينه الأمين الأمير « قاصروه » .

ومنحه جملة من الثياب الفخمة النفيسة ، وقدم إليه ألواناً من السكر والاحتفال ،
جزاء له على ما قام به من معونة ، في سبيل الوصول إلى السلطنة . ويظهر أن الزمن
أراد أن ينتقم من الأمير « قاصروه » لدسائسه السابقة ، ومؤامراته على سلاطينه ،
وعصيانه لهم عصياناً متكرراً . كان له أثر كبير في انتقال السلطنة من رجل إلى
آخر . وكان هذا الانتقال - وما أشده وأقساه - على يد صديقه وصفيه وسلطان
الجديد « طومان باى » ! . فإنه لم يرض على تنصيبه في الأتابكية ، وسكنه في دار
« أزبك » بالأزبكية ، وإفاضة أسباب الجاه عليه ، غير أيام ، حتى بطش به « طومان
باى » بطشة قاسية ، وكان « قاصروه » قد اعتاد أن يبيت بالقلعة ، ليلة الاثنين
والخمس . وفي ليلة الخميس مستهل رجب من نفس العام ٩٠٦ هـ . تناول طعام العشاء
مع السلطان بالقلعة ، وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث . وبينما كان « قاصروه »
آمناً مطمئناً إلى محدثه إذ كان هذا المحدث قد أعد للأمر عدته ، ودبر له مكيدته ،
ثم فجأه بقوله : « إن قلبه خائف منه » . ثم أمر بعض جنوده بالقبض عليه ، فزاع
من مجلسه نزاعاً ، وألقى به في غيابة السجون بجوار الدهيشة . ثم خنق بعد عدة أيام
ثم دفن في تربة الصاحب « خشقدم » الزمام قريباً من حوش العرب . وهكذا انتهت
حياة أحد أبطال الأمراء المناضلين المغامرين في سبيل النفوذ والجاه والسلطان .
وكانت قتلة « قاصروه » وغدر « طومان باى » به ، من أهم الأسباب التي نفرت قلوب
الناس من هذا السلطان ، فتداعى ملكه بعد قليل وانهار صرحه .

ويوصف « قاصروه » بالكرم والشجاعة والعفة ، ومات في نحو الخمسين من
عمره ، وقد لاحظت فيه علامات المشيب .

ولما توفي « قاصروه » لم يعين مكانه أمير آخر . وأشيع أن السلطان طومان باى
يرغب في إسنادها إلى أحد خواصه المسمى الأمير فان بردى الدوادار الثانى . غير
أنه اختار الأمير طراباى الشرىنى رأس نوبة النوب لموالاة الأتابكية مؤقتاً ريثما

يعين فيه أمير بصفة نهائية . ولكن زالت دولة « طومان باى » ، وبدأت دولة الغورى فأُسندت الأتابكية إلى الأمير قيت الرجبى .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ . »

٣٨ - قيت الرجبى (١)

ظلت الأتابكية شاغرة منذ وفاة الأمير « قاصروه » ووُكل أمرها مؤقتاً إلى الأمير « طراباى » الشرىنى رأس نوبة النوب . ثم انتهت على ذلك دولة السلطان « طومان باى » بن قانصوه . وتربع السلطان « الغورى » على عرش هذه البلاد ، فاختر الأتابكيته الأمير « قيت الرجبى » ، وذلك فى عام ٩٠٦ هـ .

وقد كان الأمير « قيت » أحد الخاَصَكِيَّة فى عهد السلطان الأشرف « قايتباى » فنحّه هذا السلطان إمارة عشرة فى محرم سنة ٨٩٦ هـ ، ومن ذلك الحين أخذ يدرج فى مدارج الرقى ، حتى صار والياً على القاهرة فى شهر رجب عام ٨٩٧ هـ . فى قايتباى . وذلك عقب وفاة واليها « قيت الساقى » .

ولما ثار الأمير قانصوه خمسائة ثورته الجاحجة ضد السلطان قايتباى والأمير أقبردى الدوادار سنة ٩٠٠ هـ ، انحاز إليه الأمير « قيت » ، فبحن انحاز من الأمراء . فلما انهزم قانصوه قبض على كثير من عصائمه ، ومن بينهم الأمير « قيت » . فقيّد وأرسل إلى السجن بالصليبية . فلبث فى سجنه حتى توفى الأشرف « قايتباى » وولى الحكم ابنه الناصر عام ٩٠١ هـ ، فأطلق سراح « قيت » ، هو وغيره من عصابة قانصوه خمسائة ، وأنعم عليه ورفاه أميراً مقدماً - وكان قانصوه خمسائة فى ذلك

الوقت قد صار أتابكي عصره ، فلاغربة أن كان « قيت » أحد رجاله المقربين ، حتى وصل إلى هذه المرتبة . وقد انضم إليه في ثورته ضد السلطان الناصر « محمد بن قايتباى » ، غير أن عاقبتهم في هذه المرة أيضاً كانت الهزيمة . فاخفى « قيت » بين من اختفى ، وظل حتى عاد إلى الظهور بعد عيد النحر بقليل عام ٩٠٢ هـ ، وذلك على أثر انضمام الأمير أقبردى الدوادار في ثورته ضد السلطان محمد بن قايتباى وخاله الأمير قانصوه . وقد عاون « قيت » في إتمام هزيمة أقبردى ونصرة السلطان ، لذلك منحه منصب حاجب الحجاب فى المحرم سنة ٩٠٣ هـ . وفى ربيع الأول من تلك السنة بعثه السلطان مع قانصوه البرجى وقانصوه الغورى من الأمراء على رأس تجريدة إلى بلاد الشام ، لتأديب أقبردى والقبض عليه . وذلك لأنه على أثر هزيمته فر إلى الشام ، وطفق يعيش هناك فساداً . فما زالوا بأقبردى حتى أجلوه إلى حلب ، فطارده أهلها حتى فر إلى بلاد التركان ، وعاد « قيت الرحبى » إلى مصر وقد انعقدت بينه وبين قانصوه الغورى أواصر الصداقة والمودة .

ولما تواترت الأخبار بما يقوم به عرب عزالة بالبحيرة ، من ضروب العبث والفساد ، جردت عليهم حملة كان « قيت » أحد أمرائها . وقد خنت إليهم يوم عيد الفطر عام ٩٠٤ هـ ، فى عهد السلطان قانصوه بن قانصوه ، ولكن هذه الحملة كان نصيبها الفشل والخذلان .

وفى ذى القعدة سنة ٩٠٥ هـ ، خلع السلطان الظاهر قانصوه على الأمير « قيت » نيابة طرابلس عوضاً عن « بلباى » المؤيدى . غير أن نيابته هذه لم تتم ، وذلك لأن دولة الظاهر قانصوه كانت قد آلت إلى الزوال وثار عليه ثائرة « طومان باى » و « جان بلاط » فاخفى . وآلت السلطنة إلى الأتابكى جان بلاط فأعيد « قيت » إلى منصب حاجب الحجاب بالقاهرة ، ولم يسافر إلى طرابلس .

وفى ربيع الأول عام ٩٠٦ هـ . رأى السلطان جان بلاط أن يعث إلى بلاد

الشام حملة عسكرية لتأديب الأمير قاصروه نائبها الخارج عن الطاعة . وكانت الحملة بقيادة طومان باى الداودار ، وكان « قيت » من أمرائها . وقد خرجت الحملة من مصر فى ربيع الثانى من نفس العام ، وهى التى آل أمرها إلى أن أعلن طومان باى بنفسه ملكا ، وزحف بجنوده أولئك على مصر ، وانتزع سلطنتها من ملكها جان بلاط . فلما تم أمر طومان باى بالشام فرق المناصب والالقب مقدما على من عاوناه من الأمراء ، ووعد كلا منهم بمنصب أولقب ، فكان نصيب « قيت » أن عين أمير سلاح عوضاً عن طومان باى نفسه . وزحف بالجميع على مصر ، فإزال « قيت » يعاوناه هو وغيره ، حتى تمت السلطنة بمصر لطومان باى . فبر حينئذ بوعد ونال الأمير « قيت الرحى » إمارة سلاح .

ثم إن السلطان طومان باى أخذ فى معاملة أمرئه بقسوة ، وشدة وظلم . فقتل أتابكيه قاصروه ، ثم عول على القبض على قانصوه الغورى وزميله « قيت الرحى » . فأرسل فى طلبهما فى إحدى ليالى شهر رمضان عام ٩٠٦ هـ ، لحضور حفلة اختتام البخارى بالقلعة ، وكانا قد أحسا بقرب غدور السلطان بهما فلم يحضرا . فكان ذلك مثار النزاع شديد بين السلطان المذكور وأمرائه ، أدى فى النهاية إلى اختفائه ، وأيلولة السلطنة إلى « قانصوه الغورى » . وعلى إثر سلطنته أسند منصب الأتابكية إلى زميله وصديقه « قيت الرحى » . وكان هذا أمراً طبيعياً . فلقد كان الأمير « قيت » فى مقدمة الأمراء الذى تعصبوا لقانصوه الغورى ودعوه إلى أن يلبى منصب السلطنة الرفيع فى هذه البلاد .

ولما تم أمر « قيت » فى الأتابكية ، أصبح صاحب الحل والعقد فى مصر وصاحب الكلمة والمشورة . وكان هناك الأمير « مصر باى » الداودار الكبير ، وكان ذا مكانة ممتازة لدى الأشرف الغورى . فكان بذلك منافساً خطراً للأمير « قيت » . غير أن الأيام سرعان ما أفسدت علاقة الأمير « مصر باى » بالسلطان الغورى .

فأدى ذلك إلى القبض عليه ثم سجنه ، ثم هربه ثم قتله بعد ذلك . وبموته خلا الميدان للأمير « قيت » . وواتته الظروف واستبد بكلمته ورأيه وطفق يسدو بين الناس بمظهر الأبهة والعظمة ، ولا سيما في حفلات فتح السد . فبدأ الناس ينفرون منه ، وخاصة حينما فرض عليهم بعض الضرائب الفساحية ، وجباها منهم بلا رحمة ولا إشفاق . حتى أقدم بعضهم على الوقوف له في الطرقات ورجسه . ومع ذلك لم يتزعزع مركزه لدى السلطان .

وفي عام ٩٠٨ هـ أسند إليه « الغورى » إمارة ركب المحمل وجهره بعدد من الجنود ، وأوصاه بالقضاء على فتنه « الجازانى » وأخيه الشريف « بركات » أمير مكة إذ عبثا في العام المنصرم بركي الحجاج . وقد أبلى « قيت » بلاء حسنا في هذه الناحية ، ففر « الجازانى » من وجهه بعد أن غلب على أمره . ووقع أخوه « بركات » أسيرا في يديه ، فساقه أمامه إلى القاهرة ، ودفعه بين يدي السلطان ، ففرح بذلك وفرض عليه أتاوة باهظة . واستبقاة سجيناً في بيت « قيت » نفسه .

ثم إن هذا السجين ما لبث أن فر من سجنه ، فكان فراره مشار شحنة طويلة بين الأمير « قيت الرحبي » وبين أحد الأمراء الكبار وهو « قرقماس بن ولى الدين » وكان حينذاك أمير سلاح . وقد اتهمه « قرقماس » بأنه هو الذى تواطأ على هربه وتسبب فيه . وقد تداخل السلطان بينهما وأصلح ما فسد من أمرهما . ولكن من ذلك الحين تغير قلب السلطان على الأتابسكى « قيت » ، وساورته نفسه بالبطش ، حتى كان شهر رجب سنة ٩١٠ هـ ، فأمر بالقبض عليه . وكان قد اتضح له أن « قيت » تحدثه نفسه بالسلطنة ، ويهيء الظروف لبلوغها والثوب على سلطانه ، وأنه كاتب في هذا الشأن بعض الأمراء فعلا . فلما سيق إلى السلطان أعلنه بما قدمت يداه ، ووبخه توبيخاً جارحاً ثم دفعه في السجن وصادر أمواله ، وجميع ما يمتلك . ووجد أنه يمتلك كثيراً من المال وضروبا عدة من الأسلحة ثم أخرج إلى الإسكندرية ليوضع

في سجنها . فأرسل مخفورا في مركب وفي معيته أميران وخمسون مملوكا سلطانيا -
ويظهر أنه لقي جزاءه عادلا . فقد كان - كما قال ابن إياس - ظالما غشوما كثير الصلف
والأذى قليل الخير . فلبث في السجن زمنا بالاسكندرية . ثم قيل إنه نقل بأمر من
السلطان « الغورى » إلى سجن دمياط في ذى القعدة عام ٩٢٢ هـ - وتولى الأتابكية
بعده الأمير قرقاس بن ولى الدين .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ،
٣٥٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٩٥ - وج ٤ حوادث السنين
المذكورة - وج ٣ ص ٨٥ . »

٢٩ - قرقاس بن ولى الدين ٩١٦ هـ

أصل هذا الأمير من ممالك الأشرف قايتباى ، وأعتقه وتولى مناصب هامة في
الدولة . ونيابات عدة ، بعضها في زمن قايتباى نفسه . من ذلك أنه في شهر ربيع
الآخرة عام ٨٩٦ هـ . أرسله السلطان المذكور إلى دمشق ووكل إليه جباية بعض
الأموال وهى ضرائب الأملاك عن خمسة أشهر ، وذلك بعد أن كان قد بلغ مرتبة
أمير أخور ثان . وقد بدت من « قرقاس » في دمشق مساوىء عدة وألحق بالناس
ضروبا من الظلم والأذى والقسوة حتى جى منهم هذه الأموال .

وفي ذى الحجة سنة ٩٠١ هـ ، أنعم السلطان الناصر محمد بن قايتباى عليه بتقدمة
ألف . وفي سنة ٩٠٢ هـ عين أميرا للحج . ولما قامت فتنة الأمير أقبردى الدوادر
ضد السلطان الناصر وخاله الأمير قانصوه وزحف بجموعه على القاهرة وامتد القتال
بين الطرفين ، انحاز « قرقاس » إلى جانب أمراء السلطان وظهر بعد اختفائه ، إذ كان
من قبل قد انحاز إلى جانب الأمير قانصوه خمسائة الذى وقعت العداوة بينه وبين
أقبردى وتصدى كل منهما للآخر . وكان « قرقاس » في نفسه حقد منذ زمن بعيد

على الأمير أقبردى ، لذلك انضم إلى جانب عدوه قانصوه خمسائة . ولكن أقبردى تغلب على قانصوه خمسائة وهزم جموعه فأنكسر واختفى . فاختفى على أثر ذلك الأمير « قرقاس » أيضا . فلما تقلبت الأحوال وظهرت عداوة أقبردى لخال السلطان الناصر وهو الأمير قانصوه ، وكان صاحب الحل والربط في البلاد في ذلك الحين ، ظهر « قرقاس » هو وكثير من اختفى من عصبة قانصوه خمسائة وانحازوا إلى جانب قانصوه ، ومنهم تانى بك الجمالى وقيت الرجبى وقانصوه المحموى وجان بلاط بن يشبك - الذى ملك فيما بعد - . وكان ظهور ورهذه الطائفة وانضمامها إلى قانصوه خال الناصر سببا في غلبته لأقبردى وانتصارهم جميعا عليه .

وفي شوال من سنة ٩٠٣ هـ خلع السلطان الناصر على الأمير « قرقاس » ومنحه لقب رأس بوبة كبير عوضا عن جان بلاط الغورى لوفاته . وظل في هذه المرتبة حتى انقضت دولة الناصر وملك خاله الظاهر قانصوه أبى سعيد .

وفي شوال في يوم عيد الفطر من عام ٩٠٤ هـ ، تواترت الأخبار بشوران عرب . عزالة على كاشف البحيرة ، فرأى السلطان الظاهر قانصوه أن يعززه بتجريدة من أمرائه وجنوده . فبعث على رأسها « قرقاس » وقيت الرجبى وغيرهما وكان العرب المذكورين قد نزلوا بجهة المعصرة بناحية طرا ، فارين من البحيرة . فلاقاهم الأمراء والجنود هناك ، ولكن العرب تغلبوا عليهم وأوقعوا بهم إيقاعا قاسيا وقتلوا عددا كبيرا من جنودهم وغلبانهم ، وكان نصيب الأمير « قرقاس » أن أصيب بجرح في وجهه . وقد حفزت السلطان هذه الكسرة على أن يرسل إليهم عددا ضخما من الجنود أوقعت بهم وشتتت شملهم وردتهم على أعقابهم .

وفي العام السالف المذكور عين « قرقاس » أميرا للركب المحمل . فخرج على رأس ركبه في شوال وعاد في المحرم عام ٩٠٥ هـ . وقد كان للأمير « قرقاس » يد محدودة في معاونة الركب الغزاوى في التخلص من العربان الذين اعتمدوا عليه بالقرب من الشرفة .

ولولاه لمتكوا بهذا الركب فتكا ذريعا ، وبالركب الأول المصرى أيضاً ، وكان أميره الناصرى محمد بن خاص بك .

وبعد قليل فى خلال هذا العام عين الظاهر قانصوه الأمير « قرقاس » نائباً على حلب ، فظل فى هذا المنصب حتى دالت دولة الظاهر وتملك الأشرف جان بلاط ، وكان إلى هذا الحين لم يسافر إلى حلب لتسلم مهام وظيفته . - حتى كان مستهل ربيع الآخرة من عام ٩٠٦ هـ ، فخرج من القاهرة إلى حلب لولاية أمرها . فلبث بها مدة حتى تمت مؤامرة الدوادار طومان باى مع نائب الشام حينئذ وهو الأمير قانصوه ، على انتزاع السلطنة من جان بلاط . وكان طومان باى قد أرسله جان بلاط سلطان مصر إلى الشام على رأس تجريده كبرى لقمع عصيان قانصوه . فتم تواطؤهما هناك وأعلن طومان باى بنفسه سلطاناً على الشام وزحف على مصر . هنا كان « قرقاس » نائب حلب فى جانب السلطان جان بلاط ومن عصابته ، فقبض عليه طومان باى وسجنه مع كثير من الأمراء فى قلعة دمشق . هنا افترق الصديقان وأعنى بهما « قرقاس » وقيت الرحى ، فقد أصبح قيت من عصابة طومان باى . وربما كان لهذا التفرق أثر فيما حدث بينهما فيما بعد .

ظل « قرقاس » فى السجن حتى دالت دولة طومان باى . ورقى إلى عرش البلاد الأشرف الغورى . فأطلق سراحه وعاد إلى مصر ، وحظى عند هذا السلطان . وصار أمير سلاح يركن إليه السلطان فى مهام كثيرة . حتى تغير قلب الغورى على أتاكبيه فیت الرحى و قبض عليه عام ٩١٠ هـ . وكان قد وقعت شحنة بين قيت و « قرقاس » بسبب فرار السجين بركات أخى الجازانى من أمراء مكة ، مسجوناً فى دار قيت . فلما تم كل ذلك خلا الجو للأمير « قرقاس » ، وأسند إليه السلطان منصب الأتابكية بعد سجن قيت . فأصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد المصرية ، وشارك السلطان فى تدبير أمور الدولة وناب عنه فى فتح الخليج .

وقيل إنه في ربيع الأول سنة ٩١٢ هـ ، طلع من الحراقة التي عند المقياس بعد حفلة وفاء النيل فنشر خازن داره على رأسه خفاف الذهب والفضة ، فتسكاث الناس عليه ليلتقطوها ، فخنل به الفرس ، فقلبه في البحر ، فأعانه النوتية وأنقذوه من الغرق ، وخرج إلى الشاطئ . مبلل الثياب . وقيل إن فرسه قد غرق . أما هو فأصيب في رجله .

وكان يتفقد شئون الدولة ، فسافر مراراً إلى نواحي الشرقية والغربية والصعيد ، ومرة إلى الإسكندرية نيابة عن السلطان الغوري لمشاهدة التحصينات الجديدة بها . وظل هذا شأن « قرقاس » ، حتى وافاه أجله المحتوم في يوم ٢٣ رمضان سنة ٩١٦ هـ . فرجت القاهرة لموته . وكانت جنازته حافلة ، سار فيها القضاة الأربعة وسائر الأمراء والمباشرون والأعيان . وبين يديه الكفارة من الخبز والتمر والغنم . وصلى عليه في جامع السلطان حسن . وقبّل السلطان نعشه وهو في المصلى . بكاه بكاء كثيراً ، وحمل بنفسه نعشه ومشى به خطوات تسكرياً له ، ثم تلقفه منه الأمراء . ودفن في تربته بالصحرَاء بجوار تربة الأشرف إينال . قيل : وكان لين الجانب كثير التواضع . مضى في الأتابكية ست سنين وشهرين إلا سبعة أيام . وترك أربعة أبناء ، ونحوا من سبعين ألف دينار سوى الحلى والعبيد . وظلت الأتابكية شاغرة من بعده نحواً من أربعة شهور ثم عين فيها الأمير دولاباى .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٩ ، ٢٩٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ - وج ٤ في التواريخ المذكورة بالترجمة »

٤٠ - دولاباى بن أركاس الساقى ٩١٧ هـ

هو ثالث الأتابكية في عهد الغورى ، وقد عين في هذا المنصب بعد وفاة

الأتابكي قرقماس بن ولى الدين بنحو أربعة شهور ، ظلت فيها الأتابكية خالية من شغالها . وكان تعيينه فى أوائل عام ٩١٧ هـ ولكنه لم يعيش بعد ذلك سوى خمسة عشر يوماً ، ثم توفى فى ٢٥ صفر من العام المذكور .

ويتلخص تاريخ حياته فى أنه كان من ممالك الأشرف قايتباى ، ثم أعتق وطفق يتقلب فى الوظائف حتى كانت ٩٠٢ هـ فى أوائل عهد الناصر محمد بن قايتباى . فعين فى شهر المحرم نائباً على ألبيرة ، فخرج إليها بعد زمن يسير . ثم نقل منها إلى نيابة حلب . وفى عهد الأشرف جان بلاط ، أظهر قاصروه نائب الشام عصيانه ، فرشح السلطان المذكور الأمير « دولات باى » نائب حلب ليتولى نيابة الشام بدلاً من قاصروه قبض عليه . ولكن قاصروه كان قد انضم إليه أو أنه انضم إلى طومان باى الدوادار الذى أرسله السلطان جان بلاط لتأديبه بالشام ، فأعلن بنفسه ساطاناً على البلاد الشامية وانحاز إليه قاصروه وكذلك الأمير « دولات باى » نائب حلب ، وزحف معهم على مصر ، ونزل فى جامع شيخو . ولما اعتلى طومان باى عرش البلاد واستتب له الأمر أسند إلى « دولات باى » نيابة الشام وذلك سنة ٩٠٥ هـ فى شهر رجب .

ولما صارت السلطنة إلى الأشرف الغورى عاد « دولات باى » إلى مصر ومنح لقب أمير سلاح . وثار المماليك الجلبان مرة وهموا بأن يعلنوا به سلطاناً على البلاد بدلاً من الغورى ، ولكنه تحيل فى التخلص منهم وفر بنفسه إلى السلطان . ثم عين فى الأتابكية بعد وفاة قرقماس كما ذكرنا ، فى ١٠ صفر سنة ٩١٧ هـ ، فلبث فيها خمسة عشر يوماً ، ثم توفى ، فكانت جنازته حافلة وصلى السلطان عليه ، ودفن فى تربة العادل طومان باى . قيل : وكان أميراً جليلاً جميل الصورة أبيض اللون مستدير اللحية أسود الشعر . مات وله من العمر أربعون عاماً ، فكثير حزن الناس عليه ، وكان لين الجانب قليل

الأذى . - وتولى الأتابكية من بعده الأمير سودون العجمي .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٠٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ - وج ٤ في ترجمة الغورى وفي التواريخ المبينة في الترجمة » .

٤١ - سودون العجمي ٩٢٢ هـ

من الأتابكية الأجلاء الذين ولوا هذا المنصب الجليل في الديار المصرية ، ولقى خاتمته وزالت حياته بزوال الدولة وأعنى دولة المماليك .

ويعرف هذا الأمير بسودون بن جاني بك ويشتهر بالعجمي . وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتق وتقلب فى مناصب عدة حتى بلغ من مناصب الدولة أعلاها ، واشترك فى أهم الحوادث العامة المصرية التى تتعلق بسياسة الدولة . ونشير هنا إلى بعض ما ذكرنا ، فنقول :

إن قايتباى عينه فى استدارية الصحبة فى ربيع الثانى سنة ٩٠١ هـ .

ولما ثارت ثورة الأمير أقبردى الدوادار فى عهد السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، عام ٩٠٢ هـ ضد خاله قانصوه . انضم الأمير « سودون العجمي » إلى فريق السلطان وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن القلعة دو وجماعة من الأمراء ، حتى ارتد عنها أقبردى وأصابته الهزيمة . وفى عام ٩٠٤ هـ أرسل فى عداد حملة تأديبية للقضاء على أقبردى أيضا ، الذى ثار ببلاد الشام وعيث بها ، وكان على رأس الحملة تانى بك الجمالى .

ولما كان عام ٩٠٥ هـ وكان شهر ربيع الأول ، عينه السلطان جان بلاط أميراً للعبج بركب الحمل فى ذلك العام . ولما عاد كان من حزب جان بلاط ضد طومان باى الذى ملك ببلاد الشام . لذلك منحه السلطان جان بلاط منصب رأس نوبة كبرى عوضا عن قانصوه الغورى الذى أعلن عصيانه وانضم إلى طومان باى .

غير أن دولة جان بلاط سرعان ما ولت ، وعقبتها دولة طومان باى ، فلم يكن للأمير « سودون » فيها من الأمر شيء . وأغلب الظن أنه سجن في ذلك العهد . وقد أعطيت إمارته وهى رأى نوبة كبرى الأمير طرل باى الشرىفى الذى وكل إليه التكلم فى أمور الأتابكية مؤقتا حينما قتل السلطان طومان باى أتابكيه قاصروه عام ٩٠٥ هـ . وفى دولة الغورى كان الأمير « سودون » أحد الأمراء العظماء الذين يستند إليهم السلطان فى تدبير شئون الدولة . وظل كذلك حتى توفى الأتابكى فى صفر عام ٩١٧ هـ . فرأى السلطان الغورى أن يسند هذا المنصب إلى الأمير « سودون العجمى » قتم ذلك فى ٢٧ ربيع الأول عام ٩١٧ هـ . وصار يد السلطان فى كل شيء ، ونائبا عنه فى أمور كثيرة ، ومصاحباً له فى تنقلاته وأعماله . ومن ذلك توجهه معه إلى الجيزة ومنها إلى الفيوم فى شهر صفر عام ٩٢٢ هـ لتفقد أحوالها . وسافر فى صحبته أيضا إلى البلاد الشامية والحلبية فى يوم السبت منتصف ربيع الثانى من نفس العام . وقد خرجا معا وعسكرا فى الريدانية فى جيش كثيف جدا للقاء العثمانيين الزاحفين على بلاد السلطان وممتلكات مصر . وهو اللقاء الذى كان فيه الطامة عليهما معا ، وعلى البلاد جميعا وانتهى بدخول العثمانيين هذه البلاد . وكان خروج الأمير « سودون » هو وأتباعه من الريدانية فى يوم الجمعة ٢١ من ربيع الثانى المذكور .

ولما التقى الجمعان فى « مرج دابق » فى شهر رجب من نفس العام ، قيل إن الأمير « سودون العجمى » الأتابكى كان أول من برز للقتال ، وعاونه نائب الشام الأمير سيباى ومعهم المماليك القرانصة ، فهزموا جنود العثمانيين هزيمة منكرة وأسروا منهم كثيرا من الأسرى وغنموا منهم غنائم لا تحصى . ولولا ديب الخلاف بين فرق هذا الجيش العظيم وظهور الخيانة فى بعض أمرائه ، لاتصر الغورى وجنوده وأمرؤه ، ولكان لمصر شأن غير هذا الشأن . وقد كانت النتيجة الأولى لهذا التخاذل الشنيع

والفرقة التي وقعت بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان أن قتل الأتابكي الشجاع الأمير « سودون العجمي » عند أول كرة جديدة للعثمانيين على عسكر مصر . وكذلك قتل سيباي ، فكان قتلها نذير سوء للجيش المصري ، إذ توالى عليه الهزائم حتى سحق وقتل سلطانه .

في ميدان الدفاع عن مصر وعن حريتها وتمليكاتها قتل الأمير « سودون » بجانب سلطانه . ولما بلغ خبره مصر ، حزن عليه الناس واشتد عليه عويل ذويه . وهكذا قضى عليه بعد أن شغل مناصب عدة ومنح ألقاباً مختلفة منها أمير مجلس وأمير سلاح . وقام بالأتابكية نحو خمس سنوات وأظهر ضروبا من القدرة والسياسة والشجاعة . قيل : وكان أميراً ديناً خيراً لين الجانب .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٩٣ ، ٣٢٥ ، ٣٥٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٩٠ - وفي ج ٤ في سياق ترجمة الغوري وفي التواريخ التي أوردناها - وفي ج ٣ ص ٢ ، ١٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ . »

٤٢ - سودون الشهابي الدوادار ٩٢٣ هـ

عينه السلطان طومان باي الأشرف أتابكياً على الديار المصرية بعد مقتل سودون العجمي في مرج دابق . وذلك عام ٩٢٢ هـ في يوم الخميس ٢٠ رمضان بعد سلطنته مباشرة . وكان « سودون » هذا أميراً ومقهما ، ورأس نوبة النوب في عهد الغوري . وقد خرج معه في عداد أمراءه إلى قتال العثمانيين بحلب ، فلما تمت الهزيمة في مرج دابق ، عاد « سودون » في جملة العائدين من الأمراء ، وكان قد طمع في أن يكون سلطاناً . ولكنه لما وصل إلى القاهرة وجد أن طومان باي قد اعتلى السلطنة ، قتالاً لذلك ، ولكنه ما عزم أن ولي له الأتابكية . وقاتل معه العثمانيين وسلطانهم

« سليمان » بالريداية ، وجرح إذ ذاك جرحا بالغا ، وقيل انكسر فخذه ، فاختمني في بعض الحقول . وقد قبض عليه بعض العربان - إثر الهزيمة - وأتى به بين يدي السلطان سليم فوجده قد جرح وكسر فخذه وكاد يموت ، فوبخه ، وأمر فطيف به على ظهر حمار ، فمات على ظهره ، وذلك في أول المحرم عام ٩٢٣ هـ . وهو آخر أتاكبية مصر .

« ابن إياس ج ٥ ص ٣٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٥ » .

أفذاذ من رجال العصر (١)

تحدثنا فيما سلف عن النيابة والأتابكية ، وهما أهم مناصب الدولة التي يليها رجال السيف - عدا السلطنة - وترجمنا لعدد من رجالهما . وكنا نود أن نتبع كل منصب سواهما ونذكر تقلبات الحوادث به ، ونترجم لعدد من رجاله - ممن لم يبلغوا النيابة ولا الأتابكية - ولكن هذا ضرب من البحث عسير ، وبخاصة لتقلب الرجال في شتى المناصب ، وعدم قصر الرجل على منصب وحده . لذلك آثرنا أن نترجم لعدد من هؤلاء الرجال ، تحت العنوان المتقدم ، مرتبين حسب عصور ظهورهم ، ووفياتهم ، جهد الطاقة . ونتابعهم بحديث عن الوزارة وتراجم للوزراء .

١ - سيف الدين طغجي الأشرف في ٦٩٨ هـ

كان من ممالك الأشرف خليل ، وارتقى في سلم الإمارة ، حتى أصبح في عداد البارزين . فلما قتل أستاذه الأشرف ، قاد « طغجي » ممالكه الأشرافية وانتقم له ، وقتل قاتله بيدرا . وظل « طغجي » حتى كان عهد السلطان لاجين . فخرج عام ٦٩٧ هـ ، وكان نائب السلطنة حينذاك الأمير منكوتمر ، لا يستريح إلى تصرفاته ، فأخرجه إلى طرابلس نائبا ، فسخط « طغجي » واستعفى من هذا المنصب ، ولم يسافر ، فأبى منكوتمر . وكان يضم في نفس القبض على « كرجي » أخى « طغجي » . فدب الشر بين الفريقين . ودبر « طغجي » وأخوه ، مؤامرة لاغتيال السلطان لاجين . فقتل .

(١) في الدرر لابن حجر ، والضوء للسخاوي ، وغيرهما من كتب التراجم ، وفي ثنایا بدائم ابن إياس ، وسلوك المقریزی وخططه ، كثيرون من هؤلاء الافذاذ ، فليرجع إليها من شاء التوسع . ويلاحظ أن بعضهم لم يكن في أصل منشئه من الممالك .

وُقُتِلَ بعده منسكوتر . وأمل « طغجي » في أن يقفز إلى السلطنة ، ويقرأ أخاه في نياتها . وكاد يتم ذلك ، لولا أن الأمير بكتاش الفخري أمير سلاح ، كان قد خرج في غزاة ، فترثوا حتى يحضر . فلما حضر لقيه « طغجي » بعد لآي . وأسفر اللقاء عن قتل « طغجي » وذلك عام ٦٩٨ هـ ، بعد أيام من مقتل لاجين .

« خطط ج ٤ ص ٢٤٦ - سلوك ج ١ »

٢ - علاء الدين طيبرس الخازندارى ٧١٩ هـ

هو ابن عبد الله الوزير . كان مملوكا للأمير بد الدين بيلىك الخازندار نائب السلطنة . ثم ملكه بيدرا . ثم أعتق بعد مدة ، وترقى . وحظى عند السلطان لاجين ، قبل سلطنته . فلما تقلدها . ولى « طيبرس » نقابة الجيوش بمصر عام ٦٩٧ هـ ، فحسنت سيرته فيها ، وحمدت إدارته . وبني جامعا وخانقاه ومدرسة بجوار الأزهر ، ورتب فيها درسا للشافعية . وتمت عمارتها فى سنة ٧٠٩ هـ . وأوقف عليها . ومات فى عام ٧١٩ هـ ، ودفن بمدرسته بجوار الأزهر .

« خطط ج ٤ ص ٢٢٤ - الدرر ج ٢ رقم ٢٠٥٤ » .

٣ - آقوش الأفرم الجرکسى ٧٢٠ هـ

أصله من مماليك قلاوون ، ثم كان نائبا للشام فى عصر محمد بن قلاوون . وثبت فى منصبه فى عهد المظفر بيبرس عام ٧٠٩ هـ ثم خلع لما عاد الناصر ، وأتاب مكانه الأمير كراى المنصورى . فلما استبد كراى ، عزله وأعاد « آقوش » . ولم يلبث أن خلعه ثانيا عام ٧١٢ هـ ، وأحل محله الأمير تنسكن الحسامى . وحاول الناصر محمد أن يقبض عليه ، ففر إلى خرنبدا ملك التتار وأقام بهمدان حتى مات عام ٧٢٠ هـ ، وكان فارسا بطالا عاقلا جوادا خيرا محبا للعلماء .

« ابن إياس ج ١ ص ١٥٢ ، ١٥٧ - الدرر ج ١ رقم ١٠٢٤ »

٤ - عز الدين إيدمر الخطيرى (١) ٧٣٧ هـ

كان مملوكا للأمير شرف الدين أوحى بن الخطيرى . ثم انتقل ملكه إلى الناصر ابن قلاوون . فرقا حتى أصبح من أمراء الألوف - مقدم ألف - وعظم أمره ، وقربه الناصر إليه ، حتى كان يبيت معه بالقلعة . وكان كثير الفخر مزواجا كريما . مات فى مستهل رجب عام ٧٣٧ هـ ، ودفن بترتبه خارج باب النصر . ومن آثاره جامع ببولاق ، الذى بناه عام ٧٣٧ هـ كذلك ، وجملة : ورتب به درسا للشافعية ، وزوده بخزانة كتب جليلة . ووقف عليه أوقافا .

« خطط ج ٤ ص ١١١ - الدرر ج ١ رقم ١١٢٦ » .

٥ - بدر الدين التركمانى ٧٣٨ هـ

وهو الأمير محمد بن فخر الدين عيسى التركمانى . ولاه الناصر بن قلاوون شادا للدواوين . وكانت الدولة حينذاك بغير وزير ، فاستقل بتدبيرها أعواما . ثم نفر منه ناظر الدولة كريم الدين الصغير ، فدبر الأمر لدى الناصر ، حتى أخرجه إلى طرابلس شادا للدواوين أيضا . ثم عاد إلى القاهرة بعد سنتين . فولى كشف الوجه البحرى ، ثم منح أمير طبليخاناه . وما زال حتى مات عام ٧٣٨ هـ . وله جامع فى المقدس .

« خطط ج ١١٣ - الدرر ج ٤ رقم ٣٤٦ » .

٦ - سيف الدين تنكز الحسامى ٧٤٠ هـ

جلبه إلى مصر الخواجا علاء الدين السيواسي ، فاشتراه الأمير حسام الدين لاجين . ثم صار من خاصكية الناصر بن فلاوون . وظهر نجمه في سلطنته الثالثة . وقد أسند إليه هذا السلطان نيابة الشام عام ٧١٢ هـ عوضاً عن الأمير أقوش الأفرم . وقيل إن السلطان حينئذ جعل نيابة الشام أرقى وأسمى من نيابة حلب . وقد كان العكس قبل ذلك . وظل « تنكز » زمناً طويلاً في هذه النيابة .

وفي سنة ٧١٥ هـ وردت إلى مصر أخبار حملة أعدها « تنكز » وسار بها إلى ملطية فحاصر أهلها ومن بها من الأرمن حتى طلبوا منه الأمان وسلمت إليه في ٢٢ محرم من تلك السنة .

وفي سنة ٧٣٤ هـ وفد الأمير « تنكز » من بلاد الشام على مصر ، وزار السلطان كعادته في كل عام ، إذ كان يزوره في كل عام مرة ومعه نفائس الهدايا ، فلما جاء في العام المذكور ، أنزله السلطان في الميدان الكبير عند البركة الناصرية إذ ذاك ، وبالغ في إكرامه وتعظيمه . وكان هذا آخر لقاء بينهما . وبعد أن أقام مكرماً عدة أيام بارح القاهرة إلى الشام مزوداً بالخلع القيمة من السلطان الناصر محمد ، ونزل من القلعة في موكب حافل . وبلغ بذلك أوج عزه .

وكان سبب عزه هذا رضا السلطان الناصر محمد عنه ، إذ كان تنكز من مماليكه - كما ذكرنا - فجعله خاصكياً ثم أمير عشرة ثم أمير طبلخاناه ثم مقدم ألف ، وهكذا رقيه ، حتى عينه في نيابة الشام ، فظل فيها نحو ٢٨ سنة ، حتى عظمت مهابته وزاد ثراؤه وزاول منصبه بحكمة وقدرة وعدالة . وربما كان هذا هو السبب الذي أثار حقد الأمراء عليه . فسعى بعضهم بالنسيئة بينه وبين السلطان الناصر ، فتغير عليه قلبه ، فأمر باستقدمه سنة ٧٤٠ هـ . وبعث إليه الرسل تلو الرسل ، فكان من سوء حظه أن عصا الأوامر ورفض المجيء ، وأبطأ ، حتى اضطر السلطان إلى أن يسوق عليه تجريدة ، ويسيرها إلى بلاد الشام . فقبضت عليه ، وقيد . وذلك في ذي الحجة

من السنة المذكورة . وحملت نفائسه وأمواله ، وكانت كثيرة بينها الذهب والفضة والياقوت واللؤلؤ والحلى الثمينة ، حملت هذه كلها إلى خزائن السلطان . وصادر السلطان ممتلكاته ، وقيل : إنه كان يمتلك من الضياع بمصر والشام مائة ألف دينار كل عام . ثم سجن بشعر الإسكندرية ، فظل به مقيدا أربعين يوما . ثم أمر السلطان بنخفه . ثم نقل إلى دمشق ودفن في مدرسته التي أنشأها بها ، وتم نقله في أواخر سنة ٧٤٠ هـ . - وقيل في فوات الوفيات أنه نقل عام ٧٤٤ هـ - وفي ذلك يقول صلاح الدين الصفدى :

فى نقل تنكز سر أراده الله ربه
أتى به نحو أرض يحبها وتحبه

مما يذكر أنه جد الملك الصالح صلاح الدين حفيد قلاوون ، لأنه خوند قطلو ملك .

« ابن إياس ج ١ ص ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩٤ - الدرر ج ١ رقم ١٤٢٤ - فوات الوفيات ج ١ ص ١١٧ . »

٧ - علاء الدين أقبغا الناصرى ٧٤٤ هـ

يعرف « بأقبغا » (١) عبد الواحد ، كان استادارا للناصر محمد بن قلاوون . وهو من مشرياته ، رقاها شادا للعمائر ، ثم استدارا في عام ٧٣٢ هـ ، فعظم جاهه واتسعت دائرة نفوذه ، وكان مشالا للنشاط . فلها مات الناصر ، قبض عليه ابنه المنصور عام ٧٤٢ هـ وصادر أمواله وممتلكاته . وكانت له ثروة ضخمة . وادعى بعضهم عليه بمال لدى السلطان ، فهدد إن لم يفهم حقهم ، فوفى لهم . وكان الملك المنصور يحقد على « أقبغا » قبل سلطنته لأنه رد شفاعته مرة إلا أن مدبر دولته الأمير قوصون كانت له عناية « بأقبغا » .

(١) قال في الدرر اسمه أقبغا بن عبد الواحد .

فخفف عنه بعض ما أراده له السلطان من تعذيب . فلما زالت دولة المنصور وقام في الملك أخوه الأشرف كجك ، وكان قوصون صاحب نلا أمر في دولته ، أطلق سراح « أقبغا » ، وجعله في عداد أمراء الشام . فاتهم بعد حين بانضمامه إلى الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد ، لما قام بفتنته بالكرك - وهو منفي بها - ضد أخيه السلطان عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد . فقبض على « أقبغا » وحمل من دمشق إلى الإسكندرية وقتل بها عام ٧٤٤ هـ . وكان به ظلم وطمع وكبر . وأنشأ مدرسته الأقبغاوية بجوار الأزهر .

« خطط ج ٤ ص ٢٢٥ الدرج ١ رقم ١٠٠١ » .

٨ - علم الدين سنجر الجاولي ٧٤٥ هـ

هو سنجر بن عبد الله ، كان مملوكاً للأمير جاولي (١) ، أيام الظاهر بيبرس . وانتقل ملكه إلى بيت قلاوون ، وأخذ طريقه إلى التقدم ، حتى حسن اتصاله بالناصر بن قلاوون ، فجعله نائباً عنه عام ٧١١ هـ ، ووسع اختصاصه . ثم وقع بينه وبين الأمير تنكز نائب الشام نزاع بسبب دار ، فشكاه إلى الناصر ، فقبض عليه عام ٧٢٠ هـ ، وظل معتقلاً نحو ثمان سنوات ، ثم أفرج عنه . ثم أرسله السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ، نائباً على حماة ، ثم نقل إلى غزة بعد قليل . ثم عاد إلى القاهرة وولى نظر المارستان . ثم خرج نائباً على طرابلس ، وكان في جملة المبعوثين لإطفاء فتنة السلطان أحمد بن الناصر ، المنفي بالكرك . ومات بمصر في ٩ رمضان سنة ٧٤٥ هـ ، ودفن بمدرسته التي أنشأها بجوار السكش عام ٧٢٣ هـ . وكان على معرفة بمذهب الشافعي ، وروى وصنف وأفتى أخيراً وشرح مسند الشافعي . وكان ذا خبرة بأمور السياسة والملك .

(١) قال في الدرر : اسم جاول - بلاء ياء .

« خطط ٤ ص ٢٤٧ - الدرر ج ٢ رقم ١٨٧٧ »

٩ - علاء الدين بن زنبور (١) ٧٥٤ هـ

هو صاحب علاء الدين ، واسمه عبد الله بن تاج الدين أحمد بن إبراهيم . ويشتهر بابن زنبور . وهو ممن تقلبوا في مناصب الدولة . وكان قد عظم أمره ، ونمت أمواله نموا عظيما ، وزادت مقتنياته زيادة واسعة ، واجتمع له من الوظائف ما لم يجتمع لغيره ، فكان وزيراً وناظر الجيوش . وناظر الخواص . فقوى بأسه ، وزها بنفسه على الناس . وقد غضب عليه السلطان الصالح صلاح الدين عام ٧٥٣ هـ ، بعد ما بلغ منزلة وجاها عالين . وبطش به بطشة كبرى . وصادر ممتلكاته ، ونفاه إلى قوص . فلبث بها حتى مات ، وبهادفن ، في ١٧ من ذى القعدة عام ٧٥٤ هـ . وقيل في الدرر عام ٧٥٥ هـ .

وقد أحصيت أمواله ومقتنياته ، ففاقت العد والحصر . وكان لديه من كل غال ونفيس ، حتى قيل : إنه أربى على ما كان عند الخلفاء من ذلك . نذكر على سبيل المثال : آلاف من قطع الأقمشة الصوفية والحريرية ، وستين قنطارا من الآواني الذهبية والفضية ، وقنطارين من صناديق الياقوت والماس وحببات اللؤلؤ ، وستمائة ألف دينار من الذهب ، وثلاثين أربابا من الفضة ، وآلاف من الخيول والبغال والجمال ، ومئات من العبيد والمماليك جواري وغللمانا . وبضائع مخزونة تقدر بأربعمائة ألف دينار . وستمائة مركب ، ومائتي بستان وحقل ، وألفا وأربعمائة ساقية ، وآلاف من رموس النضار والأبقار . وأربع نسوة ، ومائتي سرية . وكان له لدى الناس شيء كثير .

نقول : إن كان يبدو شيء من المبالغة فيما ذكر ، فهو يدل - على كل حال - على

ما كان لى هذا الرجل من ضروب المال . ويشعرنا بأن طرق جمعها والاستحواذ عليها لم تكن طرقاً طبيعية .

« ابن إياس ج ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ - فوات الوفيات ج ٢ - خطط ج ٣ - الدرر ج ٢ رقم ٢١٠٢ »

١٠ - سيف الدين صرغتمش الناصر ٧٦١ هـ

جلب هذا الأمير رقيقاً إلى مصر سنة ٧٣٧ هـ ، فاشتراه الناصر بن قلاوون . وقد برز فى عهد الصالح صلاح الدين ، ثم فى عهد أخيه الناصر حسن . وقد سافر فى عداد الأمراء الذين سجنوا الصالح المذكور إلى البلاد الشامية لقتال الأمير بيغيا أروس ، سنة ٧٥٣ هـ . فتغلبوا عليه وعادوا لمصر .

وفى عام ٧٥٤ هـ ثارت قبائل عربية كثيرة ببلاد الصعيد ، والتفوا حول شيخ قبيلة عرك ، واسمه الأحذب ، وألحقوا بتلك البلاد خسائر كثيرة . فخرج الصالح ليقاتلهم بنفسه ومعه جمع من أمرائه وجنده ، كان فى مقدمتهم الأمير « صرغتمش » فأوقعوا بهم ، وأثنوا فيهم .

ولما دالت دولة الصالح ، وعاد الناصر حسن إلى عرشه سنة ٧٥٥ هـ ، ظل « صرغتمش » صاحب الحل والعقد فى البلاد ، مع الأتابكى شيخو ، وإن كانت رتبته رأس نوبة النوب . غير أن ذلك لم يطل ، فقد قتل شيخو سنة ٧٥٨ هـ ، وانفرد « صرغتمش » بالأمير ، وأصبح مرجع السلطان فى كل شىء ، وكانت بينه وبين الأمير « طاز » - نائب حلب إذ ذاك - عداوة . فاتهمز الفرصة وأمر بالقبض عليه دون علم السلطان ، وسجنه بالإسكندرية . وأخذ يستبد بشئون الدولة ، ويولى ويعزل من يشاء ، فقتل أمره على السلطان سنة ٧٦١ هـ وخشى منه . وأشار عليه بعض الأمراء بأن يبادر بالقبض عليه ، قبل أن يدبر للسلطان أمراً . فقبض عليه فى رمضان من العام

المذكور ، وهو في موكبه بالإيوان . فاهتاج بماليكه - وكانوا نحو ثمانمائة - فتقلدوا أسلحتهم واستعدوا للقتال في الرميّة . فوثبت عليهم الجنود السلطانية ، فكسروا شوكتهم ، فتفرقوا ولم تقم لهم قائمة . وانتهز كثير من العامة هذه الفرصة ، وهجموا على بيوت « صرغتمش » ومنازل أتباعه ، فنهبوا ما فيها .

وقيد « صرغتمش » وأرسل إلى سجن الإسكندرية ، فأقام نحوًا من ثلاثة شهور ثم خنق . وقد كان مليح الصورة يقرأ القرآن ، ويشارك في الفقه . غير أنه كانت به شراسة . وقد اقتنى مالا كثيرا . وقيل كان موته سنة ٧٥٩ هـ .

ومما يذكر أنه جد المظفر أحمد بن المؤيد شيخ ، لأمه خوند سعادات .

« ابن إياس ج ١ من ص ١٩٦ إلى ٢٠٨ - وج ٢ ص ١٠ - خطط ج ٤ ص ٢٥٧ - الدرر ج ٢ رقم ١٩٧٨ ،

١١ - طاز الدوادار ٧٦٣ هـ

أحد الأمراء البارزين . وكان أحد السبعة الذين كان ييدهم أمر الدولة في عهد المظفر حاجي . ثم اتسع جاهه وعلا نجمه في عهد السلطنة الأولى للناصر حسن . ومن أثاروا الفتنة عليه سنة ٧٥٢ هـ ، وتزعم المؤامرة ضده لخلعه . فجمع عددا من الأمراء والجنود في ١٧ جمادى الآخرة في السنة المذكورة ، وقبضوا على السلطان حسن وسجنوه بالقلعة ، وأقاموا أخاه الملك الصالح سلطانا على البلاد . بذلك أصبح الأمير « طاز » صاحب الحل والعقد ، يدبر شئون البلاد كإيشاء ، يأمر الملك فيطيع . فكان ذلك من العوامل التي أحقدت نفوس الأمراء عليه ، وغيرت قلوبهم . فوقعَت المشاحنات واحتدم القتال بين الفريقين . فاستطاع الأمير « طاز » والسلطان الصالح أن يشتمتا شمل أعدائهما وأن يقبضا على زعمائهم ويدعاهم السجن . غير أن الأمير « طاز » لم يبلغ مرتبة الأتابكية ولا نيابة السلطنة على الرغم من تضخم نفوذه . ثم

جدله أمر جديد ، وهو تضخم نفوذ أميرين من كبار الأمراء هما شيخوا العمرى وصرغتمش الناصرى . فكان ذلك مشارا لخوفه بل لمحتته فيما بعد ، على يد صرغتمش . وكان الأمير شيخو يعرف ما فى نفس صرغتمش ضد الأمير « طاز » ، ويعرف أنه يحاول البطش به ، فكان يقعده ويرجعه عن بلوغ غايته . - وقد انتهز هذان الأميران الفرصة حينما توجه الأمير « طاز » إلى بلاد اليحيرة للصيد ، وقبضا هما واتباعهما على السلطان الصالح ، وأودعا السجن وخلعا ، وقررا عودة السلطان الناصر حسن المخلوع ، وذلك عام ٧٥٥ هـ . ولما تم لهم ما أرادوا ، وعاد الأمير « طاز » من رياضته ، قبضوا عليه وقيدوه وأرسلوه إلى السجن . فأقام فيه أياما حتى شفّع فيه بعض الأمراء ، فأطلق سبيله . وعينه السلطان حسن نائبا لحلب . فظل فى هذا المنصب حتى توفى الأتابكى شيخو . وخلا جو البلاد للأمير صرغتمش . فانتهز الفرصة وأمر بالقبض على الأمير « طاز » ، نائب حلب من غير علم السلطان وذلك عام ٧٥٩ هـ . فأرسل إلى مصر وسجن بشعر الإسكندرية . فلبث زمنا ثم أطلق سراحه . ومات بدمشق عام ٧٦٣ هـ ، وهو منفى . وكان شجاعا محبا للعلماء .

« ابن إياس ج ١ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ - الدرر ج ٢ رقم ١٩٩٨ - خطط ج ٣ ، »

١٢ - أزدمر العمرى ٧٧١ هـ

هو الأمير أزدمر العمرى الناصرى الشهير بالخازندار وأبى ذقن ، جدو الدالمورخ ابن إياس المصرى صاحب بدائع الزهور . كان أمير سلاح فى بدء عهد سلطنة الأشرف زين الدين شعبان حفيد الناصر محمد . ثم إن هذا السلطان نقله نائبا لطرابلس فى أول حكمه سنة ٧٦٤ هـ . وفى عام ٧٧٠ هـ كان مقيما بمصر . وكان بينه وبين مماليك يلبغا عدا ، فأرغموا الأتابكى استدمر على القبض عليه ، فسجنه ، حتى رُسم بالإفراج عنه فى أوائل عام ٧٧١ هـ . وولاه السلطان نيابة الشام عوضا عن الأمير على الماردىنى

فلما وصل في سفره نحو الشام إلى العريش ، مرض هناك وعاد إلى القاهرة . فلبث مدة مريضاً ثم توفى . ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من زاوية الشيخ أبى العباس البصير رضى الله عنه . وكان الأمير أزدمر جليلاً ديناً خيراً له بر معروف وآثار . أنشأ سيلاً بطرابلس وخاناً بحلب وأوقف على الحرمين . وتولى أربع نيايات هى : حلب وطرابلس والشام وصفد .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،

١٣ - بيدمر الخوارزمى

وهو نائب الشام فى عهد السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان وأتابكيه برقوق . وفى كانت سنة ٧٨١هـ شق عصا الطاعة بدمشق ، وخرج على السلطان فقبض عليه جندها ، وسير إلى القاهرة . فسجن فى دمياط . فظل بها ، حتى ملك السلطان الصالح أمير حاج ، فرسم بالإفراج عنه عام ٧٨٣هـ ، وأعادته إلى نيابة الشام . فظل بها مرعى الجانب حتى كانت سنة ٧٨٦هـ ، وكانت السلطنة قد آلت إلى برقوق . فحضر الأمير والمقر السبقى « بيدمر » الخوارزمى ليزور السلطان برقوق وقدم إليه هدايا نفيسة ، فأكرمه السلطان وأعلى مكانته وقدمه على نائب سلطنته سودون الفخرى . وأقام زمناً فى القاهرة ثم عاد إلى الشام .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ - الدرر ج ١ رقم ١٣٩٣ ،

١٤ - جمالا الدين محمود الاستادار ٧٩٩هـ

أحد عظماء الأمراء المصريين الذين شهدوا ضروباً من نعيم الحياة وترفها . واقتنوا النفيس من متاعها ، وأحاطوا أنفسهم بصنوف من الملاذ ، قيل : كانت عادة رؤساء

مصر اقتناء الجوارى المغنيات ، يغنين لهن ليلا في وقت مرح وسرور . وآخر من فعل ذلك منهم الأمير جمال الدين محمود الاستادار .

ويعرف هذا الأمير بابن علي الظاهري . وقد عينه في الاستادارية السلطان برقوق العثماني في يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول عام ٧٩٢ هـ . وقد جعله أستاذار العالية ، وناظر الخواص الشريفة ومشيرا للدولة ، فزادت عظمته ونفذت كلمته ، وهيبته سطوته . وكان له ولد هو الناصري محمد ، وقد عينه السلطان برقوق نائبا لشعر الإسكندرية في عام ٧٩٤ هـ .

ويظهر أن هذه المكانة التي نالها الأمير جمال الدين أتحقت بعض الممالك عليه . ولعله أيضا كان يسير في عمله على غير رغبتهم ، ولا سيما بمالك الطباقي بالقلعة . ولهذا انتهزوا فرصة نزوله من القلعة في يوم الاثنين ١١ جمادى الأولى عام ٧٩٤ هـ بعد تأدية خدمته للسلطان ، ورجعوه ، فهرب منهم فسحبوه إلى الرميطة ، وآذوه هناك إذاء شديدا هو وبعض الموظفين ، فتدخل في الأمر الأمير إيتيمش البجاسي بمالكة واستنقذهم منهم . وبعد مدة اصطالح الطرفان .

وما زال الأمير محمود في عز وترف وثراء ، حتى غضب عليه السلطان برقوق لبعض هفواته . ولعله رغب من وراء ذلك أن يستولي على مقتنياته من مال وجوهر وجواري . وكان هذا الغضب سنة ٧٩٨ هـ . وفي يوم السبت ٦ صفر من هذا العام أرسل إليه طواشيا يدعى شاهين الحسنى الجمدار ، فجمع ابنه محمدا ونساءه وسراييه وسجنهم . وهم بالقبض على الأمير جمال الدين محمود نفسه ، ولكنه اختفى . فكان ذلك آخر عهده بالاستادارية ، إذ عين السلطان فيها الأمير قطلوبك العلاني . . وبعد زمن وجيز أخذ السلطان في تفتيش ما يملك الأمير جمال الدين ، والبحث عما يفتنى ، وجمع كل ما يعثر عليه من نفائسه . فجميع من ذلك كله صنوفا تجل عن الحصر . منها على ما روى : سبعة أزيار كبار وزلعتان مملوءة فضة ودراهم . وجرتان من الذهب

و ٣٦ ألف من دينار في مكان ، و ٢٠٠ ألف دينار في مكان آخر ، و ٣٠ ألف دينار في غيرهما . ووجد له عند آخرين من الناس وبعض مماليكه ما مجموعه نحو خمسمائة ألف دينار . هذا عدا الجواهر والحلي والأقمشة والخيول والممالك والجواري والضيايع والمراكب والطواشية والغلال - قال ابن إياس : « وهذا الموجود يقارب موجود الصاحب » علاء الدين بن زنبور . وقد ذكرناه في هذا الباب في رقم ٩ .

وقد صادر السلطان برقوق كل هذه الممتلكات واحتازها لنفسه - ثم قبض على الأمير جمال الدين محمود في كوم الجراح ، فسيجن هو وابنه في خزانة شمائل - مكان جامع المؤيد الآن - فلبثا زمنا في سجنهما حتى كانت سنة ٧٩٩ هـ ، فتوفي هذا الأمير وهو في سجنه ، ثم دفن في مدرسته التي أنشأها خارج باب زويلة .

ابن إياس ج ١ ص ٢١٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ - تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٩٧ - خطط ج ٤ ص ٢٤٢ ، ٢٥٢ ،

١٥ - - تتم الحسنى ٨٠٢ هـ

هو نائب الشام في العهد الثاني لسلطنة الملك برقوق . وقد حضر إلى مصر سنة ٧٩٩ هـ ، لزيارة السلطان برقوق . فلما بلغ السلطان قدومه إلى الريدانية نزل من القلعة ولأقاه ، وخلع عليه وأنزله بالميسدان الكبير عند الناصرية . فقدم « تتم » إلى السلطان هدايا ضخمة نفيسة جدا ، مابين ممالك وجوار ودنانير وأسلحة ، ومصحف ذهبي ، وجواهر ثمينة ، وأقمشة فاخرة ، وفاكهة متنوعة ، وسكر وحلوى شامية . وقد أقام له السلطان وليمة حافلة في بر الجيزة ، وأقام أياما ثم عاد إلى الشام . - ظل تتم الحسنى في منصبه حتى آلت السلطنة إلى الملك فرج بن برقوق ، فشق عليه عصا الطاعة في سنة ٨٠٢ هـ . وأطلق من في سجون قلعة دمشق من الأمراء . وفي الوقت

نفسه كان الأتابكي إيتمش البجاسى قد ثار فى القاهرة ضد سلطانه فرج ، وكانت بين الفريقين وقائع ودماء ، فر على إثرها إيتمش إلى الشام هو وعصبته من الأمراء . فلقيهم « تم » الحسنى نائبها خير لقاء ، وقدم إليهم كل معونة من مال وسلاح وخيل وزاد . وانضم إليهم فى عصيانهم نائب حلب وحماة وصفدو طرابلس وعدد ضخم من الجند والعربان . وأصبح الأمير « تم » شبيها بالملوك فى بلاد الشام ، يركب كركوبهم وينزل كنزولهم . وتحرك « تم » لقتال السلطان فرج فخفف إليه فرج فى جند عظيم وتلاقوا على مقربة من غزة . ولكن بعض أنصار « تم » انضم إلى جانب السلطان فرج . ففت بذلك فى عضده وعول على الفرار . ففر هو والأتابكي إيتمش البجاسى وعدد من عصبته إلى الرملة بمصر ، وتركوا السلطان بغزة . ثم إن السلطان فرجا أرسل إليهم قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى والأمير ناصر الدين بن الرماح ليصالحهم ، فأبوا وعولوا على القتال . فعاد إليهم السلطان ووقعت بين الفريقين معركة حامية فى مكان يقال له « الحبتين » فى يوم السبت ١٢ رجب عام ٨٠٢ هـ ، فانهكسر « تم » وهرب إيتمش إلى الشام ، ولكن السلطان تمكن من القبض عليهما وسجنهما . وقد قبض على « تم » وصودرت أملاكه . وعاد السلطان إلى دمشق وأمامة « تم » نائبها وهو مقيدرا كب على كدش . وظل « تم » فى سجنه حتى خنق بأمر السلطان فرج بعد أيام فى نفس السنة .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٠٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ - الضوء

ج ٣ رقم ١٨٣ ،

١٦ -- نوروز الحافظى ٨١٧ هـ

أحد الأمراء العظام وقد أخذ يترقى حتى كان رأس نوبة النوبى فى عهد السلطان فرج بن برقوق . وكان من قبل مسجوناً بشغرا الإسكندرية لاشتراكه فى عدة مؤامرات

فأطلق السلطان فرج سراحه وخلع عليه هذا اللقب في سنة ٨٠٢ هـ . وقد أقام نوروز
قبة على فسقية الخانقاه الشيعونية حينئذ ولم يكن لها قبة . وقد صحب سلطانه فرجا
في قتاله ملك التتار تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ . فكان أحد الأمراء الستة المقدمين في
الطليعة ، وهم الأتابكي بيبرس الركني وبكتمر ونوروز وأقبای الطر نطای الحاجب
وإينال باى بن قيجاس وبلغا الناصرى . وقد كانت عاقبتهم الانكسار . - ثم إن
نوروز علت مكانته لدى السلطان فرج ، حتى أصبح في عداد من يثق بهم ويكل إليهم
مهام دولته . وقد عينه مشيرا للدولة ومديرا للمملكة ، وقد دعمت مكانته لديه بأن
تزوج من أخته وذلك سنة ٨٠٤ هـ . وهى بنت السلطان برقوق ، ودخل بها «نوروز»
في ٢٠ محرم من تلك السنة وكان لها حفل عظيم . وفي تلك السنة ثارت فتنة «نوروز»
الحافظى والأمير حكم العوضى وغيرهما من الأمراء ضد السلطان ومن التف حوله
من الأمراء . وأدى ذلك إلى شغب ثورة أهلية بين جنود الفريقين . ثم عمل السلطان
والقضاة على إطفاء الفتنة ومصالحة الأمراء . فوفد الأمراء المتعادون إلى حضرة
السلطان ، وقبلوا له الأرض وتضافحوا أمامه . وسكن هذا التراضى كان على حقد ودخن .
فإنهم ماعتموا أن أناروها فتنة جديدة وحربا شعواء . فاضطر السلطان ومن معه من
الأمراء إلى تتبع الشائرين وقتالهم ، فانتصر عليهم في جهة بركة الحبش وأسر جماعة
منهم وفر الباقون . ومن بين الفارين الأميران حكم العوضى «نوروز» الحافظى . وفروا
إلى بر الجيزة حيث مكشوا ثلاثة أيام . ثم فارقهم «نوروز» إلى القاهرة وطرق باب
الأتابكي بيبرس الركني ، ورجاه أن يشفع له عند السلطان فشفع وقدم إليه فرضى
عنه السلطان فرج لأنه صهره ، وخلع عليه نيابة الشام . فأخذ في الرحيل إليها ، فلما
بلغ مخيمه الريدانية ، بعث السلطان في إثره من قيده وبعث به إلى سجن الإسكندرية .
فظل «نوروز» في سجنه حتى عام ٨١٠ هـ . فأفرج عنه السلطان فرج - وكان قد خلع ثم
عاد إلى سلطنته - ولما أطلق سراح «نوروز» عينه نائبا للشام في ذلك العام . وكذلك

أفرج عن الأمير جكم العوضى ، وكان مسجوناً . وعينه نائباً لحلب . وبمجرد وصول كل منهما إلى مقر عمله أعلن بالعصيان وأعلن جكم بنفسه سلطاناً على حلب ، وتلقب بالملك العادل . ولكنه سرعان ما اعتدى عليه معتمد فقتله فكفى السلطان شره . وبقي أمامه «نوروز» . وكان «نوروز» قد جمع حوله عدداً من الأمراء والجنود منهم الأمير شيخ الحمودى - وهو الذى صار سلطاناً على مصر فيما بعد - وتلقب بالمؤيد - وكان إذ ذاك نائب طرابلس . ولما قوى أمرهما فى الشام سار الملك فرج لقتالهما فى عام ٨١١ هـ فتلاقوا بجهة تعرف بالسعيدية . فانكسر السلطان وتبعه الأمير «نوروز» وشيخ فى فراره إلى القاهرة ، ولكن السلطان استطاع بها لقاءهما فكسرها فهربا إلى الشام ثانية مهزومين . ثم راسلها الملك ومنح نيابة الشام للأمير شيخ . وأمر «نوروز» بالإقامة فى القدس عاطلاً . ولكنه على الرغم من هذا كله فقد بقى لهذين الأميرين نفوذ عظيم فى بلاد الشام حتى استطاعا قطع اسم الملك الناصر فرج من الخطبة بدمشق وتوابعها ، واجتمع حولهما عدد ضخم من الأمراء والجنود . وذلك عام ٨١٣ هـ ، ٨١٤ هـ . فعول السلطان على قتالها ثانية . فدخل بلاد الشام بعسكر كثيف عام ٨١٥ هـ ولكنه انكسر كسرة شنيعة بجهة تعرف باللجون ، وقبض عليه وقتل . وكان هذا النصر سبباً لرفعة الأمير «نوروز» الحافظى وشيخ الحمودى . واتفقا معاً على تولية السلطان أبى الفضل العباس بن محمد المتوكل العباسى وهو الخليفة القائم فى ذلك الحين والملقب بالمستعين بالله . اتفقا على ذلك تفادياً للخلاف بينهما . وكذلك اتفقا على أن يكون شيخ الحمودى هو الأتابك . وأن يكون «نوروز» نائباً على بلاد الشام . فظل هذا الوضع أشهراً ثم تغلب الطمع على شيخ الحمودى ونزع السلطنة من المستعين بالله وتسلم ذروتها عام ٨١٥ هـ . فكان ذاك سبباً لغضب نوروز فامتنع عن طاعته ببلاد الشام . ولكن السلطان المؤيد شيخاً أعد لإخضاعه عدته . فلما استتب له الملك خرج إلى الشام فى عام ٨١٧ هـ .

فحاصر « نوروز » بدهشوق حصارا قويا حتى سلم له « نوروز » فقطع رأسه بقلعة دمشق وأرسله إلى القاهرة فعلق على باب زويله ثلاثة أيام ، ثم دفن وانتهت بذلك حياته وجهاده الطويل .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ » - ج ٢ ص ٣ ، ٤ - الضوء > ١٠ رقم ٨٧١ .

١٧ - حكم العوضى ٨١٠ هـ

أصله من ماليك برقوق ، ومن الأمراء الذين برزوا أيضا في عصر السلطان فرج ابنه . وكان وجودهم من أسباب توجيه الحوادث إلى نواح معينة . وقد اشترك « حكم » في الثورة الأهلية التي وقعت عام ٨٠٤ هـ . فتزعم هو وعدد من الأمراء المماليك السلطانية ضد الأمير « يشبك » الشعباني الدوادار . وما زالوا به حتى هزموه وفر من وجههم كابينا في ترجمته الآتية . فلما هدأت الفتنة خلع السلطان على الأمير « حكم » العوضى ، وجعله دوادارا كبيرا عوضا عن يشبك الشعباني . فعظمت مكانته وهيبته منزلته وأصبح مصدر خوف يخشاه بعض الأمراء حتى السلطان نفسه . ويظهر أنه كان يبدى الغطرسة والكبر ويضمهر الشر ، وعرفوا هم عنه هذا ، فخافوه وتربصوا به الدوائر . - وما لبث « حكم » العوضى أن انضم إلى نوروز الحافظي وغيره في فتنة ضد السلطان فرج عام ٨٠٤ هـ . ثم صالحهم السلطان . وعقيب ذلك أرسل خلعة إلى أخى « حكم » وهو المسمى قانباي العلاني ، ورسم له بالتوجه إلى حلب نائبا عن السلطان فيها . وكان ذلك على غير رغبة من « حكم » ، فعظم عليه الأمر وعاد الفتنة مرة أخرى ، وانحاز إلى جانبه عدد ضخم من الأمراء والمماليك . ولكن السلطان فرجا استطاع أن يقضى على مجموعهم ، فهرب زعمائهم ومن بينهم الأمير « حكم » العوضى والأمير نوروز الحافظي ، فساروا نحو الميمون ثم الجيزة . أما نوروز فبعد

ثلاثة أيام وفد على السلطان كما بينا ثم كان نصيبه السجن . وأما « جكم » العوضي فإنه أرسل السلطان يطلب إليه الإذن له بالمسير إلى دمياط ، والإقامة بها دون سجن ، فسمح له بذلك ، واستقدمه أولا إلى القاهرة . فلما قدم قيد هو ومن معه وأرسلوا إلى سجن الإسكندرية . فظل « جكم » مسجوناً . ودالت السلطنة الأولى لفرج وأعقبه أخوه ، ثم عاد فرج إلى عرشه في عام ٨٠٨ هـ . ولما كانت سنة ٨١٠ هـ صدر أمره بالإفراج عن « جكم » ونوروز . وأتاب نوروزاً في الشام وأتاب « جكم » في حلب . فما لبثا بعد توجههما أن ثارا وأظهرا العصيان . أما « جكم » فإنه أعلن بنفسه سلطاناً على حلب وتلقب بالملك العادل . وأصبح صاحب الحل والربط في البلاد الحلبية ، وجزء كبير من البلاد الشامية . فضاعت الأرض على رجليها أمام الملك الناصر فرج ، وعول على الانتقام من هذا الخارج عليه . ولكنه ما عثم أن كفى مشورته ، فقد خرج على حكم « جكم » أحد أولاد قرا يوسف التركاني ، فهب « جكم » للقائه والتقى عسكرهما ، فقتل « جكم » وقت الممعة ولم يعثر له على أثر وذلك سنة ٨١٠ هـ . وقيل سنة ٨٠٩ هـ . وكان مهيباً يحب العلماء ويسمع الشعر .

« في ابن إياس ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،

الضوء ج ٣ رقم ٢٩٢ ،

١٨ - يشبك الشعباني الدوادار (١) ٨١٦ هـ

من علا نجمهم في عهد السلطان فرج بن برقوق ، ومن اعتمد عليهم هذا السلطان في تدبير أمور دولته . وقد منحه في سنة ٨٠٣ هـ لقب دوادار كبير ومشير المملوك ، وشارك نوروز الحافظي في القيام بالأعمال . غير أنه ما لبث إلا ريثماً انغمس في

فتنة ضد بعض المماليك السلطانية وكبار الأمراء . واشترك معه فيها الأميران قطلوبغا
السكركي ، وأقبای الخازندار . ووقع بين الفريقين معارك عدة وتدخل بينهما
السلطان . غير أن العاقبة كانت انهزام « يشبك » وطائفته وفراره ، واختفاؤه في تربة
خوند سمرا ، اتجاه باب جامع قوصون خارج باب القرافة إذ ذاك . وقد نهب العوام
بيته وبيوت تابعيه . ثم عرف مكانه فقبض عليه . وأرسل إلى سجن الإسكندرية ، فظل
حتى عام ٨٠٤ هـ ، ثم أمر السلطان فرج بالإفراج عنه ثم خلع عليه وأعاد دوا دارا
كبيرا كما كان . ومع ذلك هم بعض المماليك بالبطش به فاستطاع الهرب منهم ، وقد
عاقبهم السلطان بضر بهم بالمقارع ، وأشهرهم في القاهرة ، فخدمت فتنتهم بعض الخنود .
وهكذا ظل الأمير « يشبك » يعيش تحت حماية السلطان فرج ، حتى دالت سلطنته
الأولى وخلفه في السلطنة أخوه المنصور عبد العزيز بن برقوق . وكان متزعم حركة
هذا الانقلاب الأتابكي يبرس الركني ، فأصبح صاحب الحل والعقد بالديار المصرية .
فغض هذا من منزلة الأمير « يشبك » ، الشعباني الدوا دار . وود لو عاد فرج إلى
سلطنته ، وكان قد اختبأ لدى المقر السعدى إبراهيم بن غراب . فلما شعر ابن غراب
بهذه الرغبة تجيش في نفس « يشبك » ، أخبره بمكان فرج ودبر حركة لظهوره .
ثم أعلنوا به ، فأنحاز إلى جانبهم عدد من الجند والأمراء ، فوقع القتال بين هؤلاء
وبين من التف حول السلطان المنصور ، فانتصر فريق « يشبك » وعادت السلطنة إلى
فرج سنة ٨٠٨ هـ ، وعادت سطوة الأمير « يشبك » إلى سابق عهدها . وبعد حين
نفر منه السلطان ، فقبض عليه هو والأمير شيخ وسجنهما في قلعة دمشق ، فقرا ،
فتعقبهما نوروز وقتل « يشبك » سنة ٨١٦ هـ ، وأرسل رأسه إلى الناصر . فطيف به ،
وعلق أيا ما . وكان « يشبك » أميراً جليلاً كريماً وقوراً .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ - الضوء ج ١٠

١٩ - جاني بك مملوك الأشرف برسباي ٨٣١ هـ

قال عنه ابن إياس ماملخصه : لما دخلت سنة ٨٢٧ هـ فيها تزايدت عظمة الأمير جاني بك مملوك الملك الأشرف برسباي وصار أمير طبلخاناه ودوادارا ثانيا . واجتمعت فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد في دولة أستاذه . وهو صاحب المدرسة التي بالقرب من المنجكية . ومما يحكى عنه أنه نفى الأتابكي بيبيغا المظفرى إلى نغر الإسكندرية من غير علم السلطان . فلما علم السلطان بذلك لم يقل له : لأى شىء فعلت ذلك . وتناهت عظمته حتى التف عليه جميع العسكر . وكان الأمراء المقدمون ينزلون معه من القلعة إلى بيته الذى بالقرب من سوق الجوار . ولم يزل جاني بك على ذلك حتى خشى منه الملك الأشرف أن يثب عليه ، فأشيع أنه دس له السم ، فاستمر عليا ملازم الفراش حتى مات في أثناء دولة أستاذه . ولو عاش لوثب على أستاذه وتسلطن . - ومات في نحو الخامسة والعشرين .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٧ - الضوء ج ٣ رقم ٢١٦ »

٢٠ - عبد الباسط بن القرشى خليل ٨٥٣ هـ

هو زين الدين . اشتهر هذا القاضى في عصر السلطان الأشرف برسباي . وقد كان من أتباع الملك المؤيد شيخ الحمودى فقر به برسباي فيمن قرب من أتباع شيخ . وجعله في عام ٨٢٥ هـ ناظر الجيوش المنصورة . واتسع جاهه وبسط نفوذه حتى قيل إنه أصبح صاحب الحل والعقد في عصر برسباي ، لا يرم أمرا ولا ينقضه إلا بعد مشورته . وقد أطلق عليه لقب « عظيم الدولة » . - ويظهر أنه لم يزاحمه في نفوذه هذا سوى مملوك برسباي وهو الأمير جاني بك إذ فاق نفوذه نفوذ كل أمير سواه . - وما زال الزينى عبد الباسط في نعمة من الجاه وبسطة من النفوذ ، حتى تقلبت الأيام وآلت السلطنة إلى ابن برسباي ثم إلى الظاهر جقمق العلاتى ، فغضب على الزينى

عبدالباسط عام ٨٤٤ هـ ، وصادر أملاكه وصفيّ موارده وأمواله وأخذ منه نحو مائتي ألف دينار ونفاه إلى مكة ثم نقله إلى الشام . ولما كانت سنة ٨٤٨ هـ أعاده إلى مصر وأكرمه وأقام بلا عمل حسن الصلة بالناس وبالسلطان حتى توفي في ٦ شوال من تلك السنة . وكان كثير الخير والبر ، أنشأ عددة مدارس في مصر وبيت المقدس والمدينة ومكة ، وكان يرسل الأعطيات لفقراء الحجاج في كل موسم . وقد تزوج الملك الظاهر جقمق ابنة هذا القاضي بعد وفاته . وذكر في الضوء وفاته سنة ٨٥٤ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ - الضوء ج ٤ رقم ٨١ » .

٢١ - جاني بك الظاهري الجرّسي الدوادار ٨٦٧ هـ

أصله مملوك - لجوباش المحمدي الناصري الأتابك . وانتقل مملوكه إلى الظاهر جقمق قبل سلطنته ، فأعتقه . فلما ولي السلطنة جعله خاصّكيا . وولاه نظر الكنائس ، وشادية جدة في عام ٨٤٩ هـ . فنهض بما وكل إليه نهوضا محمودا . وظهرت كفاءته لسلطانته ، فعظم عنده ، ومن ثم عظم جاهه ، وقوى نفوذه - وصار يقال له « نائب جده » . ورقى أستاذارا في عهد جقمق ، وأعفى من الاستادارية في عهد إينال ، ليتفرغ لأعمال جدة . وزيد في إقطاعه ، فأثرى ، وابتنى تربة الجميلة خارج باب القرافة ، وبها مدرسة وكتاب للأيتام ، وحوض وبستان عظيم وبركة ، وغير ذلك . وأصبح مهيّبا ، وكاتبه المملوك ، وأهدى إليه . وأسندت إليه الدوادارية في عهد خشقدم ، فصار مدبر الدولة وبلغ أوجه . وكان حسن السياسة كيسا محسنا ، ثم قتله المماليك الجلبان في بعض أسفاره عام ٨٦٧ هـ ، ودفن بتربة .

« الضوء ج ٣ رقم ٢٣٥ »

٢٢ - برد بك الأشرفي ٨٦٨ هـ

كان مملوكا للأشرف إينال . فرباه وأعتقه ، وزوجه ابنته الكبرى . رقاہ دوادارا

ثالثا . وما زال به يرقيه ، حتى صار دوادارا كبيرا . فزادت عظمته ونفدت كلمته ، وأطيع أمره . فلما ملك خشقدم صادره وأحاط بماله ، ونفاه إلى مكة . ثم أمر له بالعودة بعد حين . فعاد ولكنه قتل في الطريق بيد بعض القطاع من الأعراب ، عال ٨٦٨ هـ . فدفن بجليص . ثم نقل إلى مكة . .
« الضوء جزء ٣ رقم ٢٠ »

٢٣ - العلائي علي بن محمد الأهناسي الأستاذار ٨٧٠ هـ

كان في أول أمره يشتغل « بردارا » لدى الأستاذار زين الدين الحلبي . ثم انتقل إلى الأستاذارية عند المقر الشهابي أحمد بن الملك الأشرف إينال . فلما اختفى زين الدين الحلبي عام ٨٥٧ هـ « سعى ابن الأهناسي » لدى إينال في تولي الأستاذارية الكبرى فتم له ذلك في العام المذكور . فأخذ جاهه في الازدياد . ثم ظهر زين الدين الحلبي في أوائل المحرم عام ٨٥٨ هـ ، وشفع فيه لدى السلطان ، فرضى عنه ، وأعادته إلى منصبه وخلع منه « ابن الأهناسي » . وفي عام ٨٦٠ هـ عُين في الوزارة عوضا عن سعد الدين فرج بن النحال . فعظم أمره ثانية . ثم خلع منها في عهد خشقدم عام ٨٦٦ هـ ، ثم أعيد في عام ٨٦٨ هـ إليها ومعها نظارة الخاص . ثم جد له من العوامل ما دفعه على الاختفاء . ولكن قبض عليه وسجن ، وصودر ، ونفي إلى مكة ، فمات بها سنة ٨٧٠ هـ .
« ابن إياس ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٩٩ »

٢٤ - الأستاذار زين الدين الحلبي ٨٧٤ هـ

أصله من الأرمن . واسمه يحيى بن عبد الرزاق الأرمني . وكان يعرف بالأشقر ابن كاتب علوان . وقد ارتقى إلى الأستاذارية في عهد السلطان الظاهر جقمق العلائي : وكان هذا السلطان يعتمد عليه في كثير من مهامه ، فنفدت كلمته وعلت سطوته . قيل :

ولم يحىء من بعده من يضاهيه في منصبه نفوذاً وسطوة وعلو جاه . وذلك منذ عام ٨٤٩ هـ . فلما زالت دولة جقمق وابنه ابتداء عهد نحسه وأفول نجمه . وكان قد فارق هذا المنصب فأعادته إليه الأشرف إينال على كره منه . غير أنه ضاق بأعبائه فاخفى عام ٨٥٧ هـ . فعين السلطان مكانه في الاستادارية العلائى بن الأهناسى . ثم رسم السلطان بنفيه إلى القدس وذلك في صفر عام ٨٥٨ هـ . فبمجرد أن خرج متوجهاً إلى القدس بعث إليه السلطان من قبض عليه عند سيل ابن قايمار ، وفتشه رجاء أن يجد معه مالا ، فلم يجد إلا ثلثمائة دينار ونشأ من الفضة . وكان قدوشى به إلى السلطان أن معه مالا جمعه . ثم أمر السلطان بإعادته إلى القاهرة . ثم أدخلوه إلى القلعة ومنها إلى البحيرة وسجن . وفى يومه هذا أحضر إليه السلطان المعاصير وعصره وآذاه لكي يعترف بما يدخره من المال ، فلم يعترف . وطلب إلى السلطان أن يبيع أوقافه ويأخذ منها ما يريد من المال . فحمل هذا الطلب عنه ناظر الخاص ، فأمر بإحضاره بين يدي السلطان ، فضربه نحواً من خمسمائة عصا . ثم شفع فيه الأمير تمر از الدوادار الثانى ، فقبل السلطان شفاعته . وخلع عليه وأعادته إلى الاستادارية وصرف عنها العلائى على بن الأهناسى . ثم ضم إليه منصب كاشف الكشاف بالوجهين القبلى والبحرى . فانتعش حاله بعض الانتعاش . حدث هذا كله فى شهر صفر من عام ٨٥٨ هـ . وفى ذى العقدة من السنة نفسها غضب عليه السلطان مرة أخرى وضربه ضرباً مبرحاً ، وتسلمه منه الجمالى يوسف ناظر الخاص ، فسجنه لديه حتى يورد ما فرض عليه السلطان من غرم مالى . ويتبادر للذهن . أن سبب كل ذلك كره السلطان له من زمان بعيد ، كرهاً أو جحداً السبيل إلى الوشاة ، فزينوا للسلطان أن هذا الرجل يربح من وظيفته الكثير من المال فعليه أن يؤدى جانباً منه للسلطان ! . فلما سجن ظل زمناً ، ثم نفاه السلطان إلى القدس . فلبث هناك حتى رجب عام ٨٥٩ هـ . فعاد بصبحه الأمير بردبك صهر السلطان . فرضى عنه . ورد إليه منصبه . فلبث فيه حتى شهر جمادى الآخرة عام ٨٦٠ هـ ،

فغضب عليه مرة أخرى بحجة أنه تأخر في تهيئة الطعام اللازم للقصر وجنوده . وضرب ضرباً مبرحاً وكبل بالحديد وسجن . وولى مكانه الوزير سعد الدين فرج بن النحال . وبعد زمن استخلص منه السلطان عشرة آلاف دينار ، ونفاه في شهر شعبان من السنة نفسها إلى المدينة المشرفة . فسار إليها بطريق البحر . فلبث منها بها . ثم أمر فعاد إلى القاهرة بلا عمل . وظل أمره لدى السلطان ما بين غضب ورضا ، حتى كان عام ٨٧٤ هـ وكان شهر ربيع الأول فثارت نائرة السلطان ضده مرة أخيرة وقبض عليه وأحضر بين يديه ، فأسمعه من الكلام قارصه ، وأذاقه من الضرب أقساه وأمره . ولبت يعذبه هكذا يوماً بعد يوم ، مستجونا بالبرج بالقلعة حتى مات في يوم وهو بالبرج . فأخبر السلطان بذلك ، فلم يصدق الخبر حتى جرى به إليه ميتاً ، فكشف عن وجهه ورفسه برجله ثم أمر بحملة ، فغسل وكفن ودفن . وهكذا انتهت حياته المريعة . وقد أنشأ بالقاهرة وغيرها عدة جوامع ومدارس . وكان مولده قبيل عام ٨٠٠ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ١١٣ ، ١١٤ -
الضوء ج ١٠ رقم ٩٨٣ »

٢٥ - برد بك البجمقدار ٨٧٥ هـ

كان نائباً للشام . وكان يعرف ببرد بك الفارسي الظاهري . ويعرف أيضاً بالأقرع ، وكان من أعيان الناس ، وجماعة الظاهرية . وكان أمير عشرة في دولة أستاذه الظاهر جقمق ، ثم رقى أمير طبلخاياه ، ثم رأس نوبة ثانياً في دولة الأشرف إينال . ثم صار مقدم ألف . وحج أمير محمل غير مامرة . ثم ولى حاجب الحجاب . ثم صار نائب حلب في دولة الظاهر خشقدم . ثم قبض عليه وحمل إلى القدس عاطلاً . ثم أعيد إلى نيابة حلب . ثم نقل نائباً للشام . فوليها مرتين ومات بها . وكان أسيراً عند

سوار وهو نائب حلب وأطلق بعد موت الظاهر خشمقدم . وقاسى شدائد ومحنًا . ومات في عام ٨٧٥ هـ . هذا وقد قيل إن أبا بكر بن علي دوادار هو الذى دس السم لأستاذه برد بك . ومع ذلك فقد توفى قبله بأيام .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٢٢ - الضوء ج ٣ رقم ٢٤ » .

٢٦ - برقوق الناصرى ٨٧٧ هـ

قال عنه ابن إياس ما يلي : « وفى شوال - أى عام ٨٧٧ هـ - جاءت الأخبار بوفاة برقوق الناصرى الظاهرى نائب الشام . وكان أصله من ممالك الظاهر جقمق ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب عارفا بأنواع الفروسية فى فنون لعب الرمح والرمية بالنشاب . وولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشراىخاناه ، ثم تقدمه ألف ، ثم نيابة الشام . ومات بها . وكان قد جاوز الستين سنة من العمر . فلما حضر سيفه ، أظهر السلطان الحزن والبكاء وتأسف عليه . وكان عنده بمنزلة الأخ ، ثم أمر بإحضار أولاده وعباله إلى القاهرة . ثم رسم بنقل جثته إلى القاهرة ليدفن فى تربته التى بباب القرافة . وكان لبرقوق برو معروف . وهو الذى أنشأ القبة على ضريح العارف بالله الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى ورضى عنه » . هذا وقد عينه قايتباى فى نيابة الشام بعد وفاة نائبها برد بك البىجمقدار فى صفر عام ٨٧٥ هـ ، وارتقى إليها فى مدة وجيزة . هذا وما يذكر أن الأمير برقوقا حينما كان نائبا ببلاد الشام انضم سنة ٨٧٥ هـ هو وعسكره إلى الحملة المصرية المرسله لتأديب الشاه سوار بقيادة الأمير يشبك الدوادار : فلما قبض يشبك على سوار . كان قد وعده بالأمان . فلما دخل عليه سوار رحب به . ثم لما هم بالانصراف أمره بالمرور على نائب الشام « برقوق » ، وكانا قد اتفقا على القبض عليه . فلما دخل على « برقوق » سأله مرارا بتهكم : من انت ؟ وهو يجيبه : أنا سوار . ثم أمر جنوده فوضعوا فى يديه الحديد وفى عنقه .

« ابن إياس جزء ٢ ص ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٤٢ الضوء ج ٢ رقم ٤٩ ، .

٢٧ - إينال الأشقر البجاوى ٨٧٩ هـ

قال فيه ابن إياس ما يلي : « وفيه - أى فى شعبان عام ٨٧٩ هـ - توفى إينال الأشقر البجاوى الظاهري أمير سلاح ، وكان أميراً جليلاً شجاعاً بطلاً . وكان ظالماً غشوماً عسوفاً كثير الإسراف على نفسه . وكان عنده كرم زائد مع اتضاع . وأصله من ممالك الظاهر جقمق . وولى عدة وظائف سننية ، منها ولاية القاهرة ونيابة ملطية ونيابة حلب ، ورأس نوبة كبير ، وإميرية سلاح . وغير ذلك من الوظائف . وكان فى آخر عمره ظهر به جذام وبردص فاحش جداً . - وقد توفى فى عهد الأشرف قايتباى . »

ابن إياس جزء ٢ ص ١٥٥ .

٢٨ جاني بك الأشقر الدوادار ٨٨٠ هـ

قال عنه ابن إياس « وفيه - أى فى شعبان سنة ٨٨٠ هـ - توفى جاني بك الأشقر الدوادار أحد خواص السلطان - أى قايتباى - وكان رئيساً حشماً عارفاً سيوساً - أى حسن السياسة - توجه إلى الحجاز أمير حاج غير ما مرة . وكان مقرباً عند السلطان وكان أصله من ممالك قاني باى فرفور . واتصل بخدمة جماعة من الأمراء ثم خدم الأشرف قايتباى من حين كان أمير طبلخانة إلى أن بقى سلطاناً فأُنعم عليه السلطان بأمرية عشرة . وكان فى سعة من المال . »

« ابن إياس جزء ٢ ص ١٦٢ - الضوء ج ٣ رقم ٢١٧ ، .

٢٩ - القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان ٨٨٢ هـ

قال فيه ابن إياس ما ملخصه : « وفيه - أى فى ربيع الآخر عام ٨٨٢ هـ - كانت

وفاة القاضي علم الدين شاكر بن الجمعان بن عبد الغنى بن شاكر بن ماجد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدميحلى الأصل القبطى المصرى متولى ديوان الجيش . وكان رئيسا حشما وجيها عند الملوك والسلاطين . وكان ذا تواضع للناس قاطبة . مشغلا بالعلم . ومولده فى سنة سبعين وسبعائة . وهو الذى أنشأ الجامع الذى بالقرب من بركة الرطلى . وكان نادرة فى بنى الجمعان . . وقال فيه السخاوى أنه أكبر أشقائه الخمسة . ولد بالقاهرة ونشأ بها وتدرّب بابه وجده وغيرهما فى الخدمة بالمباشرة وغيرها إلى أن مهر . ثم استقر بعد أبيه فى كتابة الجيش ثم فى الخزانة . وكان برا بالفقراء والصالح . وكان هو وأخوته أصحاب الحل والعقد فى الدولة فى حقيقة الأمر = توفى بمنزله ببركة الرطلى .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٧٤ - الضوء ج ٣ رقم ١١١٧ » .

٣٠ - الأمير جانم الشريفى ٨٨٤ هـ

من أقرباء السلطان الأشرف قايتباى ، وقد رقى إلى رتبة الإمارة بسرعة حتى بلغها وهو دون العشرين . وقد كان من قبل مملوكا فى الطباق بالقلعة ثم خاصكيا فأمير عشرة ثم ناظر الجوالى ثم شاد الشرايخانة . ثم عين مقدم ألف . وتزوج بأخت زوجة سلطانة قايتباى فعظمت حرمة ! وكان زفافه من الحفلات الممتازة التى شهدتها القاهرة ، زينت له الشوارع وعلقت له القناديل وأوقدت له الشموع ومشى فى ركابه الأمراء السكبار ، وأمسك الأمير يشبك الدوادار والأمير أزدمر الطويل حاجب الحجاب بعنان فرسه - على عظمتها -

ولكنه سرعان ما توفى فى ربيع الثانى عام ٨٨٤ هـ ، ومرض قبيل وفاته وتورمت قدماه . ولما مات دفن فى جنازة رائعة بسبيل المؤمنين . وحزن عليه قايتباى

حزننا شديدا حتى أقام عزاءه ثلاثة أيام بالقلعة . وقيل إنه أمر النوادب بالدق والالطم عليه وهو ينظر إليهن . هذا وقد سرت إذ ذاك إشاعة مؤداها أن الأمير يشبك الدوادار هو الذى دس له السم فى الطعام فقتله . وقد تفاقت هذه الإشاعة حتى خاف مغبتها ونبا به المقام فى القاهرة فرضى أخيراً أن يسافر على رأس الحملة المصرية لقتال سيف أمير آل فضل فكان فيها حتفه .

هذا وقد كان الأمير جانم الشريفي جليل القدر وافر العقل جميل الصورة محبوبا من الناس . - وقد تزوجت زوجته من بعده بالأمر أقبردى الدوادار سنة ٨٨٧ هـ .
« ابن إياس جزء ٢ ص ١٨٧ ، ٢١٢ الضوء اللامع ج ٣ رقم ٢٥٦ » .

٣١ - يشبك بن مهدي الدوادار ٨٨٥ هـ

يعرف بالصغير . أصله مملوك للسلطان الظاهر جقمق ومن مشترياته . وقد رقى حتى صار دوادار فى عهد السلطان قايتباي . وكان أبيض اللون مستدير الوجه أشهل العينين أشقر اللحية طويل القامة مليء الجسم . شجاعاً هماماً مكافحاً كثير الأطاع . ولما بلغ الدوادارية الكبرى زاد جاهه وعظمت مهابته ، وأصبح نافذ الكلمة فى البلاد ومكان ثقة السلطان ، يستخدمه فى مهام أموره . وفى ربيع الأول من سنة ٨٧٣ هـ خلع عليه السلطان خلعة كخلعة الأتابكي وأسند إليه منصب الوزارة مضافاً للدوادارية . فقسا يشبك على طائفة من الفقهاء والمعلمين بإذن السلطان وقطع عنهم مرتباتهم من الأطعمة ، وحاول استرداد بعض ما أخذوه فيما مضى . ولقى عدد من هؤلاء عننا شديداً وجورا وقسوة . - ثم إنه سافر إلى الوجه القبلى ليطفيء ثورة للهربان هناك ، فنهب بلادهم وأسر عدداً من نساءهم . فكان ذلك سبباً فى ثورتهم مرة أخرى بعد عودته . وكان يشبك إذا ما تولى أمر إنسان عليه غرم ألح فى عذابه حتى يستخلص منه المال . ولعل

هذا هو السبب الذى من أجله أعجب به السلطان إذ ملاً خزائنه بالأموال . ولهذا ما جاء شهر شعبان سنة ٨٧٣ هـ حتى ضم إليه السلطان منصب الاستادارية فضلا عن الدوادارية والوزارة وكشوفية الكشاف . وكان قد ضمها إليه منذ قليل . وبهذا كله أصبح ذا جاه عريض ، وعظم اسمه وعلا صيته وهيبته كعبته . وهو من القلائل الذين اجتمعت لهم أمثال هذه المناصب الرئيسية الكبرى . وهو مع ما اشتهر به من الظلم والضغط على ذوى الغرامات المالية ، كان يقدم بعض ضروب الإحسان . فمن ذلك المغسل الذى أنشأه بالقرب من مدرسة السلطان حسن فى العام المذكور بمناسبة ما نقضى فى القاهرة من الطواعين . فصارت الموتى تحمل إليه ، وهناك يكفنون ويخرجون ، ويدفنون على نفقته .

وفى سنة ٨٧٤ هـ خرج الأمير يشبك فى شهر المحرم إلى الوجه القبلى ليجمع غلة العام ، ثم عاد بعد قليل . ثم توجه إلى البحيرة لإخضاع بعض عربانها الثائرين وهم عربان لبيد ، وبعد قليل بعث إلى السلطان يطلب نجدة ، فبعث إليه بعدد من الأمراء والجنود وعلى رأسهم الأتابكى أزبك . ثم عادوا بعد قليل .

وفى هذا العام عام ٨٧٥ هـ عاد الحاج مجهودا مكدودا لقلة الماء وموت الإبل ، فبعث إليهم الأمير يشبك ب زاد وماء معونة لهم .

وفى شهر ربيع الآخر من سنة ٨٧٥ هـ ، أعد السلطان تجريدة كشفية للجنود ليرسلها إلى سوار الخارج على الدولة ، والذى أغار على أملاكها الشامية والحلبية ، وهو التركمان ملك الأبلستين . وقد أسند قيادتها إلى الأمير يشبك الدوادار ، ويعاونه عدد من كبار الأمراء . وقد خرجت هذه التجريدة فى شوال من العام المذكور ، وقد فوض السلطان إلى يشبك أمر البلاد الحلبية والشامية . وجعل له حق التولية والعزل فى مناصبها كما يرى . وزوده بخمسمائة علامة بيضاء موقعة بإمضاء السلطان ليكتب فيها

ما يشاء من الأوامر والتعيينات . فخرج ركبته حينذاك على خير ما يخرج عليه ركب أمير وقائد . وتجهل جنده وزودوا بالخيول والسلاح والسياب . وقد زاره السلطان في وطاقه مرتين حتى عيب عليه ذلك !

وكان الأمير « يشبك » متزوجاً من خوندابنة الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ، فولدت له في ذي القعدة بعد خروجه بقليل في حملته هذه ولداً سموه منصوراً . وقد توفيت هذه الزوجة في أخريات سنة ٨٨٣ هـ ثم تزوج بعد زواجه منها بزمن ، بأخت الأمير قانصوه خمسائة .

وقد التقى الأمير « يشبك » بعدئذ بعدوه سوار على نهر جيحون وكسره شر كسرة . ففر سوار من أمامه إلى قلعة زمنوطو وتحصن بها . فتبعه « يشبك » وحاصره أشد المحاصرة واستخدم المدافع في رمي هذه القلعة . - وظل السلطان يمدد بالأموال والنفقة ليتم له النصر . فلما رأى سوار عين الغلب أرسل إلى « يشبك » يفاوضه في الصلح وعرض عليه أن يكون نائباً عن السلطان في قلعة درنده ، وأن يبعث بولده إلى السلطان ويده مفاتيح القلعة دلالة على خضوعه . فأرسل « يشبك » إلى السلطان يستشير به في الأمر . فأبى السلطان إلا أن يحضر سوار بنفسه إلى القاهرة . فلما بلغ هذا الخبر سمع سوار ، خاف وعرض على الأمير « يشبك » أن يؤمنه على نفسه وأولاده وأن يقيم بهم بقلعة زمنوطو . فبعث الأمير « يشبك » يستشير السلطان في ذلك ثانياً . ويظهر أن السلطان أبى أيضاً في هذه المرة . بدليل أن الأمير « يشبك » ضيق الخناق على سوار حتى استسلم فقبض عليه . ووافى خبر ذلك إلى القاهرة في المحرم سنة ٨٧٧ هـ . - وقد أمر الأمير « يشبك » أخا سوار المسمى « شاه بضاع » مكان أخيه على إمارة الإبلستين مع خضوعه للسلطان . ثم لما استتب له الأمر وطهر البلاد من الخارجين على السلطان ، عاد إلى مصر ماراً بالشام وغزة ومعه الشاه سوار مأسوراً مقيداً في الحديد . وبلغ القاهرة بجنده وأسراه في الاثنين ١٨ ربيع الأول سنة ٨٧٧ هـ . وقد لقيه السلطان والأمراء

والناس خير لقاء، وزينت نواحي عدة من القاهرة . أما سوار فقد أعدم . - وهذه أول حملة خرج فيها الأمير «يشبك» .

لم يلبث الأمير «يشبك» الدوا دار في القاهرة إلا نحو شهرين . فلما كان شهر جمادى الآخرة من نفس السنة . بلغ السلطان أخبار عن حسن الطويل المغير على أملاك الدولة ، وتهديده لشاه بضاع أهير الأبلستين الخاضع للسلطان . فلم يجد بدا من أن يجرّد عليه حملة قوية تقدمتها طليعة سبقتها بالسفر . أما الحملة نفسها فكان قائدها الأمير «يشبك» . خرج بحملته في نفس الشهر وكانت أكثر من ألفي جندي . فبلغ بهم حلب . وكتبه بها الشاه حسن الطويل صاحب العراقين ليطلق من بها من الأسرى نظير أن يطلق هو ما لديه من الأسرى . فأبى الأمير «يشبك» وعول على منازلته . وبدأ مناوشته فاستعان حسن الطويل بأمرأء الفرنجة وكتبهم لذلك . فلم يأبه لهذا الأمير «يشبك» وزحف على ألبيرة ، وأجلى عنها جنود حسن الطويل بعد معركة عنيفة . فسلمت البلاد الحلبية من شرهم . ثم عاد الأمير «يشبك» بتجريدته إلى مصر . وكان وصوله إلى القاهرة في يوم من أيام رمضان سنة ٨٧٨ هـ . - وهذه ثاني حملة خرج فيها الأمير «يشبك» .

بلغ الأمير «يشبك» بعد ذلك منزلة عالية ، كان من أثرها ومن أثر تصرفاته السيئة مع بعض الناس ، أن أوغرت صدور كثيرين عليه . فلما وجد أن الظروف قد نبت به عول على الاستقالة من عمله . فعرض الأمر على السلطان في شوال من السنة نفسها ، فقبل منه السلطان استغفاه من الأستادارية والوزارة . ولما سمع استمهله زمنا ثم قبله بعدُ - وبقيت في يده الدوا دارية . وقد طمع فيه بعض المماليك الجلبان فنهبوا بيته ومخازنه ، وطمعوا في قتله ففر منهم إلى الجيزة . أما السلطان فإنه غضب على هؤلاء المماليك وعاقب بعضهم عقابا قاسيا . ثم هدأت هذه الفتنة بعد من يسير فعاد «يشبك» من مخبئه إلى القاهرة . - غير أن هؤلاء المماليك أضرموا الشر «لـيشبك» ، فما دخلت

سنة ٨٧٩ هـ ، وما حان شهر ربيع الأول ، وما حانت ليلة الخميس ١٠ منه حتى ثارت
ثائرة المماليك الجلبان المذكورين . وقصدوا قتل هذا الأمير وهو في داره . فعلم
السلطان هذا النبأ فحاول قمعهم بالقوة ، ثم لا ينهم ، وبعث بعضهم إلى الأمير «يشبك»
لمصالحته . فقبلوا يده واعتذروا له ، فرضى عنهم وزال ما في نفسه . - غير أنهم لم
يكونوا مخلصين في اعتذارهم ، وحاولوا السكيد له مرة أخرى . ثم إنه كثر منافسوه
والحاقدون عليه ، حتى إنه اشتد الجفاء بينه وبين خشقدم الأحمدى الطواشى الوزير ،
فأعلن «يشبك» عزل نفسه من الدواديره أيضا وأغلق بابه . وذلك في شهر رجب عام
٨٧٩ هـ . فتلطف به عدد من الأمراء من بينهم الأمير الكبير أربك بن ططخ الأتابكي ،
حتى صعد معهم إلى القلعة للملاقة السلطان ، فطمأن خاطره وأصلح ما بينه وبين الوزير ، وقبل
خشقدم يده . ثم وقع في شعبان من العام المذكور عداة وجفاء بين الأمير «يشبك»
وكاتب سر السلطان ، فشكا «يشبك» إليه فانتصف له منه بعض الانتصاف .

وفي شوال عام ٨٧٩ هـ أيضا اضطربت أحوال الشرقية بسبب عبث العربان
من بنى حرام وبنى وائل بها . فأرسل لهم السلطان الأمير «يشبك» الدواديره ، فخرج في
لتأديبهم توا . وعاد من مهمته بعد قليل . - وكاد يخرج في حملة أعدها السلطان قايتباي
لتأديب حسن الطويل ملك العراقيين لبغية على جنس حلب ، وذلك في ربيع الآخر
عام ٨٨٠ هـ لولا أنها أوقفت ، بسبب عودة هذا المعتدى إلى بلاده . - وفي جمادى
الآخرة من نفس العام ، سافر السلطان سفرته الثانية إلى دمياط فكان في مقدمة من
صحبه الأمير «يشبك» الدواديره . - وفي رجب من نفس العام خرج السلطان على غرة إلى
زيارة بيت المقدس فكان «يشبك» من مصاحبيه أيضا في خروجه . ثم عاد معه في
شعبان . - وفي ذى القعدة من نفس العام سافر السلطان إلى الفيوم سفره الثاني فصاحبه
«يشبك» مع عدد من الأمراء والجنود ، لمشاهدة الطاحون المائية والبستان اللذين

أنشأهما هناك خاير بك بن حديد . وفي صفر عام ٨٨١ هـ خرج الأمير « يشبك » إلى الوجه القبلي لتأديب بعض التآثرين .

وفي شهر رجب من نفس العام وقع شجار بينه وبين الأمير خاير بك ابن حديد خرجت عن طور الكلام إلى الملاكمة ! وقد لاسكه « يشبك » فأطار غطاء رأسه . وكاد يقع ما لا تحمد عقباه ، لو لا تدخل بعض الأمراء لفض شجارهما . ومع ذلك فقد عمرت قلوبهما هما وأتباعهما بالعداوة والبغضاء وكان لذلك أسوأ الأثر من بعد .

وفي صفر عام ٨٨٢ هـ أخذ الأمير « يشبك » في توسيع وتجميل بعض الطرقات والأسواق ، فوضع مشروعا استغرق تنفيذه زمنا طويلا . ونزعت بسببه ماسكية بعض المنازل والربوع ، فتألم أهلها لما لحقهم من ظلم بسبب ذلك . ومع هذا فإن الأمير « يشبك » يشكر لقيامه بهذا العمل الجليل ، إذ فيه ما فيه من نظام وراحة وصحة . وفي نفس الشهر وكل إلى « يشبك » تعذيب برهان الدين النابلسي وكيل بيت المال لكثرة جوره وما سلبه من المال . وقد عذبه تعذيبا شديدا ، قيل ضربه نحو ألفين وستمائة عصا ، وخاع أضراره ودقها في رأسه . وكانت النتيجة أنه مات بسبب هذه العقوبة .

وفي ربيع الأول في هذا العام ، سافر السلطان مرة أخرى إلى الإسكندرية ، واستصحب معه عددا من الأمراء كان منهم الأمير « يشبك » .

وفي رمضان أشيع أن السلطان - وكان إذ ذاك في حلب زائرا - مات هناك فاضطربت القاهرة . وعلم الأمير « يشبك » أن بردبك جيش - أحد الأمراء - يدبر ثورة لمصلحة جانبك الفقيه أمير سلاح ليجعله سلطانا . فاستقدمه « يشبك » وحقق معه فأنكر . ثم قامت عليه البينة فعذبه الأمير « يشبك » تعذيبا شديدا حتى أشرف على الهلاك ،

ثم نفاه إلى الواح . ثم نفاه السلطان بعد زمن إلى القدس ، فتوفي بعد قليل سنة ٨٨٣ هـ .
وفي أخريات عام ٨٨٢ هـ خرج الأمير « يشبك » لتأديب بعض العربان الثائرين
في بلاد الصعيد ، ولإزالة الفتن الواقعة بينهم . ثم عاد في جمادى الأولى سنة ٨٨٣ هـ ،
ومعه رموس الفتة مصفدين في الأغلال . فأثبتم عليه السلطان بهدايا قيمة ، وحكم على
أسراه بالإعدام ، ومن بينهم أحمد بن عمر الهواري أحد رؤساء العربان .

وفي رجب سنة ٨٨٣ هـ أعيد الأمير « يشبك » إلى منصب الاستادار وعزل منه
تاج الدين بن المقسى . - وكان الأمير « يشبك » كما رأينا قد عادت له منزلته وسطوته
وأصبح مهيب الجانب نافذ الكلمة . وفي شوال سنة ٨٨٣ هـ في أول يوم منه خلع
السلطان عليه مناصب مختلفة فصار استادارا ودوادارا وكاشفا ومديرا للمملكة
وغير ذلك . مما لم يجتمع لغيره . وصار أيضاً متحدثاً على ثغر دمياط . ولذلك رحل في
أوائل سنة ٨٨٤ هـ ، إليها وقام بضروب من الإصلاح في ميناها . ومد سلسلة من حديد
زنتها ٢٥٠ قنطاراً ، كانت موجودة في الزمن الماضي ، فجدها « يشبك » . فأفادت في
تحسين الشجر ممن يعبشون به من الفرنجة .

وفي ربيع الآخر سنة ٨٨٤ هـ توفي الأمير جانم الشريفي صهر السلطان ، زوج
أخته . فاتهم الناس الأمير « يشبك » بأنه دس له السم في الطعام . وتحفزت الممالك
الجلبان للوثوب عليه وإيذائه وقتله فأسكتهم عنه السلطان ، فسكنوا إلى حين . أما
« يشبك » نفسه فقد أوجس خيفة ، وامتنع زمناً عن الطلوع إلى القلعة ، وقد زادت حملة
الناس عليه .

ما زال الأمير « يشبك » مرموق المكانة يصحب السلطان في سفره آناً ، ويلقاه
من سفره آناً آخر ، ويمد له الموائد الحافلة احتفاء به مرة ، ويعارنه مرة أخرى .
ويصلح بين هذا الأمير وذاك . ويشتم ويقسو في تعذيب بعض المتهمين الموكول

أمرهم إليه . ويقسم بعض العماثر ، ويقوم بضروب من الإصلاح . ويتعرض مرة لغضب الجلبان وسوء فعلهم . - ما زال كذلك حتى كان شهر ربيع الأول عام ٨٨٥ هـ . فعينه السلطان للخروج على رأس تجريدة عظيمة إلى حماة بسبب اعتداء سيف أمير آل فضل ، على الأمير أزدمر نائب السلطان في حماة ، وقتله . فكانت خرجته تلك آخر عهد القاهرة به . - وقد رغب الأمير « يشبك » إلى السلطان أن يكون على رأس هذه الحملة ليفر من الألسنة الحادة التي كانت تلوك سيرته ، وتنسب إليه قتل جاتم الشريفي ، وليفر من بطش الجلبان المتحفزين إليه والمهددين له . وقد خرج ورحل من القاهرة في ربيع الثاني فبلغ ، حلب بعد الشام . وجمع منهما جنودا عدة ، وما زال حتى اجتمع له نحو عشرة آلاف مقاتل . فعبر بهم نهر الفرات حتى بلغ مدينة الرها ، متعقبا أثر سيف أمير آل فضل . وكان حاكمها بابتدر نائبا عن يعقوب بك ابن حسن الطويل . فشدد الأمير « يشبك » عليها الحصار . وحاول حاكمها بابتدر أن يهدى من هذا الحصار وتعهد بإمسك الأمير سيف وتسليمه فرفض « يشبك » . ويظهر أنه كانت له نية في احتلال العراق . فما كان من بابتدر إلا أن برزله بعسكره ، فدارت الدائرة على الأمير « يشبك » ومن معه من الجنود ، وأسر هو وعدد من الأمراء المصاحبين له ، وقتل عدد كثير من جنوده . فأقام في الأسر نحو ثلاثة أيام ثم حز رأسه في اليوم الرابع . وبعث به إلى الملك يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقيين . وكان قتله في أواخر رمضان عام ٨٨٥ هـ بمدينة الرها وفي سن السادسة والخمسين . وقد وصلت جثته إلى القاهرة في ذى القعدة عام ٨٨٥ هـ ، ودفنت في تربته عند زاوية كهنوش .

هكذا انتهت حياة أحد أبطال هذا العصر وأصحاب المطامع الجاححة فيه ، وذوى النفوذ والأثر في سيره . وقد رأينا في سيرته بعض سيئاته وحسناته . وهو من الأمراء الذين أغرموا بالبناء والتشييد فكانت له عدة قصور وقباب منها قبة بالمطرية وأخرى

بالحسينية . وله مبرات عدة . ومعاونات حجة للحجاج وغير الحجاج . وما يروى عنه حكاية ملخصها : أنه وجد يوماً ما شيخاً يتزيا بزى فلاح ، ومعه قفّة على كتفه يسير في الصباح الباكر . فتفكره معه الأمير « يشبك » وسأله عما يحمل . فقال له : بيض ، جئت لأبيعه وأشتري بثمنه خبزاً لأولادى ، لأنّ معى ثلاث بنات . فرق له قلب « يشبك » . وسأله كم بيضة معه ؟ . فقال : عشرون . فأخذها منه وأعطاه عشرين ديناراً . وهذا وقد كان السلطان الأشرف جان بلاط الذى ملك فى عام ٩٠٥ هـ البلاد المصرية ، أحد ممالك الأمير « يشبك » اشتراه بماله ، وعلمه وأهداه إلى السلطان قايتباى .

« ابن إياس ج ٢ من ص ٩٤ إلى ٢٠٢ - وص ٣٧٠ - الضوء ج ١٠ رقم ١٠٧٧ »
ملحوظة :

يوجد بدار المكتب المصرية مؤلف فى تاريخ هذا الأمير ، وأخبار رحلته إلى آسيا الصغرى ، وهو مصور تصويراً شمسياً عن نسخة خطية بالقسطنطينية ، وتحت رقم ٢٥٩٢ تاريخ .

٣٢ - قانصوه اليتحاوى ٩٠٢ هـ

قال عنه ابن إياس : أصله من ممالك السيفى جقمق . وكان لا بأس به . تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة الإسكندرية ونيابة صفد ونيابة طرابلس ونيابة حلب ونيابة الشام . وجرى عليه شذائد ومحن . وأسر عند يعقوب بك بن حسن الطويل - ملك العراقين - فى كائنة يشبك الدوادار مع بابندر . ونفى إلى القدس . ثم تولى بعد ذلك نيابة الشام ، ومات بها وهو على نيابته . وكان من أجل الأمراء وأعظمهم قدراً .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٢٢ »

٣٣ - أبو البقاء بن الجيعان ٩٠٢ هـ

هو أبو البقاء القاضى محمد بن يحيى بن شاكر بن الجيعان وهو من نوابغ

هذه الأسرّة، ومن ظهورها في عصر قايتباى . وعرف بالأدب وحب العلم وحلاوة اللسان وحسن السياسة وطيب المعشر . وتقلب في مناصب عدة كاستيفاء الجيش . وقد قتله بعض أشرار المماليك غيلة ، وهو يسير إلى عمله بعد أن أدى صلاة الفجر . ويعتبر أحد رؤساء عصره . وله منشآت عدة ، منها الزاوية الحمراء وقرر بها خطبة . ومنها حوض ورباط ، وقصور ومناظر ، وحوّلها أرض مزروعة مخصصة كانت مملوكة للناس زمننا في أيام فيضان النيل . - وقد مات مناهزا الستين . - وله مؤلفات « راجع باب الحركة العلمية جزء ٢ من كتابنا هذا » .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٢٣ » .

٣٤ - أقبردى الدوادار بن على باى ٩٠٤ هـ

أحد عظماء الأمراء ذوى الهممة الوثابة والعزم الماضى ، والأطاع الحافزة . كان من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتق ، وظهر أنه قريب السلطان المذكور . ومن ثم أخذ طريقه إلى عليا المناصب ورفيعات الرتب في زمن هذا السلطان بكفاءة وجدارة . فكان أحد أقطاب سياسة عصره ومن لهم في شئون الدولة يد فعالة مدبرة موجهة . ونافس بعض ذوى الرياسة من الأمراء فكان الصراع بينه وبينهم عنيفا وسجالا .

ومن المناصب التى تولّاها : إمرة سلاح ، والدوادارية الكبيرة ، والاستادارية والوزارة ، وكاشف الكشاف ، ومدير المملكة ، وقد تزوج بأخت زوجة السلطان قايتباى ، وهى التى كانت زوجة من قبل الأمير جانم الشرينى المتوفى عنها عام ٨٨٤ هـ . فتزوجها أقبردى عام ٨٨٧ هـ .

وقد رقى إلى الدوادارية الكبرى في عهد السلطان الأشرف قايتباى عقب وفاة يشبك بن مهدى الدوادار عام ٨٨٥ هـ . ومنذ ذلك الحين والمنافسة بينه وبين قرنائته لا تنقضى ،

والفتن لا تنتهى . وقبل ذلك وقعت فتنة فى ربيع الآخر سنة ٨٨٢ هـ بين مماليك وممالك
أزدرم نائب حلب وتقاتلوا بالرماية زمنا ، وانضم إلى ممالك أقبردى بعض الممالك
السلطانية . ثم سكنت الفتنة وهذا القتال .

وفى ربيع الآخر عام ٨٩٠ هـ عاد أقبردى من الوجه القبلى ، وكان قد رحل إليه
لتأديب بعض الثائرين . فعاد قابضا على جماعة منهم وسجنهم فى برج القلعة . وفى صفر
عام ٨٩١ هـ اختاره السلطان قايتباى للقضاء على الفتنة الثائرة بين عربان جبل نابلس ،
فخرج إليها مبادرا ، ثم عاد بعد قليل .

وفى شهر ذى القعدة من العام المذكور أضاف إليه السلطان منصب الوزارة
وثبته فيه ، وكان من قبل منتدبا للعمل فيه فقط - وبعد قليل كاد الممالك الجلبان
يسيطرون إليه بسبب تأخر نفقتهم ، فاضطر إلى الامتناع عن الذهاب إلى مقر عمله
بالقلعة عدة أيام . ثم قصدت جماعة منهم إلى منزله وتلطفوا معه وسألوه الوساطة
لدى السلطان ليقدم إليهم نفقتهم المقررة - وكان قد امتنع عن تقديمها لقلة ماله
من المال - فقبل «أقبردى» هذه الوساطة ، واكتسب بذلك جانباً منهم ولكن السلطان
لم يستحب له ، فكان ذلك سبباً لاتساع فتنة الممالك الجلبان . ثم خفت وطأتها قليلا ،
إذ قدم السلطان لهم بعض النفقة . ولكن سرعان ما نشطت ودخلتها عوامل جديدة ،
فى أوائل عام ٨٩٢ هـ وانقسم الجلبان فرقتين فرقة مع الأمير قانصوه خمسائة ،
وأخرى مع الأمير «أقبردى» الدوادار . وكان قانصوه خمسائة من منافسى «أقبردى»
ومن الحاقدين عليه - وقد أوردنا فى ترجمة قانصوه خمسائة ضروبا من النزاع
بينهما .

وفى نفس العام ٨٩٢ هـ سار أقبردى إلى الوجه القبلى مرة أخرى بسبب ثورة
العرب الأحامدة ، فقتل منهم مالا يحصى ، وأسر عددا من النساء والأولاد وساقهم
إلى مصر حيث باعهم أرقاء ، وعذب جماعة منهم . وقد عاد بعد أن طهر منهم

بلاد الصعيد . وكانت عودته في شهر رمضان في العام المذكور . وكان قد سافر قبل جمادى الأولى

ولما وفي النيل في عام ٨٩٣ هـ أنيب الأمير «أقبردى» لفتح السد عن السلطان . وقد كان أتابعه أربك غائبا عن البلاد في الحرب بالبلاد الحلبية - وهذه هي السنة الوحيدة التي ناب فيها «أقبردى» في فتح السد .

وفي عام ٨٩٥ هـ ندب لتأديب عرب البحيرة ، فآدى مهمته وعاد في شهر جمادى الآخرة من العام المذكور . ثم عاد إليهم بعد قليل لنفس الغرض وما لبث حتى سار في شهر ذى القعدة إلى جهة نابلس لأداء بعض المهام ، ثم عاد بعد قليل . وكان قد ذهب إليه مرة أخرى قبل هذه ومعه كاتب السر لجمع بعض الضرائب المقررة . ثم ذهب مرة ثالثة في أوائل عام ٨٩٨ هـ .

وفي ذى الحجة عام ٨٩٦ هـ ابتدأت الفتنة بين «أقبردى» وقانصوه خمسمائة بسبب نوتى ، واستعرت بينهما زمنا طويلا . وفي تلك السنة حجت زوجته وهى أخت زوجة قايتباى .

وفي ذى القعدة عام ٨٩٧ هـ ، خلع عليه السلطان وعينه في منصب الاستادارية فضلا عن الدوادارية والوزارة .

وفي يوم العيد الأصغر عام ٩٠٠ هـ ثارت عصابة «أقبردى» من المماليك الجلبان وهجموا على دار قانصوه خمسمائة ونهبوا ما فيها وخربوها وأحرقوا جوانبها . فكان ذلك سببا مباشرا لاشتباك الطرفين في قتال مستمر ، وكان قانصوه إذ ذاك غائبا في إقطاعه عن القاهرة . فلما عاد علم بما وقع ، فزاد حنقه وسخطه وحقده ، وأضمر هو وشيعته في نفوسهم الكيد لأقبردى وشيعته ، فلما كان يوم الخميس أول ذى الحجة عام ٩٠٠ هـ ، ركب قانصوه هو وجماعته أفراسهم وتقلدوا سلاحهم واجتمعت جموعهم في الأزبكية ، وخيف أن تكون ثورتهم ضد السلطان . وحينئذ نشط السلطان ومعه الأمير

«أقبردى» وجمعهم عامن الأمراء المماليك السلطانية فانفض كثير من المماليك السلطانية الملتفة حول قانصوة فتخاذل واختفى . وكانت هذه نصرة باهرة لأقبردى .

وما حان شهر ربيع الأول عام ٩٠١ هـ ، حتى ظهر « لأقبردى » عدو جديدهو الأمير قرقماس بن ولى الدين أمير أخور ثالث ، وأخذت عداوتهما فى الزيادة من ذلك الحين . وفى شوال من نفس العام وقعت الوحشة بين أقبردى وبين صديقه جان بلاط بسبب منصب الأخورية الكبرى ، إذ رشح جان بلاط نفسه له ، فوقف فى سبيله «أقبردى» وانتزعه من السلطان لصديقه شاد بك الخوخ . ثم ظهر قانصوه خمسائة بعد اختفائه ، وكان السلطان يرغب فى ظهوره ، فاسترضى مقدما كثيرا من المماليك بالمال حتى لا يقابلوا قانصوه بالسوء إذا ظهر . فكان عمله هذا نذيرا للأمير «أقبردى» فأخذ حذره من الحوادث منذ ذلك الحين . ولما ظهر قانصوه لقيه السلطان خير لقاء . فرجحت بذلك كفته على كفة «أقبردى» واجتمع عديد من المماليك الجلبان ومن أتباع قانصوه وحاصروا «أقبردى» وعاثوا فى الأرض فسادا . ولكن «أقبردى» كان قد أعد العدة للاختفاء من داره فافتحمها أعداؤه ونهبوا ما فيها . وقد قوى أمر قانصوه وأتباعه ، وحرم السلطان ومريض فلم يستطع كبح جماح الثائرين . ودخل فى دور النزاع . فخلعه قانصوه وولى ابنه الناصر فى ذى القعدة عام ٩٠١ هـ بعد أن حمل الأمراء والقضاة والخليفة على ذلك . فأصبح فى الدولة الجديدة صاحب الحول والطول كما بينا فيما سبق .

لم يجد «أقبردى» بدا من الرحيل عن مصر ، وقد نبا به المقام فيها . وآلت الدولة فيها إلى عدوه قانصوه . فخرج إلى غزة محتفيا . ومن غزة إلى البلاد الشاميه . وبلغت أخباره أسماع الأمراء فى مصر ، وكان قد أهمهم أمره . فكتبوا إليه أمانا يخدعونه به حتى يثوب إلى البلاد فيقبضوا عليه . فأرسلوا إليه أمانهم هذا بإمضاء السلطان الجديد فى ربيع الثانى عام ٩٠٢ هـ . وصنعوا خدعة أخرى فى القاهرة للقبض على

أتباعه المختفين، ومنهم شاد بك الخوخ أمير أخور كبير . فآمنوهم حتى ظهروا فخذعهم قانصوه . وكان قد صار أتابكيا . وأضافهم في منزله فآخذعوا وذهبوا إليه وهناك قبض عليهم وسيقوا إلى النيل وأغرقوا فيه .

كانت تكون سلطة قانصوه قد استتبت بعد أن استراح من عدوه «أقبردى» وأتباعه . ولكنه طمع في الملك فحرك لنفسه أعداء جددا كافحوه مكافحة شديدة حتى هزموه فقد حمل القضاة والخليفة على خلع الناصر والمناداة به هو سلطانا . فظل في ملكه ثلاثة أيام . ثم هب له خال الناصر وهو قانصوه بن قانصوه وهزمه هزيمة منكرة ، اختفى على إثرها ، وتفرق عنه أتباعه .

أما «أقبردى» فإن السلطان الناصر كتب إليه يطلب منه الحضور إلى القاهرة . وتم ذلك في جمادى الآخرة عام ٩٠٢ هـ ، وتوجه إليه بمرسوم السلطان رسول خاص هو جاني باى . وكان أقبردى مقيما لدى أقبای نائب غزة . وقيل أن قانصوه خمسمائة لما اختفى في غزة ليغتال هناك «أقبردى» بحجة خان يونس قربها ، وكان «أقبردى» قد خرج من غزة متجها نحو الديار المصرية ، دهمه قانصوه خمسمائة بعصابتة في الطريق ، وكاد يفتك به ، لولا أن أقبای نائب غزة سمع الخبر وعجل بنجده وهو مزعع للحاق به للسفر إلى مصر معه ، ومعهما عديد من الأمراء والجنود . فوقع بين الطرفين معركة حامية انهزم على إثرها قانصوه ، ولم يعلم له خبر من بعدها ، وقيل إنه فر ، وقيل إنه قتل أثناءها . أما «أقبردى» فقد فرح بهذا النصر والقضاء المبرم على عدوه ، وقبض على كثير من أتباعه ونكل بهم . وقد فرح أيضا السلطان الناصر بن قايتباى بهذا النصر المفاجئ .

بلغ «أقبردى» القاهرة في يوم الأحد ١٤ رجب ٩٠٢ هـ بعد فراره منها في أخريات العام السالف ٩٠١ هـ . فلقمته القاهرة خير لقاء . ومعهم عديد من الأسرى ورموس

القتلى . ولم ينقض شهر رجب المذكور حتى خلع السلطان الناصر عليه لقبين كبيرين هما أمير سلاح ودوادار كبير . وأصبح في يده الدوادارية الكبرى والاستادارية والوزاره وكشف الكشاف وإمرة سلاح . فبلغ بذلك كله حد التخمه في المناصب والرتب فلم يعد لجديد منها مكان لديه ! وأصبح شقيقها بالأمير يشبك المهدي الدوادار - انظر رقم ٣١ - ووصل بذلك إلى أوج عزه ومجده .

كان يكون «أقبردى» هادى البسال ناعم القلب بما جاده الزمان . غير أن بقايا عصابة قانصوه خمسمائة من ممالك وأمرأ ، ادخرت له في نفسها البغض والحقد ، وعولت على الانتقام منه في أية صورة . فلم تر بأسا من أن تنضم إلى قانصوه بن قانصوه خال الملك الناصر . وتكون حوله عصابة قوية ، ثم توغر صدره على الأمير «أقبردى» وتظهره في ثوب المنافس القوى الذى يجب القضاء عليه . وقد نجحت فسكرتهم وحيالتهم ، وشعر بذلك الأمير «أقبردى» فأنكمش في نفسه وضاق صدره ، ورأى كلمته وهى نزول رويدا رويدا ، بل أصبح يتوجس خيفة في كل آن حذر الغدر والبطش به . وهكذا انقلبت الحال ، وأصبح «أقبردى» بموقفه هذا قريب الشبه بموقف قانصوه خمسمائة من الملك الناصر وخاله قانصوه بن قانصوه - فأخذ يعد العدة ويجمع إليه الأنصار . ثم وقع بين الطرفين موقعة قاسية في يوم السبت ٤ رمضان عام ٩٠٢ هـ انهزم فيها «أقبردى» وعصابته فهرب في جنح الليل إلى بلاد الصعيد وهرب معه الأمير أقبای نائب غزة صديقه . وبعد قليل بعث إليه السلطان الناصر يسترضيه ، فعاد إلى القاهرة في أخريات شهر ذى القعدة سنة ٩٠٢ هـ . وقد قابله عديد الأمراء والجنود بالجيزة مقابلة حافلة ، وكانما تناسوا ما كان من الجميع ، وصفا له الزمان لمحبة من لمحاته . ثم هم قانصوه خال السلطان بالذهاب للقائه أثناء قدومه ، ثم زين له قرناه السوء عاقبة هذا اللقاء وأن «أقبردى» ربما قبض عليه بالجيزة . لذلك امتنع من الذهاب . فانقسم حينئذ الجنود والأمراء إلى فرق ثلاث . واحدة مع أقبردى . وواحدة مع

قانسوه بن قانسوه، وهم عصاة قانسوه خمسمائة وأعداء «أقبردى». وفرقة مع السلطان الناصر. وكان ممن انضم إلى أعداء «أقبردى» الأمير كرتباى الأحمر، وقبل دخوله القاهرة اعتدت طائفة من المماليك على منزله ونهبوا بعض نفائسه. ثم دخل القاهرة فى جمع كشف من الأمراء والجند، وكأنه يزحف عليها لافتتاحها. - قال ابن إياس هنا ماملا خصه: «إن «أقبردى» لو أراد امتلاك القلعة فى ذلك اليوم منتزعا هذه الفرصة لامتلكها ولتغير له وجه الزمن المعبوس»، ولكن بعض أصدقائه أشار عليه بالنزول إلى داره أولا، ليرى ما حدث بها ثم يعد العدة لما يبدو له عمله. فكانت فترة نزوله بمثابة ركود فى حركته، فرقت عنه بعض الأتباع، وفترت من حماسة آخرين.

أصبحت القاهرة منذ دخول «أقبردى» إليها مسرحا للقليل والقال والمناوشة بين أتباع الطرفين، ووقع بسبب ذلك ضروب من الفوضى. غير أن كل طرف أخذ يعد عدته لموقعة فاصلة يقضى فيها على خصمه. وأنفق الأمير «أقبردى» على أتباعه نحو مائة ألف دينار من ماله. وجمع السلاح وأجده منه الكثير. ثم وقعت الواقعة فى يوم عيد النحر واستمر القتال واستحرج أياها. ثم إن فريقا من جند «أقبردى» قد خاناه وانفصل عنه، ففت ذلك فى عضده، وانكسر فى أخريات ذى الحجة من هذا العام «٩٠٢هـ». فترك القاهرة هو وجماعة من أتباعه ويم شطار بلاد الشام، عابثا بما يمر به من البلدان. وكانت هذه آخر مرة يغادر فيها القاهرة، فلم يعد إليها بعد. - ولما بلغ مدينة غزة استولى عليها فرأى الأمراء فى مصر أن يبعثوا فى إثره تجريدة تكف أذاه عن ممتلكات الدولة. إذ أنه حاول انتزاع بلاد الشام وحاصرها نحو شهرين، فدافع عنها أمراؤها وجندها، ففر إلى حلب فلم يستطع الاستيلاء عليها، على الرغم من انضمام نائبها إليه، ففر وإياه وجماعتهما إلى على دولات بلاد التركان. وقدارسلت

التجريدة إثر ذلك ، وتقدمها الأمير كرتباى الأحمر نائباً على بلاد الشام . وقد تلبعت هذه التجريدة أثر «أقبردى» حتى قابلته هو وعصابتة في جهة «عينتاب» وهزمت هزيمة منكورة . ففر «أقبردى» مغلوباً . ومن ثم عادت التجريدة إلى مصر فعاد هو إلى عبثه بالبلاد الحلبية . - كل هذا وقع من «أقبردى» ، وظل الملك الناصر يُعنى بأمره ويود لو أنه عاد ليضرب به المستبدين المتغلبين عليه مثل قانصوه خاله وكرتباى الأحمر نائب الشام وغيرهما ، لذلك هم بالسفر إلى الشام وحلب في تجريدة بدعوى قتال «أقبردى» ومن ثم يضمه إلى جانبه ويعود به إلى مصر . فكانت هذه الفكرة سبباً في فتنة سرت بلهيهما بين الأمراء ثم سكنت قليلاً . ودبرت مؤامرة لاغتيال السلطان فنجحت ، وتبع عنها أن آلت السلطنة إلى خاله قانصوه بن قانصوه . وبذلك فقد «أقبردى» كل أمل في الرجوع إلى مصر .

غير أن «أقبردى» لم تخف وطأته على بلاد حلب والشام . فرأى الأمراء أن يعيّن نائباً للسلطان في طرابلس ، ورسم السلطان بهذا في رمضان عام ٩٠٤ هـ . وقد بلغ هذا التقليد إلى «أقبردى» وصوّل في حلب . وأخذ يعد العدة للسفر إلى مقر نيابته طرابلس في شوال من العام المذكور . غير أنه مالبث غير قليل . ثم توفي ذى القعدة من نفس العام وهو في حلب ، بعد هذه الحياة الطويلة المليئة بضروب الكفاح والنزاع . وقيل اعترته وهو في حلب آفة جملدية قضت عليه . فدفن في ضريح سعد الأنصارى ، ثم نقلت جثته إلى القاهرة في أواخر صفر سنة ٩٠٥ هـ ، ودفن بترتبه التي أنشأها بالصحراء . وله من العمر أقل من ٥٠ سنة . وما يذكر أن ابنة الأمير «أقبردى» ، تزوجها الأمير طومان باى الدوادار الذى ملك البلاد بعد الغورى .

« ابن إياس ج ٢ من ص ٢١٢ إلى ٣٦٢ - ج ٣ ص ١٠٥ - الضوء ج ٢

٣٥ - كرتباى الأحمر بن مصطفى ٩٠٤ هـ

من أمراء عهد قايتباى ، وكان أول بروزه فى المسرح السياسى والميدان العملى فى عام ٨٩٠ هـ . إذ أسند إليه السلطان المذكور عدة من الوظائف منها حجوية الحجاب بطرابلس ، ونظر جيشها . ثم انتقل إلى نيابة صفد . ثم تنقلت به الأيام حتى سنة ٩٠١ هـ ، فاندس فى الفتنة المشتعلة بين قانصوه خمسمائة وأقبردى الدوادار . وكان من أنصار قانصوه فى حوادث السنة المذكورة . وعاوناه على خلع السلطان الأشرف قايتباى وتولية ابنه الناصر محمد . ومن هنا أصبح كل منهما ذا حظ كبير وسطوة هائلة ، وصار بيدهما جميع أمور السلطنة . أما قانصوه فأصبح أتاكيا . وأما « كرتباى » فقد صار وزيراً وأستاداراً وكاشف كشاف ومقدم ألف . وقد أجرى فى هذه الآونة ضرباً من العدل بين الناس والرافة بهم . فأبطل نظارة الأوقاف لأنها كانت مصدر إرهاب وجور . وأبطل ضرباً من المكوس . وحجر على الرسل والنقباء - فى القضاء - ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصفى فضة . وهكذا . - وكان تعيينه فى الوزارة فى شهر ذى الحجة سنة ٩٠١ هـ

وقد اشتط « كرتباى » فى تتبع أنصار أقبردى والتنكيل بهم ، فشتت شملهم فى أرجاء البلاد وفرق مجموعهم . وفتش رحل أقباب الطويل نائب غزة إذ ذاك ، وهو متوجه إلى مقر عمله ، خشاة أن يكون قد أخفى أقبردى معه . وقد قام بالتفتيش بأمره وأمر قانصوه ، وإلى الشرطة . فلم يجد . مع أنه كان محتفياً عنده . وعذب شمس الدين الفرنوى إمام أقبردى ، وهكذا .

ثم إنه اشتط أيضاً فى معاملة الملك الناصر بن قايتباى لصغر سنه وكثرة لوه وجنوحه إلى اللعب . فحجر عليه ووكل به أربعة من الخاصكية بمنعونه الاختلاط بسواه من الصبية ، ومن التصرف فى الأمور . فكان ذلك سبباً فى حنق الملك عليه

وكرهه إياه . وأدى ذلك إلى اضطراب الأمور . فحدث قانصوه خمسمائة بالسلطنة ، وعاونوه « كرتباى » وتمت بيعته وخلع الملك الناصر . غير أن ذلك لم يدم إلا نحو ثلاثة أيام ، ثم قاومهم الناصر بهمة خاله قانصوه بن قانصوه ، فتخاذلوا واختفى قانصوه خمسمائة بعد عراك كبير . أما « كرتباى » فإنه رحل إلى المطرية للاستيلاء على ما فيها من الخيول ، ثم فر قانصوه إلى الشام ، ووقعت وبينه وبين أقبردى مناوشات أدت إلى هزيمة قانصوه وعدم العثور عليه فكان هذا آخر العهد به . - كما بينا - أما « كرتباى » فإنه اختفى منذ ذلك الحين وخلع من مناصبه وأسندت إلى سواه . وبما زاد الطين بلة أن الأمير أقبردى كان قد عاد إلى القاهرة وعات إليه مناصبه ، فلم يعد ثمت عيش ولا مقام فى مصر للأمير « كرتباى » . غير أن الظروف دارت دورتها والتأمت عصاة قانصوه خمسمائة حول خال الناصر قانصوه بن قانصوه المناوىء لأقبردى ، وعصا بته ولما بدأ القتال بين الفريقين ظهر « كرتباى » الأحمر وانضم إلى شيعة قانصوه بن قانصوه ، فزادوا به قوة وتماسكا ، وهزموا أقبردى ففر إلى بلاد الشام . وبذلك صفا الجو مرة أخرى « لسكرتباى » . فأخذ فى تتبع أنصار أقبردى مرة أخرى قتلا وتشتيما . تم كل هذا فى عام ٩٠٢ هـ .

وفى المحرم عام ٩٠٣ هـ رقى « كرتباى » إلى أمير سلاح . ولكن يظهر أنه أحس بكراهة الملك الناصر له . ولم يعد هو يستطيع ردا لهذه الكراهية ، ولا بدله من الأغضاء المرير عليها . فاستقال من مناصبه . فرأى الملك أن يعينه فى منصب بعيد عن مصر ، فاختار له نيابة الشام ، لى يبعده عن العدة ويمهد للتجريدة المرسله للقضاء على أقبردى . فسافر بعد قليل إلى بلاد الشام . فأبلى هناك فى حرب أقبردى بلاء حسنا . وطارده هو ومن معه . ثم عاد إلى الشام فاستولى على قلعتها وطرده نائبها ونصب نفسه نائبا لها أيضا دون إذن من السلطان . فبعث إليه السلطان عتابا رسميا

مع أحد رسله ، فعاد من لدنه دون طائل . فكان هذا بمثابة الخروج عن طاعة السلطان . ثم دبرت لهذا السلطان مؤامرة عاجله الموت فيها . فلم يستطع القصاص من هذا الخارج . وآلت السلطنة إلى خاله قانصوه بن قانصوه . وبينما الأمور آخذة في الاستتباب لهذا السلطان الجديد إذ وافت الأخبار بموت « كرتباى » الأحمر ، وقيل حينئذ إن الملك الناصر كان قد دس عليه من وضع له السم فقتل عليه . وكان موته في ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ

« ابن إياس جز ٢ ص ٢٧١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ » .

٣٦ - أزبك اليوسفى ٩٠٤ هـ

أحد رجال عصر قايتباى . وكان أولا من بماليك الظاهر جقمق ثم اعتق . وعرف بأزبك الخازندار ، لأنه تولى منصب الخازندارية الكبرى أول حياته العملية الرسمية . ثم أخذ يسير صعوداً في سلم الرقى حتى صار أميراً مقدماً واختير لإمارة ركب الحمل عام ٨٨٧ هـ ولم تحمد سيرته . ثم عينه قايتباى رأس نوبة كبير عوضاً عن تغرى بردى ططر المتوفى . وكان تعيينه في شهر ربيع الثانى عام ٨٩٤ هـ . وفي شهر صفر عام ٨٩٨ هـ نذب لتأديب الشائرين في بلاد البحيرة ، فكان على رأس تجريدة تضم عدداً من الأمراء العشرات والجنود . فأدى مهمته وعاد بعد قليل .

وفي ربيع الأول عام ٨٩٩ هـ توفيت زوجته . وهى إحدى قريبات الملك الظاهر جقمق ، وكانت من قبله متزوجة بالأمير تم المؤيدى نائب الشام .

وفي شهر صفر في يوم الاثنين أوله عام ٩٠١ هـ ، رقى الأمير أزبك اليوسفى إلى أمير سلاح عوضاً عن تانى بك الجمالى . وفي ذى الحجة من العام نفسه ، بعد أن آلت

السلطنة الى الناصر محمد بن قايتماي، ظفر الائمير «أزبك» منه بتقدمة ألف . غير أنه في رجب عام ٩٠٢ هـ ، ساءت علاقته بالسلطان المذكور فرسم بنفيه . ويظهر أنه انضم حينئذ إلى حزب قانصوه خمسمائة فلما انهزم واختفى ، اختفى أنصاره ومنهم أزبك اليوسفي . ثم ظهر من اختفائه في ذى الحجة عام ٩٠٢ هـ ، حينما اشتد النزاع بين أقبردى وقانصوه بن قانصوه ، فانضم إلى هذا الأخير في جملة من انضم من عصاة قانصوه خمسمائة . فلما تغلبوا على أقبردى واستتب لهم الأمر ، كان من نصيب الائمير «أزبك» أن رقى إلى مقدم ألف وأعطى لقب مشير المملكة في المحرم عام ٩٠٣ هـ . غير أنه كان قد شاخ وهرم وكبرت سنه حتى أصبح لا يقوى على العمل . حتى إن السلطان الظاهر قانصوه بن قانصوه لم يجد بدا من أن ينزع منه تقدمته ويهبها لغيره ، فأنعم بها على الائمير ازدمر بن علي باي في جمادى الأولى عام ٩٠٤ هـ فأصبح عاطلا دون عمل فما لبث الائمير «أزبك» بعد هذا إلا إلى رمضان من نفس العام ثم توفي . فصلى عليه السلطان قانصوه ودفن بمدرسته التي أنشأها . وكان لين الجانب دمث الاخلاق ومات وقد نيف على الثمانين .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ - الضوء ج ٢ رقم ٨٤٧ » .

٣٧ - أقبای الطویل ٩٠٥ هـ

قال عنه ابن إياس : « وفيه - أي في جمادى الآخرة سنة ٩٠٥ هـ - جاءت الأخبار من القدس بوفاة « أقبای الطویل » الذي كان نائب غزة . ثم بقي رأس نوبة كبير ، وفر مع أقبردى الدوادار لما انكسر وخرج من مصر وآل أمره إلى أن أقام بالقدس بطالا حتى مات . وكان أصله من ماليك الأشرف قايتماي . وقيل إنه مات مسموما . وكان شجاعا بطالا ، وجرى عليه شدائد ومحن وقاسى ما لا خير فيه بسبب صحبته

لأقبردى الدوادار . وهو الذى كان سبباً لنصرته على قانصوه خمسمائة فى الواقعة بخان يونس الذى بقرب غزة . وهو غير أقبای الطويل الذى ظهر فى عهد الأشرف الغورى ،

ملحوظة : اقرأ ترجمة أقبردى الدوادار ففيتها ذكر لأقبای الطويل .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٦٣ - الضوء ج ٢ رقم ٩٩٤ . »

٣٨ - الأمير تانى بك قرا ٩٠٥ هـ

قال عنه ابن إياس : وفى شعبان فى يوم السبت سادسه - عام ٩٠٥ هـ - جاءت الأخبار من القدس بقتل « الأمير تانى بك قرا » . وكان مقيماً بالقدس . وكان من عصابة أقبردى وفر معه . فلما استقر بالقدس توجهت المراسيم بحنقه ، فخنق وهو بين أولاده وعياله . وكانوا توجهوا إليه . وكان قتله فى يوم الأحد ثانى عشرى رجب ، ودفن بالقدس . فلما جاءت الأخبار بوفاة تأسف عليه الكثير من الناس . وكان أميراً جليلاً رئيساً حشماً لين الجانب قليل الأذى كثير الخير . ومن آثاره السبيل والصهرىج الذى أنشأهما برأس سويقة ابن عبد المنعم تجاه الرملة ، وصرف على ذلك من ماله ما لا له صورة ، فلما كمل بناء ذلك قدم هذا السبيل والصهرىج للسلطان قايتباى ، فصار ذلك يعرف بسبيل السلطان . ومن آثاره المسجد اللطيف الذى أنشأه بجوار بيته عند خوذة القردى . وكان أصله من ممالك الأشرف إينال ورقى فى دولة الأشرف قايتباى . وتولى عدة وظائف منها : تاجر الممالك والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف . ثم بقى حاجب الحجاب ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير مجلس . ووقع له من الشدائد والمحن ما يطول شرحه . وفاته القتل عدة مرار . وفر مع أقبردى إلى البيرة وعدى الفرات . وكان موصوفاً بالفروسية والشجاعة . ومات وله من العمر زيادة عن ستين سنة . -

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ » .

٣٩ - مصر باى الدوادار ٩٠٧ هـ

أصله من ممالك الأشراف قايتباى ، ثم أعتقه . ودفعت به الأقدار حتى عين فى عهد السلطان جان بلاط دوادارا كبيراً فى جمادى الأولى سنة ٩٠٦ هـ . ولما ثار طومان باى ضد الأشراف جان بلاط وأعلن بنفسه سلطاناً على الشام وأخذ فى الزحف على مصر ، كان « مصر باى » الدوادار من حزب جان بلاط ، وانضم إليه وحارب فى صفوفه . وكان نصيبه أن أزيل من فوق فرسه ، وفرو نجا بنفسه واختفى . وتم الملك للعادل طومان باى ، ثم دبر « مصر باى » مؤامرة لاغتيال العادل وإزالته من كرسيه ، وانضم إليه الأمير قيت الرجبى والأمراء خشكلى البيسقى وجان بردى الغزالى وغيرهم من أعداء العادل . وكانت النتيجة خلعهم من عرشه واختيار الغورى للجلوس عليه ، فعاد بذلك « مصر باى » إلى دواداريتة الكبرى . غير أنه ما لبث أن غضب عليه السلطان الغورى فقبض عليه فى يوم الثلاثاء ١٢ محرم عام ٩٠٧ هـ . بعد مشورة الأمراء ، وقيل كان هذا القبض بدون سبب ! . وبذلك خلع من منصبه وعين فيه سواه . ثم سجن بشجر الإسكندرية . ولكنه سرعان ما احتال حتى فر من سجنه . وقيل دس له بعض أتباعه مبردا كسره قيده وفر ودخل القاهرة . ولعل الأمراء اشتموا منه رائحة أطماع وأهواء ، خافوا على أنفسهم مغبتها . فنصحوا للسلطان بالقبض عليه فأطاعهم . وكان ما كان من سجنه ثم فراره . فلما بلغت أخبار هذا الفرار أسماع الأمراء اضطربوا ، وأخذوا إلى القاهرة يفجأ المنازل والمحال باحثاً عنه فلم يعثر عليه . أما « مصر باى » فإنه جمع بعض أتباعه من الممالك ، وأراد أن يفجأ بهم عدداً من أعدائه من الأمراء ليقتلهم ، والتس لذلك فرصة نزولهم بعد تناول الفطور مع السلطان بالقلعة ليلة الاثنين ١٢ رمضان سنة ٩٠٧ هـ . وقد انجلت

حركته هذه عن تشتت أتباعه ، وعن قتله هو في صباح الليلة المذكورة أعنى يوم الاثنين .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٩٥ - وج ٤ ص ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٦ ،

٢٧ ، ٢٨ » .

٤٠ - المقو الشهابي أحمد بن العيني ٩٠٩ هـ

ظهر في عهد السلطان الظاهر خشقدم . وهو من كبار الأعيان ورؤساء الأمراء . وهو حفيد السلطان خشقدم ، أمه ربيعة هذا السلطان ، وأبوه عبد الرحيم بن قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفى . توفيت أمه في أوائل سنة ٨٦٧ هـ . وكانت لها جنازة حافلة . وفي عام ٨٦٩ هـ عينه السلطان أميراً للبحر ، وأنعم عليه بتقدمة ألف فسافر في أخريات العام أميراً للمحمل ، ومعه الأمير يشبك الفقيه أميراً للركب الأول . وحيجت معه خوند الأحمدية زوجة السلطان خشقدم . وقد كان « المقر الشهابي أحمد ابن العيني » في هذه الحجة مثالا لأبناء الملوك وعظاء الرجال . فقد كانت له مهابة وجلال ، وخرج بركبه في أجمل زينة . وكان رحله محلى بأنواع الجواهر والياوقيت والذهب ، وحوله عدد من الأمراء والمباشرين . ثم عاد من مكة في أوائل عام ٨٧٠ هـ . وفي عام ٨٧١ هـ ، خلع عليه السلطان وجعله أمير آخور كبيراً عوضاً عن بلباى المؤيدى . ووثق به ووكل إليه كثيراً من شؤونه ، حتى صار صاحب الحل والعقد في الديار المصرية . وأنشأ حينذاك قصره العظيم المطل على البحر بمنشية المهرانى - جهة الفسطاط - فلما كملت عمارته شرفه السلطان بالزيارة في حفل عظيم . ولما دلت دولة خشقدم وخلفه في الملك السلطان الظاهر بلباى المؤيدى خلع على الأمير « أحمد بن العيني » لقب أمير بحاس عوضاً عن تمرغنا الذى صار أتابكياً ، وذلك في أول مواكبته عام ٨٧٢ هـ في شهر ربيع الأول . فلما ارتقى « ابن العيني » إلى هذه المرتبة تحول من منزله إلى بيت

جاني بك - نائب جده - المطل على الخليج وسكن به . وسرعان ما آلت السلطنة إلى تمر بها نفسه وهو الملك الظاهر أبو سعيد الظاهري عام ٨٧٢ هـ في شهر جمادى الأولى . وهنا وقعت فتن كثيرة وتولى السلطنة في الواقع ثلاثة من السلاطين هم تمر بها وخير بك والأتابكي قايتباي . ثم كانت الغلبة والنصرة لقايتباي . فكان لابد له من أن يفجأ أعداءه بالقبض عليهم . وكان من بينهم « المقر الشهابي أحمد بن العيني » ، فسيجن بالقلعة مقيدا ومعه خير بك الذي سلطن نفسه . ثم نقلا بعد قليل إلى مكان بالقرب من القصر الكبير بالقلعة . ثم فرض على كل منهما غرم مالي كبير . وكان نصيب « ابن العيني » أن فـرض عليه نحو مائتي ألف دينار ، خلا ما يدخره من النفائس والسلاح . - وقد بدأ بذلك نجم « ابن العيني » في الأفل . فإنه لم يستطع أن يفي بما فـرض عليه . فاستحضره السلطان قايتباي في أحد أيام شعبان عام ٨٧٢ هـ ، بين يديه في الدهشية وأسمعه من الكلام قارصه وبطحه على الأرض وضربه بيده عشرين عصا تقريبا حتى أدماه فأغمى عليه . وشفع فيه بعض الأمراء فتركه . وأعيد إلى طبقة الزمام ، فأقام بها أياما ثم تسلمه الدوادار الكبير يشبك بن مهدي فاعتقله في داره ، حتى يؤدي ما فرض عليه من الغرم المالي . وقد انتهز بعض الرعاع فرصة يؤسه ونحسه ونهبوا داره وما فيها من نفائس تقدر بنحو خمسين ألف دينار . مع أنه رشح مرة للسلطنة . وكان في جاه عريض وكلمة نافذة ، حتى كان يطلق عليه « عزيز مصر » . - ثم إنه أدى بعض ما فرض عليه من المال وأطلق سراحه ، وقد توسط له الأمير يشبك الدوادار والتزم « ابن العيني » أن يورد كل شهر عشرين ألف دينار . ولكن سرعان ما قبض عليه ثانياً حتى يؤدي ما تبقى . فأداه . وحيثن رضى عنه السلطان ! فخلع عليه وأطلق سراحه ، فلبث من ذلك الحين بلا عمل واسكنه حسن الصلة بالسلطان مختارا للسلامة والعافية عن الكفاح والجلاد . فلان له السلطان وتعصب له في بعض قضاياه التي لم ينفذ الحكم فيها بعض قضاة الشرع

فوبخهم وعزلهم . وكذلك « ابن العيني » انتهز فرصة ختان ابن السلطان في شهر رجب سنة ٨٩٥ هـ ، وأهدى إليه تحفة ثمينة وهى طست وإبريق من الذهب زنتهما ستمائة مثقال ومعهما هدايا أخرى . فكانت هدية من خير ما أهدى إلى السلطان . ثم تقدم « ابن العيني » فى طليعة الأمراء الذين احتفلوا بركب ابن السلطان فكان ممسكا بزمام جواده . وله ابن يقال « محمد بن العيني » كان ذا عظمة وجاه كأبيه ، ولكنه توفى فى حياة أبيه ، فأدركه القنوط واختار مكة للإقامة فيها ، فسلخ فيها نحو ست سنين حتى كانت سلطنة الغورى ، وحدث ببلاد الحجاز فتنة الجازانى وذهب الاتابكي قيت الرجبى لإطفائها ، فأمره الغورى أن يستصحب فى عودته « الشهاب بن أحمد بن العيني » مكبلا فى الحديد ، فوجده قد مات بالمدينة بعد أن فر من وجه الجازانى . وقد دفن بالبقيع وذلك عام ٩٠٩ هـ .

« ابن إياس جزء ٢ ص ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٥٢ - ج ٤ ص ٥٧ حوادث ربيع الأول سنة ٩٠٩ هـ .

٤١ - علاء الدين على بن أبى الجود ٩٠٩ هـ

من رجال عصر الغورى . قيل إن أصله سوقى من الصليبية . وإن أباه كان نجارا يقال له . المعلم حسن . ثم تشق صناعة الحلويات وسمى نفسه « أبأ الجود » . وأقام زمنا طويلا يبيع الحلوى بباب حمام شيخو . فلما مات خلفه ابنه على فى صناعته . قيل « وكان يقبل المشبك بيده فى رمضان » . ثم اتصل بالأستادار تغرى بردى ، فاتخذة برددارا - حافظ الثياب - ثم اتصل بالعارل طومانباى قبل سلطنته فاتخذة أيضا برددارا . ثم اتصل بالأشرف الغورى قبل سلطنته فاتخذة برددارا أيضا . فلما آلت إليه السلطنة استبقاه

برددارا له كذلك ، وحظى عنده فزاد جاهه ونفذت كلمته . ثم وكل إليه هذا السلطان النظر في الأوقاف مندوباً ثم ثبته نهائياً فيه في جمادى الأولى سنة ٩٠٨ هـ ، فزادت عظمته وتشبه بالأمراء ولبس الطوق وركب الخيل واحتذى بالأخفاف والمهاميز ، حتى عد من بين رؤساء مصر . وضمت إليه وظائف أخرى منها وكالة بيت المال ثم الوزارة ، والأستادارية ، وديوان الخاص وغير ذلك . قال ابن إياس : فاجتمعت فيه الكلمة وتصرف في أمر المملكة بما يختار .

وقد قرر عليه السلطان الغورى مبلغ اثني عشر ألف دينار ينفقها شهر ياعلى الجوامك ، ويجمعها من أبواب المظالم التى بنظر فيها . فاضطر إلى أن يعتسف الناس ويحور عليهم ويصادر منهم ليجمع ما طلب منه من المال ، واشتط فى عسفه وجوره وسوء حكمه بين المتخاصمين ، حتى ساءت سمعته وكرهه الناس بعد أن كانوا يعظمونه ، ولا أدل على تعظيمهم إياه من أن القاهرة ازدانت له فى ليلة ختان ابنته فى ذى القعدة سنة ٩٠٧ هـ .

فلما زاد ظلمه وكثرت الشكاية منه غضب عليه السلطان وقبض عليه وصادر ماله واحتجز نساء وحاشيته . وسلبه إلى بردداره بركات بن موسى ، ليعاقبه ويستخلص منه ما لا قرر عليه ، فضرب ضرباً مبرحاً وعذب . ثم نقل إلى بيت الوالى فقيدته حتى أدى ما عليه من المال المقرر . غير أن السلطان رسم بشنقه يوم الاثنين ٢٣ المحرم سنة ٩٠٩ هـ ، فشنع على بابزويلة ، واستمر معلقاً هناك ثلاثة أيام . ثم دفن . واحتاز السلطان ما وجد له من المال .

« ترجمته فى ابن إياس جزء ٢ ص ٣٨٧ - وجزء ٤ ص ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٥ ،

٤٢ - الأمير طراباى الشريفى ٩١٧ هـ

ترجم له ابن إياس فقال ما ملخصه : « فى يوم الجمعة ٦ المحرم سنة ٩١٧ هـ كانت وفاة الأمير « طراباى الشريفى » رأس نوبة النوب ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، فهو من معاتيقه ، وولى من الوظائف السنوية الدوايري الثانية . ثم بقى رأس نوبة النوب فى دولة الأشرف جان بلاط عوضا عن قرقماس بن ولى الدين الذى ولى الأتابكية فيما بعد . وكانت وفاة الأمير « طراباى » فى ليلة الجمعة ودفن صبيحة يوم الجمعة . وكانت جنازته مشهودة . ونزل السلطان وصلى عليه فى سبيل المؤمنى . وأخرجت قدامه كفارة ونهبت على بابيه . ودقت عليه زوجته بالطارات فى العزاء . وكانت مدة انقطاعه بهذا العارض نحو شهر . وكان له بمصر حرمة وافرة وكلمة نافذة وسطوة زائدة ، لم تقع لأحد من الأمراء فى عصرنا غيره . وقد اعتراه ورم فى رجله وركبته . فرجت لموته القاهرة ، وفرح بذلك غالب الناس . فإنه كان صارما عسوقا شديد البأس زائد القسوة وقع منه أشياء كثيرة من أنواع المظالم بالديار المصرية ، لم تقع من غيره من الأمراء فيما تقدم وحصل منه الضرر الشامل لجماعة كثيرة من الناس من مصادرات وأخذ بيوت ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده .

وكان من أول أمره فى عز وذا شهامة لم ينسكب مرة . ولم ينف مرة . ومات فى نحو السبعين . واتضح أن له أموالا طائلة وخيلا وجمالا وسلاحا ، فاستولى السلطان الغورى على ذلك كله . وكان بينه وبين الأتابكى قرقماس بن ولى الدين فى الموت ثلاثة أشهر واثنا عشر يوما . . أه

وقد نال الأمير « طراباى الشريفى » لقب أمير أخور ، رابع فى شهر ذى الحجة سنة ٩٠١ هـ ، فى عهد الناصر محمد بن قايتباى . ثم ارتقى إلى الأمير أخورية الثانية

وذلك في أوائل سنة ٩٠٣ هـ . ثم إلى الدواديرية الثانية في ربيع الأول سنة ٩٠٤ هـ ، وفي شوال من العام المذكور ثار العرب في البحيرة وزاد عيشهم وفروا إلى المعصرة فأرسل إليهم السلطان قانصوه بن قانصوه تجريدة لتأديبهم كان من بين أمرائها الأمير « طوابى الشريفى » فأصيب بجرح خطير شفى منه بعد حين . ثم كان رسولا لهذا السلطان بعثه إلى الأمير طومان باى الدواديرى وكان قد أعلن عصيانه بالجيزة فى ذى القعدة من نفس العام . فلم يفلح فى وفادته . وكان عصيان طومان باى سببا لضياع ملك قانصوه وأيلولة الملك إلى الأشرف جان بلاط . فعاود طومان باى عصيانه وأعلن بنفسه مسلكا على بلاد الشام وتلقب بالعدل . ويظهر أن « طراباى » انضم إلى شيعته فى الخفاء بدليل أن جان بلاط هم بالقبض على طراباى مرة ومنعه نحو ساعة من الخروج من القلعة ثم أطلقه .

ومع ذلك ثبت معه « الأمير طراباى » الشريفى أثناء زحف العدل طومان باى على القاهرة ، إلا أنه لم يلبث إلا ريثما شعر « جان بلاط » بالهزيمة ودخل إلى دور الحريم بالقلعة فأبطأ زمنا انتهزه الأمير « طراباى » وحمل النمجة والترس السلطانيين وهما علامة السلطنة وفر بهما إلى العدل « طومان باى » وأشاع أن الأشرف « جان بلاط » فر من القلعة . فبكال هذا العمل من أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمة « جان بلاط » ونصرة « طومان باى » فالت إليه السلطنة فلما أستتب له الملك خلع على الأمير « طواباى » وعينه رأس نوبة كبير فى رجب عام ٩٠٦ هـ وبعد أيام رسم هذا السلطان للأمير « طواباى » بأن يحمل أعباء الأتابكية مندوبا ريثما يعين فيها أميرا آخر . فقام بهذه المهمة . ثم عاونه بعض المعاونة فى الثورة التى شبت ضده وأفلحت فى خلعه فالت السلطنة حينئذ إلى الأشرف الغورى .

وفى ذى القعدة عام ٩٠٨ هـ سار على رأس جماعة من المماليك السلطانية لإطفاء ثوران عرب الشرقية والغربية . وظل يقوم بمثل هذه الأعمال حتى وفاه أجله ،

وينسب إليه بعض الظلم والجور كما بينا .

« ابن إياس جزء ٢ ص ٣٠٥ ، ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ — جزء ٤ ص ١٧ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٥١ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٥٩ ، ٢٠٨ .

٤٣ - خاير بك الخازندار ٩٢٠ هـ

قال عنه ابن إياس مامواده : « في يوم الجمعة تاسع شهر رمضان كانت وفاة الأمير « خاير بيك الخازندار » الكبير أحد الأمراء المقدمين وصهر السلطان ، زوج أخته قديما . فأخرجت جنازته من إبيته الذي عند الجامع الأزهر ، وتوجهوا بنعشه إلى سيليل المؤمني ، فنزل السلطان له وحضر الخليفة وصلى عليه . وكانت جنازته حافلة . ومشيت فيها القضاة والأمراء المقدمون وأعيان المباشرين وغير ذلك من الأعيان . ودفن في تربته التي أنشأها بالصحرَاء . وكان أصله من ممالك الظاهر خشقدم . وكان متزوجا بأخت السلطان قانصوه الغوري من حين كان جمدارا . فلما ملك الغوري أنعم عليه بإمرة عشرة . ثم عين خازندارا كبيرا ثم أمينا للسلطان على خزائن الأموال وغيرها ، وأصبح ذا مشورة مرعية لدى السلطان وذا أثر في تدبير أمور المملكة . ثم أنعم عليه بتقدمة ألف فاتسع جاهه . وأصبح من أقرب المقربين لدى السلطان . ومات وله من العمر نحو ثمانين سنة . وله من المال والجمال والخيول والبغال والقماش والسلاح شيء كثير . »

« ابن إياس جزء ٤ ص ٣٦٤ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ . »

٤٤ - قاني باي قرا ٩٢١ هـ

قال عنه ابن إياس ما مؤداه : في يوم الجمعة سادس وعشرين من هذا الشهر -

ربيع الأول عام ٩٢١ هـ - كانت وفاة الأمير قاني باى قرا ، أمير آخور كبير الذى كان باش العسكر المتوجه إلى حلب . وكان موته بغمة ، ومرض خمسة أيام فقط حتى قيل إنه مات مسموما من بعض أخصائه . وأصله من ممالك الأشرف قايتباى ثم أعتقه وأعطاه خيلا وقمasha . ثم صار جامدارا فسلحدارا . ثم أمير عشرة فى سنة ٨٩٨ هـ . ثم عينه نائبا فى صهيون وقيل إنه سعى لهذه النيابة بمال ، وتوسط له فيها الأمير « أربك الخازندار » . ثم نقل إلى حلب فظل بها زمنا يسيرا ثم نقل إلى مصر وأنعم عليه بمقدم ألف فى دولة الناصر « محمد بن قايتباى » . ثم ارتقى إلى الأمير آخورية الكبرى فى عهد الناصر فى محرم عام ٩٠٣ هـ بعد قتل كرتباى الأحمر . فظل فى منصبه هذا حتى توفى . أى مكث به نحو من ثمانى عشرة سنة وثلاثة أشهر .

وكان أميراً جليلاً فى سعة من المال . ووجد له بعد موته شئ من المال كثير . ومن آثاره : جامع تجاه سوق الخيل . وجامع قريب من المهارة بجوار البركة الناصرية . وكان أسمر اللون طويل القامة وكزه المشيب . ومات وله نحو الستين سنة . واشتهر بالفروسية والشجاعة ولعب الرمح حتى كان يلقب بقاني باى الرماح . ولكنه كثيرا ما أساء إلى الناس فى معاملتهم ولقى منه أهل الشام وحلب ظلما كثيرا حينما كان قائدا للتجريدة المرسلّة إليهما . وكذلك كثيرا ما بطش بالفلاحين والعربان حينما كان يوجه إلى تأديبهم .

وأقامت له زوجته جنازة حافلة ومعزى حارا دام ثلاثة أيام بالنذب والدف . وزوجته تلك بنت الأمير « يشبك بن مهدى الدوادار . وما يذكر أيضا أن ابنة قاني باى تزوجت عام ٩٢٢ هـ الأمير الماس وكان أمير عشرة يوم دخوله بها . واحتفل بعرسه أمراء المملكة .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٨٣ - ج ٤ من ص ٤٥٠ إلى ٤٥٣ - ج ٣ ص ١٠ »

٤٥ - جان بردى الغزالى ٩٢٧ هـ

أحد كبار الأمراء الذين أثروا بسياساتهم وأعمالهم في مجرى التاريخ المصرى ، ووجهوه إلى نواحى خاصة ، ويعتد من أبطال عصر الأشرف الغورى . ويلخص تاريخ حياته فيما يلى : كان من مماليك الأشرف قايتباى ثم أعتق . ومعين شادا فى ضيعة الاستادار تغرى بردى فى الشرقية وهى المسماة منيعة غزال فنسب إليها . ثم رقى جمداراً ، ثم كان كاشفا للشرقية منذ عصر الملك الأشرف قايتباى إلى عصر قانصوه بن قانصوه . وفى شعبان عام ٩٠٤ هـ ، غضب عليه السلطان المذكور لبعض هفواته ، وأمر بإعدامه ! لولا شفاعته بعض الناس فيه . وفى عهد الأشرف جان بلاط أنعم عليه برأس نوبة ثان فى شهر جمادى الأولى عام ٩٠٦ هـ ، وانضم «جان بردى الغزالى» إلى جانب هذا السلطان ضد مناورته طومان باى المتملك ببلاد الشام ، والزاحف بجنوده على مصر . غير أنه ما لبث حين رأى جنود العادل طومان باى ينتصرون شيئاً فشيئاً أن زایل سلطانه بالقلعة ، وانضم إلى خصمه العادل هو وآخرون ، منهم خير بك السكاشف ، وذلك يوم السبت ١٨ من شهر جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ . وقد انتصر العادل طومان باى فى النهاية ، وأصبح سلطاناً على البلاد المصرية . فلما تم أمره أخذ يطهر البلاد من يشعر منهم بالمنافسة ، وكان فى مقدمتهم الأمير قصر وه نائب الشام الذى عاونته أكبر معاونته فى الاستيلاء على مصر . فقبض عليه وخنقه ! ثم قبض على أنصاره ، وكان منهم «جان بردى الغزالى» كاشف الشرقية ورأس نوبة ثان . فسجن ، ثم نفى بعد قليل إلى قوص . غير أنه اختفى بعد قليل ، حتى قامت قیامة بعض الأمراء على السلطان العادل بعامه قیت الرجى ومصر باى ، فى شهر ررمضـان عام ٩٠٦ هـ ، فظهر «جان بردى» ، وانضم إلى صفوف الثوار ضد العادل فى تلك الثورة التى أودت به ، وكانت عاقبتها أيلولة الملك إلى

الأشرف الغورى . فعين « جان بردى » فى الحسبة ، يوم السبت ٦ شول سنة ٩٠٦ هـ .
عوضا عن قرقماس المقرى ، ثم اختفى « جان بردى » لبعض الأسباب ، ثم ظهر ،
ثم عين بعد زمن فى شهر جمادى الأولى عام ٩٠٧ هـ . فى حجوية الحجاب بحلب
فخرج إليها بعد زمن يسير ، ثم انتقل بعد مدة إلى نيابة صفد عام ٩١٧ هـ . وكان قد وفد
على مصر بناء على دعوة من السلطان الغورى ، فى ربيع الآخر عام ٩١٦ هـ . فأقام
بمصر أياما . وفى عام ٩١٧ هـ وقع بينه وبين الأمير سييى نائب الشام شجار
وجفاء ، فأرسل السلطان الغورى فى يوم الاثنين ١٦ المحرم فى ذلك العام رسولا
من قبله ، من الخاصكية اسمه طومان باى ليسافر إلى الشام ، ويقوم بمهمة الصلح بين
الأميرين . وبعد مدة انتقل « جان بردى الغزالى » إلى نيابة حماة عام ٩١٨ هـ ، فظل
بها زمنا طويلا إلى آخر العصر . وفى عام ٩٢٢ هـ ، رحل السلطان الغورى فى جيشه
السكيف إلى البلاد الشامية والحلبية لملاقاة العثمانيين . فمر على حماة فتلقيه بها نائبها
« جان بردى الغزالى » خير لقاء وأولم له الولا ئم الحافلة . ثم زحف السلطان وتلاقى
بالعثمانيين ، ولم يكن « جان بردى الغزالى » أحد الأمراء الزاحفين معه ، وظل فى
نيابته ، وقيل إنه أظهر الهزيمة فقت ذلك فى عضد السلطان . وكانت النتيجة هزيمة
السلطان وضياعه فى مرج دابق . واتضح خيانة خاير بك نائب حلب إذ فر
منهزما من تلقاء نفسه أمام العثمانيين ، فقت فى عضد الجيش المصرى . أما « جان بردى » فإنه
عمل على تعويق الجنود المصريين عن عودتهم إلى مصر . ثم إنه عاد إلى مصر مع بعض العائدين
بعد الهزيمة فى يوم الخميس ١٣ رمضان عام ٩٢٢ هـ ، فرشحه السلطان الجديد طومان
باى لنيابة الشام . ووقع بين الأمراء خلاف وشجار بشأن الوظائف . ومن ذلك
ما وقع بين « جان بردى الغزالى » وبين الأمير علان الدوادر الثانى . ولا شك أن
هذا الطمع وعدم القدرة على حسمه من أهم أسباب الهزيمة إذ به تفرقت القلوب .
وأخذ السلطان طومان باى فى جمع جيش جديد لملاقاة العثمانيين بالشام ،

واختار لقيادته الأمير « جان بردى الغزالى » . ثم تم تعيينه لنيابة الشام ، فى يوم الخميس ٢٠ رمضان عام ٩٢٢ هـ ، وأطلق عليه منذ ذلك الحين لقب « ملك الأمراء » ، وهو لقب كثير إطلاقه فى أخريات العصر . وفى أوائل شوال أخذ فى أسباب الخروج بتجريدته إلى بلاد الشام ، وبعد لآى استطاع الأمير « جان بردى الغزالى » أن يخرج بهذه التجربة المفككة . ثم أخذت بقاياها تلحق به شيئا فشيئا ، وأخذ فى مضايقة العثمانيين بنواحي غزة ، ولكن تم انكسارهم أمام عدوهم فى الأحد ٢٤ ذى القعدة ، وذلك بسبب تفرق قلوب الأمراء والجنود ، وتداعيتهم وتكاسلهم عن اللحاق بأمرهم حتى اضطر إلى أن يجمع عددا من العربان هناك يستعين بهم فى قتاله ، ولكنه لقي العثمانيين فى فئة قليلة ، فانهزموا هزيمة منكرة بالقرب من « بيسان » وقتل عديد من أمرائهم وجنودهم . وقيل إنه « جان بردى » نفسه جرح ، ونهب ما معهم . وقد سلم من الموت من عجل بالهرب والفرار - ولعل هذه الهزيمة جزما من برنامج الغزالى المتفق عليه مع العثمانيين - وعاد « جان بردى الغزالى » من هذه الهزيمة النكراء ، هو وفلول جيشه ، فدخل القاهرة فى يوم الاثنين ٥ من ذى الحجة عام ٩٢٢ هـ . وبعد قليل اشترك مرة أخرى فى قتال العثمانيين مع سلطانه طومان باى حيث عسكروا فى الريدانية ، فلما تمت الهزيمة أيضا على الجيوش المصرية ، هرب « جان بردى الغزالى » ومعه عدد من المماليك ، قيل إنهم هربوا إلى مكة ، وقيل إلى غزة . ثم تبين فيما بعد أنه إنما انهزم وفقا لخططة موضوعة رسمها مع السلطان سليم شاه العثمانى . فكانت خطته هذه أو خيائته تلك سببا لهزيمة جيش مصر ، ولذلك سرعان ما عاد واتصل بالسلطان سليم ودخل إلى القاهرة فى يوم الثلاثاء ١٨ المحرم عام ٩٢٣ هـ ، يحمل منشورا من سلطانهم بأمانه له ثم قابله فى وطاقه ، ومنذ ذلك الحين انضم فى وضع النهار إلى أعداء البلاد ومحتليها ، وأصبح شواظ نار على أهلها وسكانها .

فقد حدث أنه فى يوم الاثنين ١٦ صفر عام ٩٢٣ هـ ، ثار عربان الشرقية

ووقفوا في طريق العثمانيين الزاحفين يتسقطون ما معهم من جمال وخيول وسلاح وينهبونهم ويقتلون منهم ، فأرسل إليهم السلطان سليم نحو ألف وخمسمائة جندي عثماني بقيادة الأمير « جان بردى الغزالي » فعاث بهم فسادا في بلاد الشرقية ، وقتل من عربانها وأسر وسبي ونهب ، وباع بعد ذلك ما نهبه وما سباه من نساء وبنات حتى بيعت البنت بأربع أشرفيات . - وهكذا أصبح « جان بردى الغزالي » والأمير خاير بك الخائن رجلى السلطان سليم اللذين ساعدها على احتلال مصر بخيانتها . ولما استتب الأمر للعثمانيين بمصر عينه السلطان سليم ، نائبا عنه ببلاد الشام ، وجعل له حق التصرف في حماة وحمص وصيدا وبيروت وبيت المقدس والرملة والسكر ، فأصبحت في يده البلاد الشامية والطرابلسية . فخرج إليها حينما خرج السلطان سليم من مصر إلى بلاده في يوم الخميس ٢٣ شعبان عام ٩٢٣ هـ . وبقي خاير بك « ملك الأمراء » نائبا عنه في مصر . - وأصبح كل منهما يلقب بملك الأمراء .

استقر « جان بردى الغزالي » نائبا عن السلطان سليم ببلاد الشام وأصبح له حق التصرف في شئونها ، وقد طهرها من بعض العربان الثائرين بها وخصوصا ناصر الدين بن الحنش شيخ الأعراب والبقاع وغيرها بنواحي دمشق . وهو أحد المتعصبين بربوعها . وفي شهر صفر عام ٩٢٥ هـ ، بلغه أن الأعراب استولوا في الطريق على أموال ركب الحاج الشامي في أثناء عودته من بلاد الحجاز ، ومنعوه من المسير ، فذهب « جان بردى » توا وأوقع بهم وأعاد إلى الركب غنائمه وأمواله بعد أن غنم من الأعراب الشيء الكثير . - واشتط « جان بردى » بعد ذلك في معاملة عربان بلاد الشام فجز في هذا الشهر رموس أربعة من كبار مشايخهم ، فكان ذلك سببا في اضطراب جبل الأمن وهرب الثورة عليه في جبل نابلس حينما من الدهر . - وقد أبلى « جان بردى الغزالي » بلاء حسنا في دفع الفرنجة العابثين بسواحل الشام في عام ٩٢٦ هـ ، إذ قهرهم بعد أن أثخن فيهم وأسر وغنم . وأخذ في تثبيت مركزه

في بلاد الشام حتى أصبح بمثابة ملك عليها . فلما آل ملك بني عثمان إلى سليمان القانوني ابن سليم في عام ٩٢٦ هـ ، حدثته نفسه بالسلطنة على بلاد الشام والزحف منها على البلاد المصرية . وتواترت أخباره بمصر ، فقبل أطاعه الجند ونادوا به سلطانا على بلاد الشام ولقبوه بالأشرف وخطب باسمه على منابرها ، وضربت السكة باسمه أيضا ، وأرسل هو وخاير بك ليكون ملكا على مصر ويبقى هو ملكا على الشام إلى الفرات ، ليتردا العثمانيين . وأخذ خاير بك ملك الأمراء ونائب العثمانيين بمصر يحصنها ويعد عدته وأرسل فأعلم السلطان سليمان بما كان من أمر « جان بردى الغزالي » . بذلك اعتبر خارجا وعاصيا للسلطان العثماني ، وذلك في ذى القعدة عام ٩٢٦ هـ . وقيل إنه حاصر حلب محاصرة شديدة ، ولم يستطع الاستيلاء عليها . ولما زاد عبثه ببلاد حلب وسواها وترتب على ذلك قطع الصلة بين الشام ومصر نحو ثلاثة شهور ، جرد عليه السلطان سليمان القانوني جيشا لإخضاعه . فتمت عليه الهزيمة في ربيع الأول عام ٩٢٧ هـ . وقبض عليه وحُز رأسه وأرسل إلى استانبول . وكانت هذه هي نهاية هذا الأمير .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ - وج ٤ ص ١٨٠ ، ٢٣ ، ١٨٧ ، ٢١٠ ، ٢٦٧ - وج ٣ ص ٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٢٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ . الكواكب السائرة ج ١ ص ١٩٨ ،

٤٦ - خاير بك بن بلباي ٩٢٨ هـ

هو المعروف بملك الأمراء والذي اشتهر بأخى قانص-وه البرجي . وهو أحد عظماء الأمراء الجراكسة ، وقد بلغ من الجاه والمجد والسيادة حدا

يغبط عليه ، وتقلبت به ظروف حياة جادة حتى بلغ بحيلته عليها ما لم يبلغه سواه ، وحتى أتى عليه حين من الدهر كان نائبا على مصر شبيها بالسلطان منه بالأمير ، ولكنه للأسف لم يسلك إلى مجده سبيلا مشرفا ، بل استخدم أخس ضروب الحيلة ، وسلك أوبا المسالك وأحط السبل حتى ليصيح اعتباره وصمة عار في تاريخ الجراكسة ، وثغرة ألم في تاريخ مصر . ولا بدع في هذا الوصف ، وما بالك بمن خان عهده وسلطانه وأمه وغدر بهم جميعا غدرا لم يكونوا يتوقعونه منه ، فإنه كان أحدى نواحيهم المأمونة فأتوا منها . وصعد على أكف هذه الخيانة والغدر في سلم الرقي والجاه والمجد الزائف حتى أشرف منه على الغاية ..

وهو جركسى الجنس . وأبوه اسمه بلباى الجركسى ، وله ثلاثة إخوة عاشوا في كنف مصر ونعيمها زمنا طويلا ، منهم خضر بك . ومنهم جان بلاط وكان مقدم ألف ، ومات مطعون في عهد الناصر بن قايتباى ، ومنهم قانصوه البرجى المعروف بالمحمدى ، ارتقى حتى بلغ نيابة الشام في عهد الغورى .

أما « خاير بك » الذى نحن بصدده - وهو أخوه - فإنه كان من ممالك الأشرف قايتباى ، وعاش في الطباق زمنا . وكان من الممالك السلطانية . ثم أعتقه سيده ، وعينه جمدارا فخاصكيا ، ثم صار أمير عشرة في دولة الناصر بن قايتباى عام ٩٠١ هـ ، ثم أمير طبلخانة ، ثم بعثه هذا السلطان رسولا من قبله إلى ملك العثمانيين فى رجب سنة ٩٠٣ هـ . فرحب به وأكرمه ، ثم قتل الناصر ، ولا يزال « خاير بك » لدى ملك العثمانيين ، وبلغهما الخبر ، فانقلب ملك العثمانيين على « خاير بك » وقسا عليه وأسمعه قارص الكلام . فعاد من لدنه فى ١١ شعبان عام ٩٠٤ هـ ، فى عهد الظاهر قانصوه بن قانصوه . ولما آل الملك إلى الأشرف جان بلاط أنعم عليه بتقدمة ألف ، ثم عينه مع تجريدة تسافر إلى بلاد الشام بسبب عصيان الأمير قصروه وانصام طومانباى

إليه ، فخرج في ربيع الأول عام ٩٠٦ هـ . فكان نصيبه القبض عليه هناك وسجنه بقلعة دمشق مع كثير من الأمراء ، فلما تم الملك للعادل طومان باى بعث مرسوما إلى الشام بالافراج عن « خاير بك » ، فبلغ القاهرة في أخريات شهر رجب عام ٩٠٦ هـ ، فأنعى عليه بتقدمة ألف كما كان في عهد جان بلاط ، وأعلمها ترضية له لسكسب جانبه ، ومع ذلك ثارت ثورة الأمراء على العادل وكان « خاير بك » من الثائرين معهم ، فسرعان ما آلت السلطنة إلى الأشرف الغورى بواسطة هؤلاء الأمراء ، ومنذ ذلك الحين أخذ نجم « خاير بك » فى الصعود ، ففي يوم الخميس ١٤ المحرم عام ٩٠٧ هـ ، أنعم عليه السلطان الغورى وعينه حاجب الحجاب ، وفى ذى القعدة سنة ٩٠٨ هـ ، سافر إلى الصعيد لتهدئة ثوران العربان هناك ، وظل يقوم بمثل هذه المهام حتى توفى أخوه قانصوه البرجى الشهير بالمحمدي نائب الشام فترتب على موته عدة تنقلات ، ومنها انتقال الأمير « خاير بك » نائبا على حلب فخرج إليها فى حفل حاشد فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٠ هـ ، فظل فى هذه النيابة أمدا طويلا ، حتى حدث النزاع بين سلطان مصر الأشرف الغورى وبين سلطان العثمانيين الملك سليم الأول ، وخرج الغورى سنة ٩٢٢ هـ ، للقاء خصمه فى الديار الشامية والحلبية ، فكان الأمير « خاير بك بن بلباى » ونائب حلب قائد ميسرة الجيش المصرى ، وقد لاقى سلطانه خير لقاء ساعة دخوله مدينة حلب وحمل بنفسه على رأس السلطان القبة والجلالة ..

ولما التقى الجيشان فى « مرج دابق » ، وكادت الهزيمة تتم على العثمانيين ويكتب النصر لجيش مصر ، انسёл الأمير « خاير بك » نائب حلب مظهرا الهزيمة وترك ميسرة الجيش ، فوقع الفشل فى الحلة كلها وأقدم العثمانيون فزقوها شذر مذر ، وضاع الغورى ، وتمهد السبيل بذلك لغزو مصر نفسها واحتلالها ، وكل ذلك بسبب

ما أظهره « خاير بك » من هزيمة هى جزء من برنامج منظم متفق عليه بينه وبين العثمانيين لخيانة سلطانه وبلاده .

ولما ولى منهزم ما يمم شطر حماة ومهد السبيل بها وبجانب للعثمانيين . فلما ملك السلطان سليم مدينة حلب وفد عليه نائبنا الجليل « خاير بك » ، فجعله أحد أمرائه وخلع زى الجراكسة ولبس زى التراكمة . وما أجمل ما شبهه به ابن إياس إذ قال : « وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله ، وملك هولاء كو بغداد ، وقتل الخليفة ، فصار ابن العلقمى مقربا عند هولاء كوشم انقلب عليه وقتله ، وقال : أنت ما فيك خير لاستاذك ، فما يكون فيك الخير لى - وربما يقع « لخاير بك » مثل ذلك » .

ولكن - مع الأسف - كان السلطان سليم أكيس وأبعد نظرا من هولاء كوش . لأنه اصطنع هذا الخائن إلى أقصى حد ، وأسبغ عليه رضاه ليحكم بوساطته بلاده ، ويكفل بقاءها فى يده . وقد كان .

وقد دخل « خاير بك » هذا مع العثمانيين وقت زحفهم على مصر . فلما تم لهم الأمر ، عينه سلطانهم سليم نائبا عنه بمصر ، وقد تم تعيينه فى يوم الثلاثاء ١٣ شعبان سنة ٩٢٣ هـ . ودفع إليه خاتم الملك . وفضله على يونس باشا أحد أتباعه . فظل يحكم هذه البلاد باسم العثمانيين حتى توفى . وقد وطد دعائم الحكم العثمانى فشنق ونفى وشرذ وصادر وأخلص للعثمانيين أكثر من إخلاصه لمصر ، ولقب بملك الأمراء . وشهد عصر سليمان القسطنطينى وظل يقوم فى خلال نيابته برسوم الملك وما تقتضيه ظروف الحكم من احتفال بكسوة ، وفتح لشد ورعاية لحفل ، وإطفاء لشورة ، وتصريف لأمر ، ومنح رتب وتولية موظفين ، وغير ذلك . وقد أخذ السلطان سليم معه فى عودته إلى عاصمته ابن الأمير « خاير بك » رهينة فى يده حتى لا يعيث من

بعده بشيء ، وقد توفي بعد زمن . وما يذكر أن « خاير بك » عرض في يوم الأحد ١٦ شوال سنة ٩٢٣ هـ ، بناحية مذشبة المهراني بالفسطاط سفنا محملة قمحا وشعيرا فيها نحو ثلاثين ألف أردب رسالة من مصر إلى السلطان سليم . وما يذكر أيضا أن جان بردى الغزالي الخائن الثاني وشريك « خاير بك » ، والمعين نائبا على بلاد الشام من قبل العثمانيين ، حدثته نفسه بعد زمن بالعصيان وأرسل إلى « خاير بك » نائب مصر ، وأخبره الخبر طالبا إليه أن يتعاونوا معا في التغلب على العثمانيين ، وفي أن يكون هو ملكا على الشام ، ويبقى « خاير بك » ملكا على مصر . فما كان من « خاير بك » إلا أن بعث إلى الملك سليمان القانوني وأخبره خبر الغزالي ، فأعد له العدة وجرد عليه جيشا أباده سنة ٩٢٧ هـ .

وفي شهر ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ . أصيب الأمير « خاير بك » ملك الأمراء بمرض شديد زادت شدته يوما بعد يوم حتى فلق وحبس بوله وغائظه لما أصابه من ورم . فلما شعر بشغل مرضه وأحس بأنه مرض الموت أعتق جميع غلمانة وجواريه وأخرج عشرة آلاف أردب من القمح تفرق على مجاورى الأزهر وغيره من المزارات وغيرهم من الفقراء . وأطلق عددا من المساجين ، وقدم ضروبا كثيرة من الإحسان تسكفيرا عما جنت يده ، فكان كما قال عنه ابن إياس « لم يعرف الله إلا وهو تحت الحمل » . وقد وافاه أجله المحتوم في يوم الأحد ١٤ من ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ بعد أن ناب في مصر عن العثمانيين خمس سنوات وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما .

وينسب إليه ابن إياس أنه كان جبارا عنيدا سفاكا للدماء . مناعا للخير مسرعا إلى الشر ، كثير الحيلة والمكر ، استخدم الأقباط وأذل لهم المسلمين وكره العلماء وطلبة العلم . ومهما يكن من شيء فحسبه خيانة بلاده عارا ومذمة ، وهو آخر

الجزاكسة الذين حكموا مصر .

وقد وجد له بعد موته مال كثير وجمال وخيول وأقشعة وأواني ، وقد بيعت ممتلكاته من بعده على يد الحكام الذين تولوا بعد موته .

ملحوظة : خاير بك هذا ، غير خاير بك بن إينال الذى اشتغل كاشفا للغربية زمنا ، وغير خاير بك سلطان ليلة ، أى الذى ملك ليلة واحدة قبل الأشرف قايتباى ، وغير خاير بك الخازندار الذى ترجم له رقم ٤٣ فى هذا الباب . وغير خاير بك المعمار ..

ابن إياس ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٥٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٣٩١ - وج ٤ ص ٣ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ١٢٣ ، ٢٠٦ ، ٢٨٥ - وج ٣ ص ٣ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١٢٢ ، ومن ص ١٣١ إلى ٣٢٢ .. السكواكب السائرة ج ١

٤٧ - الزينى بركات بن موسى المحتسب

هو القاضى « زين الدين بركات بن موسى » الذى ظل محتسبا للقاهرة زمناتويللا فى عهد السلطان الغورى وبعده فى عهد الاحتلال العثمانى ، وأصل أبيه من العرب وتسمى أمه عنقا ، وأول ظهوره أن كان ركابا للملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ، ثم عين برددارا لدى السلطان الغورى بعد ابن أبى الجود ، ومن ثم أخذ اسمه فى الذبوع . وقد وكل إليه السلطان الغورى عقاب ابن أبى الجود واستخلاص ما قرر عليه من المال . ثم عينه فى شعبان سنة ٩١٠ هـ ، فى حسبة القاهرة فدخل فى زمرة الأعيان والرؤساء ، وأخذ يحور ويشطط فى معاملة الناس وأكل أموالهم بالباطل ، وظل سادرا فى جوره هذا حتى غضب عليه السلطان وعزله من الحسبة والبردارية وعن جميع الوظائف التى تولى أمرها ، وقيل إنها كانت ست عشرة جهة ، منها نظارة خانقاه سرياقوس ، وولاية جهات البرلس . وكان عزله فى رمضان

سنة ٩١٤ هـ ، ثم رضى عنه السلطان بعد حين وأعادته إلى حسبة القاهرة في ذى القعدة من نفس العام . وعلا نفوذه مرة ثانية ، ثم نديه السلطان ليقوم مقام الأتابكي ريثما يعين أتابكي جديد ، وذلك بعد وفاة الأتابكي قرقماس سنة ٩١٦ هـ . فظل مندوبا حتى عين دولاباى فى الأتابكية .

ظل « الزينى بركات » ممتعا برضا السلطان وبالجاه العريض حتى وقع شجار بينه وبين الوزير الجمالى يوسف البدرى بحضرة السلطان ، ولم يرع للسلطان حرمة ، وأخفش فى الإساءة إلى الجمالى على مسمع من السلطان ، فخنق عليه وقبض عليه وأسليه إلى الماس الدوادار لمعاقبته ومحاسبته ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٩١٨ هـ ، فاستمر فى السجن ثمانية أيام ثم أفرج عنه ورضى عنه السلطان وأعادته إلى وظيفته فنزل من لدنه بالقلعة فى موكب حافل وازدانت له القاهرة وأوقدت له فى نواحيها الشموع والقناديل ولقيه الناس بالطبل والزغاريد !

وبعد زمن أشرك السلطان معه فى بعض وظائف غير الحسبة ، رجلا آخر يسمى أحمد بن الصائغ ، كان موظفا لديه ، فلم يلبث أن وقعت بينهما منازعة فى ربيع الثانى سنة ٩٢٠ هـ ، وراود ابن الصائغ المذكور السلطان بثلاثين ألف دينار ليحله محل « الزينى بركات » ، فنهزه السلطان ولم يوافق .

وفى جمادى الأولى سنة ٩٢٠ هـ ؛ ضم إليه السلطان استدارية الذخيرة . وفى صفر سنة ٩٢١ هـ ، استخلص منه السلطان ١٥ ألف دينار ، وقد عظم جاهه وظل كذلك حتى سنة ٩٢٢ هـ ، وحينئذ كثرت شكايه المماليك والناس منه بسبب ما جمعه منهم من الأموال المقررة واشتطاطه فى الجمع حتى ألحق بهم البوار ، ولا سيما أنهم كانوا فى زمن ارتفعت فيه الأسعار ارتفاعا كان عسفه أحد أسبابه .. وطلبوا إلى السلطان عزله وتسليمه لهم ليقبضوه . فرضى أولا ثم رفض ، فزاد حنقهم . وهدده جماعة من

المماليك بالقتل فخشى السلطان عليه وعزله من الحسبة وأسند إليه نظارة الذخيرة الشريفة في يوم الخميس ٩ صفر سنة ٩٢٢ هـ ، وظلت وظيفة الحسبة من بعده شاغرة إلى أواسط ربيع الأول ، ثم عين فيها ما مای الصغير بملوك الغورى . وهكذا خرج « الزينى بركات » من حسبة القاهرة بعد أن وليها هذه المرة نحو إحدى عشرة سنة .

غير أن الغورى حينما زحف بحملته على البلاد الشامية والحلبية لملاقاة العثمانيين وخلف على البلاد الأمير طومان باى نائب غيبة ، أضاف الحسبة من جديد إلى « بركات بن موسى » عوضا عن مامای المسافر معه فى الحملة ، حتى يعود . ولم يكتف بذلك بل أضاف إليه وظائف عدة حتى صار مختصا بكثير من أمور السلطنة حتى يعود . فصار من ذلك الحين صاحب الحل والعقد فى البلاد جميعها ، وأصبح طومان باى لا يبرم أمرا إلا بعد مشورته ! وعاونوه معاونة جديده فى أمور المملكة وضبط الأسعار منعا للغلو الفاحش ، وما زال حتى زالت دولة الغورى وآلت السلطنة إلى الأشرف طومان باى آخر ملوك الجراكسة . فبقى « زين الدين بركات » فى وظيفته ، إلى أن وقعت بينه وبين الشيخ أبى السعود الجارحى حادثة عجيبة تلخص فى أن القاضى « زين الدين بركات » ظلم رجلا يدعى الجلود فشكاه إلى الشيخ أبى السعود ، فبعث الشيخ أبى السعود إلى القاضى « زين الدين » رسالة خاصة بهذا الرجل وأساء فيها الكلام عنه وسفهه . فلم يعرها القاضى « زين الدين » التفاتة ، فما كان من الشيخ أبى السعود إلا أن استقدمه إليه . وكان من غفلة ابن موسى أن قدم إليه فى وكره بكوم الجارح وحوله أعوانه وأتباعه . فلما بلغه واجهه بجراح القول وقارص السباب . فخنق منه القاضى وزايل مجلسه ، فما كان من الشيخ المذكور إلا أن أمر أتباعه بصفع القاضى على رأسه بالنعال ! فصفعوه حتى كاد يهلك ، وقبضوا عليه فسلمه الشيخ إلى والى القاهرة الأمير علان ، وقال له : ضعه فى الحديد وشاور السلطان فى أمره وأخبره الخبر . ففعل الأمير علان ذلك ! فرد عليه

السلطان بأن يخبر الشيخ أن يحكم فيه حكمه ! فسكان جواب الشيخ أن يشهر القاضى ثم يشنق على باب زويلة ففعلوا ! ! . ولكن لما هموا بشنقه عاودوا الشيخ فى أمره وقالوا إن عليه مالا للسلطان ، فإذا شنق ضاع هذا المال . وهنا عفا عنه الشيخ لبغى بما عليه من المال للسلطان !

أقول إن هذا تدخل سىء من هذا الشيخ فى أمر القاضى ، وإساءة تصرف من السلطان ، بأن يجعل لمثل هذا الشيخ أمرا فى الملك وشأنا بين الموظفين وحكما على الجناة . ولكن الحق أن الفوضى إذ ذاك كانت ضاربة وهذه الحادثة إحدى مظاهرها . — ولعل عجبنا يزول حينما نقول إن هذا السلطان نفسه وهو طومان باى لم يتول السلطنة إلا بعد استشارة الشيخ الجارحى واجتماع الأمراء لديه كما بينا فى الباب الخاص بوراثنة السلطنة ونظام الحكم . — ومع ذلك فقد ذكر ابن إياس أن الناس أنكروا تدخل الشيخ فى مثل هذه الأمور .

ظل القاضى «بركات» بعد عفو الشيخ عنه — مسجوناً لدى والى القاهرة . فانتهمز «شهاب الدين أحمد بن الصائغ» — وكان حاقدا على القاضى «بركات» منذ خصامه معه فى عهد «الغورى» — هذه الفرصة وقدم نفسه لمرافعته مبدىاً أنه يستطيع أن يثبت عليه مائة ألف دينار إذا حاسبه . فما كان من القاضى «بركات» إلا أن ادعى هو أيضاً أنه يستطيع أن يثبت على ابن الصائغ مائتى ألف دينار إذا حاسبه . فقبض على ابن الصائغ أيضاً حتى يحاسب كل منهما الآخر ! ثم حاسبهما والى معا وضرب القاضى عشرين عصا حتى وعد بأن يبنى بما قرر عليه من المال وقدره عشرون ألف دينار . وضرب ابن الصائغ أكثر من أربعمائة عصا حتى أشرف على الهلاك وأشيع بين الناس أنه مات ..

أطلق سراح القاضى «بركات» بعد قليل . ورجا السلطان أن يعيد إليه وظائفه

فلم يجب له رجاءه وذلك في يوم السبت ٢٠ شوال عام ٥٩٢٢ هـ . وهم السلطان بإعادته إلى وظائفه من بعد ، لولا أنه لم يف بكل ما فرض عليه من المال ، وأزمت السلطان حاجته إلى مال ، فعاد إلى الضغط على ابن موسى وأمثاله ممن فرضت عليهم غرامات ، ثم هدأت هذه الغضبة وأعادته إلى الحسبة في أوائل عام ٥٩٢٣ هـ . ثم وكل إليه جهات المحلة . ثم زحف العثمانيون على مصر واحتلوها وقتلوا طومان باي ساطانها . فماذا كان موقف « الزيني » ، « بركات » هنا ؟

بقى القاضي « زين الدين » محتسبا للقاهرة كما كان في عهد الجراكسة . وقد خلع عليه ملك الأمراء « خاير بك » ، نائب العثمانيين في مصر ، في شهر شعبان عام ٥٩٢٣ هـ وجعله مدبر المملكة ، وناظر الحسبة الشريفة ، وناظر المارستان المنصوري وناظر الذخيرة الشريفة ، وغير ذلك من الوظائف حتى قيل إنه صار حاكم البلد الحقيقي . وكان هو الذي يركب في موكب الاحتفال برؤيا رمضان كل عام وحوله المصاييح وحملة المشاعل في أبهة وعظمة ..

وفي يوم السبت ١٥ ربيع الأول عام ٥٩٢٤ هـ عين القاضي « زين الدين » أميرا لركب المحمل الشريف . وكان من قبله لا يليه ولا يؤمر عليه إلا أمير من المقدمين . وبهذه المناسبة خلع عليه ملك الأمراء « خاير بك » ، خلعة ونزل من لدنه من القلعة في موكب حافل جدا . ثم احتفل بركبه في يوم الخميس ليلة الجمعة ١٩ رمضان من العام المذكور وكان ركبا شائقا .

وقد ضمت إليه الاستدارية في شوال من هذا العام أيضا -- وفي يوم السبت ١٨ شوال عام ٥٩٢٤ هـ ، خرج ركب المحمل ومعه أميره القاضي « زين الدين بركات » ، ابن موسى قاصدا إلى بلاد الحجاز . وقد أصيب الحجاج في إمرته هذه بضروب من الأذى ما بين غلاء وموت « جمال » ، وعبث عربان قطعوا عليهم الطريق في العودة .

وقد عاونهم « خاير بك » نائب مصر بحملة من الجند بعث بهم إليهم في الطريق . وكان وصوله بركبه إلى بركة الحاج عائدا ، في يوم الأحد ٢٨ المحرم عام ١٢٥٠ هـ . ولم يصب الركب المصرى بمثل ما أصيب به الركب الشامى . وذلك بهمة القاضى « بركات » . ولذلك شكره « خاير بك » .

وفي شهر جمادى الأولى عام ١٢٥٠ هـ خرج القاضى « بركات » إلى ناحية الصعيد لجمع بعض الضرائب وعاد بعد خمسة أشهر . ولكن حدثت في غيابه ثورة على من قام مقامه إذ عبث بالأعمال عبثا أدى إلى غلو الأسعار فهاج الناس وماجوا ورجعوا إلى ملك الأمراء أن يعين في الحسبة رجلا خبيرا بأحوالها ريثما يعود « الزينى بركات » من الصعيد . فاضطر إلى تعيين القاضى « عبد العظيم » . من هذا يمكن الاستنباط أنه كان قواما للسوق ونظاما للأسعار . وكثيرا ما تدخل في مسألة النقد وتعديله حسب مقتضيات الأحوال .

ظل القاضى « بركات » يقوم بما تحتمه عليه وظائفه ، ويصحب النائب في رحله أحيانا ، ويستقبل القاصدين أحيانا أخرى ، ويقوم برسوم مختلفة تقتضيها ظروفه وعمله ، كالترسيم على بعض المحكوم عليهم ، أو ضمان من لا شبهة فيه عنده وهكذا . وترامت عليه الوظائف والمراكر ، ومن ذلك أن قرر في التحدث على جهات الشرقية كلها من المطرية إلى دمياط ملتزما بأن يدفع على ثلاثة أقساط مبلغ أربعائة ألف دينار في كل عام ، فأصبح من ذلك الحين تدفع إلى بابه ظلامات تلك الناحية ، وذلك في يوم الخميس ١٦ شعبان عام ١٢٥٨ هـ . فزاد دخله ونما ماله وعظم جاهه .

ثم مات « خاير بك » نائب مصر ، وتولى النيابة بعده سنان باشا التركى ، فثبت القاضى « زين الدين » في مناصبه بعد قلق أصابه واضطراب عليها ، ولعله مات بعد قليل .

ابن إياس ج ٤ ، في التواريخ المذكورة ، ج ٣

الوزارة (١)

الوزارة بمعنى المعاونة وشدا الأزر، عرفتھا الدول الإسلامية ، منذ مطلع حياتھا وكان للخلفاء وزراء يعاونونهم في تنظيم الأمور وتدير المال ، وترتيب الجيوش ، ونحو ذلك من الشؤون . ولكن لم تطلق على أحدهم كلمة « وزير » إطلاقا محدودا بها باختصاصاته وديوانه . ولم تصر « الوزارة » منصبا بارزا معروفا بين مناصب الدولة إلا منذ أوائل العصر العباسي .

وأول من أطلق عليه لقب « وزير » هو أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال ، وزير الخليفة السفاح ، أول خلفاء الدولة العباسية . وكان يقال لأبي سلمة : وزير آل محمد .

وكان الوزير حينذاك يוכל إليه - غالبا - كل شئون الدولة ، يصرفها كيف شاء ، فيولى ويعزل ، ويبرم وينقض . فكانت منزلته لهذا ، من المهابة بمكان عظيم . وكان يختار من النابهين في الرأي والبيان والعلم .

وقد نهج هذا النهج ، ملوك الفاطميين في مصر ، منذ خلافة العزيز بالله ، إذ اتخذ أبا الفرج يعقوب بن كلس وزيرا له . وكان يعقوب يهوديا وأسلم . وفوض إليه العزيز جميع أمور مملكته . ودرج القواطم على هذه السنة - إلا قليلا - واتسع نفوذ وزرائهم ، وطغوا في أخريات دولتهم ، حتى تلقبوا بألقاب الملوك .

واتخذ الفاطميون أحيانا ، وزراءهم من غير المسلمين ، ومن مسالمة القبط ،

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ تحت عنوان « ذكر وزراء مصر » ، وهو فصل ممتع في هذا الموضوع ، عدد فيه وزراء الدولة الإسلامية ووزراء العصر المملوكي حتى أيامه . وراجع كذلك صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٨ وخطط المقريري ج ٢ تحت عنوان « ذكر دار الوزارة الكبرى » .

واليهود ، ومن الرافضة . فأبطل ذلك في الدولة الأيوبية ، إذ اتخذ الوزراء من العلماء
والمدثمين . وفي مقدمة وزراء الأيوبيين منشئ مصر الكبير ، القاضي الفاضل محي
الدين عبد الرحيم البيهقي .

ليست الوزارة إذأ جديدة طارئة في العصر المملوكي . ولقد درجت هذه الدولة
على اصطناع الوزراء منذ أول نشوئها . وجعلوا الوزارة منصبا بارزا بين مناصبها
العليا ، غير أن اختصاصها قد ضاق ، ومقامها قد اضمحل ، بالقياس إلى غاياتها ،
وذلك لإنشاء نيابة السلطنة والأتاكية ، وغيرهما من المناصب الرئيسية الكبرى ،
فغضت هذه المناصب من مكانة الوزارة وتوزعت فيما بينها الكثير من اختصاصاتها .
وأصبح أمر الوزارة مقصورا - غالبا - على الشؤون المالية وضبطها وإيرادا وإنفاقا ،
وفرض الضرائب التي يراها الوزير ضرورية وجبايتها ، والنظر في أمور الجيش .
وللوزير معاونون أشرنا إليهم في مناصب الدولة .

وقد ينصب في الوزارة رجل بارز الشخصية ذو حظوة لدى السلطان ، فيستمد
من ذلك نفوذا يوسع به اختصاصاته ، حتى يطغى على سواه . ومن الأمثلة
على ذلك الوزير شمس الدين بن السلوس ، وزير الأشرف خليل بن قلاوون . فإن
سلطانه أطلق يده في شؤون دولته ، حتى أصبح فيها كل شيء ، وكأنه السلطان أو
نائبه . وأصبح القضاء والأمراء يقفون على أعتابه ، ويمشون في ركابه .

كما أنه قد يوكل إلى الوزير - أحيانا وبخاصة إذا كان من أرباب السيوف -
أن يطحن ثورة ما ، أو يقضى على فتنة . ومن الأمثلة على ذلك ، الوزير الأمير سنقر
الآعسر ، فإنه في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، خرج في عام ٧٠٠ هـ ، في عدد كبير
من المماليك السلطانية لإطفاء ثورة العربان بالوجه القبلي ، ممن منعوا الخراج ، فأوقع
بهم ، وأرغهم على دفعه .

واختير الوزراء في أول دولة المماليك ، من أصحاب العلم والقلم ، كما كان الشأن في عهد الأيوبيين ، ثم اختيروا من رجال السيف الأمراء .

ومما يذكر أن الناصر محمد بن قلاوون ، ألغى الوزارة في عام (١) ٧٢٩ هـ ، ووزع اختصاصها بين ثلاثة مناصب هي : ناظر المال ومعه شاد الدواوين لتحصيل المال وصرف النفقات . وناظر الخاص - وقد استحدثت حينذاك - لتدبير الأمور العامة ، وتعيين المباشرين . وكاتب السر ، للتوقيع في دار العدل فيما كان يوقع فيه الوزير سواء من تلقاء نفسه أم بعد مشاورة السلطان .

وكان سبب إلغائها أن الأمير مغلطاي الجمالي - وكان وزيرا وأستادارا حينذاك - لم يحسن التصرف في شئونها . وكان له أيضا أعداء يكيدون له عند السلطان الناصر ويرمون به بضعفه في التحصيل ، ويرمون أحد معاونيه ، وهو مجد الدين بن لفيفة (٢) بالاستيلاء على بعض الأموال غيلة . فألغاها ، وقصر الأمير مغلطاي على الاستدارية . ثم بعد وفاة الناصر عادت الوزارة إلى الظهور مرة أخرى . قال القلقشندي : « واقترنت على ما كانت عليه من التوقيع على القصص بدار العدل وغيرها » .

ومرت على الوزارة ظروف خلت فيها من شاغلها ، ومن الأمثلة لذلك ، الفترة التي تلت وفاة الوزير موفق الدين هبة الله بن سعد الدولة القبطي في عام ٧٥٥ هـ ، فظلت عاطلة حتى عام ٧٥٨ هـ ، فوليها الأمير قشتمر .

هذا ، وكنا نود لو اتسع المقام لاستيعاب تراجم الوزراء في هذا العصر . لكننا نقتصر على من سنوردهم ، ممن اشتهر أمرهم في الوزارة ، ذاكرين أن من بين الوزراء - والأمراء منهم بخاصة - من أوردنا ترجمته في الباب السابق ، لتقلبه

(١) ذكر المقرئ في الخطط في سياق ترجمة مغلطاي الجمالي أن الوزارة ألغيت عام ٧٢٨ هـ

(٢) ذكره المقرئ في خططه في ترجمة مغلطاي الجمالي وقال أن اسمه المجدي بن لعينة .

في وظائف شتى غير الوزارة . ومنهم من سيرد في باب القضاة . ومن نوردهم هنا مرتبون حسب عصور ظهورهم ووفياتهم ، غالبا .

ونشير في هذا المقام إلى الفصل الممتع الذي عقده السيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ تحت عنوان « ذكر وزراء مصر » ، فقد أورد فيه نبثا قويا بأسماء وزراء الدول الإسلامية ، ووزراء العصر المملوكي ، مع بيان سنوات توليتهم وعزلهم .

الوزراء

١ - هبة الله بن صاعد الفائزي ٦٥٥ هـ

هو شرف الدين أبو سعيد ، هبة الله بن صاعد الفائزي ، ومينعت بالأسعد . كان وزيرا للملك المعز أيبك ، فهو أول وزراء العصر المملوكي . وأصله من الأقباط ثم أسلم . ولما تولى الوزارة أحدث ضرائب ووظالم كثيرة ، كان صلاح الدين الأيوبي قد أبطلها ، فنقم عليه الناس . ولما قتل المعز ، ظل « الأسعد » ، وزيرا لابنه المنصور وكان صغيرا ، ولكن نقل عنه أنه قال عن سلطانه هذا ما يشعر بعدم رضاه عنه لصغر سنه ، وأنه يود أن يملك غيره . فقبض عليه ثم قتل ، وذلك عام ٦٥٥ هـ .

ذكر المقرئ في السلوك قال : « وفيها - أي سنة ٦٥٥ هـ - دخل الصارم أحمز عينه الصالحى بجماعة ، فقتلوا الوزير الفائزي في جمادى الأولى . . . قال ابن واصل حكى القاضى برهان الدين أخو الصاحب بهاء الدين بن حنا ، قال : دخلت على شرف الدين الفائزي وهو معتقل ، فسألني أن أتحدث في إطلاقه ، بحكم أن يحمل في كل يوم ألف دينار عينا . فقلت له : وكيف تقدر على ذلك ؟ فقال : أقدر عليه إلى تمام السنة ، وإلى أن تمضى سنة يفرج الله تعالى . فلم يلتفت ممالك المعز إلى ذلك ، وعجلوا بهلاكه وخنقوه . وحمل إلى القرافة ودفن بها . »

وقد ولى الوزارة بعده القاضى بدر الدين السنجارى ثم القاضى تاج الدين بن بنت

الأعز ، ونذكرهما في باب القضاة . ثم صاحب يعقوب بن الزبير الآتي .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٣ - السلوك ج ١ ص ٣٧٠ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ - حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر وزراء مصر . »

٢ - زين الدين يعقوب بن الزبير ٦٦٨ هـ

هو صاحب يعقوب بن عبد الرافع بن يزيد بن الزبير . ولى الوزارة فى ذى القعدة عام ٦٥٧ هـ فى أول عهد الملك المظفر قطز ، بعد عزل القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن بنب الأعز . وقد ظـل « زين الدين » فى الوزارة حتى عزله الظاهر بيبرس فى ربيع الآخر سنة ٦٥٩ هـ ، وقبض عليه . وولى الوزارة بعده بهاء الدين ابن حنا . وذكر ابن إياس أن ابن الزبير ولى الوزارة بعد الفائزى مباشرة .

وكانت بين الوزير « زين الدين يعقوب » وبين بنى حنا ، عداوة . وعنه سلبوا الوزارة . قال المقرئ فى خطه ما نصه : « ومن غريب ما يتعظ به الأريب أن الوزير زين الدين يعقوب بن عبد الرافع بن الزبير ، الذى كان بنو حنا يعادونه وعنه أخذوا الوزارة ، مات فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وستمائة ، بالسجن ، فأخرج كما تخرج الأموات الطرحاء على الطرقات من الغرباء . ولم يشيع جنازته أحد من الناس ، مراعاة للصاحب ابن حنا ، وكان فخر الدين هذا - أى ابن حنا المذكور - يتنزه فى أيام الربيع بمنية القائد ، وقد نصبت له الخيام ، وأقيمت المطابخ ، وبين يديه المطربون . فدخل عليه البشير بموت الوزير يعقوب بن الزبير ، وأنه أخرج إلى المقابر ، من غير أن يشيع جنازته أحد من الناس . فسر بذلك ولم يتملك نفسه ، وأمر المطربين فغنوه ، ثم قام على رجله ورقص هو وسائر من حضره ، وأظهر من الفرح والحلاعة ما خرج به عن الحد . وخلع على البشير بموت المذكور خلعاً سنية . فلم يمض على ذلك سوى أقل من أربعة أشهر ، ومات فى

حادى عشرى شعبان من السنة المذكورة . ففجع به أبوه (١) .

« خطط ج ٤ ص ٩٠ تحت « جامع دير الطين » - سلوك ج ١ ص ٤١٧
٤٣٨ ، ٤٤٧ . ابن إياس ج ١ ص ٩٣ .

٣ - بهاء الدين بن حنّاء المصرى ٦٧٧ هـ

هو الصاحب « بهاء الدين » أبو الحسن واسمه على بن سديد الدين محمد بن سليم .
وهو أحد رجال الدهر حزما وعزما ، ورأيا ودهاء ، وخبرة وتصرفا . وقد
تقلب فى كتابة الدواوين زمنا ، حتى بلغ منصب الوزارة . وذلك فى عهد الظاهر
بيبرس يوم ٨ ربيع الأول عام ٦٥٩ هـ ، بعد القبض على الصاحب زين الدين
يعقوب بن الزبير . وقد وزر من بعده لابنه الملك السعيد كذلك .

ولما وزر لبيبرس ، فوض إليه تدبير المملكة ، فقام بأعبائها بمهابة وحكمة
وعدالة مع سعة صدر وعفة وذكاء . وكان بيبرس يثق فيه ثقة مطلقة ، ويعظمه .
وقد حاول بعض الأمراء أن يوقع بينهما ليقصيه عن الوزارة فلم يفلح . وقد
جهد فى جمع الأموال للظاهر ، واستحدث الضرائب ، واشتط فى معاقبة المتأخرين
فى دفعها . حتى مات بعضهم من العقوبة .

و « بهاء الدين » رأس أسرة مجيدة ، خدم كثير من أفرادها الدولة ردحا من
الزمان . وكانوا أهل ثروة وجاه وكرم ، وأدب وعلم ودين . وكان له ولدان هما
الصاحب فخر الدين ، والصاحب زين الدين ، فرزى بهما ، فعوضه الله خيرافى أبنائهما .
وما منهم إلا عالم فاضل ورئيس كامل .

(١) الصاحب فخر الدين بن حنّاء هو والد الصاحب تاج الدين الآتى ذكره فى
الوزراء كذلك ، وقد روى أن فخر الدين ناب عن والده فى الوزارة زمنا . وترجمته فى الخطط
ج ٤ ص ٩٠ تحت جامع دير الطين .

وكان بهاء الدين ، حريصا على أصدقائه ، معوانا لهم ، كريما سمح اليدين يقصده الشعراء بالمديح أحيانا ، فينالون من عطائه الجزيل ، ومن مدحه الرشيد الفارقى قال :

وقائل قال لى نبه لنا عمرا فقلت : إن عليا قد تنبه لى
مالى إذا كنت محتاجا إلى عمر من حاجة فليمن حسبي انتباه على
ومدحه سعد الدين بن مروان الفارقى فقال :

يمم عليا فهو بحر الندى وناده فى المضلع المعضل
فرفده بحر على مجذب ووفده مفض إلى مفضل
يسرع إن سئل نداه وهل أسرع من سئل أتى من على
وكان يستعين على تسمير ماله وتكثيره بالتجارة فيستعين بذلك على جزالة العطاء .
وقد قام باصلاحات وإنشاءات عدة . فسهر على بناء جامع الظاهر بالحسينية ،
وهو الذى تم بناؤه عام ٦٦٧ هـ . وأنشأ مدرسة لنفسه عام ٦٥٤ هـ ، بزقاق القناديل
بمصر - مصر القديمة - .

وقد ولد بمصر أيضا عام ٦٠٣ هـ ، وتوفى فى ليلة الجمعة مستهل ذى الحجة عام
٦٧٧ هـ - وقيل فى ذى القعدة - ودفن بترابته بقرافة مصر .
وقد ولى الوزارة بعده القاضى برهان الدين الحضر السنجارى ، ونذكره فى
باب القضاة . ثم وليها بعده فخر الدين بن لقمان المنشئ ، ويذكر فى باب الكتاب
بالجزء الرابع ، ثم نجم الدين الأصفونى . ثم الأمير علم الدين الشجاعى ، وهو الآتى .
« خطط ج ٤ ص ٩٢ ، ٢٠٣ - فوات الوفيات ج ٢ ص ٩٥ - سلوك ج ١
ص ٤٤٧ ، ٦٥١ » .

٤ - علم الدين سنجر الشجاعى ٦٩٣ هـ

أصله من ممالك المنصور قلاوون ، ثم أعق . ولما آلت السلطنة إلى المنصور

أنعم على طائفة من مماليكه بإمرات وتقادم ، ومنهم « سنجر الشجاعى » ، فأصبح مقدم ألف ، عام ٦٧٨ هـ .

ولما خرج المنصور إلى حلب لرد التتار والفرنجة ، استخلف على البلاد ابنه الملك الصالح ، وأقام معه الأمير « سنجر الشجاعى » لاستخراج الأموال وتدبير شئون المملكه ، وذلك عام ٦٧٩ هـ . فكان بمثابة وزير له ، وبعد هذا العام استخدمه السلطان فى أمور شتى ، وظل مدبرا للمملكه ، حتى كانت سنة ٦٨٢ هـ فابتنى السلطان مستشفى المشهور ، وبجانبه قبه ومدرسته بجهة بين القصرين بالقاهرة . وقد عهد بعمارة البناء إلى الأمير « سنجر الشجاعى » ، فقام بما عهد إليه خير قيام .

فلما كانت سنة ٦٨٥ هـ غضب السلطان على مملوكه « سنجر » وقبض عليه وصادر ماله ، وعذبه ، وخلعه من الوزارة ، وولى فيها مكانه مملوكه بيدرا . ويبدو لنا أنه عاد فرضى عنه ، إذ روى المقرئى فى سلوكه ، ما يفهم منه أن السلطان المنصور استخدمه عام ٦٨٦ هـ لبعض شئون مملكته وأطلق عليه لقب « مدبر الدولة » .

وقد أبان المقرئى فى سلوكه سبب غضب السلطان على الأمير « سنجر » وذلك أنه باع للفرنجة من سلاح السلطان ورماحه وذخائره شيئا كثيرا . فسعى بعض المطلعين على جليلة الأمر إلى السلطان فأخبره ، فغضب . وقد احتج « الشجاعى » بأنه باع العتيق من السلاح ، مما لا يصلح ، وبأنه إنما باعه إشعارا للفرنجة أن لدى السلطان من السلاح شيئا كثيرا ، حتى إنه يستطيع الاستغناء عن بعضه ولكن قيل له : إن الفرنجة ربما فسرت هذا بحاجة السلطان إلى المال . . . !

ومهما يكن من شئ فقد عزل « الشجاعى » من الوزارة فى يوم الخميس ٢ ربيع الأول عام ٦٨٧ هـ ، ولعل هذه العزلة والغضبة معاهما اللتان أشار إليهما ابن إياس فيما سبق ، وأنهما كانتا عام ٦٨٥ هـ .

سجن « الشجاعى » حتى ٩ ربيع الآخر عام ٦٨٧ هـ ، ثم أطلق بعد أن أخذ

منه خمسة وستون ألف دينار ، سوى ما صودر من ممتلكاته . ثم عين متحدثا في الأموال بدمشق . فجار على الناس ، حتى فر منه بعضهم .

ولما آلت السلطنة إلى الأشرف خليل ، أعاد الشجاعى إلى الوزارة فى أول سلطنته ، فبدأ عمله بأن قام بمصادرة أموال الأمير طر نطاي نائب السلطنة ، الذى قتل بأمر الأشرف خليل . وقبض على نسائه وجواريه وحاشيته ، وعذبهم ، واستخلص منهم أموالا طائلة . فعظم شأن « الشجاعى » حتى ندبه السلطان لأعمال نيابة السلطنة ، ريثما يختار لها أميرا . ولم يكسب له تقليد بالوزارة أو النيابة ، فظل حتى عين الأمير « بيدرا » نائبا ، واقتصر أمره هو على الوزارة .

ثم استقدم الأشرف خليل صديقه وصفيه شمس الدين بن السعلوس من مكة ، فقدم فى أوائل عام ٦٩٠ هـ . فأسند إليه الوزارة ، وعزل منها « الشجاعى » .

ومع ذلك أخذ « الشجاعى » بعد قليل ، يعود إلى الاشتراك فى شئون الدولة . فاشتراك مع السلطان فى حصار عكا ، ثم ولى نائبا على دمشق ، وزيد فى راتبه وإقطاعه واختصاصه ، وقام هناك بجملة أعمال حربية باهرة . ثم عزل من نيابة دمشق فى ٦ شوال عام ٦٩١ هـ فتألم لذلك .

قتل الأشرف بعد حين ، وولى السلطنة أخوه الناصر محمد ، وكان صغير السن ، فاختر لوزارته الأمير « علم الدين سنجر الشجاعى » مرة جديدة ، فى المحرم سنة ٦٩٣ هـ . ولكنه أخذ يستبد ، مخدوعا بصغر سن السلطان ، وعاقب ابن السعلوس وزير الأشرف خليل ، وأخذ فى تدبير مؤامرة لخلع السلطان والكيده لكبار الأمراء ومنهم الأمير كيتغا المنصورى . وجمع بعض أتباعه ليفجأ بهم أعداءه ، فلم تفلح مؤامراته ، وهزم وفر . ثم طلب الأمان فلم يؤمنوه . فدخل على السلطان الناصر فى دور الحرم ، وأغلظ له فى القول . فعرض عليه السلطان أن يكون نائبا فى حلب - وقيل فى قلعة الشام - فرفض . وأحس غلبان السلطان منه الشر ، فأمسكوه

وقيدوه ، وأرسلوه إلى البرج بالقلعة ، ليسجن . فلقية به بعض أعدائه من المماليك
البرجية ، فقتلوه وجزوا رأسه ، وبعثوا به إلى الأمير كتبغا .

بذلك انطفأت فتنته ، وتشتت أنصاره ، وختمت حياته . وطيف برأسه بالقاهرة
ومثل به شر تمثيل ، وكانت قتلته في صفر عام ٦٩٣ هـ .

ونشير هنا إلى أن « الشجاعى » لما عزل من الوزارة فى عهد قلاوون ، وليها
الأمير بيدرا . ثم صار بيدرا نائب سلطنة ، وقدمت ترجمته فى نوابها .

« ابن إياس ج ١ ص ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،
١٣٢ ، ١٧٤ - السلوك ج ١ ،

٥ - شمس الدين بن السعلوس (١) التنوخى ٦٩٣ هـ

هو القاضى والصاحب ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن أبى الرجا
ابن السعلوس التنوخى . قيل : أصله كان تاجرا فى دمشق ، وولى الحسبة بها زمنا ،
منذ رمضان عام ٦٨٧ هـ . ثم وفد على مصر فى بعض السنين . وكان يكتب خطا
جيذا ، فاستطاع الاتصال بالأشرف خليل ، وهو أمير ، فى عهد سلطنة أبيه المنصور
قلاوون . فاتخذته ناظرا لديوانه . وكان يقوم له ببعض الأعمال التجارية فى البلاد
الشامية ، فيربح من ورائها الكثير من المال . لذلك ازداد قربا من الأشرف وأصبح
محبوبا عنده ، وغلت منزلته لديه ، حتى صار كمستشار خاص له فى جميع أعماله وتصرفاته .
فخاف منه المنصور على ولده ، وخشى أن يكون ذا أثر سىء فيه ، ووشى به إليه
الأمير طرنتاى ، فضر به المنصور ونفاه إلى مكة ، فأقام بها حتى توفى المنصور .

آلت السلطنة حينذاك إلى الأشرف خليل ، فرسم توا « لابن السعلوس »

بالعودة إلى مصر . وكتب إليه بخطه على مرسومه يقول : « يا شقير ، جد السير
جاء الخير ، (١) .

عاد القاضى « شمس الدين بن السعلوس » إلى مصر فى ١٣ المحرم عام ٥٦٩٠ - وقيل
فى السلوك : فى عاشوراء - ، فأُسندت إليه الوزارة ، وفوضت إليه شئون المملكة
فعلت مهابة وهيب سيطرته ونفذت كلمته . وأصبح يسير فى ركابه الأمراء والموظفون
والمماليك ، بل والقضاة الشرعيون . فإذا اجتمعوا ببابه يدخل عليه حاجبه ويقول :
« أعز الله مولانا الصاحب قد اكتمل الموكب » فيخرج للركوب من داره أو إليها .
واتسعت أعمال الوزارة فى عهده ، حتى طغت على نيابة السلطنة نفسها ، وحتى
كانت الظلامات المرفوعة إلى السلطان تقرأ على الوزير ويمضى فيها أمره بغير
مشاورة السلطان .

غير أن « ابن السعلوس » كان سرىعا إلى سوء والدس ، فأوقع بين نفسه وبين
كثيرين من رجال المملكة ، كالأمير بيدرا والقاضى تقي الدين عميد الرحمن بن
بنت الأعز (٢) . ونسب إلى هذا القاضى السكفر ، فدفعت إلى السجن بسبب ذلك
ولم يكد له حتى اتضحت براءته فأطلق .

وقد أساء ابن السعلوس - بلا ريب - إلى نفسه وإلى مملكته بهذه التصرفات
الخرقاء ، حتى جلب للملكه الأذى . وذلك أن السلطان الأشرف خليلا ، أراد فى عام
٦٩٣ هـ الرحيل إلى الاسكندرية . فسبقه إليها وزيره هذا ليمهد لاستقباله بها . فاختلف
هناك مع غلمان نائب السلطنة حينذاك وهو الأمير بيدرا - وكان بينهما حقد خفي -
وبعث بتفاصيل الخلاف إلى سلطانه فأضمر هذا الشر للأمير بيدرا واستقدمه بين

(١) وفى السلوك أنه كتب « يا شقير » بوجه الخير ، عجل السير ، فقد ملكنا »

(٢) فصلنا ما وقع بين السعلوس وبين القاضى تقي الدين فى ترجمته فى باب القضاة بهذا الجزء

يديه ووبخه وهم بالقبض عليه ، فترفق به بيدرا ، ورق أمامه حتى أطلقه ، ثم أخذ بعد إطلاقه يدبر مؤامرة لاغتيال هذا السلطان ، وقد نجحت مؤامره ، وقتل الأشرف وزالت دولته في العام المذكور .

ومن غريب ما روى عن « ابن السعلوس » أن خبر مقتل سلطانه وافاه ، وهو بالاسكندرية ، فعاد إلى القاهرة ، واستأنف نشاطه السابق وركب من داره إلى ديوانه بالقلعة ، وهو على عادته من الزهو والكبر ، غير عابء بما جرى ولا متخذ لنفسه الحيلة ، فعجب الناس منه وقال له أحد خاصته : « الرأى أن تحتفى حتى تسكن الفتنة . فقال : « هذا لا نفعله ولا نرضاه لعامل من عمالنا فكيف نختاره لا نفسنا ؟ »

ثم آلت السلطنة إلى أخى المتوفى ، وهو الناصر محمد ، فاختار لوزارته الأمير سنجر الشجاعى فسرعان ما جهد فى القبض على « ابن السعلوس » وأسلمه إلى أحد الحاقدين عليه ، وهو الأمير بهاء الدين قراقوش الظاهرى شاد الصحبة . فطالبه بأموال وضربه فى مرة ألف عصا ومائة ، وعاقبه وعذبه . ثم تناوله رجل آخر فعذبه كذلك واستخلص منه ما لا كثيرا . وما زال حتى مات . وكان موته فى يوم الأحد ١٥ صفر عام ٦٩٣ هـ . قيل : ضرب بعد موته ثلاث عشرة مقرعة .. ودفن بالقرافة واستحوذ الشجاعى على ماله وأذى أولاده ونسائه وحاشيته . وزال بذلك كله عزه وجاهه ، بعد ما لقي ضروبا من الهوان والذلة .

وما يذكر أن الأمير سنقر الأعسر - الذى ولى الوزارة بعد حين - تزوج بنت الوزير ابن السعلوس فى جمادى الأولى عام ٦٩١ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ - السلوك

ج ١ »

٦ - تاج الدين بن حنا ٧٠٧ هـ

هو الصاحب تاج الدين بن الصاحب نجر الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنا

واسمه محمد بن محمد بن علي محمد بن سليم . وقدم ذكر جده بهاء الدين . ونوهنا
بأبيه في ترجمة الصاحب يعقوب .

وهو فرع من تلك الأسرة المصرية المحيطة - أسرة ابن حنا - قال المقرئ عنه
في الخطط : « وانتهت إليه رياسة عصره ، وكان صاحب صيانة وسؤدد ومكارم
وشاكلة حسنة وبزة فاخرة إلى الغاية . وكان يتناهى في المطاعم والملابس والمناكح
ويجود بالصدقات الكثيرة مع التواضع ومحبة الفقراء وأهل الصلاح ، والمبالغة في
اعتمادهم . ونال في الدنيا من العز والجاه ما لم يره جده الصاحب الكبير بهاء الدين » .

وكان « تاج الدين » حسن الترتيب في منزله منظمًا بحيث تقضى له مآربه ومآرب
ضيوفه دون أن يتكلف إشارة ما . وكان كريما يقصده الشعراء فيجزل لهم العطاء .
مدحه الشهاب محمود والسراج الوراق وابن دینال .

وقد تقلد « تاج الدين » الوزارة بعد مقتل الوزير سنجر الشجاعى ، وذلك في صفر
عام ٦٩٣ هـ . فلبث بها أكثر من عام إلى جمادى الأولى عام ٦٩٤ هـ ، ولم يوفق في
أعمالها ، فصرف عنها . ووليها من بعده نحر الدين عثمان بن الخليلي ، قال المقرئ
في الخطط : « لما تقلد الوزير الصاحب نحر الدين بن الخليلي الوزارة سار من قلعة
الجليل وعليه تشریف الوزارة إلى بيت الصاحب تاج الدين ، وقبل يده وجلس بين
يديه ، ثم انصرف إلى داره » .

وقد دعى لتقلد الوزارة مرة أخرى بعد زمن ، ولكنه لم يفلح كذلك فعزل .
وقد سلم مرة للشجاعى ليعاقبه فها به ولم يضربه غير مقربة واحدة على قميصه .
وقد ولد « تاج الدين » في ٧ شعبان عام ٦٤٠ هـ ومات في ٤ جمادى الآخرة
عام ٧٠٧ هـ ودفن في مدافن أسرته بالقرافة . وكان على شئ من العلم والأدب
وينظم الشعر . ومن آثاره رباط الآثار بالقرب من بركة الحبش ، عمره ولكنه لم

يكمل في حياته . وجامع دير الطين . وقد اشترى بعض الآثار النبوية بستين ألف درهم فضة .

« خطط ج ٤ تحت عنوان «رباط الآثار» . سلوك ج ١ ص ٨٠٢ ، الدرر ج ٤ رقم ٥٤٨ ،

٧ - شمس الدين سنقر الأعسر ٧٠٩ هـ

أصله مملوك للأمير عز الدين إيدمر الظاهري نائب الشام . ترقى في عهد قلاوون حتى كان أستاذارا في دمشق ثم أضيفت إليه وظيفة شد الدواوين بدمشق أيضا في جمادى الثانية عام ٦٨٣ هـ فأخذ طريقه إلى الرفعة من ذلك الحين . وكان يقوم السلطان المنصور بخدمات جليلة . لذلك استقدمه إلى مصر في ربيع الأول عام ٦٨٩ هـ وألقى إليه تعليماته الخاصة بجبى الأموال . وقلده أمور الحصون بكل البلاد الشامية والسواحل وكذلك ديوان الجيش ، فأتسع نطاق عمله وقوى نفوذه .

ثم آلت السلطنة إلى الأشرف خليل ، وكان حاقدا على هذا الأمير ، فاستقدمه إلى مصر عام ٦٨٩ هـ ، وأمر بضربه ومصادرة أمواله وعزله من وظائفه . وبعد حين وفي عام ٦٩٠ هـ أعيد إلى شد الدواوين بدمشق ثانيا .

وفي عام ٦٩١ هـ وفي منتصف جمادى الأولى منه تزوج هذا الأمير بنت الوزير الخطير صديق الأشرف خليل ، وأعنى به صاحب شمس الدين بن السعلوس ، على صداق جملة ألف وخمسمائة دينار معجله خمسمائة . وكانت هذه الزيجة - بلا ريب - من أسباب تقدم الأمير « سنقر الأعسر » لدى الأشرف .

ثم قتل الأشرف ، وولى السلطنة أخوه محمد ثم العادل كيتغا . فظل الأمير « سنقر » شادا للدواوين بدمشق . ولكنه ما لبث أن قبض عليه لمحابسته ، وذلك في شوال عام ٦٩٥ هـ ، وأسلم للوزير فخر الدين بن الخليلي ، فاستخاض منه ما لا وعزل من منصبه . ولما آلت السلطنة إلى المنصور لاجين المنصوري ، استخدمه لبعض شؤنه .

وكانت صلته به حسنة . وقد بعثه في أول سلطنته رسولا إلى دمشق وأمر أن يجمع الناس حول سلطنته . وقد كان السلطان السابق كتيغا المنصورى مقبلا هناك . فاستطاع « سنقر » أن يجمع له الأمر ، حتى دانت له بلاد الشام وأعلن في دمشق . وقد دخلها « سنقر » في صفر عام ٦٩٦ هـ وتلقاه أهلها بالترحاب . أن من له مظلمة ، فعليه بباب الأمير « سنقر الأعسر » .

ظل « سنقر » في دمشق نحو أربعة شهور ، ثم استقدمه المنصور لاجين في رجب . وقد عظمت مهابته وعلت كلمته وأصبح أحد الرؤساء المخوفين . وقلده لاجين منصب الوزارة ، وأفاض عليه رضا كثيرا .

ولعل ما بلغه « سنقر الأعسر » من عظمة ونفوذ أغراه بشيء خفي أضمره في نفسه ، كان وبالاعليه ، فانه حدث أن أصيب السلطان لاجين بكسر في يده من جراء وقوعه من فوق جواده وهو يلعب الكرة . وأراد المجبرون كسر بعض عظامه للتوفيق بين سائر العظام . فخاف السلطان وأظهر رهبة وجزعا ، وذلك بحضور وزيره « الأعسر » ، فما كان منه إلا أنه ادعى أنه وقع له مثل هذا الحادث ، وأنه كسرت عظامه بآلة حديدية ، لما طالب إليه ذلك . وشعر الملك باستخفاف وزيره به ، فأضمر له الشر في نفسه . ثم سرعان ما قبض عليه في ذى الحجة عام ٦٩٦ هـ ، فلم ينعم طويلا . ولم يول السلطان أحدا بعده حتى ربيع الآخر عام ٦٩٧ هـ ، فأسند الوزارة إلى عدو « الأعسر » وهو الوزير صاحب فخر الدين بن الخليلي . فضيق الحصار على « الأعسر » وصادر ممتلكاته ، وكاد لا تباذله وأرخصى « الأعسر » في جب القلعة مسجوناً .

قتل لاجين وآلت السلطنة إلى الناصر محمد ثانياً ، فأفرج عن « الأعسر » في جمادى الأولى عام ٦٩٨ هـ وبعد قليل أعاده إلى الوزارة فعاد إلى سابق عظمته وكبره ، ونشاطه .

وأخذ يقوم ببعض المهام ، ومن ذلك خروجه عام ٧٠٠ هـ في مئات من المماليك

السلطانية إلى الوجه القبلي لإطفاء ثورة العربان العابثين به والمانعين الخراج ، لما وجدوا الدولة مشغولة بحركات غازان ملك التتار ، فأوقع بهم الأمير سنقر ، وقتل منهم عددا كبيرا ، وصادر كثيرا من خيولهم وجمالهم وسلاحهم وأذلقهم وأرغمهم على دفع الخراج .

ظل الأمير « شمس الدين سنقر الأعسر » سادرا في غلوائه ، قاسيا في معاملة غيره ، مشتطا في عقوباته ، لابسا ثوب كبره وتيهه ، حتى ثقل على نفوس الأمراء . وهموا بإخراجه من الوزارة - وكان السلطان صغير السن استبد بملكه الأميران بيبرس وسلار - ثم رأوا إرسال سنقر ، إلى القلاع الشامية ليمتقدا حوالها ويصلح شأنها ويفتش ما فيها من رجال وعتاد ومال . فسافر إليها توا في أخريات عام ٧٠٠ هـ وعين مكانه في الوزارة الأمير عز الدين أيبك البغدادى في المحرم عام ٧٠١ هـ .

عاد سنقر ، إلى مصر بعد قليل ، فظل بعيدا عن الوزارة ، مستعانا في بعض المهام . وقد عاون النائب سلار في ترميم الجامع الأزهر عام ٧٠٢ هـ ، وحج معه عام ٧٠٣ هـ ، وأسدى ضروباً من الاحسان . وقد توفي عام ٧٠٩ هـ .
« ابن إياس ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٧٤ - السلوك ج ١ - الدرر ج ٢ رقم ١٩٠٥ . »

٨ بكتمر الحاجب المنصوري ٧٢٨ هـ

هو الأمير سيف الدين « بكتمر » ظهر بدمشق في نيابة الاقزم . فكان أمير اخور ثم ولى شد الدواوين ، ثم الحجو بية . وكان واسع الجاه نافذ الكلمة ، فلما زحف الملك الناصر محمد بن قلاوون من السكرك إلى دمشق ، حظى عنده « بكتمر » وعاد معه إلى مصر فعينه نائبا لغزة عام ٧١٠ هـ .
لم يلبث « بكتمر » هذا في غزة إلا قليلا ، ثم استدعاه الناصر ، وقلده الوزارة

في نفس العام عوضا عن الصاحب فخر الدين بن الخليل . فلبث بها حتى سنة ٧١٥ هـ ،
إذ قبض عليه الناصر ، واعتقله نحو سنة ونصف ، وأخذ من ماله شيئا كثيرا . ثم
أفرج عنه ، ومنحه نيابة صفد سنة ٧١٦ هـ ، فلبث بها شهورا ، ثم عاد لمصر ، وقد
قوى أمره ، وأصبح من المقدمين لدى الناصر ، يستشير به في مهامه لما لديه من خبرة
ودراية وحسن سياسة ، وصبر على عمله .

وتزوج « بكتمر » بنت الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك ،
واقبنتي مالا كثيرا ، ثم زوج ابنته لخازنده واسمه سيف الدين بخشي .

وحدث أن سرق من خزانته مال ، وأنهى خبر السرقة إلى الناصر ، فعاقب
كثيرين من الناس بسبب ذلك . غير أن « بكتمر » كان له أعداء يحقدون عليه
ويكيدون له ، ومنهم الوزير جمال الدين مغلطاي ، والأمير بكتمر الساقى ، والقاضى
فخر الدين ناظر الجيش . فدسوا إلى والى القاهرة أن يتهاون فى ضبط هذه السرقة
نكايه فى « بكتمر » ، ثم ادعوا لدى الناصر أن خازنده سيف الدين بخشي ، يقول
للصوص إنه متفق معهم .. فعاقب الناصر خازنده . لذلك فاعتم « بكتمر »
وملكه الحزن ، فمات ليومه سنة ٧٢٨ هـ .

« النخطط ج ٣ ص ١٠٣ تحت عنوان « دار الحاجب » - الدرج ١
رقم ١٣٠٦ .»

٩ - مغلطاي الجمالى ٧٣٢ هـ

هو الأمير علاء الدين « مغلطاي » بن عبد الله الجمالى . من بماليك الناصر محمد
ابن قلاوون . رقاہ أميرا ، وهو شاب . وحظى عنده ، وتقدم ، وندبه الناصر فى كثير
من خصوصياته . وجعله أميرا لركب المحمل عام ٧١٨ هـ . ثم رقاہ استادارا .

وفى الخميس ٨ رمضان عام ٧٢٤ هـ ، قلده الوزارة عوضا عن الصاحب أمين الملك

واتهم بأنه أضاع أوضاع المملكة ، وفرط في أموال المسلمين وفي الجيش . وأنه يجهل الأحكام . فنهدهد السلطان عليه التذكير ، ونذب لمعونه ناظر الدولة وناظر الخواص - وهي وظيفة جدت حينذاك - ثم انتهى الأمر بإلغاء الوزارة جملة ، وتوزيع اختصاصاتها ، وذلك عام ٧٢٩ هـ . - وقيل عام ٧٢٨ هـ -

واقصر « مغلطاي » ، على الاستدارية . وكان له أعداء يدسون له ويحملون عليه لدى السلطان . وبخاصة لأنه قدم صديقه مجد الدين محمد بن لعينة (١) ، وكان ناظر الدولة والصحية والبيوت . وترك حبال الأمور في يديه ، فسار وفق هواه . - وهم السلطان بمصادرة أموال « مغلطاي » ، فتوسط له الأمير بكتمر الساقى ، فغفا عنه .

وذهب « مغلطاي » ، إلى الحجاز حاجا ، ثم عاد فتوفي بعقبة أيلة في الأحد ١٧ المحرم عام ٧٣٢ هـ (٢) . فصر ، وحمل إلى القاهرة ودفن بالخانقاه التي أنشأها بجوار درب راشد بالقاهرة عام ٧٣٠ هـ ، والتي جعلها مدرسة للحنفية .
« الخطط ج ٤ ص ٢٣٨ تحت عنوان (المدرسة الجمالية) - والدرج ٤ رقم ٩٦٤ - والسوك ج ١ » .

١٠ - الجناب الناصرى محمد بن الحسام الصقرى (٣) ٧٩٤ هـ

من وزراء برقوق . ولى الوزارة خلفا للقاضى سعد الدين البقرى عام ٧٩٢ هـ .
ثم توفي عام ٧٩٤ هـ .
« ابن إياس ج ١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٦ » .

(١) سماه ابن إياس : ابن لفيته بالفاء والتاء . (٢) في الدرر : أنه توفي سنة ٧٣٠ هـ .

(٣) ذكره في الخطط في سياق الحديث عن « دار بن البقرى » ج ٣ ، فقال اسمه : الأمير

ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدى .

١١ - موفق الدين أبو الفرج ناظر الجيوش ٧٩٦ هـ

من وزراء عهد برقوق . اشتهر بناظر الجيوش ، إذ أنه تردد على هذه الوظيفة مرارا . وقد عينه فيها برقوق سنة ٧٨٦ هـ بعد القاضي تقي الدين بن محب التيمي . ثم غضب عليه عام ٧٨٨ هـ ، وضربه مائة وخمسين عصا . وفصله من وظيفته ، وعين مكانه القاضي كريم الدين بن مكناس .

ثم خلع برقوق ، وولى السلطنة أمير حاج ثم عاد برقوق بعد قليل ، ويبدو لنا أن القاضي « موفق الدين » أسندت إليه نظارة الجيوش حينذاك . وأضيفت معها الوزارة . إذ قال عنه ابن إياس : « إن السلطان برقوقا استقر به ناظرا للجيوش ، ووزيرا بالديار المصرية على عادته . وذلك لما عاد إلى سلطنته سنة ٧٩٢ هـ .

ثم فصل « موفق الدين » من الوزارة ، وعين فيها القاضي سعد الدين البقرى . ونصب « موفق الدين » مستوفيا للدولة بعد فصله . ثم مستوفيا على جميع أرباب الوظائف بالديوان المفرد - غير الأمراء - وسمى وزير الوزراء . فلبث مدة يسيرة كذلك ، ثم توفي عام ٧٩٦ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ » .

١٢ - محمد بن رجب بن كلبك ٧٩٨ هـ

هو الجناب الناصرى محمد بن رجب بن كلبك - وقال المقرئى : « ابن كلفت » . نشأ بالقاهرة محمداً السيرة وشغل جملة من الوظائف السنية . إلى أن اختاره الظاهر برقوق وزيرا في ١٤ ربيع الآخر عام ٧٩٦ هـ عوضا عن سعد الدين البقرى . وقال المقرئى : « عوضا عن موفق الدين أبى الفرج » . فباشر الوزارة بمهابة ، ودبر المملكة بحنكة ودراية ، واستعان فى عمله بعدد من المباشرين الذين كانوا وزراء . وأنعم عليه بإمرة عشرين فارسا فى ٦ ربيع الثانى عام ٧٩٧ هـ . فلبث حتى مات بعد مرض طويل فى صفر

عام ٧٩٨ هـ وهو وزير . وكانت جنازته حافلة .

« الخطط ج ٣ تحت عنوان « دار ابن رجب » - وابن إياس ج ١ ص ٣٠٢ ،
٣٠٠ ، ٣٠٦ .

١٣ - سعد الدين البقرى ٧٩٩ هـ

هو الوزير صاحب سعد الله بن البقرى ، ابن أخت القاضى شمس الدين
شاكر بن غزير البقرى . كان نصرانيا ، فأسلم . وقيل إنه كان يظهر الإسلام
ويبطن النصرانية .

كان من كتاب الدواوين ؛ بارعا فى رسوم الكتابة الديوانية . وقد تقلب فى
وظائفها ، حتى اختاره الظاهر برقوق لنظر الديوان المفرد ، ونظر الخاص ، عوضا
عن صاحب كريم الدين عبد الكريم بن مكانس فى رمضان عام ٧٨٣ هـ . ثم عزل
وأحيط بماله ، وأخذ ما فى داره من الأواني والثياب والمال والحلى والجواري ،
وغير ذلك ، وحمل إلى القلعة . وضرب « ابن البقرى » وأهين .

ثم لما عاد برقوق إلى عرشه ، قلده الوزارة فى ١٧ ربيع الآخر عام ٧٩٢ هـ ،
عوضا عن موفق الدين أبى الفرج . ثم عزل فى رمضان . وأحيط بداره مرة أخرى
ثم ولى الوزارة الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصقرى - أو الصفدى -
فى ذى الحجة ، فاستخدم عددا من الوزراء المفصولين عن الوزارة ، فى وظائف
الوزارة الفرعية ، كنظر الدولة ، ونظر البيوت ، واستيفاء الدولة ، فكان نصيب
« ابن البقرى » نظر البيوت . فكان يقف بين يدى ابن الحسام ، مع أن الحسام
كان داوإداره فيما سبق !

وبعد قليل قبض ابن الحسام عليه وألزمه غرما ماليا كبيرا . ثم بعد قليل عاد
« ابن البقرى » إلى الوزارة . وما زال هذا شأنه . يلى الوزارة ثم يفصل عنها ، ثم

يختار لغيرها ، أو يعود إليها . ويؤذى في سبيلها . إلى أن كان يوم ٤ رجب سنة ٧٩٨ هـ ، فأعيد إلى الوزارة ، وكانت هذه آخر عوداته إليها . إذ صرف عنها وقبض عليه ، في ٤ ربيع الأول عام ٧٩٩ هـ ، وصودر جميع ما يملك ، وسبق مهينا على ملائمة الناس ، إلى دار ابن الطبلاوى ، حيث سجن ، ثم خنق ليلة ٤ جمادى الآخرة عام ٧٩٩ هـ .

ومما يذكر أن له ابنا يدعى تاج الدين عبد الله ، ولى الوزارة من بعد ، ونظر الخاص ، وعوقب ومات تحت العقوبة .

« الخطط ج ٣ تحت عنوان دار ابن البقرى - ابن إياس ج ١ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٦ » .

١٤ - مبارك شاه الظاهري ٨٠٢ هـ

من وزراء برقوق . وقد عين هذا الأمير في الوزارة عام ٧٩٨ هـ ، بعد الناصري محمد بن رجب بن كلبك . ثم خلع في نفس العام ، وخلفه سعد الدين بن البقرى . ثم آلت السلطنة إلى فرج بن برقوق عام ٨٠١ هـ ، فأقام الأمير « مبارك شاه ، أستاذارا . فمكث أقل من شهر ، واستعفى ثم إن السلطان فرجا غضب على جماعة من أمرائه ، فذبحهم في بلاد الشام عام ٨٠٢ هـ ، وكان من عدادهم الأمير « مبارك شاه ، (١)

« ابن إياس ج ١ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ - الضوء ج ٦ رقم ٨٢٢ » .

١٥ - الجناب الركني عمر بن قايماز ٨٠٩ هـ

(١) قال في الضوء إنه لم يداره ، ومات في رمضان عام ٨١٦ هـ

من وزراء برقوق أيضا . عين في الوزارة خلفا للناصرى محمد بن الحسام
الصقرى بعد وفاته عام ٧٩٤ هـ . وعزل في نفس العام . وخلفه القاضى تاج الدين
بن أبى شاكر . ومات « ابن قايماز » في رجب عام ٨٠٩ هـ . ذكره الضوء في « عمر
قايماز » . وترجمه بإيجاز ، ولم يذكر الوزارة فيما ولى . فلعله هو .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣١٦ - الضوء ج ٦ رقم ٣٥٩ » .

١٦ - سعد الدين القبطى ٨١٨ هـ

هو ابراهيم بن بركة ، سعد الدين القبطى المصرى الوزير . ويعرف بالبشيرى .
لما شب ، خدم فى بيت ناظر الدولة التقي بن المحب . ثم تنقل فى خدمة الأمراء ، حتى
ولى الوزارة . ثم قبض عليه فى الدولة المؤيدية عام ٨١٦ هـ . ثم لزم منزله حتى
مات سنة ٨١٨ هـ فى صفر . وكان رئيسا ذامهاة حسن الإسلام .

« الضوء ج ١ ص ٣٣ » .

١٧ - تاج الدين بن أبى شاكر ٨١٩ هـ

هو عبد الوهاب بن عبد الله ، عين فى الوزارة خلفا لعمر بن قايماز بعد عزله
سنة ٧٩٤ هـ فى عهد برقوق . ولما آلت السلطنة إلى الناصر فرج بن برقوق ، اختاره
وزيرا له فى أول سلطنته سنة ٨٠١ هـ . وبعد زمن يسير أضيفت إليه الاستادارية ،
بعد أن استعفى منها مبارك شاه . وفى العام نفسه عزل من منصبه . وعين مكانه ، فى
الوزارة الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر الحسنى بن قطيئة ، وفى الاستادارية
الأمير يلبغا السالمى .

وقد عاد « تاج الدين » إلى الوزارة مرة أخرى فى المحرم سنة ٨١٩ هـ ، ثم مات
فى ذى القعدة من السنة نفسها . وهو من مسالمة القبط .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٩٧ ، ٣١٦ ، ٣١٨ - حسن المحاضرة ج ٢ باب « ذكر وزراء مصر » - الضوء ج ٥ رقم ٣٨٤ » .

١٨ - أمين الدين بن الهيصم ٨٥٩ هـ

من وزراء عصر برسبای وابنه ووزر كذلك لجمقم . واسمه ابراهيم بن عبد الغنى ابن ابراهيم القبطى . وقيل كان ينسب إلى المقوقس صاحب مصر .

كان ناظر الدولة من سنة ٨٢٨ هـ . ثم عينه برسبای فى الوزارة سنة ٨٣٨ هـ (١) ، عوضا عن كريم الدين بن كاتب المناخات ثم عزل . ثم عاد بعد مدة . وفى سنة ٨٥٣ هـ ، فى عهد الملك جقمق ، أصيبت البلاد بغلاء شديد وقحط بالغ . ولم يستطع الوزير « أمين الدين بن الهيصم » أو سواه من المستوفين والمباشرين ، أن يخففوا عن الشعب ما يعانیه من آلام القحط ومشاق الغلاء . ولا أن يقدموا إلى الممالیک حاجياتهم المرعية . لذلك قاسى الشعب حينذاك من أذى الممالیک شيئا كثيرا .

وفى عام ٨٥٧ هـ ، فى عهد الأشرف إينال . اختفى الوزير « ابن الهيصم » ، فخلعت الوزارة على سعد الدين فرج بن النحال كاتب الممالیک . وبعد زمن ظهر « ابن الهيصم » فأعيد إلى الوزارة ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٨٥٨ هـ . ثم اختفى ثانيا ، فعاد ابن النحال إلى الوزارة . وذلك فى رمضان من نفس العام . وما حان مستهل ربيع الآخر عام ٨٥٩ هـ (٢) ، حتى أعلنت وفاة « ابن الهيصم » . وكان حنفى المذهب محبا للعلم والعلماء .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٠ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ - طبقات الشافعية - الضوء ج ١ ص ٦٨ » .

(١) ذكر فى الضوء : أنه ولى الوزارة عام ٨٣٧ هـ ، وبه ثبوت من الخلاف فى التواريخ الاخرى . (٢) وقيل إنه مات فى ١٨ صفر عام ٨٥٩ هـ .

١٩ - سعد الدين فرج بن ماجد النحال ٨٦٥ هـ

أصل هذا الرجل من أقباط مصر . ورقى ، حتى عد في جملة رؤسائها . وكان كاتباً للمماليك في عهد الأشرف إنيال . فلما اختفى الوزير أمين الدين بن الهيصم ، عين مكانه في الوزارة عام ٨٥٧ هـ ثم عزل في جمادى الأولى عام ٨٥٨ هـ ، وأعيد ابن الهيصم ثم أعيد سعد الدين فرج ، مرة أخرى ، لاختفاء ابن الهيصم في نفس العام ، وظل حتى عام ٨٦٠ هـ . وفي صفر منه ، ثار عليه وعلى بعض المباشرين ، طائفة من المماليك الجلبان ، ونهبوا داره ، فاختفى ، وتوارى عن أنظارهم . وذلك لأنه لم يؤد ما فرض لهم من الطعام تمام الأداء . وظل متوارياً حتى هدأت الحالة ، فظهر في ربيع الأول وظل متقلدا الوزارة . وفي جمادى الآخرة من السنة نفسها نقل من الوزارة إلى الاستادارية . ثم توفي في جمادى الآخرة سنة ٨٦٥ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٧ - الضوء ج ٦ رقم ٥٧٠ . »

٢٠ - الشمس محمد البياوى ٨٧٠ هـ

كال ناظر دولة . وفي سنة ٨٦٩ هـ ، انتقل الوزير محمد الدين بن البقرى إلى الاستادارية . فشغرت الوزارة حينها ، إلى أن اختارها السلطان خشقدم ، الصاحب « شمس الدين محمد البياوى » . قيل : كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وقيل : إنه كان طباحاً وكان من متعهدى توريد اللحم . ويبدو أنه أحسن اتصاله بالسلطان المذكور ، حتى أسند إليه هذا المنصب الجليل . وقيل : فاشتمأ الناس من هذا التعيين ، وانحطت الوزارة في نظرهم ، وإن كان قد قام بأعماله خير قيام . وقيل : كان ثقیل الظل ثقیل النطق . ولكن زادته ثقة السلطان به مهابة لدى الناس وإجلالا ، وسكن بين العظماء ببركة الرطلى . وفي الأربعاء ٢٨ من ذى الحجة سنة ٨٧٠ هـ ، نزل في مركب ، وتوجه ناحية

قناطر بنى منجاً ، ثم رجع ، فما بلغ فم خليج الزربية ، حتى انقلب به المركب ، فغرق ولم تظهر جثته .

ابن إياس ج ٢ ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٦ .

٢١ - شرف الدين يحيى بن صنيعة ٨٨٢ هـ

أصله من أقباط مصر . ولاء الظاهر خشقدم الوزارة سنة ٨٦٦ هـ ، لما عزل وزيره الأهناسى . ثم عاد ابن الأهناسى إلى الوزارة ، وعزل « ابن صنيعة » ، سنة ٨٦٨ هـ . وعاد فتقلدها سنة ٨٧٠ هـ بعد أن غرق الوزير ابن البيسوى . ثم عزل ، وعين مكانه الزينى قاسم شغيته . وعاش « ابن صنيعة » إلى المحرم سنة ٨٨٢ هـ ، وتوفى فى الشهر المذكور ، بعد أن ولى الوزارة مرات عدة .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٧١ - الضوء ج ١٠ رقم ١٠٦١ . »

٢٢ - مجد الدين بن البقرى ٨٩٣ هـ

هو صاحب مجد الدين شاكر بن علم الدين بن البقرى وأصله من الأقباط . عين فى الاستادارية فى جمادى الآخرة سنة ٨٦٥ هـ ، فى عهد أحمد بن إينال ، وذلك عوضاً عن منصور بن الصفى . وهذه أول مرة يلى فيها صاحب « مجد الدين » وظيفة من وظائف الدولة السامية . فلبث فيها مدة ثم عزل . وفى عهد خشقدم عاد إلى الاستادارية سنة ٨٦٦ هـ ، عوضاً عن الأمير زين الدين يحيى الاستادار .

وفى سنة ٨٦٨ هـ عين فى الوزارة ، خلفاً لعلاء الدين بن الأهناسى الذى اختفى ثم ما لبث أن قبض على هذا المختفى ، وسجنه ، وصادر أمواله ، واستخلص منه مائة ألف دينار ، ونفاه إلى مكة .

وفى سنة ٨٦٩ هـ اختفى زين الدين الاستادار ، فنقل « مجد الدين البقرى » من

الوزارة إلى الاستادارية مرة أخرى . وظلت الوزارة شاغرة من بعده زمنا ، حتى عين فيها الشمس محمد البباوى ناظر الدولة .

وظل « ابن البقرى » ، حتى عهد قايىباى ، فألت الوزارة والاستادارية معا وغيرهما ، إلى الأمير يشبك الدوادار سنة ٨٧٣ هـ فى شهر شعبان . فقبض على « ابن البقرى » ، واستخلص منه خمسة آلاف دينار .

ولما خرج الأمير يشبك الدوادار للقتال فى بلاد حلب ، وهو القتال الذى مات فيه عين « مجد الدين البقرى » ، فى الاستادارية . واسكن مالبث أرقبض عليه فى ذى الحجة سنة ٨٨٥ هـ ، ليؤدى حسابا عما كان بيده من الأعمال والأموال . وعزل من منصبه ، وعين مكانه تغرى بردى بن بلباى الظاهرى ، خازن دار الأمير يشبك الدوادار . وقد حاسبه السلطان محاسبة عسيرة ، وآذاه وقسا عليه ، إذ كرهه لشهادته بالأمير . يشبك بمناسبة ما جرى له من المحن فى قتاله . وسجن « ابن البقرى » بالمقشرة ، فلبث نحو ست سنوات ، حتى أودى أهله وأولاده : وكانت خاتمة مطافه أن حكم عليه السلطان بالإعدام فى ربيع الأول سنة ٨٩٣ هـ ، فانتهد بذلك حياته . ودفن فى تربة ابن عمه يحيى .

« ابن إياس ج ٢ ص ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٠٧ ، ٢٠٢ ، ٢٤٩ ، .

٢٣ - زين الدين قاسم المعروف بشغيته ٩٠٠ هـ

هو الصاحب زين الدين قاسم بن أحمد القرافى القاهرى ، ويعرف بشغيته . ويقال إن هذا الصاحب كان خبازا ، ثم اشتغل صيرفا للحم . ومن هنا اتصل بالصاحب الشمس بن البباوى . واتصل بوظائف الدولة . فلما غرق ابن البباوى سنة ٨٧٠ هـ - وكان وزيرا - عين مكانه الصاحب « الزينى قاسم شغيته » . واشترك معه فى أعمالها شخص آخر يقال له عبد القادر الطويل ، وكان ناظر الدولة ثم انفرد بأعمالها « الزينى قاسم » ، فقام بها خير قيام ، وأصبح فى عداد رؤساء البلاد .

وفي شعبان سنة ٨٧٢ هـ ، اختفى « الزينى قاسم » - ويبدو أن قايتباى - السلطان حينذاك - كان يضغط على مباشريه إذ ذاك ، ففر هذا الوزير من وجهه . فندب للوزارة عبد القادر الطويل ناظر الدولة . وبعد قليل أسندت إلى صاحب شمس الدين محمد والد علاء الدين بن الأهناسى .

ظهر « زين الدين قاسم » بعد قليل ، ورضى عنه السلطان . ولكن أسند إليه نظر الدولة ، فى ربيع الأول سنة ٨٧٢ هـ . فعاون إذ ذاك الأمير يشبك الدوادر ، الذى كان ذا وظائف عدة .

ظل « الزينى قاسم » فى نظر الدولة حتى شعبان سنة ٨٧٥ هـ ، فعزل وفرض عليه غرم مالى . ثم عاد إلى تقلد هذا المنصب فى جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ ، مضافا إليه الحسبة فى ربيع الأول عام ٨٨٥ هـ . ثم أسندت إليه الوزارة .

ثم حدث ما دفعه على الاختفاء ، فلبث مختفيا حتى شوال سنة ٨٨٧ هـ . فظهر ، وأنعم عليه السلطان وعينه ناظر الدولة عوضا عن موفق الدين بن الحمصى الأسلمى . ثم أضيفت إليه الوزارة مرة أخرى فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٩ هـ . وفى ذى القعدة سنة ٨٩١ هـ عزل من وظيفتيه ، وقبض عليه وسجن ، وحوسب حسابا عسيرا عن أمواله ووظائفه ، وما زال بين ولاية وعزل ومصادرة حتى مات فى سجنه فى جمادى الآخرة سنة ٩٠٠ هـ . وكان كفئا فى عمله سديدا فى رأيه .

« ابن إياس ج ٢ ص ٨٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ١٩٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ - الضوء ج ٦ رقم ٦٠٩ ،

٢٤ - خشقدم الأحمدي ٨٩٤ هـ

هو الأمير صاحب خشقدم الأحمدي ، الطواشى الزمام أصله من ماليك

جقق . ثم عد من رجال عصر قايتباى . وقد أنعم عليه هذا السلطان برتبة رأس نوبة السقا ، عوضا عن شاهين غزالى ، فى شوال سنة ٨٧٣ هـ . ولما استقال الأمير يشبك الدوادار من الوزارة فى جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ ، أسندت إلى الأمير « خشقدم » . وحاول الامتناع عن قبولها خوفا من أذاها ، وبكى ، فلم يأبه السلطان لمكانه ، فقبلها مرغما . ثم أضيفت إليه فى ربيع الأول عام ٨٨٢ هـ ، الخازندارية الكبرى . والزمامية ، عوضا عن جوهر النوروزى ، فعظم أمره واتسع جاهه .

وفى عام ٨٨٤ هـ ، اختير أميراً لركب المحمل ، فخرج من القاهرة فى حفل حاشد وقد حج معه السلطان هذا العام ، وساس أمور الحج خير سياسة ، فلهج الناس بالثناء عليه ، والدعاء له .

وفى رمضان عام ٨٨٧ هـ سافر إلى الوجه القبلى بسبب الحصاد ، فلما عاد ، كان السلطان قد تغير عليه قلبه ، فاعتقله ليؤدى حسابا عما لديه من الأموال . ثم صرف عن الوزارة ، وعين مكانه فيها الجمالى يوسف بن الزرايرى ، كاشف البهمنسا ، وذلك فى ربيع الآخر عام ٨٨٩ هـ .

وعادت إليه الوزارة والخازندارية بعد زمن ، ثم ما لبث أن غضب عليه السلطان قايتباى مرة أخرى عام ٨٩٤ هـ فى شهر المحرم ، وقبض عليه وهم بضربه . ثم إنه رحل بعد حين إلى سواكن ، وهناك توفى سنة ٨٩٤ هـ . وكان مغروفا بالقسوة وحب الشر .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٥٢ ، ١٧٢ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ - الضوء ج ٣ رقم ٦٨٢ » .

٢٥ - الجمالى يوسف البدرى ٩٢٥ هـ .

من وزراء عصر الأشرف الغورى . وكانت له عنده منزلة سنية . يشهد لذلك

أنه في سنة ٩١٨ هـ ، وقعت مشادة بينه وبين الزيني بركات بن موسى المحتسب ، على مسع من السلطان المذكور ، وأساء إليه الزيني بحضرة السلطان . فغضب على الزيني وأساء إليه ، ثم سجنه أياما ، وحاسبه حسابا عسيرا .

وأصله من ممالك الأمير يشبك بن مهدي الدوادار ، قدمه الأشرف قايتباي . ثم سلك طريقه إلى الرقي وعليها المناصب ، حتى صار محتسبا للقاهرة . عينه الغوري في هذه الوظيفة في ١٧ رمضان سنة ٩١٤ هـ ، عوضا عن الزيني بركات بن موسى . ثم عزل في ذي القعدة من نفس العام ، وعاد الزيني بركات إلى منصبه .

وفي الاثنين ٥ صفر سنة ٩١٦ هـ ، أسند إليه الغوري منصب الوزارة ، خلفا لتغري برمش ، لانفصالة عنها . فظل في هذا المنصب زمنا طويلا . وزاول أعماله فيه بهمة ونشاط وكفاءة وسداد .

وفي جمادى الأولى سنة ٩١٧ هـ ، ثارت ضده طائفة المماليك الجلبان ، لتراخيهم في تقديم اللحم المخصص لهم ، وهموا بقتله ، فاختربا منهم ريثما هدأت فتنتهم ، غير أن السلطان الغوري غضب عليه بعد مدة ، فقبض عليه ، حتى يؤدي عن عمله حسايا . ثم أعاده إلى منصبه في يوم الخميس ١٣ رجب سنة ٩٢١ هـ ، بعد أن كتب صكا على نفسه للسلطان بمبلغ خمسة وستين ألف دينار ، التزم بسدادها هو وناظر الدولة القاضي شرف الدين الصغير .

وثار المماليك ثورة عنيفة في شوال سنة ٩٢١ هـ ، ولم يطيعوا سلطانهم ، بل آذوه بسبب أجورهم المتأخرة ، وروايتهم من اللحم ، التي لم تفرق في موااعييدها . وطلبوا إليه عزل جماعة من مباشريه ، ومن بينهم « الجمالي يوسف البدرى » وزيره . ثم سويت أمور هذه الفتنة ، بشروط منها عزل « البدرى » .

حانت سنة ٩٢٢ هـ ، والوزارة شاغرة ، إذ لم يعين فيها أحد . و « البدرى » كان

قد اختفى إبان الفتنة . فنودى عليه ، وطلب منه الظهور ؛ ووعد بالأمان . فظهر في يوم الثلاثاء ٩ المحرم ، فأعيد إلى الوزارة ، ولما كن في ٤ شعبان من السنة المذكورة . ثم آلت السلطنة إلى الأشرف طومان باي ، بعد مقتل الغوري ، في مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ . فظل « البدرى » ، في الوزارة ، ويبدو أنه أضيف إليه كشف البحيرة ، لأنه نزع منه ، وضم إلى حاجب الحجاب الأمير طقطبباي في شوال سنة ٩٢٢ هـ . ويبدو لنا أنه خلع من الوزارة بعد قليل ، إذ قال ابن إياس ما نصه : « في يوم الخميس ١٠ من ذى القعدة - سنة ٩٢٢ هـ - خلع السلطان على الأمير « يوسف البدرى » ، الذى كان وزيرا ، وقرره ناظر الذخيرة الشريفة ووكيل بيت المال عوضا عن الزينى بركات بن موسى » .

ولما زحف السلطان سليم على مصر ، وامتلكها ، وفد عليه الأمير « يوسف البدرى » ، في أوائل سنة ٩٢٣ هـ ، فأمنه ، وعينه متحدثا على جهات الغربية .

وفي يوم الخميس ٥ ذى القعدة من العام المذكور « أعاده ملك الأمراء خيربك نائب العثمانيين في مصر » ، إلى الوزارة مرة أخرى ، وخلع عليه خلعاً بهذه المناسبة . وظل متمتعاً بشقة ملك الأمراء ، حتى صدر منه ما أحقده عليه فقبض عليه في شعبان سنة ٩٢٤ هـ . وسجنه ، واعتقل زوجته وأولاده وغلماؤه وحاشيته ، وفرض عليه غراما ماليا ضخما ذهب في سداده جميع ما يملكه من مال وجوهر وأثاث .

ظل « البدرى » في معتقله نحو شهرين ، ثم أمر بالرحيل إلى الآستانة منفيا ، فرحل في شوال سنة ٩٢٤ هـ . هو وطائفة من المباشرين . نفاهم ملك الأمراء خيربك . فكثير الحزن عليهم وعم الألم وعلا العويل بين أولادهم وأهلهم .

وبينما كانت السفن تمخر بهم عباب اليم إذ لقيهم طائفة من الفرنجة . فاحتربوا مع حراسهم من جنود العثمانيين . فغرقت سفينة « البدرى » ، خلال الاحتراب .

قرب جزيرة إقريطش « كريد » . وبلغت أخبارهم القاهرة في صفر سنة ٩٢٥ هـ .
وبهذه المناسبة ختمت حياة أحد أبطال هذا العصر . وهو آخر وزرائه .

« ابن إياس ج ٤ ص ١٤٤ . ١٤٦ . ١٥٠ . ١٨١ . ٢٣٥ . ٤٣٥ . ٤٦٧ . ٤٨٣ .
وج ٣ ص ٤ ؛ ٥ ؛ ٦ ؛ ٩ ؛ ٤٤ . ٦١ . ٧٨ . ٧٩ . ٨١ . ٩٩ . ١٢٢ . ١٤٢ . ١٧٣ .
١٧٩ . ١٨٠ . ١٨١ . ١٨٩ . »

الحمد لله

تم القسم الأول من الجزء الأول من كتاب
« عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي »

وقد تم طبعه في ديسمبر عام ١٩٤٦ م
ويليه القسم الثاني من الجزء الأول وأوله باب الخلافة العباسية الثانية

كشاف

بأعلام القسم الأول من الجزء الأول

(١)

آق سنقر السلارى و شمس الدين :

١١٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .

آق سنقر الفارقانى و شمس الدين : ١٢٠

آقوش الأفرم الجركسى : ٢٣٢ ، ٢٣٤

آل ملك الجوكندار و الحاج

سيف الدين : ١٣٤ .

ابراهيم بن بركة و سعد الدين القبطى :

٣٢٥ .

ابراهيم بن عبد الغنى و أمين الدين ابن

الهيصم : ٢٢٦ ، ٢٢٧

ابراهيم بن غراب : ٢٤٩ .

ابسماتيك الأول : ٤

ابسماتيك الثالث : ٤

ابن الاحدب : ١٥١ .

ابن دانيال و شمس الدين : ٣١٦

ابن زنبور و علاء الدين عبد الله :

٢٢٧ ، ٢٤٣ .

ابن السلوس و شمس الدين : ٣٧ ،

١١٥ ، ١٢٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٣

٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ .

ابن مالك النحوى و جمال الدين : ٣٣

ابن مطروح : ٢٤ .

أبو البقاء بن الجيعان و محمد بن يحيى

بن شاكرا : ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

أبو بكر بن على الدوادار : ٢٥٥

أبو بكر بن محمد بن قلاوون

و سيف الدين الملك المنصور :

٤٢ ، ٤٣ ، ٨٥ ، ١١٥ ، ١٣٠ ،

١٣١ ، ١٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

أبو بكر و المعتضد الخليفة العباسى : ٤٦

أبو السعود الجارحى و الشيخ : ٩١ ،

٣٠٠ ، ٣٠١ .

أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال : ٣٠٤

أبو العساكر : ٧

أبو الفداء اسماعيل و المؤيد صاحب

حماة : ٤٢ ، ١٣٠

أبو الفداء اسماعيل و الصالح بن الناصر

محمد : ٤٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥

١٣٨ ، ٢٣٦ .

أبو الفرج يعقوب بن كلث : ٣٠٤

أبو القاسم أونوجور : ٨

السلطنة : ١٢٩ ، ١٣٠
 أرغون شاه الأشرفي « نائب دمشق » :
 ٤٥ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .
 أرغون شاه تتر : ١٥٥ .
 أرغون السكالي : ١٣٥ ، ١٣٦
 أرقطاي القفجقي : ١٣٤ ، ١٣٥
 أزبك بن ططخ « الاتابكي » : ١٩ ، ٦٧ ،
 ٦٨ ، ١٤٧ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩
 أزبك خان « ملك التتار » : ٧٥
 أزبك القان « صاحب الموصل » : ١٣٠ :
 أزبك اليوسفي الخازندار : ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
 ٢٨٨ .
 أزدمر الطويل : ٢٥٧ .
 أزدمر العامري الناصري الخازندار :
 ١٥٨ .
 أزدمر العمري : ١٤٠ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ .
 أزدمر « نائب حلب » : ٢٦٥ ، ٢٦٨ .
 استدمر الناصري : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
 ١٥٨ ، ٢٤٠ .
 أسد الدين شيركوه : ٩ ، ١٠ .
 الأسعد « شرف الدين هبة الله بن صاعد
 الفائزي » : ٣٠٧ ، ٣٠٨

أبو المسك كافور الأخشيدي : ٨
 أبو المعالي محمد « الملك السعيد » : ٣٤ ،
 ٣٥ .
 أبو موسى : ٧
 أبو النصر شميخ المحمودي « الملك
 المؤيد » : انظر شميخا .
 أبو يزيد الدوادار : ١٧٥
 الاحدب « شميخ قبيله عرك » : ٢٣٨
 أحمد بن إينال « الملك المؤيد » : ٦٣ ،
 ٦٤ ، ٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩٨ ، ٣٢٨ .
 أحمد بن شيخ « الملك المظفر » : ٥٩ ،
 ٦٠ ، ١٨٤ ، ٢٣٩ .
 أحمد بن الصائغ : ٢٩٩ ، ٣٠١ .
 أحمد بن طولون : ٧ ، ١٥ ، ١٦ .
 أحمد بن عمر الحسني بن قطينة « شهاب
 الدين » : ٣٢٥ .
 أحمد بن عمر الهواري : ٢٦٤
 أحمد بن العيني « الشهابي » : ٩٠ ، ٢٨١ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٣ .
 أحمد بن محمد بن قلاوون « الناصر بن
 الناصر » : ٤٣ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ،
 ٢٣٦ .
 أحمس : ٣ ، ٤ .
 أرغون الدوادار الناصري « نائب

الاسكندر المقدوني : ٤ .

اسماعيل بن محمد « الملك الصالح بن الناصر » انظر أبا الفداء .

اسماعيل الصفوي « الشاه » : ٧٤ ، ٧٥

الأشرف إينال العلاني « الملك » : ٦٢

٦٣ ، ١٤٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ،

٢٠٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٧٩

٢٢٧ ، ٢٢٦

الأشرف برسبای « الملك » : ١٨ ، ٦٠

٦٦ ، ٨٢ ، ١٠٣ ، ١٤٦ ، ١٨٥ ،

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٣

١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢٥٠ ، ٢٢٦ .

الأشرف جان بلاط « الملك » : ٧١ ،

٧٢ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٤٧ ، ٢٠٣ ،

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠

٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨

٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥

٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ .

الأشرف خليل بن قلاوون « الملك »

٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١١٥

١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٩

١٤٥ ، ٢٣١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٧

الأشرف شعبان بن حسين « الملك »

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٢ ، ١١٦ ، ١٣٦

١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥

إلى ١٦٠ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ٢٤٠ .

الأشرف طومان باي « الملك » : ٧٨ ،

٧٩ ، ٨٦ ، ٩١ ، ١٠٣ ، ٢٢٩ ،

٢٧٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣٠١

٣٠٢ ، ٣٣٣ .

الأشرف قانصوه الغوري « الملك » :

من ٧٢ إلى ٧٨ ، ٨٦ ، ٩١ ، ١٠١

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٤٥ ، ١٤٦

٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، إلى

٢٢٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، إلى

٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٤

٢٩٥ ، ٢٩٨ ، إلى ٣٠١ ، ٣٣١ ،

٣٣٢ .

الأشرف قايتباي « الملك » : ١٨ إلى ٢٠

٦٥ إلى ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ١٠٣

١٤٦ ، ١٩١ ، إلى ١٩٤ ، ١٩٦ ،

١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤

إلى ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ،

٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٥٥ ، إلى

٢٦٩ ، ٢٧٥ ، إلى ٢٨٠ ، ٢٨٢ ،

٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٢٩

إلى ٣٣٢ .

الأشرف كجك بن الناصر محمد « الملك »

٤٣ ، ٨٨ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،

٢٣٦ .

أمير حاج بن شعبان د الملك الصالح :

١٤٢ ، ٨٧ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٥٠ ، ٤٩

١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٧٠ ، ١٦٥ ، ١٤٧

٣٢٢ ، ٢٤١ ، ١٧٨ إلى ١٧٦ ، ١٧٤

أمينحتب الثالث : ٣

أمين الدين بن الهيصم : انظر ابراهيم

ابن عبد الغنى

أمين الدين الخلوقي : ١٦٣

أمينمحت : ٢

أنوك بن حسين : ٤٨

أوحد بن الخطيرى د شرف الدين ،

٢٣٣ .

أوكتافوس : ٥

أيك الأفرم الصالحى د عز الدين :

١٢١ ، ١٢٢

أيك البغدادى د عز الدين : ٣١٩ .

أيك الجاشنكير د عز الدين الملك المعز

١٢ ، ٢٣ ، ٢٦ إلى ٣٠ ، ٩٦ ، ٩٧

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٤٩

٣٠٧ ، ٣٠٦ .

إيتشمس البجاسى الجر كسى : ٥٥ ، ٥٦ ،

١٦٣ إلى ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٨٠

١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤

إيدغمس : ١٣٢

إيدكن البندقدار د علاء الدين ، ١٧ ،

١١٨ ، ١١٧ ، ١١٤ ، ٩٤ ، ٣٢

الأشرف يوسف الأيوبى د الملك

مظفر الدين : ٢٩

أقبای الخازندار : ٢٤٩

أقبای الطرنطای الحاجب : ٢٤٥

أقبای الطویل د نائب غزة : ٢١٦ ، ٢٧١

٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

أقبردى الدوادار : ٧٠ ، ٧١ ، ١٤٦ ،

٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠

٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩

٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٧

إلى ٢٧٩ .

أقبغا القرازى : ١١٦ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ،

١٨٩ .

أقبغا الجمالى : ١٨٣ .

أقبغا الناصرى د علاء الدين : ٢٣٥ ،

٢٣٦ .

أقتمر بن عبد الغنى : ١٤٠ إلى ١٤٢

أقتمر الصاحبى الشهير بالحنبل : ١١٦ ،

١٤١ ، ١٦١ .

أقطای د فارس الدين ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٩

٣٢ ، ٩٦ ، ١٤٥

أقطای د فارس الدين « المستعرب :

١٤٨ ، ١٤٩ .

أقوش نائب الكرك د جمال الدين :

٣٢٠ .

أكمل الدين الحنفى : ١٥١ ، ١٦٣

بدر الدين السنجارى ٣٠٧
 برد بك الأشقر ٢٠٦
 برد بك البجمقدار ٢٥٥ ٢٥٤
 برد بك جيش ٢٦٣
 برسباى الديمقى « الملك » انظر الأشرف
 برقوق « الملك الظاهر » ١٨ ٢٠ ٤٩
 ٥٠ ٥٢ إلى ٥٥ ٦٣ ٨٢ ٨٥
 ٨٧ ١٠١ ١١٦ ١٤٠ ١٤٢
 ١٤٧ ١٥٧ ١٦٣ إلى ١٦٦
 ١٦٨ إلى ١٨٠ ١٨٢ ١٨٤ ١٨٥
 ١٨٨ ١٩٠ ٢٤١ ٢٤٢ إلى
 ٢٤٥ ٢٤٧ ٢٢٢ إلى ٢٢٤
 برقوق الناصرى الظاهرى ١٩٤ ٢٥٥
 . ٢٥٦
 بركات بن موسى « الزينى » ٢٨٤ ٢٩٨
 إلى ٣٠٣ ٣٣٢ ٣٣٣
 بركات الشريف العربى ٢٢١ ٢٢٤
 بركة الجوبانى « الزينى » ١٦٢ ١٦٣
 ١٦٨ ١٧٧
 برهان الدين بن حنا ٣٠٧
 برهان الدين الخضر السنجارى ٣١٠
 برهان الدين النابلسى ٢٦٣
 بضاع الشاه أخو سوار ١٩٧
 بطليموس الأول ٥

إيدمر الخطيرى « عز الدين » : ٢٣٣
 إيدمر الدوادار : ١٣٧ . ١٤٠
 إيدمر الظاهرى « عز الدين » : ٣١٧
 إيدمر « المقر السيفى » : ١٥٦
 إينال الأشقر البجاوى : ٢٥٦
 إينال باى بن قجاس ٢٤٥
 إينال الجىكى ١٤٣
 إينال العلانى « الملك » انظر الأشرف
 إينال اليوسفى : ١٦٤ . ١٦٨ . ١٧٦
 إلى ١٧٨
 أينبك البدرى ٤٩ ١١٦ ١٤١ ١٦٠
 إلى ١٦٢

(ب)

بابندر ١٩٩ ٢٦٥ ٢٦٦
 بايزيد « ملك العثمانين » ٥٥
 بدر الدين بن سلام ١٦٤
 بدر الدين بيدرا « نائب السلطنة »
 ٣٧ ٣٨ ١١٥ ١٢٣ إلى ١٢٥
 ٢٣١ ٢٣٢ ٣١٢ ٣١٤ ٣١٥
 بدر الدين بيلىك الخازندار « نائب
 السلطنة » ١١٨ إلى ١٢٠ ١٤٨
 . ٢٣٢
 بدر الدين التركانى ٢٣٣

بيبرس الجاشنكير « ركن الدين الملك

المظفر ، ٣٩ الى ٤١ ١٢٧

١٢٩ ١٤٥ ١٤٩ ٢٣٢ ٣١٩

بيبرس الدوادار المنصوري ١٢٩

بيبرس الركني ١٨ ٥٦ ٥٧ ١٨١

٢٤٥ ٢٤٩

بيبيغا أروس « نائب حاب ، ٤٥

١٣٥ ١٣٦ ١٣٨ ٢٣٨

بيبيغا المظفر ١٨٧ ١٨٨ ٢٥٠

بيدرا نائب السلطنة « انظر بدر الدين »

بيليك الخازندار نائب السلطنة « انظر

بدر الدين »

بيدمر الخوارزمي « نائب الشام ، ١١٦

١٤٠ ١٤٢ ٢٤١

ت

تاج الدين بن أبي شاكر ٣٢٥

تاج الدين بن حنا « محمد بن محمد ،

٣١٥ ٣١٦

تاج الدين عبد الوهاب بن بفت الأعز

٣٠٧ ٣٠٨

تاج الدين المقسي ٢٦٤

بعنخي ٣

بكباك « بقيق ، ٧

بكتاش الفخري ٢٣٢

بكتمر الحاجب المنصوري « سيف

الدين ، ٣١٩

بكتمر الجوكندار المنصوري الساقى :

١٨ ١٩ ١٢٨ ١٢٩ ١٣١

١٤٩ ١٥٠ ٢٤٥

بلباى الرشيدى ٩٦

بلباى المؤيدى « الملك الظاهر ، ٦٥

١٩٢ ١٩٦ ٢٨١

بلباى المؤيدى « غير الملك الظاهر ،

٢١٩

بهاء الدين بن حنا « على بن سيد الدين

محمد ، ٢٠٧ الى ٣١٣

بهاء الدين قراقوش الظاهري ٣١٥

بهادر آص ١٢٩

بهادر المنجكي ١٦٩

بيبرس البندقدارى « ركن الدين

الملك الظاهر ، ١٧ ٢٠ ٢٣

٣١ الى ٣٤ ٤٢ ٨٣ ٨٥ ٩٤

٩٦ ٩٧ ١١٧ الى ١٢١ ١٤٦

الى ١٤٨ ٢٣٦ ٣٠٨ ٣٠٩

٥٣ ٥٤ ١٦٥ ١٦٩ إلى ١٧٩
تمربغا الرومي « الملك الظاهر » ١٨
٢٠ ٦٥ ٦٦ ١٩٢ ٢٠٤ ٢٨١

تمربغا الظاهري ١٩٥
تمربغا المنجكي ١٦٦
تنبك البجاسي ١٨٨
تمركز بغا المارديني ١٥٢
تمركز الحسامي « سيف الدين » ٢٣٢
إلى ٢٣٦

تم الحسني « نائب الشام » ٥٥ ١٦٧
١٨٠ ٢٤٣ ٢٤٤
تم المؤيدي « نائب الشام » ٢٧٧
توران شاه « الملك المعظم » ١١ ٢٣
٢٥ ٢٩

تيمورلنك ٥٣ ٥٥ ٥٦ ١٨١
١٨٣ ٢٤٥

(ج)

الجازاني ٢١٥ ٢٢١ ٢٨٣
جان بلاط الغوري ٢٢٣
جان بلاط « الملك » انظر الأشرف
جان بردي الغزالي ٧٨ ٨٠ ٢٨٠
٢٨٩ إلى ٢٩٣ ٢٩٧

ثاني بك البرديكي الظاهري ١٩٠
ثاني بك الجمالي الظاهري ٨٩ ١٤٧
٢١٣ إلى ٢١٦ ٢٢٢ ٢٢٧ ٢٧٧

ثاني بك قرا : ٢٧٩
تحتمس الأول ٣
تحتمس الثالث ٣
تغري بردي الاستادار ٢٨٣ ٢٨٩
تغري بردي بن بلبان الظاهري ٣٢٩
تغري بردي بن يشبغا ١٨٢ إلى ١٨٤
تغري بردي ططر ١٩٤ ٢٧٧
تقي الدين بن محب التيمي ٣٢٢
تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز
١٢٣ ٣١٤

تلاكتمر ١٦٩
تمان تمر الأشرفي ١٧٩
تمراز البسكتمري المصارع ١٩٥
تمراز الدوادار ٢٥٣

تمراز الشمسي « الأتابكي » ٨٤ ١٤٧
٢٠١ إلى ٢٠٧ ٢١٠ ٢١٢ ٢١٣
تمراز « نائب السلطنة » ١١٦ ١١٧ ١٤٢
تمراز الناصري ١٦٦
تمرباي الدمرداشي ١٧٢
تمربغا الأفضلي « منطاش الأشرفي »

جقمق العسلائي « الملك الظاهر » ٦١

٦٦ ٨٢ ١١٦ ١٤٣ ١٤٧

١٨٨ ١٨٩ ١٩٥ ٢٠٠ ٢٠٣

٢٠٧ ٢٠٨ ٢١٤ ٢٥٠ إلى ٢٥٨

٢٦٦ ٢٧٧ ٣٢٦ ٣٣١

جسكم العوضى ١٨١ ١٨٣ ١٨٩

٢٤٥ إلى ٢٤٨

جمال الدين أقوش « نائب السكر »

٣٢٠

جمال الدين محمود الاستادار ١٦٥

١٦٩ ٢٤١ إلى ٣٤٣

الجمالى يوسف البدرى ٣٣١ إلى ٣٣٤

الجمالى يوسف ناظر الخاص ١٤٦

١٩٥ ٢٥٣

جوهرة التركاني الشيبكي ٢٠

جوهرة الصقلي ٨

(ح)

حاجى بن الناصر محمد « الملك المظفر »

٤٤ ١٣٤ ١٣٥ ١٥٠ ٢٣٩

الحاكم بأمر الله الفاطمي ٩

حزور ٣

جانم الأشرفي « نائب الشام » ٢٠٧

جانم الشريفي ٢٠٨ ٢٥٧ ٢٥٨

٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٧

جانم « نائب الشام » ٦٤ ٨٨

جاني باي ٢٧١

جاني بك الأشقر الدوادار ٢٥٦

جاني بك الصوفي ٦٠ ٦١ ١٨٥

١٨٧

جاني بك الظاهري « نائب جدة » ١٩١

٢٥١ ٢٨٢

جاني بك الفقيه ٢٦٣

جاني بك قلقسيرا الأشرفي ١٩٢ ١٩٣

١٩٦

جاني بك مملوك برسباي ٦٤ ١٨٧

٢٥٠

جاولي « الأمير » ٢٣٦

الجاي اليوسفي « سيف الدين » ١٥٨

جبار آل فضل ١٣٧

جبغا « نائب طرابلس » ٤٥

جرباش المحمدي المعروف بكرت

١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ٢٠٤ ٢٥١

جرباش مملوك الجاي اليوسفي ١٥٩

جعفر الصادق ٨

٢٣٣، ٢٠٣، ٢٠٢
 خاير بك بن حديد: ١٩٨، ٢٦٣
 خاير بك الخازندار: ٢٨٧
 خاير بك الكاشف: ٢٨٩
 خربندا ملك التتار: ١٢٥، ٢٣٢
 خشقدم الاحمدى الطواشى الوزير:
 ٢٢١، ٢٢٠، ٢٦٢
 خشقدم الزمام: ٢١٧
 خشقدم الملك الظاهر، ٦٣، الى ٦٥
 ١٠٣، ١٩٠ الى ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦
 ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٢٧
 خشقدم اليسقى: ٢٨٠
 خليل بن قلاوون، الملك، انظر الاشرف
 خليل بن قوصون: ١٥٦
 خمارويه: ٧
 خوند الاحمدية، زوجة السلطان
 خشقدم: ٢٨١
 خوندبركة، أم الاشرف شعبان، ١٥٨
 خوند سعادات، بنت صرغتمش وأم
 المظفر أحمد: ٢٣٩
 خوند شقراء، بنت الناصر فرج: ١٩٢
 خوند طرلوز: ١٥٣
 خوند قطلو ملك: ٢٢٥
 خوند مغلى، بنت الناصر البارسى: ١٩٥
 (٢)

حسام الدين طر نطاي، نائب السلطنة،
 ٢٦، ٢٧، ١١٥، ١١٧، ١٢١ الى
 ١٢٢، ٢١٢
 حسام الدين الكنجكى: ١٧٠
 حسام الدين لاجين، الملك المنصور،
 ٢٣، ٢٨، ٢٩، ٨٣، ١١٧، ١٢٤
 الى ١٢٦، ٢٣١ الى ٢٣٤، ٢١٧،
 ٣١٨
 حسن بن محمد، الملك الناصر بن الناصر،
 ٢٠، ٤٥ الى ٤٧، ٨٧، ٨٨، ١٠١
 ١١٥، ١١٦، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨
 ١٢٩، ١٥٠ الى ١٥٢، ١٥٥، ١٥٧
 ١٦١، ١٦٧، ١٧٨، ٢٣٨ الى ٢٤٠
 حسن الطويل، ملك العراقين، ٦٧،
 ١٩٤، ٢٦١، ٢٦٢
 حسين الكردى: ٧٥
 حصن الدين ثعلب، الشريف: ٢٩
 حمزة بن المتوكل على الله، الخليفة القائم
 بأمر الله: ٦٣
 خ
 خاير بك بن بلباي، ملك الأمراء:
 ٧٦، ٨٠، ٢٩٠، ٢٩٢ الى ٢٩٨

٢٥٠، ١٨٧، ١٤٦

زين الدين قاسم المعروف بشيخيه: ٣٢٩

٣٣٠

س

سالم الدوكارى أمير التزكان: ١٧١

سراج الدين البلقيني ١٧٤

سراج الدين الوراق: ٣١٦

سعد الدين البقرى: ٢٢١ الى ٢٢٤

سعد الدين بن مروان الفارقى: ٣١٠

سعد الدين « فرج بن النحال »، ٢٥٢،

٢٥٤، ٣٢٦، ٣٢٧

سعد الدين القبطى: انظر ابراهيم بن بركة

السعيد محمد بركة بن بيهرس « الملك »:

٣٤، ٣٥، ١٠٠، ١١٨ الى ١٢٠،

٣٠٩

سلار « سيف الدين » نائب السلطنة:

٣٩، ١٢٦ الى ١٢٨، ١٣٣، ١٤٥،

٣١٩

سلامش « سيف الدين الملك العادل

ابن بيهرس، ٣٥، ١٢٢، ١٤٧،

سليمان القانونى « ملك العثمانيين »

٢٩٣، ٢٩٦

خير بك الدوادار: ٦٥، ٢٨٢

د

دولات باى « نائب حلب »: ٧١، ٢٢٥

الى ٢٢٧، ٢٢٩

ر

الرشيد الفارقى: ٣١٠

رئيس الثانى: ٣

ركن الدين بيهرس البندقدارى « الملك

الظاهر » انظر بيهرس

ركن الدين بيهرس الجاشنكير « الملك

المظفر » انظر بيهرس

ز

زين الدين يحيى الحلبي الاستادار:

٢٥٢ الى ٢٥٤، ٣٢٨

زين الدين يعقوب بن الزبير « صاحب،

١٤٨، ٣٠٨، ٣٠٩

الزبى بركات بن موسى المحتسب « انظر

بركات،

الزبى بركة الجوبانى « انظر بركة،

الزبى عبد الباسط بن القرشى خليل:

سليبي « نائب الشام » : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٩٠ .

سيتي الأول : ٣

سيزوستريس : ٢

سيف أمير آل فضل : ١٩٩ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ .

سيف الدين أبو بكر بن محمد « الملك

المنصور » : ٤٢ ، ٤٣ ، ٨٥ ، ١١٥

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦

سيف الدين الأيوبي « الملك العادل » : ٢٢ .

سيف الدين بخشي : ٢٢

سيف الدين برقوق « الظاهر » انظر برقوقا :

سيف الدين بكتمر الحاجب المنصوري : ٣١٩ .

سيف الدين تنكز الحسامي : ٢٣٢ إلى ٢٣٦ .

سيف الدين الجاي اليوسفي : ١٥٨ .

سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار : ١٢٤ .

سيف الدين سلا « نائب السلطنة » : انظر سلا .

سليم الأول « ملك العثمانيين » : ٧٥ ، ٧٦ ، ٢٣٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥

٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٣٣ .

سنجر الجاولي « علم الدين » : ٢٣٦

سنجر الحلبي : ٢٢

سنجر الشجاع « علم الدين » : ٢٧ ، ٣٨ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ٣١٠ إلى ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ .

سنقر الأشقر « شمس الدين » : ٣٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

سنقر الأعسر : ٣٠٥ ، ٣١٧ إلى ٣١٩ ، ٩٦

سنقر المظفرى الألفى « شمس الدين » : ١٢٠ ، ١٢١ .

سوار ملك الأبلستين : ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٥ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ١٦١ .

سودون الشهابي الدوادار : ٢٢٩ .

سودون الظاهري : ١٨٨ .

سودون العجمي : ٢٢٧ إلى ٢٢٩

سودون الفخرى الشيخونى : ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ .

سودون الظفرى : ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٨٣

سولى بن ذى الغادر أمير التركان : ١٦٩

شاد بك أباز الإينالى الأشرفى : ١٩
 شاد بك الخوخ : ٢٧٠ ، ٢٧١
 شاكر بن البقرى ، محمد الدين بن
 علم الدين ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
 شاكر بن الجيعان ، علم الدين ، : ٢٥٦
 . ٢٥٧
 الشاه إسماعيل الصفوى ، انظر إسماعيل ،
 الشاه بضاع أخو سوار ، انظر بضاع ،
 شاهين الحسنى الجمدار : ٢٤٢
 شجرة الدر ، الملكة : ١٢ ، ٢٣ ، ٢٥
 ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ١١٨
 شرف الدين أوحى بن الحظيرى ، انظر
 أوحى ،
 شرف الدين يحيى بن صنيعة : ٣٢٨ .
 شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى
 ٣٠٧ ، ٣٠٨
 شرف الدين يحيى بن أربك : ٢٠٣
 الشريف حصن الدين ثعلب : ٢٩
 شعبان بن حسين ، الملك ، انظر الأشرف
 شعبان بن محمد ، الملك الكامل : : ٤٤
 . ١٣٤ ، ١٣٨
 شمس الدين آق سنقر السلارى ، انظر
 آق سنقر ،

سيف الدين سلامش بن بيبرس ، الملك
 العادل ، انظر سلامش
 سيف الدين شيخو العمرى الناصرى :
 ٤٦ ، ١١٦ ، ١٢٩ ، ١٤٦ ،
 ١٥٠ إلى ١٥٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ .
 سيف الدين صرغتمش الناصرى : ٤٦
 ١٠١ ، ٢٣٨ إلى ٢٤٠
 سيف الدين طنجى الأشرفى : ١٢٦ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٢
 سيف الدين قبلای الناصرى : ١٣٦
 سيف الدين قطز ، الملك المظفر ،
 انظر قطز المعزى .
 سيف الدين قوصون ، الأتابكى والنائب ،
 ١٨ ، ١٩ ، ٤٣ ، ٨٨ ، ١١٥ إلى
 ١١٧ ، ١٣٠ إلى ١٣٣ ، ١٤٧ ،
 ١٥٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
 سيف الدين منجك اليوسفى : ١١٦ ،
 ١٣٥ ، ١٣٨ إلى ١٤٠ ، ١٤٧ ،
 ١٥١ ، ١٥٩ .
 سيف الدين منكوتمر الحسامى ، نائب
 السلطنة ، ٣٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢
 سيف الدين كوندك الساقى : ١٢١ .
 (ش)

٢٥٠، ٢٤٩، ٢٤٦، ١٩٢، ١٩٠

شيخو العمرى الناصرى « انظر سيف

الدين »

شيشنق : ٣

(ص)

الصالح أمير حاج بن شعبان « الملك »

انظر أمير حاج »

الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد

الملك : ٤٥، ٤٦، ١٣٥، ١٣٦

١٣٩، ١٥٠، ٢٣٥، ٢٣٧ إلى

٢٤٠

الصالح علاء الدين أبو الفداء إسماعيل

ابن الناصر « الملك » انظر أبا الفداء

الصالح ناصر الدين محمد بن ططر « الملك »

١٨٧، ١٨٥، ٦٠

الصالح نجم الدين الأيوبي « الملك » :

١٦ ١٧ ٢٢ ٢٣ ٢٧ ٢٨

٢٢ ٣٥ ٨١ ٩٤ ٩٥ ١١٧

صبيح الفاطمى « المدهضى » الطواشى :

٢٤٤

صدر الدين المناوى « القاضى » ٢٤٤

صر غتمش الناصرى « انظر سيف الدين »

شمس الدين آق سنقر الفارقانى « انظر
آق سنقر »

شمس الدين بن دانيال « انظر ابن دانيال »

شمس الدين البباوى « محمد » : ٢٢٧،

الى ٣٢٩

شمس الدين سنقر المظفرى الألفى

« انظر سنقر »

شمس الدين شاكر بن غزىل البقرى :

٣٢٣

شمس الدين الفرنوى : ٢٧٥

شمس الدين قرا سنقر الجوكندار

المنصورى : ١٢٤، ١٢٥

شهاب الدين بن قطيعة : « انظر أحمد »

شهاب الدين أحمد بن الناصر « الملك »

الناصر « انظر أحمد »

شهاب الدين العطار المصرى انشاعر :

١٦٢، ١٧٧

الشهابى محمود : ٣١٦

الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيار : ٢٠٧

الشهابى أحمد بن العيى « انظر أحمد »

شيخ المحمودى « الملك المؤيد » : ١٨

٥٧، ٥٨، ٦٥، ٨٢، ٨٤، ٨٥

١٠٣، ١٤٧، ١٨٤ إلى ١٨٨

طنجي الأشرفي ، انظر سيف الدين ،

طقتمر النظامي ١٥٧

طفزدر الناصري نائب السلطنة ١١٥

١٣٠

طقطباي حاجب الحجاب ٣٣٣

طلائع بن رزيك ٩

طنبغا الطويل ١٥٣

الطنبغا القرشي ٥٩ ٨٤ ١٨٥

طولون بن علي شاه ١٧٦

طومان باي « الملك » انظر الأشرف

طومان باي « الملك » انظر العادل

طيرس الخازنداري « علاء الدين »

٢٣٢

ظ

الظاهر برقوق « الملك » انظر برقوق .

الظاهر بلباي المؤيدي أبو النصر « الملك »

انظر بلباي

الظاهر بيبرس « الملك » انظر بيبرس

الظاهر تمرغا « الملك » انظر تمرغا

الظاهر جقمق العلاني « الملك » انظر

جقمق

الظاهر خشقدم « الملك » انظر خشقدم

الظاهر ططر « الملك » انظر ططر

صلاح الدين الأيوبي : ٩ ١٠ ١٦

٣٠٧

صلاح الدين خليل بن قلاوون « الملك »

انظر الأشرف

صلاح الدين الصالح بن الناصر محمد

« الملك » انظر الصالح

صلاح الدين الصفدي ٢٣٥

(ط)

طاجار : ١٣١

طاز الدوادار ٤٥ ١٣٦ ١٣٩

١٨٢ ٢٣٨ إلى ٢٤٠

طراباي الشريف ٢١٥ ٢١٧ ٢١٨

٢٢٨ ٢٨٥ ٢٨٦

طر نظامي نائب السلطنة : انظر حسام

الدين .

طشتمر البدرى الساقى « نائب السلطنة »

١١٥ ١٣٢ ١٣٣

طشتمر العلاني ١٣٧ ١٦٢ ١٦٣

طشتمر المحمدي الشهير باللفاف ١١٦

١٦٠ ، ١٦١

ططنج تاجر الرقيق ١٩٥

ططر « الملك الظاهر » ٥٩ ٦٠ ٨٢

١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٩

عز الدين : ٥٦ ، ٥٧ ، ١٨٢ ،

١٨٣ ، ٢٤٩

عبد القادر الطويل ٣٢٩ ، ٣٣٠

عبد الله بن تاج الدين ، علاء الدين بن

زنبور ، انظر ابن زنبور

عبد الله يحيى النووى : ٣٧

عبد الوهاب بن عبد الله ، انظر تاج الدين

ابن شاكر ،

عبد الوهاب بن بنت الأعز . انظر

تاج الدين

عثمان بن جقمق ، الملك المنصور ، ١٩

٦٢ ، ٦٣ ، ١٨٩ ، ١٩٥

عثمان بن مسافر تاجر الرقيق : ٨٢

عز الدين بن برقوق « عبد العزيز الملك

المنصور ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٤٩

عز الدين بن عبد السلام ، انظر

عبد العزيز ،

عز الدين أيبك الأفرم الصالحى : ١٢١

١٢٢

عز الدين أيبك ، الملك المعز ، أنظر أيبك

عز الدين أيبك البغدادى : ٣١٩

عز الدين إيدمر الحلى : ١١٨ ، ١١٩

عز الدين إيدمر الخطيرى ٢٢٣

الظاهر قانصوه بن قانصوه ، الملك ، :

٧٠ الى ٧٢ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٤٦

١٤٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ الى ٢٢٤

٢٢٧ ، ٢٧١ الى ٢٧٤ ، ٢٧٦ الى

٢٧٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤

ع

العادل بن يبرس « الملك سيف الدين ،

انظر سلامش

العادل سيف الدين الايوبى « الملك ، ٢٢

العادل طومان باى ، الملك ، انظر

طومان باى

العادل كيتبغا « الملك ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٨

٨٢ ، ٨٧ ، ١٢٤ ، ٢١٢ ، ٣١٧ ، ٣١٨

العاضد الفاطمى : ١٠

عبد الباسط بن القرشى خليل انظر الزينى

عبد الرحمن بن بنت الأعز : انظر تقى الدين

عبد الرحيم البيسانى والقاضى الفاضل ، ١٢

عبد العزيز بن عبد السلام وعز الدين ،

١٩ ، ٢٣ ، ٩٤

عبد العزيز الانصارى : ٨٧

عبد العزيز بن برقوق ، الملك المنصور

علم الدين سنجر الشجاعى ٣٧ ، ٣٨ ،

١١٥ ، ١١٢ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ،

٣١٦

علم الدين شاكر بن الجيعان : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،

على بن أبى الجود : انظر علاء الدين ،

على بن أبى طالب : ٨

على بن إينال اليوسفى : انظر العلائى ،

على بن سديد الدين محمد : انظر بهاء الدين ،

ابن حنا ،

على بن شعبان : الملك المنصور : ٤٨ ،

٤٩ ، ٥٢ ، ٨٢ ، ١١٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،

١٥٩ الى ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٧٧ ، ٢٤١ ،

على بن محمد الاهناسى : انظر العلائى ،

على بن المعز أيبك : الملك المنصور

نور الدين : ٢٤ ، ٣٠ ، ٨٥ ، ١٤٥ ،

١٤٨ .

على باى : ١٨٠ ،

على دولات أخوسوار : ٦٧ ، ٧٥ ، ٢٠٠ ،

٢٠٤ ، ٢٠٨ ،

على الماردىنى ١٣٧ : ١٤٠ ،

العماد الضائع : ١٧ ، ٣٣ ،

عماد الدين زنىكى : ١٠٥ ،

عز الدين إيدمر الظاهرى : ٣١٧ ،

العزىز يوسف بن برساي : الملك ، ٦١ ،

٨٢ ، ١٤٧ ، ٢٥٠ ،

علاء الدين آق سنقر : ٢٠ ، ٣٥ ،

علاء الدين بن أبى الجود : على ، ٢٨٣ ،

٢٨٤ ، ٢٩٨ ،

علاء الدين بن زنبور : انظر بن زنبور

علاء الدين أبو الفداء اسماعيل بن

الناصر . انظر الصالح

علاء الدين أقبغا الناصرى : انظر أقبغا ،

علاء الدين إيدكن البندقدار : انظر إيدكن

علاء الدين السيواسى : تاجر الرقيق ،

٣٣٤

علاء الدين طبرس الخازندارى : انظر

طبرس

علاء الدين كجك بن الناصر : الملك ،

انظر الأشرف

العلائى بن الاهناسى : على بن محمد ،

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،

العلائى بن إينال اليوسفى : على ، ٨٢ ،

علان والى القاهرة : ٩١ ، ٢٩٠ ، ٣٠٠ ،

٣٠١

علم الدين سنجر الجاولى : ٢٣٦ ،

١٨٤ إلى ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢٤٣ إلى ٢٤٩ ،
٣٢٤ ، ٣٢٥
فرج بن النحال « مسعود الدين » انظر
مسعود الدين

(ق)

قاسم شغقيه : انظر زين الدين
القاضي العاضل : انظر عبد الرحيم
قانسوه البرجي : ٢١٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
قانسوه بن قانسوه ، الملك ، انظر
الظاهر .

قانسوه خمسمائة « الأتابكي » : ٦٩ ،
٨٩ ، ٢٠٠ إلى ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٢
٢٢٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ إلى ٢٧٠ ،
٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩

قانسوه الشامي : ٢٠٥
قانسوه الغوري : انظر الأشرف
قانسوه الحمدي : ٢٢٣

قانسوه اليحمياوي : ٢٦٦
قان بردى الدوادار : ٢١٧
قان بلاي العلائي : ٢٤٧

قائم التاجر المؤيدي : ١٩٢ ، ١٩٥
قاني باي فرفور : ٢٥٦

(٣)

عماد الدين النابلسي « الطبيب » : ١٢٠
عمر بن الخطاب : ٦
عمر بن العاص : ٦
عمر بن الفارض : ٢٥٥
عمر بن قايماز : ٣٢٤ ، ٣٢٥

(غ)

غازان ملك التتار : ٣٩ ، ٤٠ ، ١٢٦ ،
٣١٩

(ف)

فارس الدين أقطاي : انظر أقطاي
فارس الدين أقطاي المستعرب : انظر
أقطاي

فاطمة الزهراء : ٨

فخر الدين بن الخليلي : ٣١٦ إلى ٣١٨ ،
٣٢٠

فخر الدين بن حنا : ٣٠٨

فخر الدين بن لقمان : ١١ ، ٢١ ، ٣١٠
فرج بن برقوق ، الملك الناصر : ٥٥
إلى ٥٨ ، ٨٢ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١١٧
١٤٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨٠ ، ١٨١

قاني باي قرا الرماح : ٢٨٨ ، ٢٨٧

قايتباي « الملك » انظر الاشرف

قبلاي الناصري انظر سيف الدين

قبحق الشعباني ١٨٦

قرا تمر ١٥٤

قرا سنقر المنصوري : انظر شمس الدين

قراقوش الظاهري انظر بهاء الدين

قرا ملك : ٦١

قرا يوسف التركماني : ٢٤٨

قرطاي الطازي : ١٦

قرقاس بن ولي الدين : ٢٢١ الى ٢٢٦ ؛

٢٧٠ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩

قرقاس الشعباني : ٦٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨

١٨٩

قرقاس المقرئ : ٢٩٠

قشتمر المنصوري : ١١٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧

١٤٦ ، ١٥٣ ، ٣٠٦

قصوره « نائب الشام » ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٤٥

١٨٨ ، ٢١٣ الى ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤

٢٨٩ ، ٢٩٤

قطر الندي : ٧

قطر المعزى سيف الدين « الملك المظفر »

١٧ ، ٣٠ الى ٣٢ ، ٨٥ ، ٩٧ ، ١١٥

١١٧ ، ١١٨ ، ١٤٥ الى ١٤٨ ، ٣٠٨

قطلبغا بن بلبان الجو كندار : ١٠٠

قطلبغا الفخري : ١٣٢ ، ١٣٣

قطلو بغا السكركي : ٢٤٨

قطلو بك العلائي ٢٤٢

قطلو شاه : ١٢٥

قطلو فيجاه : أخو أيزبك : ١٦١ ، ١٦٢

قطلو قجاء : ١٥١

قفجق « نائب الشام » ، ٤٠

قلاوون « الملك المنصور » ، ٢٠ ، ٢٨

٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ الى ٤٠ ، ٤٢ ، ٨٢

٨٣ ، ٨٥ ، ٩٦ الى ٩٩ ، ١٠١ ، ١١٧

١٢١ الى ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٣

١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ٢٣٢

٢٣٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٧

قميز ٤

قوصون « الأتابكي والنائب » انظر

سيف الدين

قيت الرحبي : ١٤٥ ، ٢١٥ ، ٢١٨ الى

٢٢٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩

قيت الساقى : ٢١٨

ك

المؤيد أبو الفداء اسماعيل صاحب حماة

انظر أبا الفداء

المؤيد أحمد بن إينال والملك ، انظر أحمد

المؤيد شيخ المحمودي ، الملك ، انظر

شيخا

ماجور ٧

ماماي الصغير ٣٠٠

مبارك شاه الظاهري ٣٢٤

المتوكل على الله العباسي ٦٣ ، ٦٩

مجد الدين بن البقري : انظر شاكر

مجد الدين بن لفقيه ٣٠٦ ، ٣٢١

محمد البياوي « شمس الدين » انظر

شمس الدين

محمد بن بكتمر ١٠٠

محمد بن حاجي « الملك المنصور بن المظفر »

١٤٦ ، ١٤٠ ، ١٣٦ ، ١١٦ ، ٤٧

١٥٣

محمد بن الحسام الصقري ٣٢١ ، ٣٢٢

٣٢٥

محمد بن رجب بن كلبك ٣٢٢ ، ٣٢٤

محمد بن طاهر « الملك الصالح ناصر الدين »

انظر الصالح .

كافور الإخشيدى « أبو المسك » : ٨

الكامل شعبان بن الناصر محمد « الملك »

١٢٨ ، ١٢٤ ، ٤٤

كاتبغا « الملك العادل » انظر العادل

كجك بن الناصر محمد : انظر الأشرف

كراي المنصوري : ٢٣٢

كرباي الأحمر : ١٤٦ ، ٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢١٠

٢١٥ ، ٢٧٣ الى ٢٧٧ ، ٢٨٨

كرجي ١٢٦ ، ٢٣١

كريم الدين بن مكانس ٣٢٢ ، ٣٢٣

كريم الدين بن كاتب المناخات : ٣٢٦

كريم الدين الصغير ٢٣٣

كزل تاجر الرقيق : ٨٢

كليوترا : ٥

كشمبغا الحموي : ١٧٦ ، ١٧٨ الى ١٨٠

كوندك الساقى : انظر سيف الدين

ل

لاجين « الملك المنصور » انظر حسام

الدين

لويس التاسع ملك فرنسا ١١١ ، ٢٣ الى ٢٥

محمد بن طنج الاخشيد ٨

محمد بن صاحب حماسة ، المنصور بن
المظفر ٨٧

محمد بن قايتباي ، الملك الناصر ، ١٨ ، ٦٩

٧٠ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ١٠٣ ، ١٤٦ ، ٢٠٢

٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

٢٧٠ الى ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤

محمد بن قلاوون ، الملك الناصر ، ١٨

١٩ ، ٣٨ الى ٤٢ ، ٥٥ ، ٨٢ ، ٨٥

الى ٨٧ ، ٩٨ الى ١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٠

١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٥ الى ١٣٧ ، ١٤٥

١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٣٢ الى ٢٣٦ ، ٢٣٨

٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٧

الى ٣٢٠

محمد بن محمد ، تاج الدين بن حنا ، انظر

تاج الدين

محمد بن يحيى بن شاكر ، انظر أبا البقاء

محمد بركة خان ، الملك السعيد بن يبيرس ،

انظر السعيد

محمود الناصري بن جمال الدين الاستادار

٢٤٢

محمود نور الدين بن زنسكى ١٠ ، ٨٣

١٠٥

محي الدين عبد الرحيم ، انظر القاضي
الفاضل

المستضى العباسى ١٠

المستعين بالله العباسى ١٨ ، ٥٨ ، ٨٥

١٨٤

المستنصر بالله الفاطمى : ٩

المستكفى بالله العباسى ٤١ ، ٤٦٠

مصر باى الدوادار : ٧٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠

٢٨٠ ، ٢٨٩

المظفر أحمد بن شيخ ، الملك ، انظر احمد

المظفر بيبرس الجاشنكير ، الملك ،

انظر بيبرس

المظفر حاجى بن الناصر ، الملك ، انظر

حاجى

المظفر صاحب حماسة : ٨٧

المظفر قطز المعزى : انظر قطز

المظفر يوسف الأيوبي ، الملك ، انظر

الأشرف

المعتضد العباسى ، أبو بكر الخليفة ،

انظر أبا بكر

المعز أيبك ، الملك ، انظر أيبك

المعز لدين الله الفاطمى ٨

المعظم توران شاه ، الملك ، انظر توران شاه

مغلطای الجمالی ٢٠٦، ٢٢٠، ٢٢١

ملکبای بنت قرقاس ٢٠٦

ملکتمر الشیخونی ١٥٧

ملکتمر المحمدی ١٥٧

منجک الیوسفی انظر سیف الدین

المنصور أبو بکر بن الناصر . انظر أبا بکر .

المنصور حسام الدین لاجین ، الملك ،

انظر سیف الدین

المنصور عبد العزیز بن برقوق ، الملك ،

انظر عبد العزیز

المنصور عثمان بن جقمق ، الملك ،

انظر عثمان

المنصور علی بن أبیک ، نور الدین بن

المعز ، الملك ، انظر علیا

المنصور علی بن شعبان ، الملك ، انظر

علیا

المنصور قلاوون ، الملك ، انظر قلاوون

المنصور محمد بن المظفر صاحب حماة .

انظر محمدا

المنصور محمد بن حاجی ، الملك ، انظر

محمدا

منطاش الأشرفی انظر تمر بغا الأفضلی

منفتاح ٣

منکلی بغا الشمسی ١٥٧، ١٥٨

منکوتمر الحسامی نائب السلطنة . انظر

سیف الدین

موفق الدین أبو الفرج ناظر الجیوش .

٢٢٢، ٢٢٣

موفق الدین هبة الله بن سعد الدولة

القبطی الوزير ٣٠٦

مهنا أمير العرب ١٢٩

مینا ٢

ن

الناصر أحمد بن الناصر محمد ، شهاب

الدین الملك ، انظر أحمد

الناصر الأیوبی ، الملك ، ٢٩، ٣١، ٣٢

الناصر حسن بن الناصر محمد انظر حسنا

ناصر الدین بن الحفشر ، شیخ العرب ،

٢٩٢

ناصر الدین بن الرماح ٢٤٤

الناصر فرج بن برقوق ، الملك ، انظر فرجا

الناصر محمد بن قایتبای ، الملك ، انظر محمدا

الناصر محمد بن قلاوون ، الملك ، انظر محمدا

الناصری محمد بن خاص بك ٢٢٤

ي

يحيى الاستادار انظر زين الدين
يشبك الدوادار ٢٥٥ ، ٢٥٧ الى ٢٦٧
٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٢٩ الى ٢٣٢
يشبك الساقى المعروف بالأعرج ١٨٦

١٨٧

يشبك السودونى ١٨٩
يشبك الشعبانى الدوادار ٥٧ ، ٦٦ ، ٦٧
يشبك الفقيه ٢٨١
يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقين
٢٦٥ ، ٢٦٦

يعقوب بن كاس ، أبو الفرج ، ٣٠٤
يعقوب الصاحب زين الدين بن الزبير
١٤٨ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩

يلبغا آص المنصورى ١٥٥ الى ١٥٧
يلبغا الاحمدى الاستادار ١٦٦ ، ١٨٠
يلبغا أروس ١٥١

يلبغا السالمى ١٧٦ ، ٣٢٥
يلبغا العمرى الناصرى ، مملوك الناصر
حسن ، ٤٦ الى ٤٨ ، ٨٢ ، ١٠١
١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٥٢ الى ١٥٥
١٦٧ ، ٢٤٠

الناصرى محمد بن فرج الناصر ١٩٢
الناصرى محمد بن محمود جمال الدين

الاستادار ٢٤٢

نجم الدين الاصفونى ٣١٠
نجم الدين الايوبى ، الملك الصالح ،
انظر الصالح

نغير بن جبار ١٧٥
نور الدين على بن أيبك المعز ، الملك
المنصور ، انظر عليا
نور الدين محمود بن زنكى انظر محمودا
نوروز الحافظى ٥٧ الى ٥٩ ، ١٨١ ،

١٨٦ ، ٢٤٤ ، الى ٢٤٨

و

الوليد بن عبد الملك ٧

هـ

هبة الله بن سعد الدولة القبطى الوزير
موفق الدين ٣٠٦
هبة الله بن صاعد الفائزى ٣٠٧ ، ٣٠٨
الهيكسوس ٣٠٢
هولاكو ٣١

يوسف بن برسباي « الملك » انظر

العزيز

يوسف الايوبي مظفر الدين « الملك » ٢٩

يوسف البدرى انظر الجمالى

يوسف ناظر الخاص انظر الجمالى

يلبغا الناصرى « نائب حلب » ٥٣ ، ٥٤

١٤٢ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧

الى ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،

٢٤٥

يلبغا اليحياوى ١٣٨

فهرس القسم الأول من الجزء الاول

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١	مقدمة الكتاب	٢٧	الأشرف صلاح الدين خليل
١	نظرة سريعة في تاريخ مصر	٣٨	الناصر محمد بن قلاوون
١	من الفراغة إلى المماليك : تمهيد	٣٨	العادل كتبغا المنصورى
٢	مصر الفرعونية	٣٩	المنصور حسام الدين لاجين
٤	مصر من عهد الاسكندر الى فتح العرب	٣٩	العودة الأولى للناصر محمد بن قلاوون
٥	مصر من فتح العرب حتى قيام دولة المماليك	٤٠	المظفر ركن الدين بيبرس
١٣	مصر في عهد المماليك ٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ	٤١	العودة الثانية للناصر محمد بن قلاوون
١٤	أصل المماليك	٤٢	المنصور سيف الدين ابو بكر
٢٢	انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك	٤٣	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد
٢٧	دولتا المماليك : الدولة البحرية ٦٤٨ هـ - ٧٨٤ هـ	٤٣	الناصر شهاب الدين احمد بن الناصر محمد
٢٨	الملك المعز عز الدين أيك	٤٤	الصالح علاء الدين اسماعيل
٣٠	المنصور نور الدين بن المعز	٤٤	الكامل شعبان بن الناصر محمد
٣٠	المظفر سيف الدين قطز	٤٤	المظفر حاجي بن الناصر محمد
٣١	الظاهر ركن الدين بيبرس	٤٥	الناصر ابو المحاسن حسن بن الناصر محمد
٣٤	السعيد أبو المعالي محمد	٤٥	الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد
٣٥	العادل سيف الدين سلامش	٤٦	عودة الناصر حسن بن الناصر محمد
٣٥	المنصور سيف الدين قلاوون		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٧	المنصور محمد بن المظفر حاجي	٦٢	الظاهر جقمق العلائي
٤٧	الأشرف شعبان بن حسين	٦٢	المنصور عثمان بن جقمق
٤٩	المنصور علي بن شعبان	٦٣	الأشرف إينال العلائي
٤٩	الصالح أمير حاج بن شعبان	٦٣	المؤيد أحمد بن إينال
٥١	دولة المماليك الجركسية	٦٤	الظاهر خشقدم الناصري
٥٢	الظاهر برقوق العثماني	٦٥	الظاهر أبو النصر بلباي
٥٣	عودة الصالح أمير حاج بن شعبان	٦٥	الظاهر أبو سعيد تمزبغا الناصري
٥٤	عودة الظاهر برقوق العثماني	٦٦	الأشرف أبو النصر قايتباي
٥٥	الناصر فرج بن برقوق	٦٩	الناصر محمد بن قايتباي
٥٦	المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق	٧٠	الظاهر قانصوه بن قانصوه
٥٧	عودة الناصر فرج بن برقوق	٧١	الأشرف جان بلاط بن يشبك
٥٨	سلطنة الخليفة المسعين بالله العباسي	٧٢	العادل طومان باي
٥٨	المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	٧٣	الأشرف قانصوه الغوري
٥٩	المظفر أبو السادات أحمد بن المؤيد شيخ	٧٨	الملك الأشرف أبو النصر
٦٠	الظاهر ططر	٧٩	طومان باي
٦٠	الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	٨١	السلطنة ونظام الحكم
٦٠	الملك الأشرف برسباي	٩٥	ثقافة المماليك وتربيتهم
٦١	الملك العزيز يوسف بن برسباي	١٠٥	الرتب والمناصب الهامة في الدولة
		١١٣	نيابة السلطنة
		١١٣	نواب السلطنة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١٧	علاء الدين إيدكن البنسقدار	١٣٥	يبلغا أروس الناصري
١١٨	عز الدين إيدمر الحلي	١٣٥	أرغون الكاملي
١١٩	بدر الدين بيليك الخازندار	١٣٦	سيف الدين قبلای الناصري
١٢٠	شمس الدين آق سنقر الفارقاني	١٣٦	قشتمر المنصوري
١٢٠	شمس الدين سنقر المظفري الآلاني	١٣٧	علي المارديني
١٢١	سيف الدين كوندك الساقی	١٣٧	طشتمر العلائي
١٢١	عز الدين أيبيك الأفرم الصالحی	١٣٧	المقر السيفي إيدمر الدوادار
١٢٢	حسام الدين طرنتاي	١٣٨	سيف الدين منحك اليوسفي
١٢٣	بدر الدين بيدرا	١٤١	آقتمر الصاحبي
١٢٤	شمس الدين قرا سنقر المنصوري	١٤١	آقتمر بن عبد الغني
١٢٥	سيف الدين منكوتر الحسامي	١٤٢	سودون الفخري الشيخوني
١٢٦	سيف الدين سلار المنصوري	١٤٢	تمراز
١٢٨	بكتمر الجوكندار المنصوري	١٤٣	أقبغا التمرزي
١٢٩	بيبرس الدوادار المنصوري	١٤٤	أتابكية العسکر
١٢٩	أرغون الدوادار الناصري	١٤٧	الأتابكة
١٣٠	طقزدمر الناصري	١٤٨	فارس الدين أقطاي المستعرب
١٣٠	سيف الدين قوصون الساقی	١٤٩	بكتمر الساقی
	الناصری	١٥٠	سيف الدين شينخو العمري
١٣٢	طشتمر البدری الساقی	١٥٢	يلبغا العمري الناصري الكبير
١٣٣	شمس الدين آق سنقر السلاري	١٥٥	المقر الصيفي استدمر الناصري
١٣٤	سيف الدين الحاج آل ملك	١٥٦	يلبغا آص المنصوري
	الجوكندار	١٥٧	منكلي بغا الشمسي
١٣٤	أرقطاي التفجقي		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٩	يشبك السودونى	١٥٨	سيف الدين الجاى الیوسفى
١٩٠	تانى بك البردبكى الظاهرى	١٥٩	المقر السیفى إیدمر
١٩٠	جرباش الجرکسى المحمدى	١٥٩	المقر السیفى أرغون شاه الأشرفى
	المعروف بکرت	١٦٠	الأمیر طشتمر المحمدى
١٩٢	قائم التاجر المؤیدى	١٦٠	الأمیر أینبک البدرى
١٩٣	جانى بك قلقسیر الأشرفى	١٦٢	المقر السیفى طشتمر العلائى
١٩٥	أزبک بن ططخ	١٦٣	المقر السیفى إیتمش البجاشى
١٩٨	إنشاء الأزبکیة		الجرکسى
٢٠٤	الأمیر تمرآز الشمسى	١٦٧	المقر السیفى یلبغا الناصرى
٢٠٦	قانسوه خمسائة الأشرفى بن	١٧٢	تمر بغا الأفضلى المعروف بمنطاش
	طرابای		الأشرفى
٢١٤	تانى بك الجمالى الظاهرى	١٧٦	إینال الیوسفى
٢١٥	قصوره نائب الشام	١٧٨	کمشبغا الحموى
٢١٨	قیمت الرحی	١٨٠	بیر الرکنى
٢٢٢	قرقاش بن ولى الدين	١٨٢	تغرى بردى بن يشبغا
٢٢٥	دولات باى بن أركاس	١٨٤	الطنبغا القرشى
٢٢٧	سودون العجمى	١٨٥	جانى بك الصوفى
٢٢٩	سودون الشهبانى الدوادر	١٨٦	قبحق الشعبانى
٢٣١	أفذاذ من رجال العصر	١٨٦	يشبك الساقى المعروف بالأعرج
٢٣١	سيف الدين طنجى الأشرفى	١٨٧	بیبغا المظفرى
٢٣٢	علاء الدين طیرس الخازندارى	١٨٨	سودون الظاهرى
٢٣٣	آقوش الأفرم الجرکسى	١٨٨	قرقاس الشعبانى

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٥٢	الأستاذ زين الدين الحاي	٢٣٣	عز الدين إيدمر الخطيرى
٢٥٤	برد بك البجمقدار	٢٣٣	بدر الدين التركانى
٢٥٥	برقوق الناصرى	٢٣٣	سيف الدين تنكز الحسامى
٢٥٦	إينال الأشقر البجاوى	٢٣٥	علاء الدين أقيغا الناصرى
٢٥٦	جاني بك الأشقر الدوادار	٢٣٦	علم الرين سنجر الجاولى
٢٥٦	القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان	٢٣٧	علاء الدين بن زنبور
٢٥٧	الأمير جانم الشريفي	٢٣٨	سيف الدين صرغتمش الناصرى
٢٥٨	يشبك بن مهدي الدوادار	٢٣٩	طاز الدوادار
٢٨٦	قانسوه اليحياوى	٢٤٠	أزدمر العمرى
٢٦٦	أبو البقاء بن الجيعان	٢٤١	بيدمر الخوارزمى
٢٦٧	أقبردى الدوادار بن على باى	٢٤١	جمال الدين محمود الأستاذار
٢٧٥	كرتبای الأحمر بن مصطفى	٢٤٣	تنم الحسنى
٢٧٧	أزبك اليوسفى	٢٤٤	نوروز الحافظى
٢٧٨	أقبای الطويل	٢٤٧	جكم العوضى
٢٧٩	الأمير تانى بك قرا	٢٤٨	يشبك الشعبانى الدوادار
٢٨٠	مصر باى الداودار	٢٥٠	جاني بك مملوك الأشرف برسباى
٢٨١	المقر الشهابى أحمد بن العيفى	٢٥٠	عبد الباسط بن القرشى خليل
٢٨٣	علاء الدين على بن أبى الجود	٢٥١	جاني بك الظاهرى الجرکسى
٢٨٥	الأمير طراباى الشريفي		الدوادار
٢٨٧	خير بك الخازندار	٢٥١	برد بك الأشرفى
٢٨٧	قانى باى قرا	٢٥٢	العلائى على بن محمد الأهنامى
			الأستاذار

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٨٩	جان بردى الغزالى	٣٢٢	موفق الدين أبو الفرج ناظر الجيوش
٢٩٣	خاير بك بن بلباى	٣٢٢	محمد بن رجب بن كلبك
٢٩٨	الزيتى بركات بن موسى المحتسب	٣٢٣	سعد الدين البقرى
٣٠٤	الوزارة	٣٢٤	مبارك شاه الظاهرى
٣٠٧	الوزراء	٣٢٤	الجباب الركنى عمر بن قايماز
٣٠٧	هبة الله بن صاعد الفائزى	٣٢٥	سعد الدين القبطى
٣٠٨	زين الدين يعقوب بن الزبير	٣٢٥	تاج الدين بن أبى شاكر
٣٠٩	بهاء الدين بن حنا المصرى	٣٢٦	أمين الدين بن الهيصم
٣١٠	علم الدين سنجر الشجاعى	٣٢٧	سعد الدين فرج بن ماجد النحال
٣١٣	شمس الدين بن السعلوس التتوخى	٣٢٧	الشمس محمد البباوى
٣١٥	تاج الدين بن حنا	٣٢٨	شرف الدين يحيى بن صنيعة
٣١٧	شمس الدين سنقر الأعسر	٣٢٨	مجد الدين بن البقرى
٣١٩	بكتمر الحاجب المنصورى	٣٢٩	زين الدين قاسم المعروف بشغيته
٣٢٠	مغلطاي الجمالى	٣٣٠	خشقدم الأحمدي
٣٢١	الجناب الناصرى محمد بن الحسام	٣٣١	الجمالى يوسف البدرى
	الصقرى		

الخطأ والصواب

وقعت أخطاء مطبعية ، لا تند عن فطنة القارى . وفيما يلي نذبه على بعضها

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب	الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
ق - ١٣	هنا	هذا	١٦-١٧٨	يستعد	يستعيد
١٢ - ٣٤	و جامع وعمره	وعمره	٢-١٨١	زاد عدد	زاد خطر
٨ - ٦٣	المتوكل على الله	المستنجد بالله	٢٠-١٩٢	المحمدى	المحمودى
١٩ - ٨٢	صاحب الحجاب	حاجب الحجاب	٢٠-١٩٩	مناصبها	مناصبها
١ - ٨٦	لاجير	لاجين	٢٢-١٩٩	العراقيين	العراقيين
١٠٥	في الدول «العنوان»	في الدولة	١١-٢٠٠	ابنه	ابنة
٢١-١١٥	الناصر محمد	الناصر حسن بن الناصر محمد	١٣-٢٠٣	توفى عهد	توفى في عهد
٢ - ١٢٥	بيدار	بيدرا	٧-٢٠٦	لأتا بكية تماره	لأتا بكية تميز
٥ - ١٤٠	بيدمرى	بيدمر	٧-٢١٠	قونصوه	قانسوه
٢ - ١٤٦	الناصر محمد	الناصر حسن	٨-٢١٤	قوصروه	قصوره
٦ - ١٤٩	شعرت	شغرت	٢١٥ إلى ٢١٨	قاصروه	قصوره
٢٠-١٥٠	الصالح وصلاح	الصالح صلاح	١٠-٢٢٠	أمرته	أمرائه
١٣-١٥٨	الشمس	الشمسى	١٤-٢٢٠	مشار النزاع	مشاراً لنزاع
١٣-١٦٠	ثورة في	في ثورة	١٧-٢٢١	بالبطش	بالبطش به
١١-١٦٧	الحام	الحمام	١٧-٢٢٢	الآخرة	الآخر
١٢-٢٦٧	طيف بها	طيف به	٦-٢٢٣	المحموى	المحمودى
١٢-١٦٧	علقت	علق	٧-٢٢٣	ظهور	ظهور
٢١-١٧٠	الرمليه	الرميلة	١٠-٢٢٣	بوبة	نوبة

الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب	الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
١١-٢٢٣	أبي سعيد	أبو سعيد	٢٠-٢٤٤	النوبى	النوب
١٥-٢٢٣	المذكورين	المذكورون	٧-٢٤٥	مدبرا	مدبرا
٢٢٤	قاصروه	قصوره	٢-٢٤٨	أرسل السلطان	أرسل إلى السلطان
٢٠-٢٢٤	مسجوننا	وكان مسجوننا	١٤-٢٧٤	توفى ذى القعدة	توفى فى ذى القعدة
٢٢٦	قاصروه	قصوره	١٠-٣٢٠	جمال الدين مغلطاي	مغلطاي الجمالى
١٥-٢٣١	نفس	نفسه	٢١-٣٢٠	أمين الملك	أمين الملك بن الغنام
٢٣٥	أقبعا	أقبغا	١-٣٢١	واتهم	ولكنه اتهم
٥-٢٣٦	عماد الدين	علاء الدين			

انتهى القسم الأول من الجزء الأول
من كتاب

عصر سلاطين المماليك وتناجه العلمى والأدبى
ويليه القسم الثانى



للمؤلف :-

١ - الأدب العربى من عصر الفاطميين إلى اليوم

٢ - وحى الربيع

DATE DUE

J. Lib.

J. Lib.
1 FEB 1980

892.709 S163a A
سليم، محمود رزق
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01034424

892.709
S163a A
v.1



